المركز القومي للترجمة

ميخائيل رومان

ميراث الترجمة

سارتورس

وليم فوكنر

مراجعة: محمد مصطفى بدوى

تقديم: ماهر شفيق فريد

الطبعة الثانية

المشروع القومي للترجمة

2/889

سارتورس
(رواية)

المركز القومى للترجمة
إشراف: جابر عصفور

سلسلة ميراث الترجمة

المشرف على السلسلة: طلعت الشايب

- العدد: ٨٨٩/ ٢
- سارتورس (رواية)
- وليم فوكنر
- ميخائيل رومان
- محمد مصطفى بدوى
- ماهر شفيق فريد
- ٢٠٠٩

هذه ترجمة
Sartoris
by: William Faulkner

حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمركز القومى للترجمة .
شارع الجبلاية بالأوبرا الجزيرة القاهرة . ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ ٢٧٣٥٤٥٢٦ فاكس ٢٧٣٥٤٥٥٤
El Gabalaya St., Opera House, El Gezira, Cairo
e.Mail.egyptcouncil@yahoo.com Tel.: 27354524 - 27354526 Fax: 27354554

سارتورس
(رواية)

تأليف: وليم فوكنر

ترجمة: ميخائيل رومان

مراجعة: محمد مصطفى بدوى

تقديم: ماهر شفيق فريد

رقم الإيداع: ١١٨٢٧ / ٢٠٠٩

الترقيم الدولى: 978 - 977 - 479 - 408 - 7

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المركز القومى للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربى وتعريفه بها ، والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافاتهم، ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز .

تقديم

صدرت هذه الترجمة لأول مرة في سلسلة الألف كتاب (٤٢٧) عن مؤسسة سجل العرب في ١٩٦٢ . واليوم ، بعد قرابة أربعة عقود ، تعيد سلسلة " ميراث الترجمة " الصادرة عن المشروع القومي للترجمة بالمجلس الأعلى للثقافة إصدارها في طبعة جديدة لكي تُعرّف قراء اليوم ، وفيهم من لم يعاصروا الطبعة الأولى أو كانوا أصغر سنا من أن ينتبهوا إليها إبان ظهورها ، بأثر خالد من آثار الروائي الأمريكي وليم فوكنر، نقله إلى العربية كاتب مسرحي موهوب هو ميخائيل رومان ، وراجع ترجمته أستاذ للأدب الإنجليزي وناقد شاعر هو الدكتور محمد مصطفى بدوي .

ولد فوكنر في نيو أوليانز عام ١٨٩٧، وتلقى دراسته في جامعة مسيسبي بأكسفورد (ولكنه لم يتمها) حيث كان أبوه يشتغل قائمًا على خزانتها . التحق بالقوات الجوية الكندية في الحرب العالمية الأولى ، وجُرح في فرنسا . بعد أن اشتغل بعض الوقت نقَّاشًا أبحر إلى نيو أورليانز؛ حيث أصبح صديقًا للروائي شيرود أندرسون ، وكتب روايتي " راتب الجندي " ١٩٢٦ و " البعوض " ١٩٢٧ . في ١٩٢٩ نشر " الضجر والعنف "، وهي أولى رواياته المكتوبة بطريقة " تيار الشعور " : حيث يصف الكاتب الأفكار وردود الأفعال بدلاً من وصف الأحداث الفعلية . كان لتلك الرواية ، إلى جانب رواية " وأنا أرقد محتضرة " ١٩٣٠ ، الفضل في توطيد أركان سمعته ، رغم أن " الحرم " ١٩٣١ — وهي من قصص الرعب — كانت أول رواية له تحظى برواج حقيقي . وروايته " سارتورس " ١٩٢٩ فاتحة سلسلة من الروايات التي تتناول أسرة تشكل مركز قصة عن تدهور الجنوب الأمريكي . تقع أحداث هذه الرواية في مقاطعة يوكنا پاتاوفا بولاية مسيسبي ، ومدينة جفرسن التي تقع في تلك المقاطعة يمكن أن تعد معادلاً لمدينة أكسفورد الأمريكية . في ١٩٣٩ نال الجائزة الأولى في مسابقة أو . هنري

التذكارية ، وفى ١٩٤٩ نال جائزة نوبل للآداب . من بين رواياته اللاحقة : ضوء فى أغسطس ، أبشالوم أبشالوم ، نخلات برية ، المحلة (القرية الصغيرة) ، خيل فى الرغام ، قداس الراهبة . تشمل مجاميعه القصصية : قصيدة حالمة فى الصحراء ، دكتورمارتينو ، انحدر ياموسى . إن إنتاجه سُخرى وغامض فى أغلب الأحيان ، ويوصف بأنه يجرى على سنن قصص إدجار بو القوطية الحافلة بعناصر اللغز والقسوة والرعب والإثارة . وتوفى فوكنر فى ١٩٦٢ .

كان جد جده – الكولونيل وليم فوكنر – من الشخصيات القوية فى الجنوب الأمريكى ، ولم يكن كاتبنا مبرزًا فى دراسته ، وقد اشتغل فى بنك جده ، وظل يمارس مهنًا متنوعة لعدة سنوات . وفى عام ١٩٢٩ – وهو عام زواجه – اشتغل فى محطة كهرباء لفترة الليل ، وكان يكتب روايته " وأنا أرقد محتضرة " فى الساعات الممتدة من منتصف الليل حتى الرابعة صباحًا ، وذلك خلال ستة أسابيع فى الصيف . وما لبث أن كتب روايته " الحرم " منتويًا أن يُعنى بجانب الإثارة فيها حتى يضمن لها الرواج ؛ لأن الإقبال لم يكن من نصيب كتبه الأولى .

كان فوكنر روائيا فى المقام الأول رغم أنه عالج الشعر (دون نجاح) والقصة القصيرة والمتوسطة الطول بنجاح ، ورواياته تغطى مسرحًا إنسانيًا كبيرًا ؛ ففى رواية " راتب الجندى " مثلاً نراه يروى قصة ضابط جريح عديم الحول محتضر يعود إلى الوطن بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى ليجد أباه المخلص ومحبوبته المتقلبة . ومسرح الرواية -- بخلاف روايات فوكنر اللاحقة – هو ولاية جورجيا ، ولكنها تتضمن ما يوحى باهتمامه بالجنوب ، والأنماط البشرية التى تعيش فيه .

وعندما نشرت الرواية فى إنجلترا فى ١٩٣٠ كتب عنها الروائى البريطانى أرنولد بنيت ، ببصيرة مستقبلية ، يقول :

" إن فوكنر هو الرجل القادم ، إنه يملك إبداعًا لا ينضب له معين ، وخيالاً قويًا ، وملكة مدهشة لرسم الشخصيات ، وبراعة مصقولة فى الحوار ، وهو – عمومًا – يكتب كملاك . إنه يملك فى طواياه عناصر العظمة الحقة ، و" راتب الجندى " تشتمل على عدة صفحات مدهشة تمامًا " (انظر طبعة بنجوين للرواية ، وقد استفدت فى كتابة

هذه المقدمة من تعليقات بلغت عبقرية فوكنر قمتها في روايته المسماة " الضجر والعنف " (نقلها جبرا إبراهيم جبرا إلى العربية) وعنوان الرواية مستمد من مسرحية " مكبث " لشكسبير . ومنذ الضجة التي أثارتها هذه الرواية لدى ظهورها لأول مرة في ١٩٢٩ وهي تعد واحدة من أهم روايات القرن العشرين ، ورغم أنها صعبة ، كما أن " يوليسيز " جويس صعبة ، فإنها تجزي القارئ عن المجهود الذي يبذله لفهمها . قلّ من القراء من لن ينغمس في متابعة هذا الإبداع التخيلي لأسرة متدهورة متحللة ، هي أسرة كومبسون .

إن فوكنر لا ينظر إلى شخصياته على أنها بيادق تتحرك على رقعة شطرنج ، وإنما هو مهتم بعقولهم وانفعالاتهم ، بتفاعل الشخصيات والطريقة التي تؤثر بها الأحداث والمصادفات في الأفراد وعلاقاتهم . وهو يحقق هذا من خلال تقسيم الرواية إلى أربعة أقسام : القسم الأول حكاية " يرويها أبله " : بنچي الذي ليس للزمن وجود بالنسبة إليه ، وإنما في القسمين التاليين ؛ حيث يسمع القارئ القصة كما يرويها شقيقا بنچي ، تبدأ الرواية في الكشف عن أطوائها .

هذه ، أساسًا ، رواية عن غياب الحب : " الأبله وحده لا يعرف الحزن . الأحمق وحده خليق أن ينساه . أي شيء آخر في عالمنا هذا حاد بما يكفي لجعلة يلتصق بأحشائك ؟ " . إنها رواية عن علاقات أسرة ، جادة ومفعمة بالعاطفة ، لا حب فيها ، وإنما هي متمركزة حول الذات فحسب .

وفي رواية " وأنا أرقد محتضرة " بلغ فوكنر قمة نضجه الفني بعد أن تخلص من تأثير أولدس هكسلي وجيمز جويس فيه . ويرى كثير من النقاد أن هذه الرواية تحفته الكبرى . إنها عن عائلة تحاول دفن الأم آدي باندرين . والرواية تُروى على ألسنة أفراد العائلة؛ إذ ينقلون تابوت أمهم إلى چفرسن بالميسيسيبي كيما تدفن بين أهلها . ويبين فوكنر مخاوف هؤلاء الأفراد ورغباتهم من طريق المونولوج الداخلي والحوار العامي ، ولكنه يبني في الوقت ذاته عملاً ملحمياً كالتوراة أو العهد القديم ، فيه من روح الملهاة ما في أبي الشعر الإنجليزي تشوسر ، وفيه من الخصائص الأمريكية الصميمة ما في مارك توين .

فإذا جئنا إلى رواية " الحرم " وجدنا أن مسرح هذه الدراما الجياشة المعتكرة هو ولاية تنسي وأعماق الجنوب . وشخصياتها مجموعة من الناشزين والمنبوذين اجتماعيا تتداخل مصائرهم فى إساءة تطبيق للعدالة يدعو للأسى ، لكن ما من قارئ نافذ البصيرة لهذه المأساة عن منحلين وجانحين سيعدها ميلودراما شنيعة عن العنف . إن فوكنر يستكشف الدوافع الملتوية التى تحدد السلوك الإنسانى فى مظاهره الوضيعة كما فى مظاهره النبيلة . ومن النقاد من يرى أن " الحرم " هى أفضل رواياته .

وعندما نشرت رواية "ضوء فى أغسطس " لأول مرة فى ١٩٢٢ عدها كثير من النقاد فانتازيا قبرية ، بل ذهب أحدهم إلى حد القول بأنها " نوبة صرع " . أما الآن فقد غدت من علامات الطريق فى مسيرة القصة الأمريكية .

إن البطل هنا ، واسمه على نحو ساخر ، جوكرسماس (نسبة إلى السيد المسيح) ، يقتل عشيقته التى أمرته بالركوع والصلاة تحت تهديد المسدس ، ولا يلبث أن يطارده جمهور متعطش إلى شنقه دون محاكمة . ومن خلال ملاحظته لشخصية هذا الرجل والأناس الذين يلتقى بهم ، يتوغل فوكنر عميقًا فى الزوايا المخيفة للروح الكالڤينية ومجتمع الولايات الجنوبية .

كتب ناقد " ملحق التايمز الأدبى " : " من خيوط البشاعة والكراهية والشهوة والوحشية والأفكار المستحوذة ينسج نموذجًا متداخلاً لطنفسة مظلمة ، يقينًا ، ولكنها غنية لامعة بجمال مرعد مهدد " .

وكتب ناقد مجلة " سبكتيتور " عن الرواية : " إنها تشتعل طوال الوقت بحنق ضارٍ ضد القسوة والغباء والتحيز .. كتاب عظيم " .

وفى رواية " نخلات برية " نقرأ : لكنى لم أر بوضوح إلا حديثًا ، مقتنيًا النتيجة المنطقية ، إن إحدى ما ندعوه الفضائل الأولية – الاقتصاد ، الجو ، الاستقلال – هى ما يولد كل الرذائل : التعصب ، والتباهى ، والتدخل فى شئون الغير ، والخوف ثم أسوأها قاطبة : الوقار " .

هذه الكلمات المحيرة يضعها فوكنر على لسان هارى ولبورن؛ إذ يهرب مع حبيبته من حبائل شيكاغو والحياة الآمنة . إن ظلال السجن (بتعبير وردزورث) والجائحة

والموت يلوح أنها تنطبق عليهما؛ إذ يوليان الحياة ظهرهما كي يحفظا حبهما . وكما هو الشأن مع نزلاء إصلاحية الولاية - الذين تتواشج مصائرهم ومصائر الجيبين - فإن هارى وشارلوت سجينان، إن لم يكن لشئ فداخل ذواتهما . وعلى نحو أعمى لا يعرف الندم ، يطاردهما ازدراؤهما للمجتمع والأمن وأعمق ينابيع الحياة إلى الهوة الأخيرة المحتومة .

كتبت عنها مجلة " تايم آند تايد " : " لامعة ، شاطرة ، بارعة ، خطرة بصورة بالغة وناجحة بصورة غريبة .. يجب أن يقرأها كل امرئ مهتم بإمكانات الشكل الروائى " وإلى جانب قصة " الدب " ، وهى نوڤيلا (قصة متوسطة الطول) ، أخرج فوكنر عدداً من القصص القصير جمع بعضه فى كتابه المسمى " انحدر يا موسى " . إن القصص الدرامية السبع التى يشتمل عليها هذا المجلد ، المنشور لأول مرة فى ١٩٤٢ ، تبين فهم فوكنر المتعاطف لعالم الزنوج فى أعماق الجنوب . شخوصه هم الأناس المتضعون الذين يقضون حياتهم فى دائرة صغيرة من الأرض ، ويموتون دون أن يسجل ذكراهم أحد . ونثره القوى مثقل بعاطفة وعذاب الجسد والروح الإنسانية .

وفى رواية " جناز لراهبة " يصور نانسى وهى مربية أطفال زنجية قتلت طفل سيدتها وحكم عليها بالإعدام . ولا يلبث محامى المربية ، چاڤين ستڤنز ، أن يرغم السيدة على الاعتراف بسبب إقدام المربية على الجريمة . ولا يلبث القانون أن يأخذ مجراه ، وإن يكن فوكنر يرى أن ما حدث عدل .

ويلاحظ النقاد أن روايات فوكنر ذات طابع درامى : فهو يضفى على هذه الرواية ، مثلاً ، شكل المسرحية ، ويمهد لكل فصل فيها بنبذة تؤرخ لما سيحدث . والرواية على ذلك ذات أبعاد ثلاثة : فهى تصور دراما الجريمة والاعتراف من ناحية ، وتصور العواطف الإنسانية من ناحية أخرى ، كما تصور الماضى الذى يتحكم فى توجيه الحاضر . وجدير بالذكر أن الأديب الفرنسى ألبير كامو قد حول هذه الرواية إلى مسرحية ناجحة مثلت على مسرح " رويال كورت " بلندن عام ١٩٥٨ .

ومع صدور " جناز لراهبة " انطلق كوراس النقاد محييًا : مسترفوكنر .. هو أعظم روائى بقيد الحياة فى اللغة الإنجليزية " (نيوستتسمان) ، " ثمة فى هذه

الدراما ما فيه الكفاية من التوتر والعاطفة . إن زخمها لا يصيبه وهن قط " أويزرڤر) ، " إنها حاذقة مستخفية ، متفجرة ، درامية ، تدعم حق فوكنر فى أن يعد الأعظم بين الروائيين الأمريكيين المعاصرين " (كوين) ، " مثل مدهش لقدرة فوكنر على توليد إثارة درامية .. إن فوكنر شاعر وتراچيدى عظيم " (ليسنر).

فى هذه الأعمال كلها – ويمكن أن نضيف إليها " الذين لا يقهرون " (١٩٣٨) و" دخيل فى الرغام (١٩٤٨) وغيرها – نجد أن فوكنر كاتب أخلاقى معنى بطبيعة الشر ، يكتب قصصًا عن الانحراف والبشاعة والقنوط ، تحفل بمشاهد التدهور والجريمة والرعب ، وتقوم بتحريف متعمد للتتابع الزمنى ومراحل الفعل التاريخية ، مع استخدام لعنصر الترقب والتشويق بحجب المعلومات الأساسية عن القارئ . ثمة ، عنده ، نقاط تقاطع كثيرة بين الآن وآنذاك ، هنا وهناك ، لا تكاد تلمها العين أو الأحرى أن الكاتب يلقى عليها ، عامدًا ، ستارًا من الغموض .

قال الناقد البريطانى ولتر آلن فى كتابه " الموروث والحلم " : " ليس فوكنر بشىء إن لم يكن كاتبًا رومانتيكيًا بكل ما تتضمن هذه الكلمة من قدح ومدح " . إنه يعبر عن اتجاه تشاؤمى إزاء الحياة ، وكراهية للجنس البشرى ، قدرى النظرة ، يواصل ما دعاه الناقد الأمريكى مالكولم كاولى (وقد حرر مختارات من أعمال فوكنر) " موروث البشاعة السيكولوجية فى الكتابة الأمريكية " . إن عالمه مركب من شناعات المسرح اليعقوبى (أى المسرح الإنجليزى فى عصر الملك جيمز الأول الذى خلف الملكة إليزابث الأولى) وتوكيد ناتورالى لما هو فظ وعنيف فى الطبيعة البشرية . أسلوبه النثرى مشتق من الشعر الإليزابيثى ، فيه خاصة باروكية عنيفة ، يسرف فى استخدام النعوت ويخطئ أحيانًا فى النحو ، جمله ملفوفة معقدة (فى قصة " الدب " جملة واحدة تغطى ست صفحات) ، أعمالة مثقلة بالانفعال . قيل عن أسلوبه إنه يقع فى مكان ما بين دستويڤكى وكتاب سناريوهات أفلام هوليود .

"سارتورس " (نيويورك ١٩٢٩) أولى سلسلة من الروايات يصف فيها فوكنر اضمحلال أسرتى كومپسون وسارتورس ، ممثلى الجنوب القديم ، وعلو نجم أسرة سنوپس الفجة التى لا تلقى كبير بال لمتطلبات الضمير . والمهاد الأساسى لهذه

الروايات هو " جفرسن " – صورة مركبة لعدة بلدات في إقليم المسيسبي – في مقاطعة يوكنا باتاوفا التي ابتدعها خيال المؤلف . وتدهور أسرة كمبسون يتمثل في إدمان الخمر ، ورفض العمل والحياة ، والتعلق بماضٍ أسطوري ، والانغماس في خطابة جوفاء .

تقوم الرواية على هرمية من القيم ، وتقرر – بشكل جنيني على الأقل – أغلب الخيوط التي طورها فوكنر فيما بعد في سلسلة من الأعمال ، وكثيراً ما كان يشير إليها – وفي ذهنه الصلات الداخلية بين روايات بلزاك وبروست – باسم " الكتاب " : أثر الماضي في الحاضر ، عزلة الفرد، تآكل تقاليد الجنوب تحت وطأة القيم العلمانية للعصر الحديث . وفي " سارتوريس " تتمثل الحداثة في السيارة التي يقودها بايارد سارتوريس على نحو أهوج في الدروب المتربة ؛ حيث قُتل أخوه التوأم ، ومات جده الأكبر منذ زمن بعيد .

وآل سنوبس هم محدثو النعمة الذين جاءوا من قرية فرنش مانزبند خلال السنوات العشر الأخيرة ، وفلم هو أول شخص من أسرة سنوبس ينتقل إلى جفرسن – ورغم أنه كان عاجزاً جنسياً فإنه ، روحيا ، أبوهم جميعاً (انظر الكتاب " أدب الولايات المتحدة " لمؤلفه مارشال وكر) .

وصف فوكنر الإقليم الذي تخصص في الكتابة عنه بأنه " طابع بريد صغير خاص به من الأرض المحلية " . و " سارتورس " رواية عن الحياة في شمالي المسيسبي : ثمة شعور بالملل من الحياة ، كذلك الذي كان يخامر " الجيل الضائع " عند جرترود ستاين وسكوت فنزجرالد وهمنجواي ، يسري فيها ، ولكن أجزاء منها ترتفع إلى مستوى الواقعية والانفعالية والتاريخية التي تبلغها أعماله عن يوكنا پاتاوفا . قص الرواية متجذر في الذاكرة الشعبية ، وليس نتاج تجريد أولي ، وفكاهتها منحدرة من قصص المبالغات الكوميدية ومن مارك توين . إن منهج فوكنر هو المأساة وإن تكن مأساة ملهوية أحياناً ، والملحمة وإن تكن ملحمة ساخرة . وتومئ رواية " سارتورس " إلى ما سيجيء بعدها : فـ " الذين لا يُقهرون " تصل فصولاً ، سبق نشرها على شكل قصص قصيرة ، في رواية عن أقدار أسرة سارتورس في الحرب الأهلية الأمريكية بين الجنوب والشمال ، وبين مجتمع تقليدي كان يعيش على زراعة القطن واستخدام الزنوج رقيقاً ومجتمع اليانكي الصناعي المادي . ويفصل خط ميسون ويكسون بين هذين العالمين .

تقع رواية " سارتورس " في نقطة مفصلية من إنتاج فوكنر . إذ تسبقها روايتا " راتب الجندي " و " البعوض " وتعقبها روايتا " الضجر والعنف " و " وأنا أرقد محتضرة " . وهي بهذه المثابة جسر بين بداياته ونهاياته . إنها رواية نهرية ،أو رواية أجيال مثل " بودنبروك " توماس مان ، ذات نفس ملحمي ، تجمع بين ذكريات الحرب الأهلية وذكريات الحرب العالمية الأولى . تصور زوال مجتمع تقليدي ، بخيره وشره ، وتنقل حساً مخامراً بالحنين إلى الماضي وانقشاع الأوهام . كتب سارتر في مقالة له عن " سارتورس " (فبراير ١٩٣٨) : " تأدى بي هذا الكتاب إلى فهم لينبوع فن فوكنر . هذا الينبوع هو الوهم . من الحق أن كل فن زائف . ففن التصوير يكذب في صدد المتصور " . " سارتورس " رواية عن الصراع بين الواقع والوهم ، بين ماضٍ آخذ في الزوال وحاضر آخذ في الهيمنة (سلفت الإشارة إلى حفيد بايارد العجوز الذي ينطلق بالسيارة ، بسرعة مجنونة ، في شوارع البلدة) . وسرعان ما تحل الطيارة محل السيارة .

نسيج الرواية كثيف أشبه بدغل متشابك الأفنان ، وهو في هذا شديد الاختلاف عن وضوح ستاينبك البلوري ، أو خلوص نثر همنجواي من الزوائد (كتب الروائي البريطاني أنطوني بيرجس عن فوكنر في كتابه المسمى " الرواية الآن " : " إنه ليس روائيا إقليميا قدر ما هو تجريبي مثير للغيظ . إنه – من عدة زوايا – أصعب من چويس بجمله التي لا تنتهي ، والتي تقل فيها علامات الترقيم ، ومونولوجاته الداخلية الثقيلة . إن تعقيد نثره يعكس حالات ذهنية معقدة ") . نحن هنا نرى خريطة لبلدة چفرسن ، ومعمار البيوت ، وموضات اللباس ، وحواجز الأجران ، وزرائب الخنازير ، وبيوت الدجاج . ونحضر حفلات الرقص في البيوتات العريقة حيث يتعارف الشبان والفتيات وتنشأ زيجات وتترعرع ، في ظل العاطفة الجنسية ، جرائم الحب والكراهية والغيرة (انظر أقصوصة فوكنر " وردة لإميلي " وقد ترجمها إلى العربية إدوار الخراط ، ومن قبله العقاد) . هكذا يتجاور الخير والإحساس والشجاعة والتسامح والجلد مع الجريمة وإشعال الحرائق والقتل والفسق والعنف والزنا . على الحيطان – في « سارتوس » – تقوم لوحات كورو ، وقرب الفراش روايات ألكسندر ديما الأب . وفي حدائق البيوت والحقول البعيدة والأجام الملتفة أشجار المنوليا والبلوط والشربين والصنوبر والشجيرات

المزهرة والياسمين البرى وزهور الزينيا والديلفنيم . الظلمة تضيئها حباحب مضيئة سابحة ، والسكون تقطعه بين الحين والحين مرخة بومة أو أصوات جدجد أو ضفدع .

وعلى طول أجزاء الرواية الخمسة تتجاور بلاغة العهد القديم وسبحات خيال شكسبير وملتون . ففوكنر صاحب أسلوب غنى مثقل بالإيحاءات والرموز ، فيه من الشعر تركيزه وزخمه وفورانه (أخرج ديوانين من الشعر فى أواخر العشرينيات وأوائل الثلاثينيات) . لن تخطئ الأذن صور الشعر الإنجليزى وإيقاعاته فى تسعينيات القرن التاسع عشر ، أصداء سونبرن وباترو وايلد فى مثل هذه القطعة :

" وبعد ذلك استقلت فى غرفتها المعتمة ، وعبر الممر كانت العمة سالى تغط فى نومها ، وشخيرها هادئ منتظم ، وقد استلقى هوراس أيضًا فى الغرفة المجاورة ، بينما ارتجل ضياعه الوحشى الضارب فى الخيال من حوله وذهب يجوب أماكنه العزلاء الوحيدة ، فيما وراء القمر ، بين مراعٍ ثبتت بمسامير من نجوم إلى سقف كل الأشياء الأعلى ، حيث يملأ وقع أقدام حيوانات وحيد القرن الهواء المحمل بحمحماتها أو تشغل هناك بأكل الكلأ ، أو تستلقى على ظهورها فى استراحة ذهبية الحافر " .

كذلك تزخر " سارتورس " بأصداء من الشعر الرومانتيكى الإنجليزى فى مطلع القرن التاسع عشر . عندما يقول فوكنر " كل صنوف الربيع لا تستطيع أن تكون ربيعًا واحداً كشفاه سيدات بيرون " نتذكر كيف تمنى شاعر " تشايلد هارولد " و " دون جوان " لو كان لنساء الأرض جميعا ثغر واحد يقبله ويستريح ! وحين يقول فوكنر " أنت يا عروس الصمت التى لم يمسسها أحد حتى الآن " ندرك أن هذه إشارة إلى البيت الافتتاحى لقصيدة كيتس " أنشودة إلى إناء إغريقى " وهكذا . لكن هذا الحضور الرومانتيكى لا ينفصل عن حس واقعى قوى ، بل ناتورالى كما أسلفت : انظر مثلاً مشاهد الصيد قرب نهاية الجزء الرابع من الرواية ، أو المشهد الختامى فى المقبرة .

أود أن أختم بهذه الكلمات للناقد والشاعر والروائى الأمريكى روبرت بن وارن — وهو مثل فوكنر وآلن تيت ويودوراولتى وتنسى وليمز وتوماس ولف من أدباء الجنوب الأمريكى . كلمات بن وارن ترد فى مقال له نشر عام ١٩٤٦ ، وقد ساقها وليم فان أوكونر فى كتابه عن فوكنر (ترجمة جبرا إبراهيم جبرا) :

" لقد كتب وليم فوكنر تسعة عشر كتابًا ليس ما يضاهيها في بلدنا وعصرنا، هذا من حيث الاتساع والقوى والعمق الفلسفي وأصالة الأسلوب وتنوع الشخصيات والفكاهة والتوتر المأسوى ولنسلم جدلاً ، برغم ذلك ، أن فى كتب فوكنر نواقص جسيمة . فالتوتر المأسوى يتحول أحيانًا إلى مجرد تهويل عاطفى ، والبراعة الفنية تتحول إلى مجرد تعقيد ، والعمق الفلسفى يتحول إلى مجرد فوضى ذهنية . فلنسلم بذلك كله ، ففوكنر كانت متفاوت ، ولكن هذا التفاوت نفسه إن هو إلا دليل على حيويته واستعداده للمجازفة ومحاولة خلق التأثيرات الجديدة ، واستقصائه المستمر إمكانيات المادة والأسلوب " .

بين يديك أيها القارئ رواية تجمع ، رغم أى عيوب أو شروخ بين بعض صفات شكسبير وديكنز وپو دوستويفسكى . هذا فن عميق الإنسانية يخاطب الروح ، مهموم بقضايا فكرية كبرى تخاطب العقل ، وله حضور فيزيقى كثيف يخاطب الحواس . قد يكون فوكنر ميلودراميًا أوميالاً إلى التهويل أو الإثارة أحيانًا - أى كاتب من هؤلاء الذين ذكرتهم قد نجا من هذه الآفات ؟ - ولكنه دائمًا يستند إلى أساس راسخ من معرفة القلب وتلافيف العقل ونبضات البدن ، حتى لنغدو مع - كما قال فى خطاب تسلمه خلال جائزة نوبل - على ذكر من تلك القيم الخالدة التى هى مناط فخر الإنسان ومحك امتيازه على سائر الكائنات : " الحب والشرف والرحمة والكبرياء والعطف والتضحية " ، وإن نصيبه من ذلك كله لعظيم .

ماهر شفيق فريد

إشـارات

وليم فوكنر (١٨٩٧ - ١٩٦٢)

أكبر روائيي الجنوب الأمريكي في القرن العشرين . ولد في أولباني ، وتلقى دراسته في جامعة مسيسيبي بأكسفورد، ولكنه لم يتمها . التحق بالقوات الجوية الكندية في الحرب العالمية الأولى ، وجُرح في فرنسا . تقلب بين عدة مهن ، وفي أواخر حياته كتب عدداً من السناريوهات لهوليود . له مجاميع قصصية ودواوين شعرية . أهم رواياته : سارتورس - الضجر والعنف - وأنا أرقد محتضرة - ضوء في أغسطس - أبشالوم ، أبشالوم - نخلات برية - جناز لراهبة . نال جائزة نوبل في الآداب عام ١٩٤٩ .

ميخائيل رومان (١٩٢٠ - ١٩٧٣)

كاتب مسرحي ومترجم . ولد بمحافظة أسيوط، وتخرج في كلية العلوم بجامعة القاهرة في ١٩٤٣، وعين مدرسا للعلوم بإحدى المدن الصغيرة حيث أمضى عامين ، فمدرسًا وأستاذاً مساعداً للفزياء بالمعهد العالي الصناعي بشبين الكوم . ساهم منذ أواخر الخمسينيات في إمداد البرنامج الثاني بإذاعة القاهرة بعدة برامج درامية وترجمات وأحاديث . له أكثر من أربع عشرة مسرحية منها : الدخان - المعار والمأجور - الليلة نضحك - العرضحالجي - ليلة مصرع جيفارا - إيزيس حبيبتي . ترجم أعمالاً من الأدب الأمريكي لآرثر ميلروتنسي وليمز وغيرهما .

محمد مصطفي بدوى :

كان قبل تقاعده زميلاً بكلية سانت أنطونى بجامعة أكسفورد حيث لعب دوراً كبيراً فى تقديم الأدب العربى إلى قراء الانجليزية بترجماته وكتاباته والرسائل الجامعية التى أشرف عليها ومشاركته فى أصدار " مجلة الأدب العربى " السنوية (بالإنجليزية) .

ليسانس من قسم اللغة الإنجليزية بآداب الإسكندرية (١٩٤٦) وليسانس الشرف من جامعة لندن (١٩٥٠) ، ومن هذه الأخيرة حصل على درجة الدكتوراه . من مؤلفاته بالعربية : رسائل من لندن (شعر) - أطلال ورسائل من لندن (شعر) - كولردج - دراسات فى الشعر والمسرح - قضية الحداثة . من مترجماته : " مبادئ النقد الأدبى " و " العلم والشعر " ل " أ. أ. رتشاردز " - الحياة والشاعر لستفن سبندر - الإحساس بالجمال لجورج سانتيانا - الشعر والتأمل لروستريڤور هاملتون - الملك لير لشكسبير - الفكر الأدبى المعاصر لجورج واطسون - مختارات من شعر فيليب لاركن . نقل إلى الإنجليزية : سارة للعقاد ، قنديل أم هاشم ليحيى حقى ، " السلطان الحائر " و " أغنية الموت " لتوفيق الحكيم ، و« اللص والكلاب » لنجيب محفوظ (مع تريفورلى جاسيك) .

ماهر شفيق فريد

ناقد ومترجم وقاص . ولد بالقاهرة فى ١٩٤٤ . تخرج فى كلية الآداب بجامعة القاهرة فى ١٩٦٥ . أستاذ مساعد الأدب الإنجليزى بجامعة القاهرة . ماجستير من جامعة كيل البريطانية ، ودكتوراه من جامعة القاهرة برسالة موضوعها " أثر ت . س إليوت فى و . هـ . أودن " . من مؤلفاته : النقد الإنجليزى الحديث ١٩٧٠ - الشعر الإنجليزى الحديث ١٩٧١ - خريف الأزهار الحجرية (قصص قصيرة ١٩٨٤ / طبعة ثانية مزيدة ومنقحة ١٩٩٩) - فسيفساء نقدية : تأملات فى العالم الروائى لمحمد

جبريل ١٩٩٩ – أربعة نقاد معاصرون ١٩٩٩ – الرجل ذو الجيتار الأزرق : تأملات في شعر أحمد تيمور ١٩٩٩ . من ترجماته إلى العربية : قصائد ت . س . إليوت ١٩٩٦ – شذرات شعرية ومسرحية لإليوت ١٩٩٨ – المختار من نقد ت . س . إليوت (المشروع القومي للترجمة – ٣ أجزاء ٢٠٠٠) وله في سلسلة آفاق الترجمة : هبوط الليل : مختارات من شعر و . هـ . أودن ١٩٩٦ . حرر عدداً من الكتب والمختارات الشعرية بالإنجليزية بالاشتراك مع د . محمد عناني ، ونقل إلى الإنجليزية – بالاشتراك مع سعاد نجيب – مختارات من شعر محمد إبراهيم أبو سنة .

سارتوريس

تأليف **وليم فوكنر**

ترجمه: ميخائيل رومان

راجعه: الدكتور مصطفى بدوي

مقدمة

بقلم
روبرت كانتويل

— ١ —

تعتبر سارتورس ثالثة روايات وليم فوكنر التي نشرت للمرة الأولى ـ سنة ١٩٢٩ ، سفراً أساسياً بين أعماله كلها وذلك من عدة نواح . فهي تحدد الإطار لها جميعا . وسارتورس تقدم لنا الأسرتين العظيمتين اللتين تظهران بطريقة مباشرة أو غير مباشرة في حلقة رواياته كلها ، أسرتى سارتوريس وسنوبس . وفي سارتورس رسم فوكنر ـ أول مارسم ـ مدينة جيفرسون التي هي مركز رواياته ، وشهدت سارتورس أيضا تغيراً حاسما في موقف فوكنر من أعماله فقد كان أول كتابين له « أجر الجندي » و « البعوض » لماحين ساخرين وفي بعض أجزائهما ممتازين ، كروايات ، إلا أنهما تميزا بجو عفوى غير مستهدف ولا مبال ، أما في سارتورس فإن عمله أصبح جاداً وظل كذلك بعدها دائماً .

أما التطور ، الذي يكاد أن يلمس في أسلوب فوكنر والرواية تتقدم في صفحاتها فإنه يعتبر من أغرب وأشد ما شوهد في تاريخ الأدب .

وقد تحدث فوكنر عن بداية كتابته للرواية تحت تأثير شيرود أندرسون ، الذي أهدى إليه سارتورس بعد ذلك . فقد لاحظ أن أندرسون كان يحيا حياة راضية طيبة ، فلم يكن يعمل إلا في الصباح . لذلك تصور أنه يود أن يكون كاتباً أيضا . وقالت له زوجة أندرسون إنه إذا كتب رواية فإنها ستجعل شيرود يقرأها ، فإذا رضى عنها شيرود فسيجعل ناشره ليفرايت يتولى أمر نشرها .

وقد كتب فوكنر « أجر الجندى » فى ستة أسابيع ، وأخذ مخطوطها إلى مسز أندرسون ، فأعادته إليه فى اليوم التالى ، وقالت له ، « شيرود يقول لك إنه إذا لم يكن مطلوبا منه قراءتها فسيكلف الناشر بطبعها ، وهكذا أصبح فوكنر روائيا . ودفع له الناشر مائتى دولار مقدما عن كل من عمليه التاليين . قال فوكنر « وبعد ، فقد استملحت هذه النقود ، وبدا لى أن هذه طريقة سهلة جدا لكسب المال » .

قال الناقد إيرفنج هو فى كتابه الأخير « وليم فوكنر » إن الكاتب يحاول الضحك من الجماهير بقصته هذه ولكنه وصل إلى هذا الاستنتاج بتجاهله لأكثر أجزائها أهمية . إن ما قصـــد إليه فوكنر هو أن ذلك كان موقفه من كتاباته حتى كتب سارتوريس . كان فى منتصف الطريق للانتهاء منها عندما قال ، « فجأة ، اكتشفت أن الكتابة عمل يبلغ أقصى درجة من الروعة . إن فى استطاعتك حينئذ أن تجعل الناس يقفون على أطراقهم الخلفية ويرمون ظلالهم . أحسست أننى أملك كل هؤلاء الناس ، وفى اللحظة التى اكتشفت فيها هـــذا ، أخذتنى رغبة فى استحضارهم جميعا للوجود » .

ومما يؤكد صدق هذه القصة الطفرة التى حققها أسلوبه فى سارتوريس . وبعد سارتوريس أتم فوكنر ، فى بضعة أشهر فى فورة غير متقطعة من النشاط الخلاق ، الروايات العظيمة التى ترتكز عليها مكانته كروائى : « الجلبة والهياج » ، و « أنا مضطجع للموت » ، و « المحراب » (رغم أنها لا تصنف عادة معها ، وقد كتب مقللا من شأنها) و « النور فى أغسطس » ، وعندما عرج مبتعداً عن موضوع سارتورس ومدينة جيفرسون ، إلى « بايلون » و « النخيل الوحشى » ، ظهر فى رواياته إحساس من الإجهاد ، بدا وكأنه يحاول أن يلتقط فيها منابع إلهامه الأولى ، أكثر من كونه ملهما فعلا ، وعندما عاد مرة أخرى فى سنة ١٩٤٢ إلى قصة سارتورس وأجوائها فى رواية « القرية » كتب واحدة من أحسن رواياته .

وفى سارتوريس يقع الخط الفاصل فى أعماله بين مرحلتها الأولى التى تتميز بالخفة والاصطناع الفنى ، ومرحلتها العظيمة التالية المملوءة بالقوة . وبتحديد أكثر ، أنه فى شيء ما فى سارتوريس ، حلق فوق الرواية نفسها ، وأتيحت له رؤية شاملة لأعماله كلها ، لقد كان أول ماكتب روايتين من « النقد الساخر » إلا أن الأساس الفنى لما فيهما من نقد ساخر لم يكن منتظماً أو سوياً ، إلى الدرجة التى بدتا معها وكأنهما تعبير عن المضايقة الشخصية والنفور العصبى . فإذا تركناهما إلى سارتوريس فإننا نجد أنفسنا على الفور فى واقعية بلدة جيفرسون المحددة ، التى تبعد عن ممفيس خمسة وسبعين ميلا ، وهى بلدة تقع فى منطقة مرتفعة وقائمة فوق منحدرات مائلة ومن ورائها زرقة تلال متصلة ، وفى أحضان حقول غنية عريضة ، وسنابلة دائما فى ثرائها . وإذ تمضى الرواية بنا ، يفيض بنا وعى بإحساس غامض بالإثارة والحدة والاحتدام ، تنقله إلينا صور البلدة الحسية والريف والغابات ، أكثر مما تنقله إلينا أفعال العنف ، أو صور العنف ، كما هى العادة فى أعمال فوكنر .

وهنا توجد علامات الطريق التى توجـد بكثرة فى أعمال فوكنر ، بيت القضاء المبنى من الآجر ذى الأقواس الحجرية وهو يصعد بين أشجار الدردار ، وتمثال الجندى الاتحادى تحت الأشجار ، وهو يظلل عينيه المنحوتتين بيده الحجرية ، وميدان بيت القضاء ، وخط الأفق المتصل من حوله الذى يحده جدار قديم ملوح من الآجر . وعلى بعد أربعة أميال من الميـدان ، من وراء الشوارع التى تنعقد فوقها أغصان الأشجار ، يقع بيت آل سارتوريس ، أبيض وبسيط ، بممر منحن وبوابات حديدية ، وقد أقيم بين أشجار الخروب والبلوط ، بأشجار الويستريا والورد عند أحد طرفى الشرفة ، وداخـــله درج متعرج عليه دعامات بيضاء وبساط أحمر ، وحزم متقطعة من ضوء الشمس تتكسر على الثريا البلورية والمرآة الطويلة .

ومن هذه الشرفة ، كان فى استطاعة الكولونيل سارتورس أن يرى القطارين اليوميين فى جريهما فوق خط السكة الحديدية الذى بناه . كان يراهما وهما « يبزغان من التلال ، ويعبران الوادى إلى التلال ، بأضواء ودخان وادعاء بالسرعة عجاج ، وأمام بيت سارتورس يوجد حوض السيلفيا حيث أوقفت دورية اليانكى التى كانت تبحث عن الكولونيل خيولها . وعلى أحد الجانبين يوجد الجرن الذى قبع . وراءه ، متوقعا فى أية لحظة طلقة نارية بين كتفيه . وفى معازل بيت سارتورس الرطبة المعتمة توجد آثار الكولونيل — سيفه فى غمد مخملى ، حسامه الذى كان يقاتل به فوق حصانه ، قبعة مشاة الجيش سنة ١٨٤٠ ، قنينة زيت فضية أهديت إليه عند الانتهاء من مد خطه الحديدى . سترة جيش الجنوب مزينة بأشرطة ومشقوقه من الخلف ، غدارتا نزال مطليتان بالفضة ، وغدارة ثقيل ذات ثلاث أنابيب . أما البهو الذى استلقى فيه كولونيل سارتورس بعد أن قتل فإنه لا يستخدم بكثرة فى الرواية ، وكذلك قطع الأثاث المغطاة المتشامخة فى الغموض الوقور ، « بسمة من الرقة الشبحية » . وفى ختام سارتورس ، وعند بداية أسطورة سارتورس ، لا يبقى من الأسرة ثمة شيء ، ويفتقد البيت الحياة إلا من همهمة الزنوج وموسيقا أرملة آخر آل سارتورس الشابة ، وهى تعزف على البيانو فى ساعة الغسق ، المأهولة بشبح أشياء عتيقة فتانة وفاجعة معاً .

— ٢ —

إننا نجد فى سارتورس أصول المسائل الكبرى التى يعالجها فوكنر فى رواياته التالية ، وأصول الكثير من شخوص هذه الروايات ، وأحسن قصصه وأحيانا روايات كاملة له لا تعتبر إلا تطورا ، وامتداداً واستمراراً لأحداث فى هذا الكتاب ، فإن جملة واحدة فى الجزء الثالث ، « ظهر فليم أول أفراد آل سنوبس ، دون مقدمة . ذات يوم وراء نضد فى مطعم صغير فى شارع جانبى يؤمه أهل الريف ، تطورت إلى رواية هى مزيج من

المأساة والملهاة يبلغ عدد صفحاتها ٤١١ صفحة وهي «القرية»، التي كتبت بعد نشر سارتورس بثلاثة عشر عاما. أما القصص القصيرة، «كانت هناك ملكة»، و«القنطورس»، و«بقل في الفناء»، و«نحو النجوم»، و«عبر المقهور»، و«جميع القباطنة الموتى»، و«جدتي ميلارد»، و«وردة لاميلي»، و«لن يفنوا»، فهي تكملة لقصص في سارتورس، وتدور حول نفس الشخوص. وتظهر بلدة فرنشمانزبند الشريرة أول ما تظهر في الرواية. وبعد أسابيع من الانتهاء من سارتورس جعل فوكنر من فرنشمانزبند مسرحا للشهد الافتتاحي المروع في روايته الحراب. لقد أصبحت الآن مخبأ للسفاحين، وعندما يتوقف هوارس بينبو (الذي يظهر في سارتورس) عندها من أجل جرعة ماء فإنه يرى خلال الأعشاب عبر النبع عيني بوبى الزجاجيتين وغدارته، وهو الصادي والقاتل، وبعد ذلك خصص فوكنر كل روايته القرية لعملية استيلاء عائلة سنوبس الرهيب على قرية فرنشمانزبند، بحياتها المتكاثفة والموحلة، كأدغال الغاب المحيطة بها، ملوثة المنطقة كلها، وكأنها فيض من مجرى ماء مسمم.

وأهم من ذلك أن الموضوع الذي تدور حوله أعمال فوكنر كلها يظهر في سارتورس يقول جورج أودونيل وهو أول من درس مضمون هذه الرواية إن موضوعها هو الصراع بين عالم سارتورس وعالم سنوبس: وآل سارتورس بشر محترمون يسلكون حسبما تقتضي التقاليد، وبمقتضى قانون اجتماعي حيوي الأهمية، وآل سنوبس ناس يسلكون بدافع المصلحة الذاتية، ودون اعتبار لمدى شرعية وسائلهم. وفي مفتتح سارتورس، نجد آل سنوبس وقد اتخذوا لأنفسهم موطىء قدم في جيفرسون، إذ أصبح أحدهم نائبا لمدير مصرف سارتورس. وعلى أحد الجانبين يوجد الذين يقبلون بدرجات مختلفة القيم السارتورسية أو يمثلونها — أسر دي سبين، وساتبن، وكومبسون، وبينبو، وجريرسون، وملاك المزارع وأبطال الحرب الأهلية، وعلى الجانب الآخر يوجد أب سنوبس عميد هذه القبيلة، حارق الأجران،

الذى يفتح الطريق للغزو الذى تقوم به أسرته ، بتهديده بحرق أجران من يعترض طريقه من ملاك الأراضى ، وفليم سنوبس الذى يصبح من العاملين فى ميدان المصارف ، ومونتجومرى وارد سنوبس ، الهارب من التجنيد ، و . . و . . سنوبس ، أحد أبطال قصة « بغل فى الفناء » ، الذى يسوق بغاله إلى خط السكة الحديدية ليتمكن بذلك من الحصول على تعويض من إدارتها ، ومنك سنوبس ، القاتل فى رواية القرية — البهاليل ، والقوادون، والمبتزون، وسارقو الخيل، والشواذ، والصاديون، والقتلة ، والعاملون « بأسلوب منيع من الانتهازية — التى تعتبر عند أهل الريف — وأهل المدن أيضاً براعة أمينة » . ويأخذ آل سنوبس بالمداهنة الوظائف ، ويزورون ، ويكذبون ، ويخدعون ويسرقون ، ويحرضون أحد العمال الزنوج ضد زميله ، إذ يسرون لكل منهما أن الآخر يسعى لاستلاب وظيفة ، ويتجرون بزوجاتهم من أجل الوظائف السياسية الصغيرة ، أو المشاركة المحدودة فى الأعمال ، وهم يتسلقون ويتسلقون ويتسلقون ، مكرسين دون تعب فى سبيل تحقيق مصالحهم الشخصية عقولهم الكبيرة ، وقلوبهم الباردة ، وشرفهم المقدس .

تبدأ سارتورس بمشهد يتحدث فيه كهلان عن كولونيل سارتوس ، وشبحه الذى يتلكأ فى الغرفة بعد أن صمتا . لقد أصبحت البلدة على وشك الوقوع تحت سيطرة أسرة سنوبس . وهذه سلالة كولونيل سارتورس — ناس عالم سارتورس ، عاجزون عن الوقوف فى طريقها . فهوراس بينبوفى « سارتورس » ، « والمحراب » ، غير ذى فاعلية ، ويقتل كونتان كومبسون فى « الجلبة والهياج » نفسه ، أما جاسون كومبسون فى نفس الرواية فإنه يعيش ويقاوم آل سنوبس ، إلا أنه يتمكن من ذلك بتحوله هو بشكل ما إلى سنوبس ممتاز . وقد قتل أحد أحفاد سارتورس المتهورين فى الحرب ، أما الآخر ، بايارد ، فهو يقود سيارته بجنون فى طرق الريف ،

ويوجه الإهانات إلى أهل البلدة ، ويبدد حياته التي يكاد أن يزدريها . ويحتفظ بايارد العجوز المصرفي بالشكل الخارجي لأساليب الحياة القديمة ، ويرمز ذلك أنه يذهب إلى المصرف في عربته . ولا يبقى حيا من أيام الكولونيل إلا العمة جيني سارتورس دوبري ، شقيقة الكولونيل . وهي مشغولة في المحل الأول بترتيب زواج بايارد سارتورس ونارسيسا بينبو ، ليكون بذلك وريثاً للأسرة . ولكن نارسيسا تقع فريسة تهديد أحد أفراد أسرة سنوبس (في قصة نشرت بعد ذلك بعدة سنوات « كانت هناك ملكة » نعرف أن نارسيسا عندما تعترف للعمة جيني ، تموت السيدة العجوز في مقعدها ، فتحطم الإهانة الأخيرة لقيم آل سارتورس إرادة الحياة فيها . يقول الطاهي الزنجي ، « أن تولد من سبط سارتورس ، أو تولد من علية القوم على الإطلاق ، ليس شيئاً سلبياً إنه ذو فاعلية . لأن مس جيني من علية القوم » هذا هو السبب . وهذا شيء لا تعرف عنه شيئاً على الإطلاق ، لأنك ولدت متأخراً جداً عن أن ترى أي شيء منه عدا رؤيتها هي) .

وكولونيل سارتورس(١) ليس إلا شبحاً في مدخل سارتورس ، ولكنه شبح يتميز بالرقة : « متحرراً كما كان من الزمن والجسد ، فقد كان وجوده أشد جلاء من أي من العجوزين ... » إنه حقيقة حية بالنسبة لمن عرفوه من الرجال ، وذكرياتهم عنه رقيقة وودودة ، رغم أنهم فيما يبدو يستذكرون أعمال عنفه ، التي تتعلق بها . بشكل ما أهمية شديدة رغم أن الآثار الفعلية ـ تذكارات العائلة القليلة ، والأساطير ، والتفسيرات الحائرة لحياته ـ قليلة وغير كافية بالنسبة للشعور المستثار . كان يلقي فيما يبدو على الحياة دثاراً من الرقة الشبحية التي تتعلق بالبهو المغطى حيث اضطجع إثر مقتله .

---

(١) كولونيل سارتورس الذي مات في الرواية في سنة ١٨٧٦ كان حيا لا يزال في سنة ١٨٩٤ في رواية « وردة لإميلي » . كانت أهميته في القصة القصيرة محدودة : قالت لمس إميلي إنها ليست مدينة بأية ضرائب ، لأن البلدة كانت مدينة لأبيها .

وهو يهيمن على الرواية . وإن كنا فى الواقع لا نقرأ عنه الكثير جدا ، لا فى هذا الكتاب ، ولا فى حلقة الروايات كلها التى كان منبع الوحى بها . وفى قصص الحرب الأهلية فى رواية « غير المقهورين » يسلك كولونيل سارتورس بشجاعة وعبقرية وبوقار الشيوخ ، الأمر الذى يجعل منه ، مثل لى ، تجسيداً لشهامة القضية الخاسرة أما الاستهتار البطولى الذى تميز به بعض فروع أسرة سارتورس فقد حد منه فى حالته إحساسه بالمسئولية الاجتماعية . أما فشلهم فى الحياة فى مستوى مثله ، والفروق بين الجنوب الجديد الفج وأرض المزارع اليانعة فى أيامه ، ونبل جيله المهذب ، فهى تسهم فى الإحساس بعذاب العجز فى جيل كوينتان كومبسون وبايارد سارتورس . وبنفس الشكل أيضاً ، فإن تجسد سمات المرأة الجنوبية المصفى فى العمة جينى ، وملامحها الرقيقة وشعرها الأبيض ، وماضيها البطولى ، بما فى ذلك مشاركتها فى الرقص مع جب ستيوارت ، والوقت الذى قهرت فيه المحرضين السياسيين والمتلكئين من رجال الجنوب بوجودها المسيطر — تقابل وتبرز بوضوح أزمات النساء الجنسية فى الروايات التالية .

كانديس كومبسون ودالتون أمس فى « الجلبة والهياج » ومشاهد دار الدعارة فى تمبل دريك ورد فى « المحراب » . والصراع الذى يعانيانه ليس صراع ضمير ، كما هو الأمر فى روايات هوثورن عن نيوإنجلند ، ولكنه ينبع من انتهاكهما لإحساسهما بأنهما تنتميان إلى علية القوم : تمبل وكانديس ، بل وكل البنات فى روايات فوكنر يواجهن فى الجنس صراعا اجتماعياً ، أما الاعتداء على شىء تنتصب مس جينى كرمز له ، كما فى « المحراب » ، أو قبول دور لا يعنى إلا الإحساس الذاتى بالخروج من عالمها كما هو الأمر فى « الجلبة فى الهياج » ، « وقداس على روح راهبة » .

وبنفس الشكل أيضاً ، فإن الرجال لا يستطيعون الحياة فى مستوى أسطورة سارتورس . وهكذا فإن اليأس الوحشى الذى يفيض بحياة بايارد سارتورس الصغير يسبب الأزمة القلبية التى تقتل بايارد العجوز . ويحقق موته استراحة وقتية فى انحدار آل سارتورس اللولبى الذى تتبعه الرواية . إنها عودة مفاجئة وإن تكن قصيرة إلى الواقع : الإدراك المتزايد الذى نجده فى وصف هروب بايارد إلى كوخ فى التلال وفى صيد الثعالب - الصقيع فى الهواء الساكن ، والصوت الجاف الوحشى فى أشجار الصنوبر والأرض الزرقاء فى لون الدخان ، وكبرياء أهل الريف الأليفة الهادئة ، والبيوت المضيئة فى الداخل بنيران المدافىء ، والدخان الأزرق الشاحب المحمل بروائح الطهو ، وأصوات الكلاب الرنانة كالنواقيس وأصداؤها التى تتردد بين التلال حيث يجلس الصيادون فى سكون تام على خيولهم فى ضوء القمر المحمل بالصقيع . لقد حدث تغير للأسلوب فى هذه الفقرات فيه وفى الجزء الأول من الكتاب ، وتغير أيضاً أكثر أهمية فيما بينهما ومرح فوكنر النقدى فى كتبه الأولى . إنه قبول مفاجىء للعالم المحيط ببايارد سارتورس وشعور دائم بالاستمتاع به والمشاركة فيه .

إن المشهد الرائع الذى نرى فيه عيد الميلاد الذى شهده بايارد مع العائلة الزنجية ، ليثير العاطفة بتواضعه الخجول ، ويفيض بالمأساة عند كشفه عن الحذر الذى أصاب عقل بايارد . . . حدة عينيه على الغرفة التى تناثرت فيها الأشياء ، وعشى عينيه عن رؤية الأطفال الزنوج . . إنه موسيقى - فقرات من الشعر المصفى رغم جفوة سطحها ، إنها فقرة من السلام ، تحقق سحر جمالها ، لا ببراعة الأسلوب ، وبالتأكيد ليس بذلك النثر الشعرى أو الشعر المنثور من النوع الذى يحاول فوكنر أحيانا كتابته ، ولكن بقبول المعتاد أو المألوف فى الأشكال التى يوجدان بها . والأثر الذى يولده هذا المشهد هو أنه يكشف الأوهام الحادة التى تفيض بها حياة بايارد فى الفترة التى سبقت المشهد . فكأن المجتمع لم يعرف أبداً إلا توهجات وزوايا

حادة فى علاقاته الاجتماعية ، أشبه بصور بيكاسو ، ثم يعى لجأة من حوله بيوتا هادئة نقشت فى لوحات رسامين من المدرسة الفلمنكية . كذلك فإن الهروب إلى الغابات والمشهد فى كوخ الزنجى (الذى يقارنه هو بشىء من العدل بمشهد صيد الذئاب فى « الحرب والسلام » لتولستوى) يلقى ضوءاً على ضياع بايارد ورحلاته الشاردة بعد ذلك ، رحلته الغامضة إلى المكسيك والبرازيل ، وموته وهو يحاول التحليق بطائرة حديثة صممها مخترع مجنون ؛ التى ربما يبدو فيها التشويه مبالغاً فيه وتدل العواطف الخفية الغامضة على إهمال وعجلة فى الكتابة .

وهكذا فلن نجد فى النهاية إلا أرملة بايارد الصغير وهى تعزف على البيانو فى ساعة الغسق فى بيت سارتورس القديم ، وبفضل احتدام فى أسلوب الرواية ، أكثر من أن يكون بفضل أفعالهم وأقوالهم ، فإننا ندفع إلى الإحساس بأن مصير آل سارتورس تراجيدى حقا . وتظهر فعلا بعض سمات الغموض والغايات السامية ، على الرغم من أنه كثيراً ماتبدو تصرفات الأشخاص « ميلودرامية » وشجاعتهم بجرد استهتار أحمق وإخلاصهم لمثلهم ليس إلا كبرياء أسرية ضيقة الأفق . وفى كتابات فوكنر توجد فقرات قليلة ، ترق فيها دقائق أسلوبه إلى مستوى الفكرة الكلية للعمل . وحتى فى مشاهد التلال فهناك صور غير مناسبة ـ « الشمس التى انتشرت كبيضة قرمزية تحطمت على التلال النهائية » ، أو الصقيع الذى قارنه بغلاف وردى لآلاء من السكر على كعكة العيد ـ ذلك فى الوقت الذى تذكر فيه فى عالم الرواية الكثرة التى ألفت حلقات من الروايات حول أسر ، وكيف أصابنا السأم حتى من أفضلهم من أمثال الدينبروك والفورسايث نتيجة لشعورهم الزائد بالأهمية . ولكن سارتورس ينجو من هـــذا المصير بالجدية البالغة التى تلتصق على نحـو غامض بمصير الأسرة . إن سقوط سارتورس له علاقة بانفصال بايارد عن تلاله ، وربما بانفصالنا جميعاً عما ننتمى إليه ، وانعدام الحس الذى تؤدى إليه الحياة الاجتماعية والذى تصبح فيه لحظات الوعى

بالعالم المادى ، وبالعلاقات البسيطة أمراً نادراً وقليل الوقوع أو اضطرارياً : ربما بعذاب ، « الجلبة والهياج » ـ وبانتصار بونى الوحشى فى الحزاب وفليم سنوبس فى « القرية » .

— ٣ —

الإلهام هو الشيء الذى يضيف إلى سمة الاحتدام فى سارتورس ، ومنابع الإلهام دائماً بعيدة عن متناول التحليل النقدى . وكل ما يمكن أن يقال هو أن الجهد المتصل فى اتجاه من المرجح أن يكون مثمراً يضمن للإلهام حين يأتى ، إذا جاء على الإطلاق ، أن يجد لنفسه مخرجاً ، كأن فوكنر قد قضى جانباً كبيراً من الوقت وهو يكتب « أجر الجندى » و « البعوض » عندما ألهم فكرة كولونيل سارتورس التى جاءت مع هذا الكتاب . وقد شحنت رؤى روايات جيفرسون التى لم تكن قد كتبت بعد ، كل جزء من هذه الروايات باحتدام أقوى من محتواها المباشر . . . وأحيانا ، وعلى سبيل المثال ، كما هو الحال فى الحادثة التى وقعت بين كولونيل سارتورس والمحرضين السياسيين ، فإن الدرس الوحيد المستخلص منها يبدو وكأنه يريد أن يقول إن العالم كان سيصبح مختلفاً لو أن الجانب الذى يقف فيه الكولونيل كسب الحرب الأهلية ولكن كثيراً ما يبدو وكأن هناك أشياء ذات فائدة عملية كانت فى حياته ، رغم أننا لسنا على معرفة واضحة تماماً بحقيقة معناها . كأنه قد اخترع للمجتمع شيئاً مفيداً فقد بعد ذلك . وهناك منابع أخرى واضحة لإلهام فوكنر . . لقد عاد إلى ربوعه الريفية وجدانياً وجسدياً ، وإلى أسطورة أسرته الخاصة ، ذلك أن كولونيل سارتورس قد رسم على نمط كولونيل وليم س . فوكنر ، جده الأكبر . إلا أننى أعتقد أن المنبع الرئيسى يكمن فى التوتر الداخلى الذى تكون بمحاولة التوفيق بين شخصية كولونيل فوكنر التاريخية وشخصية كولونيل سارتورس الخيالية كتجسيد لفضائل الجنوب العتيقة .

ولد كولونيل فوكنر فى إقليم نوكس فى تنيسى الشرقية عام ١٨٢٥

(رغم اختلاف الثقاة حول تحديد المكان والتاريخ) ، ثم أخذ إلى سانت جنيفيف بولاية ميسورى حيث مات أبوه وهو لم يزل طفلا . وكيثم سار على قدميه من ميدلتون بتنيسى إلى ريبلى بولاية ميسيسبى ، ليتخذ من بيت عمه موئلا . وكانت سنه حينئذ تتراوح بين العاشرة والرابعة عشرة . . كانت رحلة تاريخية كتب عنها عرضا وضاء وإن كان رومانسيا فى روايته « وردة ممفيس البيضاء » . وقد عمل لمدة أربع سنوات ، بينما كان تلميذاً فى المدرسة ، فى سجن بلدة ريبلى ، حيث استخدمه مأمورها . . وقد أفاد من هذه التجربة أيضا فى نفس الرواية .

وفى سنة ١٨٤٥ توقفت أسرة مهاجرة تسمى أدكوك ، فى أثناء رحيلها من تنيسى إلى الغرب لقضاء الليل فى أرض للتخييم شمالى ريبلى . وقتل رجل يسمى ماك كانون كل أفراد الأسرة بفأس ، وسرق العبيد ، ورحل عائداً إلى تنيسى . وقد قبض على ماك كانون بالقرب من تنيسى وأعد جمهور من الدهماء العدة لقتله . ولكن فوكنر الشاب أقلع فى منتصف الليل مع تجريدة مسلحة وراء ماك كانون ، ورحل عشرين ميلا ، وعاون على إنقاذ القاتل من يد الدهماء ، رغم الأسلحة التى شهرت فى وجهه . وأعيد ماك كانون إلى ريبلى ليقف أمام المحكمة إلا أن حشداً آخر من الدهماء اقتنصه من السلطات ، ومرة أخرى وهو على وشك الموت شنقا اكتسب ماك كانون فسحة من الوقت بالوعد الذى بذله برواية الحقيقة كلها عن الجريمة . وقد اعترف . وفى الفترة التى سبقت تنفيذ حكم الموت فيه ، حكى قصة حياته لفوكنر الشاب ، الذى كتبها ، وطبعها بالأجل فى كتيب فى مطبعة جريدة « أدفرتايزر » بريبلى .

وقد عرض الكتيب للبيع فى يوم إعدام ماك كانون ، فحقق نجاحاً ساحقاً ، وكسب فوكنر منه بعد دفع دين المطبعة ١٢٥٠ دولاراً . وكانت أول ما اكتسب من نقود . وقد صوره أعداؤه بعد ذلك يتجول فى الجموع منادياً على كتابه ، بينما جسد ماك كانون لم يزل يتأرجح من غصن شجرة

فى ساحة محكمة ريبلى - ومازالوا يهاجمونه فى الواقع حتى اليوم بهذه المذمة .. إلا أنه لايوجد دليل معاصر على وقوع مثل هذا المشهد المروع ، ولا أى دليل فى خلق فوكنر على الانحراف إلى العمل بهذا الأسلوب .

إلا أنه يوجد الكثير من الأدلة المعاصرة على أن كتيب فوكنر أثار عداء حاداً من بعض الأشخاص البارزين فى المناطق القريبة - تاسكامبيا ، وألاباما ، وهولى سبرنجز ، وميسيسبى ، وغيرها ، وهم من جاء ذكرهم فى رواية ماك كانون كأصدقائه ومعاقرى الخمر معه . وقد هدد هؤلاء بعقاب فوكنر بالسياط وبما هو أسوأ . وقد هبت جريدة الأدفرتايزر - بريبلى لعونه . وأعلنت أنه لايوجد بين شباب البلدة من يفوق فوكنر فى صلابة الخلق والشجاعة . وقد نشرت هذه الآراء فى سنة ١٨٤٦ . وفى مايو من هذا العام عندما بدأت الحرب المكسيكية ، انتخب فوكنر نقيباً أول لفصيلة متطوعى تيباه ، وكان تاريخ توليه سلطات هذا المنصب هو أول يونية ١٨٤٦ . وقد ألحقت الفصيلة باللواء الثانى فى فرقة مشاة المسيسيبى الثانية ، واشتركت فى الحرب فى المكسيك حيث أصيب فوكنر بجراح فى ١٤ أبريل ١٨٤٧ .

كان النقيب الثانى لهذه الفصيلة هو روبرت هندمان الذى كان شقيقه توماس هندمان جنديا عاديا فى الصفوف(١) . كان الاثنان ولدى أسرة بارزة عريقة ، وكان أبوهما أحد أبطال حرب ١٨١٢ ، وكان يعيش فى بيت كبير جديد يبعد عن ريبلى ميلين ونصف ميل . كانت ثمة صداقة بين فوكنر الشاب وأبناء أسرة هندمان . وقد عادوا بعد الحرب إلى ريبلى ،

---

(١) حسبما جاء فى « التعريف بالأشخاص الذى كتبه جنرالات كليبورن وجنرال ت . س . هندمان ، بقلم شارلز إدوارد ناس ، أحد أنسباء هندمان ، فان هندمان الذى كان يتميز بموهبة جبارة للوقوع فى المشكلات » وكان « شديد الطموح شديد الصلف » قد رقى فى المكسيك إلى وظيفة نقيب أول لما أبداه من بسالة .

حيث تزوج فوكنر مس هولاند بيرس من نوكسفيل بولاية تنيسى . وبدأ فى العمل بالمحاماة فى مكتب عمه القانونى .

وفى يوم ٨ مايو ١٨٤٩ التقى فوكنر بروبرت هندمان ، وفيما يبدو بجوار بيت الأخير . وقد هاجمه هندمان بعنف ، الأمر الذى أثار دهشته . وقد صرح فوكنر بأنه لايدرى سبباً لثورة هندمان الجنونية . وما قاله مقنع تماماً . وشهر هندمان غدارة ، فقبض فوكنر على ذراعه . فرماه هندمان - وكان الأقوى - على جدار البيت (كان الشقيقان هندمان كبيرى الحجم قويين ، يذكران بين أهل المنطقة « كرجلين شجاعين سريعى الانفعال لايخشيان شيئاً ، بل وعدوانيين إلى أقصى حد ، يميلان للاستهتار ، ولكن « لم يعش بين الناس قط أشجع من الشقيقين ») وسدد هندمان غدارته إلى صدر فوكنر وداس على الزناد .

لم تنطلق الرصاصة من الغدارة . وسحب فوكنر سكينه . وسدد هندمان غدارته مرة أخرى وأطلق ومرة أخرى لم تنطلق الرصاصة . وقد تبين من فحص الغدارة بعد ذلك . أن الطلقات لم تكن تناسبها ، فإن شاكوشها لم يكن يقع على رأس الرصاصة تماماً . وإذ كان هندمان يحاول إطلاق النار للمرة الثالثة ، طعنه فوكنر وقتله .

قبض على فوكنر ، ووجهت إليه تهمة القتل . وقد شقت القضية البلدة شطرين .

ولم تعقد جلسات المحاكمة إلا فى فبراير التالى ١٨٥١ ، فى الدورة القضائية لدائرة المحاكمة . وفى أثناء هذا ماتت زوجة فوكنر ، بعد أن ولدت له طفلا ، وهو جد وليم فوكنر . وقد ألقى توماس هندمان الذى تصادف أن حصل على أجازة القانون فى ذلك الوقت خطبته الأولى بصفته نائباً عاما . وكانت معبأة بالتشهير المرير . إلا أن الشواهد رسمت حالة واضحة من حالات الدفاع عن النفس ، وأطلق سراح فوكنر .

وبمجرد أن خرج من ساحة القضاء إلى شارع ريبلى هاجمه توماس هندمان . ومن ثم قتل فوكنر ، فى أثناء الشجار رجلا يسمى موريس ، وكان من أنصار هندمان فى الصراع الذى قسم البلدة .

وعلى الفور قبض على فوكنر مرة أخرى ، وحوكم بتهمة قتل موريس ، وأطلق سراحه مرة أخرى وبعد إطلاقه من السجن ، التقى بتوماس هندمان فى غرفة الطعام بفندق ريبلى ، وشهر هندمان مسدسه . ولكنه سقط من يده ، وانطلق عند اصطدامه بالأرض فأصاب الطلق النارى السقف فوق رأس فوكنر .

تحدى هندمان فوكنر للمبارزة ، وكان فوكنر لايؤمن بهذه الوسيلة من ناحية المبدأ ، ولكنه قبل التحدى ، وأعد الأمر للالتقاء بهندمان فى الساعة السادسة من صباح أول إبريل ١٨٥١ فى ساحة النزال التى تبعد أربعمائة قدم من شاطىء أركانساس على نهر المسيسبى ، أمام نهاية شارع جيفرسون بمدينة ممفيس . وكان المفروض ألا يكون هناك رفاق للمتبارزين ، ولا جراحون ، ولكن شاهد واحد فقط ، لم يكن عليه أن يفعل شيئا ، إلا أن يظل بعيداً لايعترض طريق المتبارزين ـ وكان المفروض أيضا أن يكون كل منهما مسلحا بغدارة ويقف على بعد خمسين خطوة من الآخر ، وعند صدور الإشارة يتقدم كل منهما من الآخر وهو يطلق النار بقدر ما يشاء أو مايستطيع .

وقبل النزال ، التقى فوكنر وصديق له هو دكتور دى سوتو بهندمان . وشهر دى سوتو مسدسه ليطلق النار على هندمان ، ولكن فوكنر قبض المسدس ، واصطدم شاكوشه بيده .

كان كولونيل جالواى هو الشاهد المختار ، وكان أحد محررى جريدة « النداء » التى تصدر فى ممفيس ، وله سمعة كرسول سلام بين الناس .

وقد علم أن فوكنر لا يدرى لعداوة هندمان سبباً ونجح فى منع المبارزة ، ومن ثم ارتحل هندمان إلى أركانساس .

وقد ظل فوكنر فى ريبلى حيث أصبح أحد زعماء جماعة الجاهلين بكل شىء(١) ، ورئيس تحرير جريدتها العم سام ، التى كانت تجمع شمل هذه

---

(١) حزب الذين يجهلون كل شىء كان محاولة لتنظيم التهييج والإثارة ضد الكاثوليك والأجانب ، كوسيلة لطمس مشكلة العبيد التى شطرت البلاد شطرين . وعندما بلغ الحزب قمة نفوذه فى سنة ١٨٥٥ انتخب الجاهلون بكل شىء الحكام والمشرعين فى نيوهامبشير ، وماساشوستس ، وورود ايلاند وكونكتيكت ونيويورك وكينتوكى وكاليفورنيا ، واكتسحوا تقريبا تكساس وفرجينيا وجورجيا وألاباما ومسيسبى ولويزيانا . كانت تنظيما سريا شكل على هيئة محافل كالماسون ، ولم يكن يعرف اسم الجمعية الكامل ولا أهدافها الحقيقية من أعضائها إلا من بلغوا أعظم المراتب فيها « أبناء سنة ٧٦ » أو من كانوا من درجة اللواء المزركش بالنجوم » وكانوا يجيبون عما يوجه إليهم من أسئلة عن الجمعية بقولهم « أنا لا أعرف » ، الأمر الذى أعطاها اسمها الشعبى .

قام هندمان ، بعد رحيله من المسيسبى ، بصفته محاميا وسياسيا بقيادة حملة عاصفة ضد الذين يجهلون كل شىء فى أركانساس ، وقد كانوا على وشك الانهيار كحزب على نطاق الأمة كلها ، وبذلك اكتسب بشهرة لقيامه بسحق الذين يجهلون كل شىء فى أركانساس بصفة نهائية . وقد قاتل ، أو تحاشى القتال فى آخر لحظة بتدخل الوسطاء ، فى عدة مبارزات . وفى اجتماع سياسى عام ، تكلم فوكنر فى صالحه ، الأمر الذى كان محل دهشة من الناس .

وفى سنة ١٨٥٨ اتهم هندمان سياسياً يسمى رايس بالخيانة لحساب حزب الذين يجهلون كل شىء . وقد غادر رايس البلدة هيلينا بأركانساس وعاد بشقيقه . وإذ خشى هندمان ألا يعطى فرصة عادلة ، طلب معونة كاتب فى محل عقاقير هو بات كليبورن . كان بات ضابطا سابقا فى الجيش البريطانى ، ثم أصبح بعد ذلك من أحسن ضباط جيش الجنوب . وبينما كان الرجلان يعبران الطريق أمام متجر مور للسلع الجافة فى هيلينا ، أخطأ طلق نارى جاء من وراء باب المتجر على بعد ثلاث أقدام ، أخطأ هندمان . وأصاب طلق ثان كليبورن فى ظهره ، وأطلق طبيب من أبناء عمومة رايس ، وكان واقفا على الجانب الآخر من الطريق ، أطلق النار على صدر هندمان إلا أن الطبيب قتل برصاص هندمان وكليبورن إذ أطلقا النار على بطنه قبل أن يسقطا وقد ظلت حياة كليبورن معلقة بين الحياة والموت لمدة عشرة أيام . أما هندمان فلم تكن إصابته خطيرة =

الجماعة . وعندما بدأت الحرب الأهلية كون فوكنر فصيلته التى سماها فصيلة رماة المانوليا بإقليم تيباه وانتخب قائداً لها فى ٢٣ فبراير ١٨٦١ . وقد أصبحت فصيلة رماة الماتوليا جزءاً من فرقة المشاة الثانية بجيش الجنوب ، التى انتخبت فوكنر كولونيلا لها . كان ، فى أثناء هذا ، قد تزوج للمرة الثانية ، وأنجبت له زوجته الثانية أربعة أطفال ، ثلاثة من البنات وولداً . وقد لعبت الفرقة الثانية تحت قيادته دوراً هاماً فى معركة بول رن ، ذهبت بعده إلى معسكراتها فى هاربرز فيرى لقضاء الشتاء . وهناك التحقت مسز فوكنر والأطفال بالكولونيل ، وكان ابنه وطفلة وليدة عمدت باسم إليزابيث ماناساس ، قد ماتا فى ريبلى فى أثناء غيبته . وفى الانتخابات التالية فى ربيع ١٨٦٢ انتخب جون م . ستون وهو معاون محطة سابق فى بلدة يوكا على خط سكة حديد ممفيس شارلستون ، انتخب كولونيلا لفرقة المسيسبي الثانية ، ومن ثم عاد كولونيل فوكنر إلى ريبلى . وكان لديه تكليف من جيفرسون ديفز بتجنيد لواء من الفرسان .

وتقول بعض مصادر ريبلى إن تقارير كولونيل فوكنر عن نشاطه فى الحرب الأهلية لم تكن شيئا مشرفاً .

يمكن أن يكون محل فخر . وفى الواقع ليست ثمة حاجة لإعطاء مثل هذا التفسير لعودته إلى البلدة . لقد حدث هذا بعد كارثة الجنوبيين باستيلاء

= أما دكتور باش الذى كان يعمل فى متجر عقاقيره كلبورن ، والذى كتب مذكراته عن الرجلين فقد خشى أن يستخرج الرصاصة ، من ظهر كلبورن الأمر الذى فعله بعد ذلك زوج شقيقة هندمان .

وأصبح هندمان قوة سياسية فى أركانساس وبنى قصرا فى هيلينا (أصبح بعد ذلك مدرسة كاثوليكية) واستقال من الكونجرس عند ظهور الحركة الانفصالية فيه . وتطوع كجندى فى لواء مشاة بيل . وانتخب ضابط وأصبح لواء فى جيش الجنوب وفر إلى المكسيك حيث أدار مزرعة للبن بعد انتهاء الحرب الأهلية وقد اعترض أهل زوجته على مغازلته لها وأرسلوها إلى مدرسة سانت أجاس الكاثوليكية بممفيس وذلك لإبعادها عنه . وقد استطاع هندمان أن يزورها فى المدرسة بتظاهره بأنه عمها ومن ثم تزوجا بعد ذلك . ويبدو أن هندمان قد أثرى فى المكسيك ولكن زوجته اعترضت على تنشئة الأطفال على المذهب الكاثوليكى وعاد إلى هيلينا والبلاد فى مرحلة التعمير وفى اجتماع سياسى اعترض هندمان على تصريحات ألقاها كلايتون بول فى حشد من الزنوج وقتل .

جرانت على قلعة دونلسون والجزيرة رقم ١٠ واشتداد الحاجة للفرسان للعمل فى أرض شاسعة ، أصبحت مفتوحة للغزو . لقد كان هذا واضحاً حتى قبل سقوط شيلوه التى تبعد أكثر من واحد وأربعين ميلا . يضاف إلى هذا الموقف المحلى الغريب فى شمال المسيسيبى ، وكان له دائما شذوذه فى التاريخ الأمريكى ، الأمر الذى أوجد الحاجة إلى ضابط مجرب يعرف المنطقة . وقد نظم فوكنر لواء الفرسان السابع بالمسيسيبى ، الذى أطلق عليه أحياناً اسم حرس الأنصار الأول . وقد استكمل لواؤه قوته كلها فى الربيع ولكن تمزق تماما قبل نهاية نفس العام . وفى مارس ١٨٦٣ نجده يبلغ رئاسة المخابرات السرية بجيش الجنوب فى الغرب الأوسط أن الرجال يتخلون عن الجيش النظامى لينضموا إلى الوحدات غير النظامية بالولايات ، حيث لا يقعون تحت فاعلية النظم العسكرية ويستطيعون المعيشة فى بيوتهم . وقد بلغ أيضاً أن هؤلاء الجند ينهبون جميع الأهالى ويسرقون الخيل (وفى ذلك نبوة عن آب سنوبس) ويروعون النسوة ويصادرون ممتلكات من كانوا يطلقون عليه اسم المحافظين ، وأبلغ أيضا أن جرائم السرقة وقتل المواطنين غير المسلحين قد أصبحت أحداثا يومية وأن الفصائل المستقلة يتزايد ثراؤها بالمضاربة والاتجار مع العدو ، وأن الأهالى لن يستطيعوا جمع محصول من الأرض إلا إذا وفرت لهم الحماية ، وأضاف هذه الملاحظة إلى الجنرال ركان يقصد فوروست أن ليس عليك أن تخشى أن أفاجأ أو أغلب لأننى أعرف كل جرف وطريق ودرب فى هذه المناطق الشمالية .

وقد أبلغت حملة شمالية قامت من ممفيس إلى ريبلى فى مايو ١٨٦٤ أن التخريب الكامل قد لحق بالمنطقة لمسافة أربعين ميلا . وفى يوليو من نفس العام دمرت ريبلى نفسها . وكانت ظروف ذلك غريبة . فقد خرج شيرمان متجهاً إلى أتلانتا ، وأمر بتحرك ٨٠٠٠ جندى من ممفيس لتشغل فوريست ولتمنعه من ضرب خطوط مواصلاته وعندما وصلت هذه القوة إلى ريبلى سأل كولونيل دى ويت توماس زوجة فوكنر (التى وصفها بأنها امرأة ذكية جدا) . عن مكان جنرال فوريست وعن عدد جنده . فضحكت

مسز فوكنر وقالت إن فوريست قد غادر الإقليم ليطارد شيرمان ولكنه عاد وسيبدأ الهجوم بعد بضعة أيام . وقالت إن فوريست لديه ٢٨ ألف رجل .

وقد توقف القائد الشمالى فى ريبلى . وعقد مؤتمراً مع كبار ضباطه ، وأعلن عن رغبته فى العودة لأنه يعتقد أن فوريست قد قام ـ فى المرجح ـ بتعبئة قوة ساحقة ضده .

وقد مال ضباطه للاتفاق معه ، ولكن لما كانت حملة سابقة قد ارتدت أيضا منذ وقت قصير فقد أحسوا أن الضربة ستصيب معنويات الجند بكارثة .

وهكذا كان الاستمرار فى الزحف هو قرارهم . وفى صبيحة ١٠ يونيو سنة ١٨٦٤ التقى الجيشان فى جنتاون أو عند تقاطع طرق برايس بالقرب من جرف تشمينجو .

ومن أوصاف البلدة يرجح أن تكون أصل بلدة فرنشمانزبند فى قصص فوكنر . وكانت النتيجة كارثة للشماليين . كانت خسائر الشماليين ٢٢٤٠ قتيلا ومصابا ومفقودا ، و ٢٢ مدفعا ، و ٢٥٠ عربة كل منها ذات ستة خيول ، وألف مجموعة من قذائف المدافع ، و٣٠٠ ألف ربطة من ذخائر الأسلحة الصغيرة ، ومخازن هائلة من المهمات الطبية والتموينية .

أما فوريست الذى كان لديه ٨ آلاف وليس ٢٨ ألف جندى فقد خسر ٩٦ قتيلا . وعند فجر اليوم التالى وصل الضباط الشماليون الفارون إلى ريبلى . وقد أعدت مسز فوكنر طعام الإفطار ودعت كولونيل توماس لمشاركتها . قال : « لقد أرادت أن تعرف إن كنت لم أجد كلماتها صادقة إلى حد كبير جدا » (١)

بعد أن انتهت الحرب ، وكما جاء فى سارتورس ، مد كولونيل فوكنر خط سكة حديد ريبلى ـ شيب أيلاند ـ وكنتوكى . وفى قمة ثرائه كان يدير

---

(١) تقرير كولونيل توماس عن أحاديثه مع مسز فوكنر موجودة ضمن الجزء ٧٧ من التقارير الرسمية عن حرب العصيان .

مزرعة من ١٢٠٠ فدان ويشرف على مائة مستأجر ويشغل أيضا طاحون غلال وحلاجة وورشة نجارة وبدأ مشروع كلية هى كلية شيونويل وكتب وأخرج مسرحية عن الحرب الأهلية ، هى مسرحية « الماساة المفقودة » . وفى سنة ١٨٨٠ احترقت مطبعة جريدة ريبلى « الأدفرتايزر » وزود فوكنر الجريدة بالمال اللازم لتبدأ من جديد ، وكتب قصة مسلسلة هى « وردة ممفيس البيضاء » ليعاون الجريدة على التوزيع . وقد كانت الوردة البيضاء حدثاً هاما ذلك أنها كانت تروى أسرار شىء يشبه الصراع بين فوكنر وهندمان وأسهمت فى مضاعفة توزيع الجريدة قبل أن تطبع فى كتاب (طبعت خمسا وثلاثين مرة وباعت ١٦٠ ألف نسخة قبل أن تنفد فى سنة ١٩٠٩) وقد كتب بعد ذلك رواية تاريخية هى « الكنيسة الصغيرة المبنية بالآجر » وكتابا عن رحلاته فى أوربا .

وفى سارتورس يأتى فى وصف كولونيل سارتورس أنه انتخب فى المجلس التشريعى بعد معركة قاسية . وفى الحياة انتخب فوكنر فى المجلس التشريعى لولاية المسيسبى بينما كان غائباً فى نيويورك . وفى الساعة الخامسة من مساء يوم انتخابه مضى إلى الميدان العام بريبلى . وحسبما جاء فى وصف الصحف حينئذ ، توقف للحديث مع صديق قديم هو توماس راكر عن قطع بعض الخشب . وتقدم منهما ج . ه . ترموند وهو أحد رجال الأعمال بريبلى وشريك فوكنر فى مد خط السكة الحديدية ثم بعد ذلك منافسه فى ميدان الأعمال وخصمه الشخصى . وحسبما جاء فى جريدة النداء التى تصدر فى ممفيس شهر ترموند غدارة ووجهها إلى الكولونيل دون أن ينطق بكلمة .

قال فوكنر « ديك ، ماذا تقصد ؟ لا تطلق النار » .

ولكن ترموند أطلق النار ونفذت الرصاصة وكانت من عيار ٤٤ر. من فمه ومرت تحت لسانه ، محطمة عظمة الفك واستقرت فى الجانب الأيمن من عنقه تحت الأذن . وكانت الطلقة من مدى بلغ من قربه ان أحرق البارود وجه

راكر . سقط كولونيل فوكنر على الطوار وجاء زوج ابنته الدكتور كارتر ومسح الدم من على وجهه وقد استدار فوكنر بعد أن أجلسوه على الطوار إلى ترموند الذى ظل مكانه واقفاً وسأله : « ديك لم فعلت هذا ؟ »

ومات فى ليلة ذلك اليوم فى الساعة الحادية عشرة . وقد حوكم ترموند وأطلق سراحه وكانت محاكمة من أهم المحاكمات وأشدها إثارة فى تاريخ المسيسبى الشمالية . ثم ارتحل بعد ذلك إلى كارولينا الشمالية حيث تمكن من عمل ثروة فى صناعة النسيج ، أما آل فوكنر فقد باعوا خط السكة الحديد وبدأت هجرتهم التى أدت إلى استقرارهم فى أكسفورد بولاية المسيسبى حيث يعيش فوكنر الآن فى بيت يواجه بيت جاكوب توسون القديم .

يقول أحد شخوص فوكنر من الزنوج تعليقاً على كارثة مشابهة « يا إلهى هؤلاء البيض » وهو تعليق يتفق مع مثل هذه الحياة الغريبة العنيفة . وقد ظلت أسطورة كولونيل فوكنر حية فى أثناء شباب فوكنر . ولم تكن الطريقة التى مات بها محلا لأى حديث عابر ، وما زالت فى الإقليم حتى اليوم موضوعاً حساساً . وعندما كان وليم فوكنر منهمكاً فى كتابة رواياته العظيمة كان كولونيل فوكنر لم يزل حقيقة حية بالنسبة للناس الذين يعيشون حول ريبلى . كانوا يتحدثون عنه وكأنه لا يزال حياً يرزق ، وفى مكان ما من التلال ، ومن الجائز أن يعــــود فى أية لحظة . وحتى عام ١٩٣٨ عندما سألت هناك عن الكولونيل فوكنر واجهت الإحساس الذى نلتقى به فى العبارات الافتتاحية من سارتورس ، الإحساس بوجود حى فى الغرفة استحضر بفعل المشاعر الشديدة التى أثارتها حياة الكولونيل وموته .

وفى العادة أنا لا أقيم كبير وزن لما يقال عن زيارات الأرواح إلا أننى يجب أن أسلم بأننى شعرت بشىء من الخوف مما لقيته من انفعال الناس عندما سألتهم عن كولونيل فوكنر ، وأن هؤلاء الناس كانوا أشد منى خوفا . وفى العام الماضى عندما كنت أقوم بجمع المزيد من المعلومات من ريبلى ، واجهت شعوراً أعمق بالقلق ، كان الناس الذين

زودونى بالمعلومات كانوا يخشون ـ بما يفعلون ـ أن يتعرضوا لخطر إثارة أرواح كولونيل فوكنر وأرواح منافسيه السابقين فيستأنفون مشاجراتهم من جديد . وهكذا فإن العبارات الافتتاحية فى سارتورس تعتبر بداية غاية فى الشذوذ لرواية . ماذا كان هذا الوصف بالتحديد؟ المصرفى والفقير يجلسان فى صمت فى حضرة الرجل الميت الذى كان أشد منهما وجوداً ؟ افتتاح غريب لرواية سارتورس ، ولكنه افتتاح أغرب لحلقة الروايات التى أوحت بها .

أما الاكتشاف الذى عرفه فوكنر وهـــو فى منتصف الطريق فى (سارتورس) وهو أن الكتابة شىء رائع جبار فقد كانت رؤيا ذات فعالية . لقد أدت إلى خلق صورة مجتمع بأكمله ، ومنطقة بأكملها ، خلال ثلاثة أجيال ، إلى تصور نوع ما من الحياة لم يكن يحسب قبل ذلك موجوداً . لقد رسم صورة للجنوب ، والحياة فى بلدة جنوبية صغيرة صورة أدت إلى تغيير أساسى فى الفكر الأمريكى وأثرت فى الأدب الأمريكى إلى درجة بلغت من العمق أن الكثير من الكتابات المعاصرة لا تعكس غير هذا الإماندر . لقد أدت إلى سنوات العمل الثلاثين التى أشار إليها خطاب فوكنر عند قبوله جائزة نوبل .

حضور روحى قوى . وفى حالتى خاصة ، عند سؤالى عن كولونيل فوكنر لم أحصل تماما على نفس الإحساس برقة الشبح المستحضر ، وهو الوصف المعطى لعودة كولونيل سارتورس فى الرواية . الخوف كلمة أفضل . ولكن من الصدق أن يقال إن الشبح نفسه كان رقيقاً ، ذلك أن الخوف كان مصطحبا لشىء آخر غير تذكر كولونيل سارتورس شخصياً وعلى أى حال فإنه يبلغ من صدق أسطورة سارتورس أن المشهد الافتتاحى فى سارتورس ليس إلا وصفاً ممتداً لحقيقة اجتماعية فى المنطقة المحيطة بريبلى وهذا يؤدى إلى ملاحظة يجب أن توجه كل قارىء يحاول أن يربط بين خيال فوكنر وبين ريف المسيسبى .

ومن المعتاد الزعم أن قوة روايات فوكنر تنبع من عمق اندماجه بالحياة فى إقليمه ويتفق معظم النقاد على أن الضعف السائد فى الأدب الأمريكى الحديث يعود إلى انعدام مثل هذا الإحساس بالاندماج عند أغلب الكتاب . وكنتيجة لهذا أصبح فوكنر وظل دائما شخصية مركزية للكتاب الإقليميين . وكان هو البرهان الذى يقدمونه على ميزات بقاء الكاتب فى بلدته الأصلية قريبا من أصوله ، بين ناس يعرفهم بتقاليد يفهمها ، بعيداً عن الجماهير النكرة فى المدن ، التى لا يستطيع أن يعقد معها إلا علاقة شكلية . وأنا أتفق معهم بصفة عامة فيما يقولون . ولكن سارتورس وأكثر منها أسطورتها كولونيل فوكنر ، يبدو أنها تثبت لى أن الكاتب يجب أن يدقق تماماً فى اختيار البلدة الصغيرة التى ينوى الإقامة فيها . وما حققه فوكنر لا يعود إلى اختياره الحياة فى مجتمع إقليمى ولكن فى اختياره هذه المنطقة بالذات . ذلك أن الحياة فى المسيسبى الشمالى التى ركز عليها نشاط خياله تحتاج لمن يفسرها ، كما تحتاج مناطق الصحراء للرى أما الأثر الهائل الذى تركه عمله فهو يقوم كدليل جديد على ما يستطيع أن يفعله رجل واحد .

وبنفس الطريقة ، فإن أهمية سارتورس لا تعود إلى تمجيد فوكنر كبطل إقليمى كان يمثل روح الجنوب العميق . ولكن فى تركيزه قدراته التخيلية على التعقيدات الاستثنائية التى سادت حياة كولونيل فوكنر . ويتضح تناقض كولونيل فوكنر بما كان معروفا عنه من حب للسلام رغم عنف أسطورته . وقد ذكروا عنه ، عندما نشرت «الوردة البيضاء» أنه عاش فى نفس البلدة أربعين عاماً بعد نزاعه مع هندمان ، ولم يشتبك فيها بأى مشكلة وقد ذكر عنه أيضا أنه كان يمشى لمدة سنوات عدة فى البلدة وهى فى قمة التوتر ، رافضاً أن يسفر لاستعمال العنف ومتحاشيا مع ذلك المصير الذى جاء إليه فى عشية نوفمبر وهو فى سن الشيخوخة . وقد عرف أيضا بشخصيته غير العادية . وكان رجل أعمال استطاع أن يجمع بين

إدارة الأعمال وبين ملكة الخيال التي وضحت فى الوردة البيضاء وكان من ملاك المزارع ومميزا بالتهذيب الجنوبى الرفيع وبروح المنافسة العملية وكان بناء للخطوط الحديدية أسبغ على الصناعة شيئا من قوانين المزارع الأرستقراطى ، وضابط جيش جمع بين الانتصارات العسكرية والاهتمام بالسكان المدنيين وأخيراً كان رجلا ذا ميول سلمية قام بمقاومة فعالة للعنف . ومن هنا تأتى السمة الغريبة التى تتميز بها فقرات من سارتورس حيث تستذكر أفعاله العنيفة جنباً إلى جنب مع السلام والرقة . ومن هنا يأتى الانطباع الغريب الذى ينقله الكتاب وهو أن كولونيل سارتورس وإن كان مجرد عجوز من الجنوب فإن قصته رغم ذلك ذات معنى عملى غامض بالنسبة للعالم الحديث — شىء يبرر روايتها لتتفرع إلى قصص أفراد سنوبس وفرنشمازبند — وتلك حصيلة ثلاثين عاما من العمل وهذا ربما يكون السبب ، فى شعورنا بأن روايات سارتورس تجعلنا نحس بأن انتصار الجانب الذى يمثله كان سيجعل العالم شيئا مخالفا فعلا ، تماما كصورة المسيسيبى الشمالى فى عقولنا ، ستكون أمراً مخالفا لو أن فوكنر لم يكتب رواياته ، وأن انتصار كولونيل يسمى فوكنر أو يسمى سارتورس لو حدث لما كان انتصاراً للجنوب العتيق فى الحرب الأهلية ، بل انطلاق جزء من الجنوب العتيق وحـــد بين أحسن صفاته وبين شىء أفضل .

الجزء الأول

كالعادة ، استحضر العجوز فولزجون سارتورس إلى الغرفة . وكالعادة ، مشى الأميال الثلاثة من ملجأ الفقراء فى الإقليم حاملا معه ، كعطر ، وكرائحة ملابسه النظيفة الباهتة المغبرة ، روح الرجل الميت إلى تلك الغرفة حيث كان ابن الرجل الميت جالسا ، وحيث سيجلس كلاهما ، العوز وصاحب المصرف ، لمدة نصف ساعة ، فى حضرة ذلك الذى مضى وراء الموت ثم عاد .

على الرغم من أنه كان متحررا من الزمن والجسد ، إلا أن وجوده كان أشد جلاء من أى من العجوزين اللذين جلسا يتصايحان واحداً بعد الآخر عبر صمم كل منهما بينما كانت أعمال البنك تمضى فى سبيلها فى الغرفة المجاورة ، والناس فى المتاجر الملاصقة ينصتون إلى ضجيج صوتيهما مستحيل التمييز ، والنافذ إليهم من خلال الجدران . لقد كان أشد وجودا من أى من الرجلين العجوزين ، اللذين اتحدا بصمم مشترك إزاء مرحلة ميتة ، وازدادا شفافية بفعل الأيام الملطف البطيء ، وحتى بعد ذلك ، ورغم أن العجوز فواز قد رحل ليقطع الأميال الثلاثة على قدميه عائداً إلى ما كان يسميه البيت ، فإن جون سارتورس بدا وكأنه مازال متشامخاً فى الغرفة ، فوق ابنه ومن حوله . بلحيته ووجهه الصقرى ، ولذا فإن بايارد العجوز ، إذ جلس وقدماه معقودتان ، ومستندتان إلى ركن المدفأة الباردة ، وقد قبض على غليونه فى يده ، بدا له ، وكأن فى استطاعته أن يسمع حتى أنفاس أبيه ، وكأن ذلك الآخر كان أشد حضوراً من مجرد جسد مشكل زائل ، إلى الدرجة التى استطاع معها أن ينفذ إلى أقصى أعماق قلعة الصمت التى يقيم فيها ابنه .

كان انتفاخ الغليون مزدانا برسوم محفورة ، وكان متفحما من طول الاستعمال ، وعلى الفوهة كانت ، آثار أسنان والده ، هنالك ترك انطباعات عظامه التى لا تمحى وكأنها منحوتة فى الحجر الخالد ، كآثار تلك المخلوقات

من أيام ما قبل التاريخ ، التى صورت ونفذت بنسب وأبعاد هائلة ، لم تكن تتيح لها أن تعيش طويلا جداً ، أو تفنى تماماً ، من أرض شكلت وأعدت لمخلوقات أضأل . جلس بابارد العجوز والغليون فى يده ، ثم سأل .

« لماذا تعيده إلى ، بعد كل هذا الوقت ؟ » .

قال العجوز فولز ، « أظننى احتفظت به إلى المدى الذى أراده لى الكولونيل . إن ملجأ الفقراء ليس مكانا مناسبا لأى شىء يخصه يابابارد . وأنا أمضى الآن فى السنة الرابعة والتسعين من عمرى » .

وبعد ذلك ، جمع لفافاته الصغيرة ومضى ، ولكن بابارد العجوز ظل جالسا مدة من الوقت والغليون فى يده ، وهو يدلك ببطء انتفاخه بإبهامه ـ وبعد برهة ، رحل جون سارتورس أيضا ، أو أخذ على الأرجح إلى ذلك المكان حيث يستغرق الموتى المطمئنون فى تأمل خيبة أيامهم الرائعة ، ثم وقف بابارد العجوز ودفع الغليون فى جيبه . وأخذ سيجارا من المرطب الموضوع على الرف ، وإذ أشعل الثقاب ، انفتح الباب ودخل رجل يضع مظلة خضراء على عينيه واقترب منه .

قال الرجل بصوت منعدم الانفعال تماماً :«كولونيل سيمون هنا يا كولونيل».

قال بابارد العجوز والثقاب فى يده « ماذا ؟ » .

« سيمون جاء » .

« أوه . طيب » .

استدار الاخر وخرج ، ورمى بابارد العجوز الثقاب فى فجوة المدفأة ، ووضع السيجار فى جيبه ، وأغلق مكتبه ، وأخذ قبعته اللبادية السوداء من فوق المكتب ، وتبع الآخر من الحجرة ، كان الرجل ذو المظلة الخضراء والصراف مشغولين وراء الحاجز . ومضى بابارد العجوز عبر البهو وخرج من الباب الذى أنزلت مظلته الخضراء . ونفذ إلى الشارع ، حيث كان سيمون فى انتظاره . كان يرتدى معطفا تيلياً وقبعة عالية عتيقة وقد جلس فى مكانه من العربة وأعنة الحصانين الخصيين المتكافئين فى يده ، كانا يتلألآن فى أصيل الربيع بجوار الطوار .

كان ثمة مكان لربط عربات الخيل فى بايارد العجوز قد احتفظ به متجاهلا فى ذلك للتقدم الصناعى الذى كان يضيق به . ولكن سيمون لم يكن يستخدمه مطلقا . وقد ظل سيمون فى مقعده ، حتى انفتح الباب وخرج بايارد العجوز من وراء المظلة المنشورة التى تحمل الكلمتين « المصرف مغلق » فى حروف ذهبية متشققة . كان سيمون جالسا فى مقعده ، وأعنة الخيل فى يده اليسرى ، والسوط ملقى إلى الخلف برشاقة من يده اليمنى ، وعادة ، عقب سيجار لا يتغير ، وفيما يبدو لا يحترق ، مثبت بزاوية متعجرفة فى وجهه الأسود ، كان يتحدث إلى زوج الخيل اللامعة ، فى همس ناعم منتظم يشبه حديث العاشقين . كان يدلل الخيل ، وكان معجبا بآل سارتورس ويحس نحوهم بشعور قوى من الرعاية إلا أنه كان يحب الخيل ، وبين يديه كان فى استطاعة أتعس الحيوانات أن يزدهر ويكتسب حسنا وكأنه امرأة مدللة ، ومزاجا وكأنه نجمة من نجوم الأوبرا .

أغلق بايارد العجوز الباب من ورائه ، ومضى إلى العربة ، وقامته منتصبة متصلبة ، بالطريقة التى جعلت أحد أهالى البلدة يقول معلقا : إنه لو تعثر يوما فسينكفىء بطوله على الأرض . وحياه بذلة مبالغ فيها رجل أو رجلان من المارة وتاجر أو أكثر ممن كانوا واقفين بالأبواب المجاورة .

ولم ينزل سيمون من العربة حتى بعد ذلك . ولكنه ، وبما يجبل عليه أبناء جلدته من إحساس رفيع بالمواقف المسرحية ، نصب قامته ، وسوى أطراف معطفه وبطريقة ما ، أشعر الخيل باللحظة المسرحية ، فهزت هى الأخرى معاطفها ، المتلألئة وهزت بعنف رءوسها الملجمة ، وفى اللحظة التى لمس فيها سيمون طرف قبعته بمقبض السوط ، طفا إلى وجهه الأسود المتغضن شعور هائل لا يوصف بالمجد ، ودخل بايارد العجوز العربة ، وألقى سيمون إلى الخيل بأمر الرحيل ، وعبرت وخلفت العربة وراءها المارة الذين توقفوا ليشهدوا بإعجاب مسرحية الرحيل القصيرة .

كان ثمـــة شيء غريب فى مظهر سيمون اليوم ، فى نفس شكل ظهره وزاوية قبعته . بدا وكأنه يكاد يتفجر بشيء خطير لا يستطيع كتمه ، ولكنه احتفظ به إلى حين ، واندفع بالعربة بسرعة محكمة بين العربات المقيدة فى الميدان ، ثم استدار إلى شارع عريض حيث كان من يسميهم بايارد العجوز بالموزين يسرعون جيئة وذهابا فى سياراتهم ، احتفظ بالسر حتى أصبحت البلدة خلفه ، ومضوا فى خطو سريع عبر ريف مزدهر ، ينتشر فيه أيضاً معوزون يحملهم الجازولين ولكن على مسافات أكثر تباعدا ، واسترخى سيده فى مقعده ، واستسلم لرتابة الرحـــلة الهادئة ذات الأميال الأربعة ، ثم شد سيمون الخيل إلى سرعة أكثر رصانة وأدار رأسه .

لم يكن صوته متميزاً بالقوة ولا كان رناناً إلا أنه كان يستطيع بشكل ما أن يتحدث دون صعوبة إلى بايارد العجوز ، أما الآخرون فقد كان عليهم أن يصيحوا حتى يستطيعوا اختراق جدار الصمم الذى كان بايارد العجوز يعيش داخله .

كان سيمون يستطيع ، وكان يدخل معه فى أحاديث طويلة مطوقة ، بصوته الرتيب العالى المنغم ، وخاصـة فى العربة ، إذ كان اهتزازها يساعد سمع بايارد قليلا .

قال سيمون كمن يمضى فى حديث « مستر بايارد عاد إلى البلدة » .

ظل بايارد العجوز جالساً فى سكون وصدره يموج بالغضب ، بينما مضى قلبه يدق بسرعة أكثر قليلا ، وبخفة أكثر قليلا ، وظل يلعن حفيده فى لحظات غضبه الثائر ولكنه ظل جالساً فى سكون إلى الدرجة التى جعلت سيمون ينظر إلى الخلف ليراه متطلعا بهدوء عبر الحقول . رفع سيمون صوته قليلا .

قال « نزل من قطار الثانية ، قفز من اليسار ومضى إلى الغابات . سكشون رآه . لم يكن قد عاد إلى البيت عندما غادرته . وظننته معك » . وثار الغبار تحت أقدام الخيل فى دوامات ، ثم تجمع خلفها فى سحابة متكاسلة . واندفعت ظلالها فى هجمات فاشلة على حاجز الشجيرات المتكاثفة على جانب الطريق ، هجمات بأسنة مبرقة ، وحيقان خطوا اتهام مرتفعة فى عبث من الحركة لا يتقدم ، ومضى سيمون يقول وشعور السخط المغيظ يغلب عليه « لم يشأ حتى أن ينزل فى المخزن ـ المخزن الذى بناه أهله هو

ويقفز بل قفز من يسار القطار وكأنه أفاق شرير ولم يكن حتى يرتدى ملابس الجندية . بمجرد سترة كبائع جوال أو ما يشبهه . وعندما أتذكر تلك الأحذية اللامعة والسراويل الصفراء الخفيفة ، والشريط المزدوج الذى يدور حول كتفه ، التى كان يرتديها هنا فى العام الماضى . . . » ثم استدار ونظر إلى الخلف مرة أخرى وقال «كولونيل ، هل تظنهم ، الناس الأجانب ، فقد فعلوا به شيئا ؟ » .

فرد بايارد متسائلا ماذا تعنى ؟ هل أصبح أعرج ؟

ـ أعنى ، أن يعود إلى بلدته وهو متلصص . أن يتسلسل إلى البلدة ، على نفس السكة الحديدية التى مدها جده الأكبر ، بالضبط وكأنه قامة . هؤلاء الأجانب فعلوا به شيئاً ، أو ربما يتعقبونه بشرطتهم . ظللت أقول له عندما رحل إلى تلك الحرب الأجنبية ، هو ومستر جونى ، لم يكن لأيهما شأن بـ . .

وقال بايارد : امض بالعربة . . . . . اللعنة على جلدك الأسود .

وهتف سيمون بالخيل بالصوت الذى تألفه ، ودفعها للجرى بسرعة أكبر ، ومضى فى الطريق بين صفين متوازيين من الشجيرات المتكاثفة ، تصحبهم حركات ظلالها الماجنة المروعة . ومن وراء أشجار الصمغ والخروب والكروم المتكاثفة التى تحد الطريق ، انتشرت حقول استصلح بعضها حديثا ، بينما كان البعض الآخر تحت الإصلاح ، وامتدت إلى مساحات متباعدة من أرض الغابات التى اخضرت منذ حين ، وقد تناثرت فيها شجيرات الدوجوود ذات الزهور البيضاء والثمار المستديرة القرمزية ، وأشجار الأرجوان ، ومن وراء المحاريث العاملة تلألأت فى ضوء الشمس كتل لزجة رطبة من التربة المقلوبة حديثاً .

وكانت تلك أرضاً عالية ، استلقت فى منحدرات مائلة ، ومن ورائها زرقة التلال المتصلة ، ولكن سرعان ما انحدر الطريق بشدة إلى واد من الحقول الطيبة العريضة ، وسنانة فى ثرائها فى الأصيل المتداعى ، ثم دخلوا أرض بايارد الخاصة ومن حين إلى حين كان فلاح يرفع يده من وراء المحراث تحية للعربة ، ثم اقترب الطريق من خط السكة الحديدية وعبره ، وأخيراً بدا البيت الذى بناه جون سارتورس بين أشجار الخروب والبلوط ومضوا بين البوابات الحديدية إلى ممر منحن .

وكأن ثمة حوض من السافيا حيث حطت ذات يوم دورية من اليانكي واستراحت منذ زمن بعيد. وهنا أوقف سيمون العربة بحركة استعراضية، ونزل بايارد، وهتف سيمون بالخيل مرة أخرى، وأدار سيجاره إلى زاوية ملائمة ثم أخذ الطريق مرة أخرى إلى البلدة.

وقف بايارد برهة أمام بيته. وقد بدت بساطته البيضاء منسابة كالحلم بين أشجار عتيقة لوحتها الشمس. وقد أزهرت الوستيريا التى تسلقت جانبا من الشرفة، وتساقطت أوراق زهورها. ومن حول جذورها المعتمة، وجذور شجرة ورد وجهت أغصانها إلى نفس الشرفة، تناثرت كومة شاحبة من وريقات الزهور الذابلة. كانت شجرة الورد تختنق ببطء. ولكن بانتظام الكرمة الأخرى. وكانت مزدهرة، وقد تكاثفت عليها البراعم التى لا تزيد فى الحجم على ظفر الإبهام وزهور متفتحة لا تكبر الدولار الفضى، كانت فى أعداد جسيمة وبلا رائحة، وغير قابلة للقطف.

ولكن البيت نفسه كان ساكنا وفيه نبل وصفاء، وصعد إلى الشرفة الخالية ذات الأعمدة، وعبرها ودخل إلى البهو. وكان البيت صامتا ومقفراً من كل حركة وصوت، ثم توقف وسط البهو.

« بايـــارد »

تصاعد الدرج بعمـــده البيضاء وبساطه الأحمر فى قوس طويل ناعم إلى العتمة العليا. ومن وسط السقف تدلت ثريا من المنشورات والقطع الصغيرة البلورية، جهزت فى الأصل للشموع، ثم وصلت بعد ذلك بالأسلاك الكهربائية. وإلى يمين المدخل، وبجوار باب مطبق يؤدى إلى حجرة معتمة يشع منها جو من الأبهة الوقورة التى قل أن تقتحم وتسمى بالردهة، انتصبت مرآة طويلة ازدحمت بالغموض الحزين، وكأنها بحيرة ساكنة من ماء الأصيل. وفى الطرف الآخر من البهو، نفذت أشعة الشمس المنمنمة فى شق طويل عبر الباب، ومن مكان ما من وراء حزمة نور الشمس، كان ثمة صوت يصعد ويهبط فى رتابة منغمة مستغرقة، وكأنه ترتيلة. لم يكن من الممكن تمييز كلماتها، إلا أن بايارد لم يسمعها مطلقاً، ثم رفع صوته مرة أخرى منادياً: « جينى ».

توقف الترتيل ، وإذ كان يستدير إلى الدرج . ظهرت امرأة خلاسية طويلة فى أشعة الشمس المائلة عند الباب الخلفى ، ودخلت إلى البيت ، وهى تحدث بقدميها صوتاً كالفحيح . كان ثوبها الأزرق حائل اللون مثبتاً بدبابيس حول ركبتيها . وكان ملطخاً ببقع غامقة مبللة غير منتظمة . ومن تحته كانت ساقاها مستقيمتين ورفيعتين وكأنهما ساقا طائر طويل ، وكانت قدماها الحافيتان بقعاً بنية اللون باهتة على الأرضية الغامقة المصقولة .

قالت وهى ترفع صوتها لتخترق صممه : « هل كنت تنادى أحدا يا كولونيل ؟ »

وتوقف بايارد ويده على دعامة الدرج المنحوتة من خشب الجوز والتفت إلى وجه المرأة الأصفر اللطيف .

سألها « هل جاء أحد هنا أصيل اليوم ؟ »

قالت النورا « لا سيدى . لا يوجد أحد هنا على الإطلاق . هذا ما أعرفه . مس جينى ذهبت إلى اجتماع ناديها فى البلدة أصيل اليوم » ووقف بايارد ، وقدمه على أول الدرج وهو يحملق فيها بوحشية .

وفجأة انفجر غاضباً « بحق جهنم ، أنتم أيها السود لم لا تستطيعون أن تصدقونى القول عن أى شىء ؟ أو لا تقولون لى شيئاً على الإطلاق ؟ »

« بالله ، يا كولونيل ، من سيأتى هنا ، دون أن تراه أنت أو مس جينى ؟ » ولكنه مضى يصعد الدرج ، وقدماه تدكانه بغضب ثائر . وظلت المرأة تنظر إليه ، ثم رفعت صوتها وقالت « هل تريد ايزوم أو أى شىء ؟ » لم يستدر إليها وربما لم يسمعها ، وظلت ترقبه حتى اختفى من أمام عينيها .

قالت محدثة نفسها « لقد تقدمت به السن » ثم استدارت ومضت من البهو وخرجت من حيث جاءت ، وهى تحدث بقدميها الحافيتين صوتاً كالفحيح .

وقد توقف بايارد مرة أخرى فى البهو العلوى . كانت النوافذ الغربية مستورة بستائر شبكية . انساب من خلالها نور الشمس فى حزم صفراء هزيلة ، أسهمت فقط فى تعميق العتمة وعند الطرف الآخر ، كان ثمة باب عال يؤدى إلى شرفة ذات سور منخفض من الحديد المشغول ، تطل على الوادى ، وشبه دائرة التلال الشرقيـــة التى تحتضنه فى مشهد شامل عريض . وعلى كل من جانبى هذا الباب ، كانت نافذة ضيقة ثبتت فيها ألواح من الزجاج الملون كانت هذه الألواح ، مع من أحضرتها ، هى وصية أم جون سارتوريس له ، وهى على فراش الموت . وقد أحضرتها أصغر شقيقاته من كارولينا فى عربة مملوءة بالتبن فى سنة ٦٩ .

كانت تلك هى فيرجينيا دى برى ، التى جاءت إليهم لتقضى عامين كزوجة ، وسبعة أعوام كأرملة فى سن الثلاثين ـ امرأة دقيقة ، بصورة طبق الأصل وإن تكن رقيقة لأنف آل سارتوريس ، ورسم الملل الشامل الذى لا يقهر على وجهها ، وهو التعبير الذى تعلمت كل نساء الجنوب أن يحملنه على وجوههن . وقد جاءتهم لا تحمل إلا الملابس التى كانت ترتديها وسلة مصنوعة من الخيزران ومملوءة بالزجاج ، وكانت هى التى أخبرتهم عن الطريقة التى لاقى بها بايارد سارتوريس الموت قبل معركة ماناساس الثانية ، وقد روت القصة مرات كثيرة بعد ذلك (وفى سن الثمانين كانت ترويها أيضا ، وفى مناسبات غير ملائمة عادة) ، وكلما تقدمت بها السن ، كانت القصة تزداد ثراء وثراء ، مكتسبة سحـــرا ولطفاً كالنبيذ حتى أصبح ما كان نزوة ولدين فارغى العقل ، طائشين مستهترين ، فى شبابهما ، لحظة بطولية فاجعة نبيلة ، رفع إليها تاريخ الأسرة ، من مستنقعات الاسترخاء الروحى القديمة التى تموج بالأبخرة العفنة ، بوساطة ملاكين ، سقطا ببطولة وضاعا ، فغيرا بذلك مجرى الأحداث الإنسانية وطهرا أيضا نفوس الرجال .

وهذا الرجل بايارد القادم من كارولينا لم يكن بالرجل الهين حتى بالنسبة لآل سارتوريس . كان مبعث ضيق ، أكثر منه شاة ناشزة ، وكل صفاته كانت إيجابية ، لا يمكن التنبؤ بها .

عيناه كانتا زرقاوين مرحتين ، وشعره الذى كان يميل إلى الطول ينسال فى خصل نحاسية على فوديه . وكان وجهه المملوء بالحيوية الشديدة يحمل رسم الصراحة والبـــلادة التى تخفى الشجاعة البالغة ، إنه التعبير الذى لك أن تتصوره مرسوماً على وجه ريتشارد الأول قبل أن يمضى إلى حربه الصليبية ، ومرة طارد عدداً من الثعالب خلال خيمة خاوية ، كان يعقد فيها عدد من طائفة الميثوديست اجتماعاً روحياً ، وبعد ثلاثين دقيقة (وبعد أن أمسك بالثعلب) عاد وحده وامتطى حصانه وسط الاجتماع الساخط . لقد صنع ذلك بروح المرح وجدها ، إذ أنه كان يؤمن بكل قوة بالعناية الإلهية ، كما بينت كل أفعاله بوضوح ، إلى الدرجة التى لم تمكنه قط من اعتناق أى عقيدة دينية كانت . ولذا فإنه عندما سقطت قلعة مولترى ورفض حاكمها أن يسلمها ، فإن آل سارتورس كانوا فى دخائلهم إلى حد ما مسرورين، ذلك لأن بايارد كان سيجد حينئذ شيئاً يعمله .

وفى فيرجينيا وجد الكثير ليعمله كأركان حرب لجب ستيوارت . وكأركان حرب خاصـــة ، ذلك أن ستيوارت ، رغم أنه كانت له أسرة عسكرية كبيرة ، فإنهم كانوا جنودا يحاولون أن يكسبوا حربا ، ويحتاجون للنوم من حين إلى حين . أما بايارد سارتورس وحده فقد كان راغبا ، بل مشوقا ، إلى تأجيل النوم ، حتى ذلك الوقت الذى تعود فيه الرتابة إلى العالم . ولكن تلك كانت عطلة .

وقد كانت الحرب هبـــة إلهية لستيوارت أيضا ، وبعد ذلك بوقت قصير ، وفى ظلمة المعارك الدموية فى فرجينيا الشمالية الدموية ، لمع ستوارت وهو ابن ثلاثين عاما وبايارد سارتورس ابن الثالثة والعشرين عاما ، لمعا لفترة قصيرة وكأنهما نجمان متوجان بأكاليل الشهرة المصنوعة من أغصان الغار المزهرة وريحان الموت ووروده . ظهرا بغتة فى سماء جنرال بوب العسكرية المضطربة ، فخلعا عليه وكأنها ثوب غير طيع ، تلك الشهرة التى ما كان فى استطاعة مهارته كجندى أن تكسبها له أبدا ، وقد حدث هذا كله أيضا ، بروح المرح الخالصة ، فلم يكن لجب ستيوارت ولا لبايارد سارتورس ،

كما أظهرت أفعالها بوضوح ، أى معتقدات سياسية متصلة بالحرب على الإطلاق .

روت العمة جينى القصة أول ما روت بعد وقت قصير من مجيئها إليهم . كان ذلك فى عيد الميلاد ، وقد جلسوا حول نار من أغصان الجوز فى مدفأة المكتبة التى أعيد بناؤها . جلست العمة جينى ووجهها حزين حازم ، وجون سارتورس ووجهه ملتح شبيه الصقر ، وأطفاله الثلاثة وضيف . كان مهندساً اسكتلنديا التقى به جون سارتورس فى المكسيك فى سنة ٤٥ ، ثم جاء به ليعاونه فى مد سكته الحديدية .

كان العمل فى مد الخط الحديدى قد توقف لموسم الأجازات ، وعاد جون سارتورس ومهندسه راكبين ساعة الغروب ، من نهاية الخط فى فى التلال الشمالية ، ثم جلسا بعد تناول العشاء فى وهج النار الموقدة ، كانت الشمس قد غربت حمراء وخلفت الهواء هشا مثل الزجاج الرقيق الذى يعلوه الصقيع وهنا جاء جوبى يحمل ذراعه من خشب الوقود . ووضع قطعة حطب أخرى فى النار وفى الهواء الجاف ، طقطقت ألسنة النيران وقفزت ، وتساقطت فى جمرات حمراء خابية حول المدفأة .

هتف جوبى ، وقد فاض به شعور أهل جنسه الجاد البسيط بالبهجة « عيد الميلاد » ، وأخذ فى تقليب قطع الخشب المشتعلة بماسورة بندقية اليانكى المسندة إلى ركن المدخنة ، قلبها حتى تصاعدت الشرارات فى دوامة ، وهى فى أقنعتها الذهبية الوحشية ، إلى ظلام انتفاخ المدخنة ، وصاح « انظروا يا أطفال » .

كانت كبرى بنات جون سارتورس فى الثانيـــة والعشرين ، وكانت ستتزوج فى يونية ، وكان بايارد فى العشرين ، وابنته الصغرى فى السابعة عشرة ، ولذا ، فإن العمة جينى ، بالنسبة لجوبى ، كانت ، رغم كل ترملها ، طفلة أيضا — ثم أعاد البندقية إلى ركنها وأشعل عودا طويلا من الصنوبر من المدفأة ليضىء به الشموع ، ولكن العمة جينى أوقفته ، ثم

دهب رجلا متثاقلا فى سترة رسمية عتيقة ، أكبر جدا من أن تناسبه ، محنى الظهر شائب الرأس من الشيخوخة ، وروت مس جينى حكايتها ، وهى تشير دائما إلى جيب ستيوارت بمستر ستيوات .

كان الأمر يتصل بأمسية من أمسيات إبريل والقهوة ، أو على الأرجح بنقص القهوة ، وقد جلس أفراد أسرة ستيوارت العسكرية فى الظلام العطر تحت قمر شهر جديد ، كانوا يتحدثون عن السيدات والمتع الميتة ، وفى قلوبهم حنين إلى البيت ، وبعيداً فى العتمة تحركت الخيل المغلفة فى الظلام فى أصوات مكتومة ، وتخافتت نيران المعسكر إلى نقاط متوهجة ، وكأنها بعض ذباب النار وقد استنفد جهدها ، وفى مكان ما ، ليس بالبعيد ولا بالقريب ، لمس خادم الجنرال الخـــاص قيثارة وبعث أنغاما متكاسلة عشوائية . وهكذا جلسوا فى حدة الربيع مع أسى الشـــباب الموغل فى القدم ، غافلين عن العمل والمجد ، ذاكرين ، بدلا منها ، أمسيات مع ضحك رقيق ، وأقدام أرق ، وسؤال فى رءوسهم « متى سيأتى هذا مرة أخرى ؟ هل سأشارك فيها مرة أخرى ؟ » ، حتى مضى بهم الحديث إلى حالة من الحنين الوحشى ، وأصبحت الكلمات أقصر ، وأصبح ترددها أقل وأقل . ثم استنهض الجنرال نفسه وأخرجهم مما هم فيه مرة أخرى بحديثه عن القهوة أو عن نقصها . شارف الحديث عن القهوة نهايته بعد وقت قصير، بخروج إلى الطريق فى منتصف الليل ثم مضى خلال غابات مظلمة كالقار ، حيث سارت الخيل فى طريقها بخطو بطىء ، وراكبوها فوق صهواتها والسيوف والبنادق مشرعة أمامهم حتى لا تكتسحهم من فوق الخيـــل أغصان غير مرئية ، ومضوا حتى قل تكاثف الغابة وبدت أشباح الفجر ، وكانت الفصيلة المكونة من عشرين شخصاً ، داخل الخطوط الاتحادية تماما . ثم حقق الفجر وجوده أكثر فتخلت الفصـــيلة عن محاولة الاستخفاء وانطلقوا بخيولهم مرة أخرى ، مخترقين وحدات الحراسة الأمامية المذهولة وهى فى طريق عودتها آمنة إلى المعسكر ، ووحـــدات العمل بالمعاول والفئوس والمجارف فى لحظـــة شروق الشمس الذهبية ، وانقضوا وهم

يتصايحون على الأكمة حيث كان جنرال بوب وأركان حربه جالسين لتناول الإفطار .

أسر رجلان ضابط أركان حرب سمينا . وطارد الآخرون الجالسين إلى المـــائدة للإفطار مسافة قصيرة حتى حمى الغابات ، ولكن غالبيتهم اندفعت إلى خيمة تموين الجنرال الخاصة ، وخرجوا منها فى الحال بعد عاصفة من التخريب حاملين الغنائم ، وأوقف ستيوارت والضباط الثلاثة المرافقين له خيولهم المتراقصة عند المائدة ، واجتاح أحدهم من فوقها إناء قهوة مسود ، وقدمه إلى الجنرال ، وبينما كان العدو يتصايح ويطلق نيران البنادق من بين الأشجار تبادلوا التحية بالأنخاب ، بقهوة ساخنة تشوى الفم ينقصها السكر والقشدة ، وكأنها كأس حب .

قال ستيوارت وهو ينحنى للضابط الأسير « سيدى ، فى صحة الجنرال بوب » ، وشرب وقدم الإناء .

وأجاب الضابط « سيدى ، سأشربه . شكرا لله إنه ليس هنا ، ليرد التحية شخصياً » .

وقال ستيوارت « لاحظت أنه فيما يلوح قد رحل على عجل . موعد سابق ، ربما » .

وقال الضابط مؤيداً بجفاف « نعم يا سيدى ، مع جنرال هالك . أنا آسف أن يكون جنرال هالك خصما لنا بدلا من لى » .

وأجاب ستيوارت « كذلك ، أنا يا سيدى ، أنا أحب أن ألتقى بجنرال بوب فى ساحة حرب » .

كانت الأبواق تدوى حادة من بين الأشجـــار القريبة والبعيـــدة ، وهى ترسل النذر فى أصـــداء متطايرة من لواء إلى لواء ، حيث تعسكر فى الغابة ، وكانت الطبول تدق بوحشية داعية للســـلاح وقذائف البنادق الشاردة تصطخب وتتقاطر على امتـــداد النقاط الأمامية المتباعدة ،

وكأنها قعقعة مروحة متفتحة ، ذلك لأن اسم جون ستيوارت ، وقد انتقل من حارس إلى حارس ، ملأ الغابات الهادئة المزهرة بالأشباح الرمادية .

إستدار ستيوارت فى سرجه وهرع إليه رجاله وكفوا خيولهم عن الحركة وتطلعوا إليه مترقبين ، وكانت وجوههم المتلهفة المعروقة مرايا تعكس لهب نيران زعيمهم المشتعلة دائما ، ثم جاء من أحد الجانبين شىء ما وكأنه طلقات منسقة ، أطاحت بإناء القهوة من يد بايارد سارتوروس ، ومضت تلطم وتقضم بين الأغصان المبرقشة فوق رءوسهم

قال ستيوارت للضابط الأسير « سيدى ، رجاء أن تمتطى حصانك » ورغم أن لهجته كانت مهذبة إلى درجة ساحرة ، فقد اختفت منها كل آثار الطيش . ثم قال « كابتن ويلى معك أقوى الخيل ، هل تسمح . . ؟ ! » وترك الكابتن ركاب السرج ورفع الأسير وأجلسه وراءه . وصاح الجنرال ، « إلى الأمام » ودار كالدوامة ، ووخز حصانه ، وبذلك التناسق العاصف الذى يتميز به « السنطور » (حيوان الأسطورة الذى هو إنسان وحصان فى نفس الوقت) اندفعوا هابطين من الأكمة ، وانقضوا على الغابة فى النقطة التى جاءت منها القذائف المنسقة ، قبل أن يتيسر إطلاقها من جديد . وغطست أشكال ترتدى أردية زرقاء وتناثرت أمامهم ومن تحتهم ، ومضوا مندفعين بين أشجار شريرة اختفت فيها ، كالزنابير ، بنادق مبنية . وقد أمسك ستيوارت بقبعته ذات الريش فى يده ، واهتزت خصلات شعره النحاسية مع إيقاع سرعته . وكان يبدو كلهب نبيلة يتصاعد منها دخان جرأتها الوحشية التى تلتهم نفسها .

ومن ورائهم ومن أحد الجناحين ظلت البنادق تنفجر وترمى قذائفها على أشباحهم المبرقة ، ومن الألوية المعسكرة فى الغابة الجذلة على مسافات متباعدة ، تصايحت الأبواق المبرقة فى أصواتها الحادة بنذرها اللحوحة ، ومال ستيوارت ببطء إلى اليسار ، فجعل بذلك الضجيج خلفه . ثم تكاثف الأشجار ومضوا مسرعين فى طابور . وكان الضابط الأسير يعلو ويهبط بعنف وراء كابتن ويلى ، وشد الجنرال أعنة حصانه حتى أصبح بجوار الأسود « الجرىء المندفع كالرعد تحت حمله المزدوج » .

قال برقة ساحرة « سيدى ، يحزننى أن أضايقك هكذا ، إذا دللت على الموقع العام لأقرب حارس راكب ، فإنه سيسعدنى إلى أقصى حد أن استولى لك على حصان » .

أجاب الضابط « شكراً لك أيها الجنرال ، ولكن الضباط يمكن استبدالهم بسهولة أكثر من الخيل . لن أزعجك » .

وقال ستيوارت بجفاف « كما تشاء يا سيدى » . . « ودفع حصانه مرة أخرى إلى مقدمة الطابور ثم مضوا بخيولهم مسرعين ، متتبعين أثراً ضئيلا لما كان يوما طريقا ، واستداروا ونفذوا بين سياجين من أعشاب الربيع ، ومضوا فيه باندفاع منضبط ، ثم خرجوا فجأة إلى أرض مكشوفة وشدت فصيلة من فرسان اليانكى أعنة خيولها مذهولة بالمفاجأة ، ثم اندفعت مرة أخرى إلى الأمام .

ودون تردد دار ستيوارت بفصيلته واندفع مرة أخرى إلى الغابة وكانت طلقات الغدارات تحوم حول رءوسهم ، وكانت أصوات الطلقات الغليظة تافهة كأصوات الأغصان المتكسرة فوق هزيم حوافر الخيل المنقضة ثم انحدر ستيوارت من الطريق واندفعوا مباشرة خلال التشجيرات والأعشاب وجاء فرسان الاتحاد من ورائهم وهم يتصايحون ، إلا أن ستيوارت جمع فصيلته فى دائرة محكمة وأوقفها وهى تلهث فى أجمة كثيفة موحلة ، ومن هناك سمعوا أصوات المطاردين وهم يندفعون بعيداً .

ثم استأنفوا سيرهم وعادوا إلى الطريق ومضوا فى اتجاههم السابق ، صامتين ولكن فى انتباه شامل . ومن اليسار قعقعت أصوات المطاردين ثم ماتت فى النهاية ثم أسرعوا مرة أخرى ولكن الغابات تكاثفت أيضا فأرغمتهم على الإبطاء ثم على المشى فقط ورغم أنه لم يعد ثمة مزيد من إطلاق النيران ، كما كفت الأبواق ، وصمتت ، فإنه ـ وفوق أنفاس الخيل القوية والسريعة ، ودوى قلوبهم أنفسهم فى آذانهم ـ كان ثمة

شيء بلا اسم ، توتر ينساب من شجرة إلى شجرة وكأنه سحابة غير مرئية ، حاشداً غابات الصباح الندية بنذر الشؤم ، رغم أن الطيور ظلت تنقض مبرقة من شجرة إلى شجرة ، غير واعية أو متجاهلة هذا كله .

وثمة شيء يلتمع أمامهم من خلال الأشجار . رفع ستيوارت يده فتوقفوا وأسكتوا خيولهم ومضـــوا يرقبونه بهدوء وهم يحبسون أنفاسهم وينصتون . ثم تقدم مرة أخرى واخترق الأعشاب والشجيرات إلى أرض مكشوفة أخرى ، وتبعوه ، ومن أمامهم كانت الربوة ومائدة الإفطار المهجورة وخيمة التموين المســـلوبة ، واتجهوا إليها حذرين بخطى سريعة وتوقفوا عنـد المـائدة بينما مضى الجنرال يكتب بسرعة على قطعة من الورق .

استلقت الربوة تحت ذلك الصباح الذهبي ، هادئة خالية من كل نذير وقد استلقى فى أعماقها ، وكأنهـا بحيرة ، سلام عميق أزلى ، كأنه نبيـذ ذهبي ، ولكن تحت هذه الوحدة وفى ثناياها ، كان نذير الشؤم الذى لا يحمل اسما فى الانتظار ، صابراً متأملا شريراً .

قال ستيورات آمراً « سيدى ، سيفك » ، وخلع الأسير سلاحه وأخذه ستيورات ، وثبت به مذكرته المخطوطة إلى المائدة .

« تحيات جنرال ستيوات إلى جنرال بوب ، إنه يأسف لأنه لم يجده مرة أخرى سيأتى للزيارة أيضا غداً » .

جمع ستيوارت أعنته فى يده وصاح « إلى الأمام »

نزلوا من الربوة وعبروا الأرض الفراغ ، ومضوا ، بسرعة معتدلة ، فى الطـريق الذى قطعوه فجر ذلك اليوم ، وهو الطريق الذى يؤدى إلى مواقعهم . وألقى ستيوارت نظرة إلى الخلف على الأســـير ، على الأسود النبيـل بحمله المزدوج ، وقال مرة أخرى « إذا قدتنـا إلى أقرب جنـدى من حراسكم الراكبين فسأزودك بحصان مناسب » .

قال الضـابط : « هل يعترض جنرال ستيوارت ، قائد الفرسـان ، وعين

الجنرال لى ، سلامته وسلامة رجاله ، وقضيته للخطر لكى يوفر لضابط صغير راحته الوقتية بإعادة سيفه إليه ؟ ليست هذه شجاعة ، إنها اندفاع ولد متهور عنيد . يوجد خمسة عشر ألف جندى فى حلقة حول هذه النقطة وعلى بعد منهما لايزيد على ميلين ، حتى جنرال ستيوارت لايستطيع أن يقهر وحده هذه الكثرة ، رغم أنهم من جنود اليانكى .

وأجاب ستيوارت مترفعاً « سيدى ، ليس هذا من أجل الأسير . ولكن من أجل الضابط الذى يعانى تقلبات الحرب . مامن سيد مهذب يفعل أقل من هذا »

وأجاب الضابط « مامن سيد مهذب له شأن بهذه الحرب ، ليس له ثمة مكان هنا » .

« إنه خطأ تاريخى ، كأسماك الأنشوقة . على الأقل جنرال ستيورات لم يستول على أنشوقتنا ، ثم استطرد يقول ساخراً « قد يرسل لى شخصيا من أجلها » .

« أسماك الأنشوقة » صاح بايارد سارتورس الذى أسرع بحصانه حتى اقترب منهما ، ثم استدار وهتف به ستيوارت ، ولكن سارتورس رفع يده المستهترة العنيدة ومضى مسرعاً ، بينما أخذ الجنرال عدته ليتعقبه ، أطلق حارس من اليانكى سلاحه من جانب الطريق واندفع إلى الغابة ، وهو يصرخ منذرا . وعلى الفور انطلقت بنادق أخرى من كل جانب ، ومن الغابة إلى اليمين جاء صوت وحدة كبيرة أخذت فجأة فى الحركة ، ومن ورائهم ، ومن اتجاه الأكمة غير المرئية انفجرت دفعة من الطلقات . وأسرع ضابط ثالث وقبض على سرج ستيوارت .

قال منفعلا « سيدى ماذا ستفعل ؟ » .

قبض ستيوارت على حصانه ، وهو ينكص على ساقيه الخلفيتين وانفجرت مجموعة أخرى من القذائف من ورائهم ، ثم تناقصت إلى طلقات متناثرة ، ثم ، انفجرت مرة أخرى ، واقترب الضجيج القادم من يمينهم .
وصاح ستيوارت.. « الآن دع الحصان . إنه صديق » .

ولكن الآخر ظل متعلقا بالسرج وصاح « لقد انتهى الأمر ، سارتورس يستطيع أن يقتل ، أما أنت فستأسر » .

وقال الضابط الأسير « سيدى ، أضرع إليك ، إلى الأمام . قيمة إنسان بالنسبة لإيمان مجدد بالبشرية » .

وقال الضابط أركان الحرب « ياجنرال ، حباً فى الله ، اذكر لى » وصاح « إلى الأمام » دافعاً حصانه ، ومجرجراً حصان الجنرال وراءه ، فى اللحظة التى اندفعت فيها فصيلة من فرسان الاتحاد من الغابات وراءهم .

واختتمت العمة جينى قصتها قائلة « وهكذا مضى مستر ستيوارت وركب بايارد عائداً للبحث عن أسماك الأنشوقة ، وكل جيش بوب يطلق عليه النار ، اندفع على حصانه وهو يصيح « يــــا إيه » على يافتيان ، حتى وصل إلى أعلى الربوة وقفز بحصانه فوق مائدة الإفطار ودخل به خيمة التموين المحطة وطاه كان مختبأ تحت الركام مد ذراعه وأطلق الرصاص على ظهر بايارد من غدارة كبيرة .

« قاتل مستر ستيوارت حتى خرج وعاد إلى المعسكر دون أن يفقد إلا رجلين . كان يتحدث بالخير دائما عن بايارد ، قال عنه إنه كان ضابطاً طيبا ، وفارساً ممتازاً ، إلا أنه كان مستهتراً جدا » وقد ظلوا جالسين فى صمت برهة من الزمن فى ضوء نار المدفأة وتصاعدت ألسنة النار وتلوت حول المدفأة وحلقت الشرارات فى المدخنة فى أعمدة وحشية دوامة ومضت حياة بايارد سارتورس القصيرة كأنها نجم محترق مرق فوق السهل المعتم الذى يزدحم بذكرياتهم وعذاباتهم المتبادلة ، فأضاءه بوهج عابر كأنه رعد مكتوم الصوت تاركاً وراءه بعد موته ، نوعا ما من الإشعاع . أما الضيف ، المهندس الإسكتلندى فقد جلس فى صمت ينصت وبعد قليل تكلم .

« وعندما ارتد عليهم لم يكن واثقا تماما من وجود الأنشوقة ، أليس كذلك ؟ » .

وأجابته العمة جينى « الضابط اليانكى قال إنه هناك أنشوقة » .

قال الإسكتلندى مرة أخرى « أى ، وهل عاد مستر ستيوآرت فى اليوم التالى كما قال فى المذكرة ؟ » .

وأجابته مس جينى « عاد ذلك الأصيل ليبحث عن بايارد سارتورس » وتساقطت قشور متوهجة من رماد ناعم كالريش الوردى على الأرض حول المدفأة ، ثم غاضت إلى لون رمادى غاية فى الرقة . وانحنى جون سارتورس على ضوء نار المدفأة وقلب قطع الخشب المشتعلة بماسورة بندقية اليانسكى .

قال « أظنه كان ألعن جيش عرفه العالم على الإطلاق » .

وقالت العمة جينى « أى بايارد كان ألعن رجل فيه » .

وأيدها جون سارتورس قائلا برصانة « نعم بايارد كان طائشا » .

وتكلم الإسكتلندى مرة أخرى « هذا السيد ستيوارت الذى قال إن شقيقك كان مستهتراً ... من كان هو ؟ » .

قالت مس جينى « كان قائد الفرسان ، جوب ستيوارت » . وظلت تتطلع إلى النار لحظة وهى مستغرقة فى تأملاتها ، وللحظة قصيرة طوفت بوجهها الشاحب الذى لايقهر رقة هادئة . قالت « كان له مزاج مرح غريب . مامن شىء كان فى استطاعته فيما يبدو أن يسليه قدر تصوره لجنرال بوب فى جلباب النوم » ومضت تحلم مرة أخرى بمكان بعيد جداً وراء الجرات الحمراء المتعاركة ، ثم قالت : الرجل المسكين ، ثم استطردت تقول بهدوء :

رافقته فى رقصة فالس فى بالتيمور عام ٥٨ وكان صوتها فخورا وهادئاً كبنود معفرة فى التراب .

ولكن الباب كان مغلقا الآن ، وما نفذ من ضوء خلال زجاج النوافذ الملون كان عميقا وحزينا وإلى يسار بايارد ، كانت غرفة حفيده ، حيث ماتت زوجة هذا الحفيد وطفلها فى أكتوبر الماضى وقد وقف بجوار هذا الباب

برهة ، ثم فتحه بهدوء ،كانت الستائر مسدلة ، وقد احتوى الغرفة ذلك الهدوء مبهور الأنفاس الذى يميز الأماكن غير المأهولة .

ثم أغلق الباب ، ومضى متباطئاً ، ووقع أقدامه ثقيل ، شأن من بهم صم ودخل غرفة نومه الخاصة ، وصفع الباب بعنف من ورائه ، كما كانت طريقته فى غلق الأبواب .

جلس وخلع حذاءه ، وهو الحذاء الذى كان يفصل على مقاسه مرتين كل عام ، فى مصنع فى سانت لويس ، ومضى إلى النافذة ، وهو مرتد جواربه وتأمل فرسه المسرجة ، وهى مقيدة إلى شجرة توت فى الفناء الخلفى ، وصبياً أسود نحيفا ككلب صيد ، واقفاً بجمود تام بجوارها ، ومن المطبخ ، الذى لايرى من هذه النافذة ، كان غناء النورا الذى لاينقطع يفيض على المشهد الهادىء ويفيض دون أن يسمعه بايارد .

عبر الغرفة إلى الصالون وأخرج زوجا من أحذية الركوب المخدشة ، ووضع قدميه فيهما وأخذ سيجارا من المرطب الموضوع على المنضدة بجوار فراشه ، ثم ظل واقفا لحظة والسيجار البارد بين أسنانه . ومن فوق نسيج سترته لمست يده الغليون فى جيبه ، فأخرجه ونظر إليه مرة أخرى وبدا له وكان فى استطاعته ، أن يسمع ولايزال ، ألفاظ العجوز فولز ، وهى تتردد فى ضجيجها مرة أخرى . « كان الكولونيل جالسا هناك على مقعد ، وساقه مستندة إلى حاجز الفناء ، وكان يدخن من هذا الغليون نفسه . وكانت لوفينيا جالسة على الدرج ، تقشر ملاء قدر من البقول للعشاء ، وفى تلك الأيام ، كان يسعد الرجل أن يحصل على البقول أحيانا . وأنت كنت جالسا هناك مستندا إلى هذا العمود . لم يكن ثمة شخص آخر ، عدا عمتك التى كانت قبل أن تأتى مس جينى . أرسل الكولونيل البنتين إلى جدك فى ممفيس ، عندما ذهب لأول مرة إلى فرجينى مع ذلك اللواء الذى انقلب عليه ، وصوت ضده ، وطرده من القيادة . صوت ضده لأنه رفض أن يرفع الكلفة مع كل من هب ودب وكل لص عاص من لصوص المعسكرات ،

الذين يأتون ببندقية مخطوفة زاعمين أنهم جنود . أظنك كنت فى منتصف الطريق إلى أن تبلغ أشدك ياباپارد ، كم كانت سنك حينئذ ؟

« أربعة عشرة . هل على أن أقول لك هذا كل مرة تروى فيها هذه القصة الملعونة ؟ »

وكنت جالسا هناك ، عندما دخلوا من البوابة ، واندفعوا بخيولهم فى طريق العربة ، أسقطت لوفينا إناء البقول من يدها ، وأطلقت صرخة واحدة ، ولكن الكولونيل أسكتها وأمرها أن تسرع وتعد له حذاءه وغداراته وتنتظره عند الباب الخلفى ، وأنت جريت إلى الجرن لتسرج الحصان . وعندما دخل جنود اليانكى وتوقفوا — توقفوا هناك بالضبط حيث تجد حوض الزهور هذا الآن . لم يكن ثمة أحد على مرأى منهم عدا الكولونيل وهو جالس هناك وكأنه لم يسمع قط عن اليانكى » .

« وجلس جنود اليانكى على خيولهم ، يتحدثون معاً ، ويتساءلون إذا كان هذا هو البيت المقصود أم لا ، والكولونيل جالس هناك ، وساقه ذات الجورب القصير على سور الفناء ، يحملق فيهم وكأنه جدى وحشى من التلال . ثم طلب ضابط اليانكى من أحد رجاله أن يركب عائداً إلى الجرن ويبحث عن الحصان ، ثم يقول الضابط للكولونيل .

« جونى ، اسمع ، أين يقيم العاصى جون سارتورس ؟ »

ويقول الكولونيل دون أن تطرف له عين « يقيم فى بيت على الطريق ، على بعد ميلين تقريباً . ولكنك لن تجده الآن . لقد ارتحل مرة أخرى ، ليحارب اليانكى » .

قال ضابط اليانكى ، « حسنا . أظنه من الأفضل ، على أى حال ، أن تأتى معنا ، لتدلنا على الطريق » .

« ثم وقف الكولونيل متباطئا ، وطلب منهم أن يسمحوا له بإحضار حذائه وعكازته وطلع نحو البيت ، وتركهم هناك جالسين ينتظرونه .

. » وبمجرد أن اختفى من مجال رؤيتهم ، جرى . وكانت لوفينيا العجوز تنتظر عند الباب الخلفى بسترته وحذائه وغداراته وتصبيرة من خبز القمح . أما اليانكى الآخر فقد ركب إلى الجرن ، وأخذ الكولونيل الأشياء من لوفينيا وطواها فى سترته ، ومضى عبر الفناء الخارجى ، وكأنه يتمشى . وقرابة هذا الوقت جاء اليانكى أيضا إلى الجرن « .

ويقول اليانكى « لا يوجد حصان هنا على الإطلاق » .

ويقول الكولونيل وهو ماض فى طريقه « أظن ذلك . الكابتن يطلب منك أن تعود » . وكان فى استطاعته أن يشعر بذلك اليانكى وهو يرقبه ، ويتطلع مباشرة إلى ما بين كتفيه حيث يمكن أن تقتل الرصاصة . ويقول الكولونيل إن ذلك كان أشق الأشياء التى فعلها فى حياته على الإطلاق ، أن يمشى عبر ذلك الفناء ، وظهره إلى ذلك اليانكى ، دون أن يندفع جارياً . كان متجهاً نحو ركن الجرن ، حتى يصبح فى استطاعته أن يجعل البيت بينهما . قال الكولونيل إنه بدا له وكأنه ظل ماشيا عاماً كاملاً دون أن يتقدم ، ولا يجرؤ فى نفس الوقت على النظر إلى الخلف . وقال الكولونيل إنه لم يفكر فى شىء أبداً ، عدا شعوره بالسرور لأن البنتين لم تكونا فى البيت ، وقال إنه لم يفكر قط فى عمتك التى كانت هناك فى البيت ، لأنها كما قال . كانت تحمل دم آل سارتورس الخالص . وكانت نداً لأى دستة من جنود اليانكى » .

ثم هتف به اليانكى ، ولكن الكولونيل مضى فى طريقه ، دون أن ينظر إلى الخلف ، أو يفعل شيئاً ، ثم ناداه اليانكى مرة أخرى ، ويقول الكولونيل إنه كان فى استطاعته أن يسمع حركة الحصان وقرر أن اللحظة مناسبة لأن يحرك ساقيه ، فأسرع إلى ركن الجرن ووصل إليه فى اللحظة التى أطلق فيها اليانكى رصاصته الأولى ، وفى الوقت الذى وصل فيه اليانكى إلى الركن ، كان الكولونيل فى الأرض المسيجة مندفعا خلال الأعشاب متجها نحو الخور حيث كنت تنتظره بالحصان المخبأ بين أشجار الصفصاف ،

« وكنت هناك واقفاً ، وممسكا بالحصان ، وذلك اليانكي هناك وراءكم يصيح ، حتى وضع الكولونيل حذاءيه فى الركاب ، ثم قال لك بعد ذلك أن تخبر عمتك أنه لن يعود للبيت للعشاء . سأله وهو يتحسس الغليون بأصابعه ، « ولكن لأى سبب تعيده إلى ، بعد كل هذا الوقت ؟ » وقال العجوز فولز إن ملجأ الفقراء لم يكن مكانا مناسبا له .

« شيء كان يضعه فى جيبه ، ويستخلص منه فى تلك الأيام البعيدة متعه . أحسب الأمر كان مختلفا ـ على ما أظن ـ حينما كان يبنى خط السكة الحديدية . كان يردد كثيراً جداً ، فى تلك الأيام ، إننا كلنا سنذهب إلى ملجأ الفقراء قبل حلول مساء السبت إلا أننى سبقته إلى هناك . وصلت إلى هناك قبل أن يفعل . أو الأرجح ربما كان يقصد المقبرة ، وهو راكب حصانه صاعد هابط حيث كان يبنى الخط ، وحقيبة مملوءة بالنقود مثبته إلى سرجه ، ليلا ونهاراً ، وكما قال كان بينه وبين الإفلاس مسافة قصيرة كان هذا عندما تغيرت الأمور ، عندما تحتم عليه أن يبدأ فى قتل الناس . فهناك المحرضان السياسيان اللذان أخذا فى إثارة السود ، دخل مباشرة إلى الغرفة ، حيث كانا جالسين وراء منضدة ومسدساهما موضوعان أمامهما ، وذلك اللص ، والشخص الآخر الذى قتله ، كلهم بنفس هذا المسدس الأمريكى الثقيل ـ عندما يضطر رجل إلى أن يبدأ فى قتل الناس ، فالمرجح دائما أن يضطر إلى المضى فى قتلهم ، وعندما يفعل ، فإنه يكون قد مات بالفعل .

وطفت ظلال الشؤم والهلاك المحتوم على جبين جون سارتوريس فى تلك الليلة حينما كان جالساً يتحدث إلى ابنه فى ضوء الشموع ، فى غرفة المائدة وهو يدير كأسا من النبيذ بين أصابعه .

كان خط السكة الحديدية قد تم ، وفى ذلك اليوم انتخب للمجلس التشريعى للمقاطعة بعد معركة عنيفة مرة ، حينئذ اضطجع الموت على جبينه ، والتعب . قال « وعلى ذلك ، سيقتلنى ردلو غداً لأننى لن أكون مسلحاً . تعبت من قتل الرجال . . ناولنى النبيذ يا بايارد » .

وفى اليوم التالى كان ميتا ، ومن ثم ،. وكأنه لم يكن عليه إلا أن ينتظر هذا لكى يتحرر من قعقعة العظم والنفس الغبية ، ويتخلص من نقائص جسده ذاته ، ومن ثم ، أصبح الآن فى استطاعته أن يشدد ويشكل ذلك الشيء الذى خرج من ظهره ، فكان أشبه بحلم مشئوم يحلمه المرء ، وأن يستحضر كروح الجن أو كابه عن طريق ذكريات رجل عجوز أى عملة أو بغليون متفحم غاضت منه ، منذ زمن بعيد ، حتى رائحة الطباق المحترق العطنة .

ونهض بايارد العجوز ، وذهب ووضع الغليون على صوانه ، ثم غادر الغرفة ومضى متثاقلا على الدرج وخرج من الباب الخلفى .

تنبه الصبي الأسود بسرعة . وفك عقال الفرس وأمسك بالركاب . وامتطى بايارد العجوز حصانه ، وتذكر السيجار أخيراً ، فأشعله . وفتح الزنجى البوابة إلى الأرض الفضاء وركض فى مقدمة الحصان ، وفتح البوابة الثانية ، التى تؤدى بالراكب إلى الحقول ومضى بايارد وهو يجرجر وراءه دخانه ذا الرائحة النفاذة ، ومن مكان ماجاء كلب صيد مرقط ومشى بين عقبي الفرس .

وقفت النورا حافية على أرض المطبخ ، ثم قذفت ممسحتها فى دلو الماء ، ثم ضربت الأرض بها مرة أخرى .

الخاطىء يقف من على دكة المنتحبين

الخاطىء يقفز إلى دكة التائبين

عندما يسأله الراعى ما السبب ، لماذا

يقول « الراعى أخذ المرأة تماما مثلى »

أوه ، يا الله ، أوه ، يا الله !

تلك هي مشكلة الكنيسة اليوم .

ـ ٢ ـ

كانت وجهة سيمون بيتاً كبيراً من الآجر ، بنى قريباً جداً من الشارع ، كانت الأرض مكاناً لبيت ريفى عتيق جميل ، استقر بين أشجار المنوليا والبلوط والشجيرات المزهرة . ولكن البيت احترق ، وقطعت بعض الأشجار لتدع مكانا لبشاعة معمارية بلغت من الفظاعة المهيبة حداً أكسبها نوعا ما من الجلال . كانت تذكاراً لحسن تدبير أحد رجال التلال ، وكانت كذلك ضريحاً لأمنيات نسائه الاجتماعية . نزح رجل التلال هذا من ضيعة صغيرة تسمى فرنشمانزبند ، حيث كان قد بنى فيها - كما تقول مس جينى دوبرى التلال بيت على أجمل قطعة أرض فى جيفرسون . وقد احتمل رجل أجمل هذه الحياة عامين كاملين ، كانت نساء بيته خلالها يقضين ساعات الصباح كله جالسات فى الشرفة بقبعات النوم الموشاة حوافيها بالدانتلا ، ويقضين ساعات الأصيل مرتديات الحرير الملون ، ويتجولن فى المدينة فى عربات ذات إطارات مطاطية ثم باع رجل التلال بيته لرجل وافد على البلدة ، وعاد بنسائه إلى الريف ، ودون شك ، دفعهن للعمل من جديد .

اصطف عدد من السيارات على امتداد الطوار ، فأشاعت فى المكان جو الاحتفالات الرسمية واستدار سيمون بعقب سيجاره المائل ، وشد الأعنة ، ودخل فى مهاترة مختصرة صاخبة مع زنجى جالس أمام عجلة قيادة سيارة كانت تنتظر أمام مكان وقوف العربات . واختتم سيمون صخبه بقوله « أيها الولد الأسود ، لاتسد الطريق أمام أى من عربات سارتورس » وذلك فى الوقت الذى دفع فيه الآخر السيارة ، وترك له منفذاً إلى عمود ربط الخيل (ثم قال) : سد الطريق أمام الدهماء ، إذا أردت ، ولكن لاتعترض عربة تنتظر الكولونيل أو مس جينى . إنهما لن يقبلا شيئاً من هذا » .

ونزل وقيد الخيل ، وقد طاب خاطره باللوم الذى وجهه ، واغتسلت روحه

بجمال الفوز الذى حققه . توقف سيمون وأمعن النظر فى السيارة بشغف وقدر غير قليل من العجرفة المختلطة ببعض من الغيرة والاحترام ، وتحدث برقة مع سائقها ـ . لكنه لم يتحدث طويلا ، ذلك لأن سيمون كانت له أخوات فى الله فى المطبخ ، وفى الحال سمح لنفسه بالدخول فى الفناء ومضى فى الممر المغطى بالحصى حول البيت إلى خلفه . كان فى استطاعته وهو يمر تحت النوافذ ، أن يسمع ضجيج الحفل ـ تلك الثرثرة المتصلة غير المفهومة التى تستطيع السيدات البيضاوات أن يحطن أنفسهن بها بلا جهد ، والتى يبدو أنهن يعتبرنها شيئا ضروريا (أو على الأقل لامناص منه) لقضاء وقت طيب . أما كونه حفلا للعب الورق ، فلم تبد هذه الحقيقة بالنسبة لسيمون أمراً غير مألوف أو مثيرا للدهشة ، لأن الزمن والتجربة العميقة الطويلة قد أكسبته حاسة رفيعة من السماحة تجاه أهواء البيض ، والسيدات من كل لون .

بنى رجل التلال بيته قريبا جدا إلى الشارع فظل بذلك الجزء الأكبر من المرج الأصلى بأشجاره العتيقة الجليلة خلف البيت . ويوما ما كانت هناك أشجار ريحان شامى أسود وبرتقال كاذب ، وسوسن أرجوانى ، وخمائل ياسمين منتثرة بلا نظام ، وحشود من الياسمين البرى فوق الأسوار وسيقان الأشجار ، وبعد أن احترق البيت الأول ، احتلت المكان كله ، واصطنعت ، من أشكالها الشعثاء ، دغلا مزدحما معطراً ، . أحبته الببغاوات وطيور السمان المغردة ، حيث كان الأولاد والبنات يتلبثون فى أمسيات الربيع والصيف بين الحباحب المضيئة السابحة ، وتراتيل حشرات الهيبورويل ، وعادة صرخة من بومة صياحة تنسال متقطعة صاعدة هابطة . ثم اشتراه بعد ذلك رجل التلال وقطع البعض من الأشجار ليبنى بيته بالقرب من الشارع على طراز الريف ، وقطع الدغل وطلى الأشجار المتبقية باللون الأبيض ، ومد حواجز أجرانه وزرائب خنازيره وبيوت دجاجه بين سيقانها التى كانت تبدو كالأشباح . ولم تطل إقامته حتى يعرف عن الجراجات شيئا .

وقد تناقص بعد ذلك عقم الدمار الذى ألحقته إقامته بالمكان ، فقد زرع المالك الجديد مزيداً من الشجيرات ـ ياسمين و برتقال كاذب و بريتيا ـ ووضع تحتها موائد ومقاعد حديدية خضراء ، وبنى حمام سباحة وملعب تنس ، ومضى سيمون بثقة وحذر وأخذ طريقه إلى المطبخ مهتديا بطنين أصوات نسائية رتيب ، حيث كانت امرأة نحيفة مرتدية عمامة حداد بنفسجية ، ترفع بصعوبة بسكوتة إلى فمها كومت عليها المايونيز ، وأخرى جسيمة هائلة الحجم قد ارتدت مئزرة الخدم الملطخة . وكانت تشرب الجيلاتى الذائب من طبق . وقد أدارت المرأتان أعينهما نحوه .

كانت الضيفة تقول « رأيته فى الشارع ـ كان فى حالة سيئة . إنه لايهتم بنفسه أبدا » .

ثم دخل سيمون فتركنا موضوع الحديث ورحبتا به .

قالتا معاً : « إن لم يكن هذا هو الأخ ستروثر ، تفضل ياأخ ستروثر ، كيف حالك ؟ »

أجاب سيمون : « فى حالة سيئة ياسيداتى ، فى حالة سيئة » وخلع قبعته وألقاها جانبا ونزع عقب السيجارة من فمه ووضعه فى القبعة ، ثم قال : « إن ظهرى يؤلمنى ألماً شديدا ، هل كلكم بخير ؟ »

وأجابت الضيفة : « على مايرام ، أشكرك أيها الأخ ستروثر » وجر سيمون مقعداً إلى المائدة كما طلب إليه أن يفعل .

سألته الطاهية بكرم ، « أخ ستروثر ، ماذا ستأكل ؟ هنا بعض أطعمة الحفل وتوجد بعض الخضر الباردة ، وقليل من الجيلاتى السائل المتبقى بعد العشاء »

أجاب سيمون : « أخت راشيل . أظننى سآخذ قليلا من الجيلاتى وبعض الخضر ، ثم استطرد يقول « لم تعد أسنانى تحتمل أطعمة الحفل ، ونهضت

الطاهية بتؤدة مهيبة وتهادت عبر المطبخ إلى صوان الآنية وأخذت طبقا . كانت واحدة من أفضل طاهيات جيفرسون ، وما من سيدة كانت تجرؤ على نقد مستوى مطبخ راشيل الاجتماعى الرفيع .

قالت الضيفة « إذا لم تكن أشق رجل ! تأكل الجيلاتى فى سنك ! »

وقال سيمون « ما زلت آكل الجيلاتى ستين عاما . أى مبرر عندى لكى أقلع عنه الآن ؟ »

قالت الطاهية مؤيدة ، وهى تضع الطبق أمامه « هذا صحيح أيها الأخ ستروثر كل الجيلاتى عندما تستطيع الحصول عليه . دقيقة واحدة وسأ . . . ميلونى ، اسمعنى » قطعت حديثها عندما دخلت زنجية شابة رشيقة ترتدى مئزرة بيضاء أنيقة وقبعة . كانت تحمل صينية من الأطباق تحوى بقايا المستحضرات الغذائية المنقولة من صور المجلات النسائية ، كانت تخلو من الحجم والقوت ، كانت المحتفلات يخمدن بوساطتها شهيتهن لتناول العشاء . قالت الطاهية : « حبيبتى ، أحضرى للأخ ستروثر ملء هذه القصعة من الجيلاتى » .

قذفت الفتاة الصينية فى حوض الغسيل ، وشطفت الإناء بماء الصنبور ، بينما كان سيمون يرقبها بعينيه الصغيرتين الثابتتين ، ثم جففته بمنشفة بسرعة البرق ، باستعراض رفيع من عدم الاهتمام المهين ، ومضت توقع عبر المطبخ بكعبى حذائها العاليين ، وذقنها مرفوعة بزاوية متشامخة ، بينما كان سيمون يرقبها بعينيه اللتين لا تطرفان ، ثم صفقت الباب وراءها وأدار سيمون رأسه .

قال مرة أخرى « نعم . سيدتى . ما زلت آكل الجيلاتى منذ زمن طويل جداً بحيث إنه لا يمكننى أن أقلع عنه فى سنى هذه » .

وقالت الطاهية مؤيدة ، وهى ترفع مرة أخرى طبقها إلى شفتيها : « لن يؤذيك أى نوع من الطعام ما دام فى استطاعتك أن تهضمه » . ثم عادت الفتاة ، وما زالت تصعر خدها ، ووضعت قصعة السائل الثخين أمام سيمون الذى تستر بحركتها ، وأسقط يده على فخذها ، فصفعته الفتاة بكفها بعنف على مؤخرة رأسه الشيباء .

قالت « مس راشيل ، ألا تستطيعين أن تجعليه يحتفظ بيديه لنفسه » .

فسألته راشيل لائمة ، ولكن دون مرارة « ألا تخجل ؟ رجل عجوز أشيب مثلك،وبعائلة وأبناء بالغين ، وإحدى قدميه فى القبر ؟ »

قال سيمون بنعومة ، وهو يضع السبانخ فى الجيلاتى الذائب « اقفلى فلك يا امرأة . ألسن على وشك الانتهاء من حفلهن هناك ؟ »

قالت الضيفة وهى تضع ، بحركة رقيقة متأنقة بسكوتة فى فمها « أظنهن على وشك . يبدو أنهن يتكلمن بصوت أعلى » . .

فصحح سيمون ما قالته « إذن ، فقد بدأن اللعب من جديد . هبط الحديث فقط عندما كن يأكلن . نعم يا سيدى لقد بدأن اللعب من جديد . هؤلاء هم البيض . ليس للسود ما يكفى من إدراك ، ليلعبوا الورق فى مثل هذا الضجيج » .

إلا أنهن كن قد أخذن فى التفرق . وقد انتهت مس جينى دوبرى ، ولم تكد ، من قصة ، تركت الثلاث اللاتى كن معها على المائدة ، خجلات إلى حد محدود ، وعينا كل منهن تتحاشى الأخرى ، وتلك كانت طريقتها ، كانت مس جينى تسافر قليلا جداً ، ولم تكن تركب عربات البولمان على الإطلاق . وكان الناس يعجبون من أين تأتى بقصصها هذه ، ومن الذى رواها لها . وكانت تعيد روايتها فى أى مكان وفى أى وقت ، متخيرة فى ذلك اللحظة غير المناسبة والجمهور غير المناسب . وبجرأة باردة مرحة وكان الشباب يميل إليها ، وكانوا يلحفون فى طلبها وصحبتها فى رحلاتهم .

وقد وقفت تتحدث إلى مضيفتها عبر المائدة وتقول : بيل ، سأعود إلى البيت الآن . أظننا تعبنا جميعاً من حفلك . أنا أعرف أننى على الأقل قد تعبت . أما المضيفة فقد كانت امرأة ممتلئة ، شابة إلى حد ما ، وطفا على وجهها المجمل بالمساحيق ببراعة ، استغراق عصبى كاد أن يكون استرخاء تاما . ثم غاض بسرعة ، عندما اقتحمت مس جينى وعيها بحديثها عن الانصراف ، وعادت إلى وجهها ملامحه المعتادة التى تعبر عن التوتر

والتبرم الغامض ، واحتجت كما تقتضى ذلك التقاليد ولكن بإخلاص نزق ، كما قد تفعل فتاة حسنة التربية .

ولكن مس جينى قد عقدت عزمها بإصرار . فوقفت ، ونفضت يدها المغضنة فتات خبز غير مرئية من صدر ثوبها الأسود الحريرى ، وقالت بصراختها المعتادة « إذا انتظرت أكثر ، فسيفوتنى وقت عشاء بايارد ، نارسيسا ، هيا ، تعالى أوصلك فى عربتى إلى بيتك » .

قالت المرأة الشابة التى وجهت إليها دعوتها ، « معى سيارتى ، شكراً لك يا مس جينى » .

وكان صوتها جاداً رناناً رخيما ، ثم وقفت ، ووقفت الأخريات كذلك وأخذن فى التجمع وأثوابهن تحدث أصواتاً رفيعة غطت على احتجاجات المضيفة المنغمة النزقة ، وسرن ببطء إلى البهو ، وتجمعن مرة أخرى أمام المرايا المختلفة ، وكلهن ألوان وصخب حاد . ومضت مس جينى بانتظام نحو الباب .

قالت مرة أخرى « هيا . . . هيا . . . هارى متشل لن يحب أن يجد نفسه فى كل هذا الضجيج عندما يعود من عمله إلى البيت » .

وهنا ردت عليها المضيفة بعنف « إذن فسيكون فى استطاعته أن يجلس فى السيارة بالخارج فى الجاراج . مس جينى ، أنا أريد منك فعلا ألا تذهبى . أحسبنى لن أدعوك لزيارتى مرة أخرى » .

ولكن مس جينى قالت بلطف بارد ، « وداعا . وداعا » ووقفت على أول الدرج ، وأنفها صورة رقيقة طبق الأصل لأنف آل سارتورس ، وظهرها مستقيم كظهر الجندى ، لا يتحـــداه فى الاعتدال ظهر آخر فى البلدة ، خلا ابن أخيها بايارد . وقفت عند أول الدرج حيث لحقت بها نارسيسا بنبو ؟ وقد حملت معها كعطر ، هالة الصفاء الحزين الوقور التى كانت تعيش فيها .

قالت مس جيني . « بيل عنت هذا أيضاً ؟ »

« عنت ماذا يا مس جيني ؟ »

« ما قالته عن هاري . . . الآن ، أين تظنين هذا الأسود الملعون قد ذهب ؟ » ثم نزلتا الدرج ، ومن السيارات المنتظرة بجوار الطوار جاءت انفجارات تحركها المكتومة ، وقطعت المرأتان الممشى القصير الذي تحده أحواض الزهور إلى الشارع ، ثم سألت مس جيني زنجيا في سيارة قريبة ، « هل رأيت في أي طريق مضى سائقي ؟ »

ـ « ذهب متجها إلى خلف البيت يا سيدتي » .

وفتح الزنجي باب السيارة ، وانزلق بقدميه منها . كان يرتدي سترة عسكرية وسروالا من اللينوليم.

قال « سأذهب لاستدعائه »

قالت « أشكرك » . ثم استطردت تقول « حسنا . شكراً لله . أن انتهى الحفل » ثم أضافت « من السيء جداً ألا يكون لدى الناس من حسن التدبير والشجاعة ما يهديهم إلى إرسال الدعوات ثم إلى إغلاق بيوتهم والذهاب بعيداً . كل متعة الحفلات هي في ارتداء الملابس والذهاب إليها » جاءت السيدات عبر الممشى في مجموعات تتحدث بأصوات رفيعة ، وركبن السيارات ، أو عدن على الأقدام ، وهن يتبادلن النداءات والتحية بألفاظ بهيجة وإن لم تكن حلوة الوقع تماما . وكانت الشمس قد انحدرت وراء بيت بيل ، وعندما عبرت النسوة الظل إلى أشعة الشمس الأفقية ، أصبحن رقيقات لامعات كالببغاوات الصغيرة . كانت نارسيسا بنبو ترتدي ثوباً أزرق وكانت عيناها بنفسجيتين ، وعلى وجهها ، كان استرخاء السوسن الهادئ .

قالت محتجة « أنت لا تقصدين حفلات الأطفال »

قالت مس جيني « أنا أتكلم عن الحفلات ، لا عن قضاء وقت ممتع . تتكلمين عن الأطفال . . بهذه المناسبة ، ما هي أخبار هوراس ؟

قالت الأخرى بسرعة ، أوه ، ألم أقل لك ؟ وصلتني برقية أمس . نزل فى نيويورك يوم الأربعاء الماضى . كانت أشد ما تكون اضطراباً . لم أستطع أبدا أن أفهم ماحاول أن يقوله لى عدا أن عليه أن يبقى فى نيويورك لمدة أسبوع أو مايقرب من ذلك . كانت أكثر من خمسين كلمة .

سألت مس جينى « وهل كانت رسالة مباشرة ؟ » وقالت الأخرى نعم ، فاستطردت تقول « هوراس لابد وقد أصبح ثريا ، كما يقول الجنود عن كل أعضاء جمعية الشبان المسيحيين . حسنا ، إذا كانت الحرب قد علمت رجلا مثل هوراس كيف يكتسب المال ، فإن الحرب تكون شيئا طيبا جدا ، رغم كل شىء » .

«مس جينى ، كيف تستطيعين أن تتحدثى بهذه الطريقة بعد جون ـ بعد ... »

قالت مس جينى « هراء . أعطت الحرب جون مبرراً طيبا لكى يقضى على حياته ، ولو لم تتيسر له الحرب ، لقضى على حياته بأسلوب آخر يكون مصدر ضيق كل شخص من حوله »...

« مس جينى » .

« أنا أعرف ياعزيزتى . لقد عشت مع رءوس الثيران هؤلاء آل سارتورس ، ثمانين عاما ولن أمنح شبحا واحدا منهم مطلقا شعور الرضا بدمعة أزرفها عليه . ماذا قال هوارس فى رسالته ؟ » .

قالت الأخرى ، « كانت عن شىء سيحضره إلى البيت » .

وامتلأ وجهها الهادىء بنوع ما من الحنق الودود ، وقالت . « كم كانت مفككة ومضطربة ، تلك الرسالة ـ ما استطاع هوراس أبداً أن يقول لى ـ وهـــو بعيد عنى ـ أى شىء ـ بوضوح » ، وعادت إلى تأملاتها من جديد ، وهى تتطلع إلى الشارع الممتد ، الذى يشبه سرداباً من أشجار البلوط والدردار ، تنفذ منه أشعة الشمس على مسافات متباعدة ، لترتسم على الأرض وكأنها جلد نمر مبرقش . قالت « هل تظنينه تبنى طفلا من أيتام الحرب ؟ »

قالت مس جيني مرددة ، « طفلا من أيتام الحرب ، الأقرب أن تكون أم طفل من أيتام الحرب ؟ » .

ظهر سيمون من وراء ركن البيت وهو يمسح فمه بظهر يده ، وعبر المرج مسرعا وهو يجرجر قدميه على الأرض ، ولم يكن سيجاره ظاهرا .

قالت الأخرى بسرعة وقلق بالغ ، « لا . أنت لاتعتقدين أنه فعل هذا ؟ . لا ، لا .. لن يفعل ، هوراس لن يفعل هذا . إنه لايفعل شيئاً دون أن يخبرني عنه مقدما . لو فعل لكتب لي . أنا أعرف أنه كان يكتب إلى . أنت لاتعتقدين فعلا ، أن هوراس يفعل مثل هذا الأمر ، أليس كذلك ؟ مثل هذا الأمر ؟ »

قالت مس جيني ، وهي تزفر من أنفها النورماندية ذات العظمة المرتفعة .

« رجل برىء كهوراس ، بما يتميز به من ثقة وبساطة ، وقد ضل طريقه بين كل هؤلاء النسوة الأوربيات اللاتي يعانين من مجاعة للرجال . لن يعرف هو نفسه الأمر ، قبل فوات الأوان . وخاصة بلغة أجنبية . أنا أراهن ، في كل بلد أقام فيها أكثر من سبعة أيام ، فإن صاحبة البيت أو امرأة ماكانت تحتفظ له بعشائه دافئا على الموقد إذا تأخرت عودته إلى البيت ، أو كانت تحتجز له السكر من الرجال الآخرين لتحلى به قهوته . . بعض الرجال قد ولدوا لتكون لهم دائما امرأة تجعل من نفسها وطاء ينظفون عليه أحذيتهم ، تماما كما ولد آخرون لتخونهم زوجاتهم . . كم عمرك ؟

قالت المرأة الأخرى بصوت متزن ، « مس جيني ، مازلت في السادسة والعشرين » .. فك سيمون مقاود الخيل ، وقد وقف الآن بجوار العربة ، بالطريقة التي يقف بها لمس جيني ، وهي تختلف عن وقفته أمام المصرف . فيها الآن شهامة ورعاية وإكرام . ونظرت مس جيني إلى الصفاء الهادىء المرتسم في وجه المرأة الأخرى . وقالت :.

« لم لا تتزوجين ، وتدعين هـذا الطفل يعنى بنفسه فترة من الزمن ؟ اذكرى كلماتى . لن تمضى ستة أشهر حتى تفعل امرأة أخرى كل ما فى وسعها لكى تفوز بامتياز تجفيف قدميه وحينئذ لن يشعر حتى بغيابك »

قالت الأخرى بهدوء دون أن تغضب « لقد وعدت أمى . لا أدرى لم لم يستطع أن يبعث إلى رسالة يمكن أن تفهم ؟ » .

قالت مس جينى وهى تستدير إلى عربتها « حسنا . ربما يكون يتيم حرب فقط » ، ولم يكن فى كلماتها المطمئنة ثمة عزاء .

قالت الأخرى ، « على أى حال ، سأعرف قريباً » وعبرت إلى سيارة صغيرة بجوار الطوار وفتحت الباب .

ركبت مس جينى عربتها وصعد سيمون وجمع الأعنة فى يده ، ثم هتف بها والعربة تتحرك ، « دعينى أعرف عندما يبلغك شىء ، تعالى إلينا وخذى زهورا عندما تريدين » .

« شكراً لك . وداعا »

« سيمون هيا » وتحركت العربة مرة أخرى ، ومرة أخرى حبس سيمون أخباره حتى أصبحا خارج البلدة .

قال بأسلوبه السابق فى الحديث ، « مستر بايارد عاد إلى البلدة »

فسألته مس جينى على الفور « أين هو ؟ »

وأجابها سيمون : « لم يأت بعد إلى البيت . أظنه ذهب إلى المقابر »

فصاحت مس جينى . « هـراء . ما من سارتورس يذهب إلى المقابر إلا مرة واحدة .. هل يعلم الـكولونيل أنه عاد إلى البلدة ؟ »

ـ « نعم ياسيدتى . أنا أخبرته . ولكنه يتصرف وكأنه لايصدق أننى قلت له الحقيقة »

ـ أنت تعنى أنه ما من شخص رآه إلا أنت ؟

فأنكر سيمون فى الحال قائلا ، « ولا أنا أيضا رأيته . سكسيون رآه يقفز من القطار وأخبرنى » . .

فانفجرت مس جينى صائحة ، « أنت أيها الأسود الغبى الملعون ! أنت ذهبت وقلت شيئاً غبيا كهذا لبايارد ؟ ألا تستطيع أن تتصرف بحكمة أكثر مما تفعل ؟ » .

قال سيمون مكرراً بعناد ، « سكسيون رآه . أظنه يستطيع أن يتعرف على مستر بايارد عندما يراه » .

ـ حسنا ، أين هو إذن ؟

قال مرجحا ، « وربما يكون قد ذهب إلى المقابر »

ـ « امض » .

وجدت مس جينى ابن أخيها مع كلبى الصيد فى مكتبه . كانت الغرفة حافلة بخزائن من الكتب التى تحتوى صفوفا من كتب القانون الثقيلة المغلفة بجلد العجول السنجابى اللون وكانت تبعث من حولها جوا من القدم والتأمل الهادىء المتصل ، وأخلاطا من الروايات من المدرسة التاريخية الرومانسية (كل مؤلفات دوماس كانت هناك ، والمجلدات التى ترد منها بانتظام تكون كل ما يقرأه بايارد ، ويوجد مجلد منها دائماً على المائدة الصغيرة بجوار فراشه) ومجموعة من الأشياء بلا تمييز ـ لفافات صغيرة تحوى بذورا ومهاميز عتيقة صدئة ، وشكائم ، وعقد معدنية لسروج الخيل ، وكتيبات عن أمراض الحيوان والخضر ، وأوان مزخرفة لحفظ الطباق أهداها إليه الناس فى مناسبات مختلفة وفى أعياده السنوية ولم يستعملها قط ، وقطع غامضة من الصخور ، وجذور مجففة ، وسنابل قمح جمعت كل فى وقتها ولأسباب غابت كلها منذ زمن طويل من ذاكرته ومع ذلك فقد احتفظ بها ، واحتوت أيضاً الغرفة صواناً

هائلا . بباب أغلق بقفل ومنضدة كبيرة تتناثر عليها مزيد من الأشياء العرضية ، ومكتب بحصيرة مغلقة أيضاً بقفل (المفاتيح والأقفال كانت بالنسبة إليه فكرة ثابتة مسيطرة) وأريكة ، وثلاثة مقاعد كبيرة مكسوة بالجلد . كان يطلق دائماً على هذه الحجرة كلمة المكتب .

أما بابارد ، فقد كان جالساً وقبعته على رأسه ، وقدماه فى حذائى الركوب . كان ينقل ويسكى البوربون من برميل مستدير صغير إلى دورق ذى غطاء فضى ، والكلبان يرقبانه بوقار مهيب .

كان أحد الكلبين عجوزا جدا ، ويكاد أن يكون أعمى . كان يقضى معظم اليوم مستلقيا فى نور الشمس فى الفناء الخلفى ، أو فى العتمة الرطبة المتربة وراء المطهى فى أيام الصيف القائظة ، فإذا تقدم النهار وأوشك العصر أن ينتصف ، دار حول البيت وذهب إلى الفناء الأمامى حيث ينتظر بهدوء ووقار ، حتى تأتى العربة من الممر ، وعندما ينزل بابارد ويدخل البيت ويعود إلى الفناء الداخلى حيث ينتظر مرة أخرى ، حتى يحضر إيزوم الفرس ، ويخرج بابارد ويركب ، ثم يقضيان معاً الأصيل ، وهما يتجولان بهدوء ودون عجلة بين المروج والحقول والغابات فى تحولاتها الموسمية ، الرجل على حصانه ، وكلب الصيد المرقط الجاد بجواره . ومساء حياتهما الزاحف ، يقترب من ختامه الهادىء على الأرض الحنون التى أرضعتهما لبانها معاً .

لم يكن الكلب الصغير قد بلغ العامين بعد ، كان دمه أسرع من أن يحتمل رصانة مجتمعهما طويلا ورغم أنه كان يخرج معهما بين الحين والحين ، أو يأتى جاريا من مكان ما ، وقد تناثر الماء عليه وأخذه الشوق ليلحق بهم وهم فى منتصف الطريق ، فإنه لم يكن ينتظر معهما طويلا ، فما أسرع ما يندفع مبتعدا ، ولسانه مدلى من فمه ، وريش ذيله الدقيق متوتر ، باحثا عن الروائح المغرية المثيرة للجنون التى أحاطته بها الدنيا وأخذت توسوس بها له من كل من دغل وغابة وفج عميق .

كان حذاءا بايارد مبللين حتى القمة والتصقت طبقة من الوحل بنعليهما وقد انحنى باهتمام واستغراق تام على برميله ودورقه ، والكلبان يرقبانه بشغف وقور . كان البرميل مرفوعا على مقعد ثان ، وكان يسحب الخمر البنية اللون الفاخرة بحذر إلى الدورق عن طريق أنبوبة من المطاط ثم دخلت مس جيني ، وقبعتها السوداء مازالت مستقرة فوق قمة رأسها البيضاء الأنيقة بالضبط ، ونظر الكلبان إليها ، الأكبر بكرامة ووقورة ، والأصغر بسرعة أكبر وهو يضرب ذيله بالأرض بحياء وتملق . ولكن بايارد لم يرفع رأسه . وأغلقت مس جيني الباب ، ونظرت ببرود إلى حذاءيه .

قالت ، « قدماك مبتلتان » ، ومع ذلك لم ينظر إليها ، ولكنه ثبت الأنبوبة بعناية فى عنق الدورق ، بينما أخذ السائل يرتفع فيه ، لقد كان صممه متكأ راحة له أحياناً ، وربما كان يدعى الصمم بغية الراحة . ولكن من الذى يستطيع أن يعرف بالضبط ؟ قالت مس جيني آمرة ، وبصوت مرتفع : « اصعد إلى الطابق العلوى واخلع هذا الحذاء . سأملأ الدورق » .

ولكنه ظل هادئاً رابط الجأش وهو قابع فى برج صممه المسور الهادىء حتى امتلأ الدورق ، ثم ضغط على الأنبوب بإصبعه ورفعه ، وصفاه فى البرميل . ولم يتحرك الكلب الأكبر أثناء ذلك ، ولكن الأصغر تقهقر وراء بايارد ، حيث استلقى دون حراك وبيقظة تامة ، ورأسه على قدميه الأماميتين المعقودتين ، ومضى يرقب مس جيني بعين ناعمة لاتطرف . سحب بايارد الأنبوب من البرميل ، ونظر إليها للمرة الأولى وقال « ماذا قلت ؟ » .

ولكن مس جيني عادت إلى الباب وفتحته وصاحت فى البهو ، فأثارت استجابة منزعجة من المطبخ ، لحق بها فى الحال سيمون شخصيا . فقالت له وهى تشير بيدها « اصعد إلى الطابق العلوى وأحضر خفى الكولونيل » . وعادت إلى الغرفة ولكن لابايارد ولا البرميل كانا ظاهرين للعيان ،

ولكن من باب المقصورة المفتوح برزت مؤخرة الكلب الصغير ، وقد أثير اهتمامها فتحرك ذيلها البارومترى حركة شديدة ، ثم دفع بايارد بحذائه الكلب خارج المقصورة ، وخرج هو نفسه ، وأغلق الباب من ورائه. سأل ، « ألم يعد سيمون بعد ؟ »

أجابته قائلة ، « سيأتى الآن . لقد ناديته اللحظة . اجلس واخلع هذا الحذاء المبلل » وفى هذه اللحظة دخل سيمون بالخفين ، وأطاع بايارد وجلس وركع سيمون وخلع الحذاءين تحت عينى مس جينى المدققتين ، ثم سألت ، « هل جواربه جافة ؟ »

أجاب سيمون ، « نعم سيدتى . ليست مبتلة ؟ » ، ولكنها انحنت وتحسستها بنفسها . قال بايارد بغضب « كفى » ولكن مس جينى أجرت يدها برباطة جأش عنيفة فوق ساقيه معا .

قالت عبر جدار صممه الصاعد إلى أعلى بلا نهاية ، « إنها ليست غلطته إذا كانت غير جافة ، ثم يتحتم عليك أنت ، أن تأتى إليه بقصتك الغبية ».

قال سيمون بعناد مرة أخرى « سكسيون رآه ، ثم دفع الخفين فى قدمى بايارد ، « أنا لم أقل أبدا إننى رأيته » ثم وقف ومشى وكفاه على فخذيه.

وقف بايارد ووضع قدميه فى الخفين وقال « سيمون ، احضر معدات الشراب » ثم قال لعمته بلهجة حاول أن يجعلها عرضية « سيمون يقول إن بايارد نزل من القطار أصيل اليوم . » ولكن مس جينى كانت تصيح مرة أخرى فى سيمون كالعاصفة .

« عد إلى هنا وخذ هذا الحذاء ، وضعه وراء الموقد » وعاد سيمون ، ومال بسرعة إلى الحذاء وأخذه . واستطردت تقول « وخذ هذين الكلبين من هنا ، أيضا ، شكراً لله إنه لم يدر بخلده أن يحضر معه حصانه » وعلى الفور هم الكلب العجوز واقفا ، ولحقت به رشاقة الأصفر الحيية ،

وخرج بنفس التروى الظاهرى ، الذى يستجيب به بايارد وسيمون لصرامة مس جينى العنيفة.

قال بايارد مرة أخرى ، « سيمون يقول ... »

صاحت مس جينى ، « هراء ما يقوله سيمون . هل عشت مع سيمون ستين عاما دون أن تتعلم أنه لا يعرف الحقيقة عندما يراها ؟ » ومضت مس جينى وراء سيمون من الغرفـــة ، وتبعته إلى المطهى ، حيث كانت ابنة سيمون الطويلة الصفراء منحنية على منضدة عجن ، وملأ سيمون إناء زجاجياً بالماء وشطائر الليمون ، ووضعه مع إناء به سكر وكوبين زجاجيين طويلين على صينية ، وقفت مس جينى بالباب ، وجعدت ما تبقى من شعر سيمون المفلفل ، فى عقد أشد ضيقاً مما هى عليه . كانت تتميز دائماً بسيطرة رائعة على اللغة ، ولكن إذا ما أثيرت أعصابها ، فإنها تحلق دون مجهود إلى ارتفاعات سامقة . كان أسلوبها وضوحاً قوياً ، وبساطة ملونة ، وجرأة على استخدام الاستعارة والمجاز يحسدها عليها ديموستين لو استطاع ، وتفهمها حتى البغال ، وعن مراميها لا يبقى أشد الناس غباء فى الشك طويلا ، ومن تحته سقط رأس سيمون وتبدد تظاهره الدقيق بالانشغال التام وتساقط من عليه وكأنه ريش ، حتى أمسك الصينية ، وغطس من الغرفة وصوت مس جينى يتعقبه لينقض عليه بسهولة بإدراك كاسح تضمن تحذيرا ، وتوجيها لسلوك سيمون والنورا فى المستقبل وسلوك سلا ا الواقعية والفرضية لعدة أعوام قادمة .

قالت مختتمة : « وفى المرة القادمة ، أنت أو أى سكسيمون يعمل فى المزرعة ، أو سائس خيل أو خادم فى البيت يرى أو يسمع أى شىء يعتقد أنه سيكون محل اهتمام الكولونيل ، عليكم أن تقولوه لى أولا . وسأقوم أنا بروايته عليه بعد ذلك » ثم ألقت على النورا نظرة أخرى وحشية وذلك تطفيفاً للكيل ، وعادت إلى المكتب ، حيث كان ابن أخيها يقلب الماء والسكر بعناية فى الكوبين .

كان سيمون يقوم بواجبه الرسمى كساق ، وهو مرتد سترة بيضاء ، وقد تقول فى وصفها إنها كانت بصفين من الأزرار النحاسية . إلا أنها لم تكن من النحاس ، ولكن من الفضة . الفضة التى بلغت حداً من الرقة والطراوة أن البعض من الملاعق قد تآكلت حيث أمسكت بها أصابع الأجيال المتعاقبة حتى أصبحت فى مثل رقة الورق ، وهى الفضة التى دفنها جونى ، جد سيمون، مرة ، تحت أرضية الجرن النوشادرية، بينما كان سيمون وكانت سنه حينئذ ثلاث سنوات وفى ثوب مفرد قذر ، ينظر باهتمام الطفل العميق إلى اللعبة الغريبة .

وقد تعلقت به ـ رغم كل شيء ـ رائحة حرفته الأولى الكريهة ، حتى عندما كان ينظف ويزين الكنيسة ، ويرتدى سترة فضفاضة من طراز الملك ألبرت نبذها بايارد . وفى كل مرة كان يدخل فيها غرفة المائدة بالأطباق كان يحضرها معه ، وفى الأوضاع المسترخية التى كان يتخذها بجوار الصوان الجانبي وهو يجيب أسئلة مس جينى الباغتة أو عندما يتابع بقايا حديث دار بينه وبين بايارد فى أثناء اليوم ، كان يبثها ، وبعد خروجه كان يترك دائماً من ورائه رائحة الاسطبلات الخانقة . أما الليلة فقد أحضر الأطباق ووضعها ثم انحدر على الفور عائداً إلى المطبخ . لقد أدرك سيمون أنه قد تكلم مرة أخرى أكثر مما ينبغى .

وضعت مس جينى شالا من الصوف الأبيض حول كتفيها لتحتمى من برودة المساء ، وكانت تقوم بالحديث ، مغرقة نفسها وابن أخيها فى فيض من التفاهات . كلمات تافهة وأعمال تافهة ، وما يدور على الألسن ـ وهو سلوك غير معهود فى مس جينى . كانت لها آراؤها ، وطريقة لاذعة مرحة بشكل شرس فى إعلانها ، إلا أنه كان من النادر جداً أن تنزل إلى مستوى الغيبة ، وفى أثناء ذلك كان بايارد قد أغلق على نفسه برج صممه المنور ، ورفع المعبر ، وأنزل البوابة الحديدية ، ومن ثم لم يكن فى استطاعتك أبداً أن تعرف إن كان قد سمعك أم لا ، بينما مضت ذاته البشرية تأكل طعام العشاء بانتظام ، ثم انتهيا من الطعام ، ودقت مس جينى الجرس الفضى القريب من يدها ، وفتح سيمون الباب الجانبي واستقبل مرة أخرى برود استيائها الشامل ،

فأغلق الباب ، وجلس وراءه حتى غادروا الغرفة

أشعل بايارد سيجاره فى مكتبه ، وتبعته مس جينى إلى هناك ، وجرت مقعدها إلى المائدة تحت المصباح ، وفتحت جريدة ممفيس اليومية . كانت تستمتع بالإنسانية فى صورها الأكثر تلوناً ، مفضلة القصص المغرقة فى الخيال والحيوية على أشد الحقائق المعتمة دقة ، ولذا اشتركت فى جريدة المساء الأكثر إثارة رغم أنها تصبح جريدة الأمس عند وصولها إليها ، وكانت تقرأ بشراهة غير مكترثة وعلى مهل . تفاصيل جرائم إشعال النار والقتل والفسق والعنف والزنا . وقد زودتها الحياة الأمريكية بعد ذلك بشكل جديد من التسلية فى صورة حروب مهربى الخمور ، إلا أن هذا لم يكن موعده قد حان بعد وقد جلس ابن أخيها وراء دائرة ضوء المصباح الناعمة . وقد استندت قدماه إلى ركن المدفأة ، حيث أبلى الطلاء من عليه منذ زمن بعيد ، أبلاه نعلا حذائه ، ونعلا حذاء جون سارتوروس من قبله . ومضى ينفخ أنفاس سيجاره ، ولم يكن يقرأ ، وكانت مس جينى تلقى عليه نظرة من الحين والحين ، من فوق نظارتها وعبر جريدتها . ثم تستأنف القراءة من جديد ولم يكن ثمة صوت فى الغرفة عدا طقطقة الجريدة بين الحين والحين .

وبعد وقت قصير هم واقفاً بحركة مفاجئة مندفعة تميز بها ، وراقبته وهو يعبر الغرفة ، ويخرج من الباب ويصفقه من خلفه ، ثم مضت تقرأ لحظات أخرى ، ولكن اهتمامها كان قد مضى يتابع وقع أقدامه الثقيلة فى الردهة ، وعندما غاض الصوت ، نهضت ، ووضعت جريدتها جانباً ، ومضت وراءه إلى الباب الأمامى .

كان القمر قد صعد من وراء جدار التلال الشرقية الأسود ، واستلقى هادئاً فوق الوادى ومضى يصعد ـ وكأنه بالون أطفال ـ من وراء أشجار البلوط والخروب الممتدة على طول الممر الخاص . وقد جلس بايارد فى الشرفة فى ضوء القمر وقدماه مسندتان إلى حاجزها . وكان سيجاره يتوهج

فى فترات منتظمة ، وتصاعد صرير منتظم رفيع من الجداجد الكامنة فى الحشائش القريبة ، ومن بعد أكبر ، ومن خلال الأشجار ، جاء أيضا صوت الضفادع الصغيرة ، كأنه صفير جان ، كأنه فقاعات فضية صغيرة تصعد أبداً . وطفت رائحة خروب رقيقة ، لا منبع لها . وغير محسوسة ولا مدركة ، كأطياف دخان الطباق الفائضة ، ومن مؤخرة البيت ، عبر البهو المظلم طفا صوت النورا متقطعا متردداً هزيلا بلا معنى .

تحسست مس جينى طريقها فى الظلام بالقرب من الباب ، ومن جوار المرآة حيث العتمة المتثائبة أقل حدة ، أخذت قبعة بايارد من على المشجب ، وحملتها إليه ، ووضعتها فى يده ، وهى تقول « لا تجلس هنا طويلا . لم يأت الصيف بعد » .

وزام بألفاظ لا يمكن تمييزها ، ولكنه ارتدى القبعة ، واستدارت مس جينى وعادت مرة أخرى إلى المكتب ، وانتهت من الجريدة ، وطبقتها ، ووضعتها على المنضدة . ثم أطفأت النور وصعدت الدرج المظلم إلى غرفتها ، وكان القمر يلمع من فوق الأشجار المرتفعة ، وينفذ من النوافذ الشرقية فى حزم فضية عريضة ، وقبل أن تضىء النور مضت إلى الجدار الغربى وفتحت نافذة على الجداجد والضفادع وببغاء فى مكان ما ، كانت ثمة شجرة مانوليا خارج النافذة إلا أنها لم تكن قد أزهرت بعد ، ولا أيضا الياسمين البرى ، المتكاثف على جدار الحديقة إلا أن هذا كله كان وشيك الحدوث . ومن مكانها كان فى استطاعتها أن تشمل الحديقة بنظرتها ، وترى حشد الياسمين والبرتقال الكاذب والسوسن ناصع البياض حيث يضطجع القمر على نعاسها البرنزى الذى لم يزهر بعد ، وعلى بعض البراعم والأغصان المطعمة والمستحضرة من حدائق كارولينا البعيدة جداً التى عرفتها جيداً وهى فتاة .

ومن وراء الركن بالضبط ، ومن المطبخ المختفى ، تصاعد صوت النورا ناعما ، صاعدا وهابطا ـ كانت ترتل « كل الذين يتحدثون عن الجنة لن يذهبوا إليها » ثم طلعت هى وسيمون إلى ضوء القمر وأخذا الطريق إلى عشة سيمون وراء الجرن . لقد أشعل سيمون سيجاره أخيرا ، وتعقبته ـ

وهى تفيض ـ رائحته الفظيعة ولكن عندما ذهبا . بدا وكأن الرائحة البشعة قد تلكأت داخل أصوات الجداجد والضفادع المعلقة فى الهواء الفضى ، واختلطت ، واندمجت بلا أمل فى استخلاصها مع صوت النورا وهو يفيض . « كل الناس الذين يتكلمون عن الجنة لن يذهبوا إليها » .

كان سيجاره خامدا . وتحرك ، وأخرج ثقابا من صداره ، وأشعله من جديد . وأسند قدميه مرة أخرى إلى السور ، ومرة أخرى استلقت رائحة الطباق الحادة المتراكمة على امتداد تيارات الهواء الفضى ، التى انعدمت منها الرياح . وهى تتبدد وتفيض ببطء مع أنفاس الخروب ، وترديد الجداجد والضفادع المسحور الذى لاينقطع . كان ثمة ببغاء فى مكان ما من الوادى ، وبعد قليل شدت أخرى من شجرة المانوليا عند ركن سور الحديقة . ومرت سيارة فى طريق الوادى المستوى ، وأبطأت عند تقاطع السكة الحديد ، ثم أسرعت مرة أخرى . وقبل أن يغيض صوتها سبحت صفارة قطار التاسعة والنصف هابطة من فوق التلال .

صفيران طويلان ثم أصداء غامضة ، ثم تبعها صفيران قصيران ولكن قبل أن يظهر القطار كان سيجاره باردا مرة أخرى ، وقد جلس وهو بين أصابعه ، يرقب القاطرة وهى تجرصف نوافذها الصفراء عبر الوادى إلى التلال مرة أخرى ، حيث صفرت بعد قليل أيضاً ، متغطرسة بجلجلة حزينة . لقد جلس جون سارتورس ، كذلك ، على هذه الشرفة يرقب قطاريه اليوميين وهما يبزغان من التلال ويعبران الوادى ثم يصعدان إلى التلال مرة أخرى بأضواء ودخان وضجيج يدعى السرعة ، أما الآن فقد أصبح خط السكة الحديد ملكا لاتحاد رءوس أموال ، ويجرى عليه أكثر من قطارين يسيران من بحيرة متشجان إلى خليج المكسيك ، فتحقق بذلك حلم جون سارتورس الذى كان الآن مضطجعا بين ملائكة الزواج المجنحة وفى المجد الكاذب للإله الذى لم يتنازل بالاعتراف به .

ثم أصبح سيجار بايارد العجوز خامدا مرة أخرى . جلس ، وسيجاره

ميت بين أصابعه ، يرقب شبحا طويلا وهو ينفذ من بين شجيرات الليلق المتكاثفة بجوار سور الحديقة ويعبر ضوء القمر المبرقش متجها نحو الشرفة ، لم يكن حفيده يرتدى قبعته ، وقد أقبل وارتقى الدرجات ، ووقف ، وقد جسم ضوء القمر ملامح وجهه شبيه الصقر تجسيما شديدا ، بينما ظل جده جالسا ينظر إليه ، وسيجاره الميت فى يده .

قال بايارد العجوز ، « بايارد ، ولدى » ؟ . وظل بايارد الصغير واقفاً فى ضوء القمر ، وكانت عيناه كهفين مظلمين .

قال أخيراً ، بوحشية مستغرقة عميقة ، « حاولت أن أمنعه من الصعود فى بندقية الهواء الصغيرة الملعونة تلك » . ثم تحرك مرة أخرى ، وأنزل بايارد العجوز قدميه ، ولكن حفيده جر بعنف مقعداً إلى جواره ثم ألقى نفسه عليه .

سأله بايارد العجوز ، « بحق جهنم ، لم لم تخبرنى أنك قادم ؟ ماذا تعنى بمجيئك هكذا متخفياً ؟ »

قال بايارد الصغير ، « أنا لم أخبر أحداً » ، ثم أخرج سيجارة من جيبه وأشعل ثقابا من حذائه .

« ماذا ؟ »

قال وقد أحاط الثقاب المشتعل بكفه ورفع صوته « لم أخبر أى شخص بحضورى » .

« سيمون كان يعرف . هل تخبر الخدم السود عن تحركاتك بدلا من جدك أنت نفسك ؟ .

صرخ بايارد الصغير ، « اللعنة على سيمون ياسيدى من الذى كلفه بمراقبتى ؟ » .

وصرخ بايارد العجوز بدوره « لاتصح فى وجهى يا ولد » .

ورمى حفيده الثقاب بعيداً ، وسحب أنفاسا مضطربة عميقة من السيجارة . ثم قال بايارد العجوز برقة أكثر وهو يشعل ثقابا لسيجاره « لا توقظ جيني . أنت بخير أليس كذلك ؟ » .

قال بايار الصغير وهو يمد يده « هاته . دعني أمسكه لك . ستشعل النار في شاربك » ولكن بايارد العجوز صده بعنف ، وسحب بعناد ودون جدوى من سيجاره ، والثقاب بين أصابعه المضطربة .

قال مرة أخرى ، « قلت ، هل أنت بخير ؟ » .

أجاب بايارد الصغير على الفور ، « لم لا ؟ يحتاج الأمر لأحمق كبير ملعون لكي يصاب في الحرب ، كما هو الحال في وقت السلم . نعم . أحمق ملعون . هذا هو الأمر . » ثم سحب أنفاساً من السيجارة ، مرة أخرى ، وقذفها بعيداً ، ولم يكن قد استهلك نصفها بعد إشعالها . « كان هناك أحدهم ، كان على أن أتربص به أربعة أيام لأصيده . كان على أن أغريه على الخروج إلى حيث كنت أتربص به ، بطائرة قديمة كالصندوق وضعت فيها زميلي سلبي . لم أكن أرى أمامي إلا اللحم البارد ، وهو ، وجمجمته ، وعظامه . حسنا ، لقد نالها . لبثت فوقه بستة آلاف قدم ، وأفرغت حزاماً كاملا من الطلقات في كابينته . كان في استطاعتك أن تغطيهم جميعاً بقبضتك . ولكن ابن الزنا رفض أن يحترق » وعلا صوته مرة أخرى وهو يتحدث وسبح عطر أشجار الخروب في موجات عذبة ، وكان صوت الجداجد والضفادع صافيا رتيباً مثل زمامير ينفخها صبي أبله ناعس ، وأطل القمر من شرفته الفضية على الوادي الذي تهادى في سلام ساحر الألوان إلى آفاق التلال الهادئة اللامتناهية المشحونة بالأسرار ، ومضى صوت بايارد الصغير ، يروي عن العنف والسرعة والموت .

قال بايارد العجوز مرة أخرى ، « هش ، ستوقظ جيني » . وانخفض صوت حفيده مطيعاً ، ولكن سرعان ما ارتفع مرة أخرى ، وبعد وقت

قصير برزت إليهما مس جيني بالشال الصوفي فوق ثوب نومها وجاءت وقبلته .

قالت ، « أظنك بخير ، وإلا فلن تكون في مثل هذا المزاج العكر . أخبرنا عن جوني » .

رد بايارد الصغير بشدة « كان مخموراً ، أو أحمق . حاولت أن أمنعه من التحليق هناك على تلك « الكامل » الملعونة . لم يكن باستطاعتك أن ترى يديك في هـــذا الصباح ـــ والهواء كله مملوء بكتل من السحاب ، وكان في استطاعة أي أحمق أن يعرف أنه على الجانب الآخر ، سيكون الجو مملوءاً بطائرات الفوكر التي تستطيع التحليق على ارتفاع خمسة وعشرين ألفا ، وهو في طائرة « كامل » ملعونة إلا أنه كان مصراً كالشيطان على التحليق هناك بالقرب من ليل الملعونة . لم أستطع أن أمنعه . أطلق على الرصاص . » وقال بايارد الصغير « حاولت أن أرده ولكنه أطلق النار ، كان فعلا على الارتفاع الذي يستطيع أن يبلغه ، ولكنهم كانوا ـــ ولا بد ـــ فوقنا بخمسة آلاف قدم طاروا كلهم فوقه . وطاردوه من كل جانب وكأنه عجل ملعون محبوس في حظيرة . وبينما استقر أحدهم على ذيله ، وظل كذلك حتى أمسكت به النار وقفز . ثم مضوا واحداً إثر الآخر إلى مطاراتهم . » ومضى عطر الخروب يسبح على متن الهـــواء الساكن وخرير الضفادع الفضي . وعلى الماغنوليا في ركن البيت غنت ببغاء ورددت غناءها أخرى في الوادي .

قال بايارد الصغير ، « انحدر عائداً إلى مطاره مع بقيـــة عصابته . هو وججمته وعظامه . كان باويخنر . كان من أحسن من لديهم تلميذ . رشتهوفن » وفي هذه اللحظة كان صوته هادئاً ، لا يضطرب بالكبرياء الجريحة .

قالت مس جيني وهي تمضي بكفها على شعره ، « حسنا . هذا شيء » ومضى بايارد الصغير في تأملاته لحظة ، ثم انفجر مرة أخرى قائلا « حاولت

أن أمنعه من التحليق فى بندقية الهواء الملونة تلك ».

قالت مس جينى « وماذا كنت تتوقع منه بالطريقة التى أنشأته عليها أنت الأكبر ... أنت كنت فى المقابر ، أليس كذلك ؟ ؟ ».

قال بهدوء « نعم ياسيدتى ».

سأل بايارد العجوز « ما هذا ؟ ».

قالت بحدة وحزم « ذلك العجوز الأحمق سيمون قال إنك كنت هناك .. هيا تعال وتناول عشاءك ودخلت حياته من جديد دون أن تستأذن منه ، والتقطت خيوطها المقطوعة بطريقتها العنيفة القادرة ، فأطاعها ووقف.

قال بايارد العجوز مرة أخرى « ما هذا ؟ ».

« وأنت أيضاً ، قم وادخل » واكتسحته هو الآخر إلى مدار إرادتها ، بالطريقة التى تلتقط بها قطعة من ثياب من على المقعد وأنت مار به . وقالت « كان عليك أن تكون فى الفراش فى هذا الوقت المتأخر » . وتبعاها إلى المطبخ وظلا واقفين ، بينما ذهبت هى إلى المبرد ووضعت الطعام على المائدة ، ودورق لبن وجرت مقعداً .

قال بايارد العجوز مقترحا ، « جينى أعدى له شراباً » وعلى الفور رفضت مس جينى الاقتراح .

« اللبن هو ما يحتاج إليه . أحسبه قد تحتم عليه أن يشرب من الويسكى خلال تلك الحرب ما يكفيه إلى حين ، اعتاد بايارد ألا يعود إلى البيت قط ، دون أن يتمنى أن يصعد درجات البيت الأمامية على حصانه ويدخله راكبا » وساقت بايارد العجوز بحزم خارج المطبخ وإلى الدرج ورأت بابه يغلق ، ثم دخلت غرفة بايارد الصغير وأعدت فراشه وبعد هنية سمعته من غرفتها وهو يصعد الدرج .

كان القمر قد أضاء بمكر غرفته ، ودون أن يشعل النور ، ذهب

وجلس على الفراش . أما خارج النوافذ فقد كانت الجداجد والضفادع لا أول لها ولا آخر ، وكأن أشعة القمر كانت زجاجاً رقيقاً يتصادم بين الأشجار والشجيرات ويتحطم متساقطاً على الأرض فى مطر موسيقى حاد النغم ، ومن فوق هذا وفى صوت عميق ، كأنه دق الدفوف ، تصاعدت أنفاس المضخة منتظمة ، بطيئة ، من المحطة الكهربائية وراء الجرن . وقد أخرج سيجارة أخرى من جيبه وأشعلها . ولكنه لم يأخذ منها إلا نفسين ثم قذفها بعيداً ، ثم جلس فى سكون الغرفة التى تقاسمها مع جون ، فى عنف صباهما الذكرى وعلى الفراش حيث اضطجع هو وزوجته ليلة رحيله ، الليلة التى سبقت عودته إلى انجلترا ، ومنها إلى الجبهة مرة أخرى ، حيث كان جون بالفعل . وبجواره على الوسادة كتم الظلام دوامات شعرها البرنزية الوحشية واستلقت بجواره وهى تقبض على ذراعه بيديها معاً ، وتضمها إلى صدرها ، بينما أخذا — آخر الأمر — فى حديث هادىء رصين .

ولكنه لم يكن يفكر فيها حينئذ . عندما تذكرها ، من اضطجعت بجواره فى الظلام دون حراك ، وقد قبضت على ذراعه بشدة وضمتها إلى صدرها ، فلم يكن ذلك إلا ليفيض به شعور وحشى بالخجل من الشىء الذى ارتكبه فى حقها ، كان يفكر فى أخيه الذى لم يره عاماً بأكمله وقد كان يتصور أنهما سيلتقيان خلال شهر .

ولم يكن يفكر فيها أيضاً الآن ، رغم أن الجدران قد أمسكت — كما يمسك الإناء بزهور ذابلة — بأثر من الفوضى السحرية التى عاشا فيها شهرين ، كانت عميقة ووقتية كتفتح زهرة ياسمين ، وحادة كرائحة النعناع ، كان يفكر فى أخيه الميت ، وروح أيامهما الأخيرة العنيفة تستقر كالتراب فى كل مكان من الغرفة ، طامسة ذلك الوجود الآخر ، قابضة على أنفاسه .

وذهب إلى النافذة ، وقذف حصيرتها إلى أعلى ، فاصطدمت بالعارضة بصوت عنيف ، واتكأ عليها ، وهو يأخذ الهواء إلى رئتيه فى دفعات هائلة سريعة ، وكأنه رجل أغرقته المياه ، ولم يستطع بعد أن يصدق أنه قد عاد إلى السطح مرة أخرى .

وبعد ذلك ، وقد نام عاريا بين الأغطية أيقظه أنينه العميق . حينئذ كانت الغرفة ممتلئة بضوء رمادى ، قارس بلا منبع ، وأدار رأسه ورأى مس جينى ، والشال الصوفى حول كتفيها ، كانت جالسة على المقعد بجوار الفراش .

قال « ما الأمر ؟ »

فأجابته مس جينى ، « هذا ما أريد أن أعرفه . أنت تحدث من الضجيج أكثر مما تفعل مضخة الماء تلك » .

« أريد شرابا » .

انحنت مس جينى والتقطت كوباً من الأرض بجوارها ونهض بايارد واستند إلى منكبه وأخذ الكوب وتوقفت يده قبل أن يصل الكوب إلى شفتيه ، قال ، وهو محدودب فوق منكبه والكوب تحت فمه .

« بحق جهنم . أنا قلت شراباً » .

قالت مس جينى « اشرب يا ولد هذا اللبن . أتظننى أقضى الليل ساهرة فقط لأسقيك ويسكى... اشربه».

أطاعها وأفرغ الكوب فى جوفه واستلقى على ظهره . ووضعت مس جينى الكوب على الأرض .

« ما الساعة الآن ؟ »

قالت وقد وضعت يدها على جبينه ، « نم الآن »

أدار رأسه على الوسادة ، ولكنه لم يستطع أن يتحاشى يدها .

قال « اذهبى . . دعينى وحدى »

وقالت مس جينى « صه ! . . . نم الآن » .

الجزء الثاني



قال سيمون : أنت لم تزرعى أبداً أى نبات حيث ينبغى أن يزرع .

وجلس على الدرجة السفلى يشحذ نصل فأس بمبرد ، وقد وقفت مس جينى مع ضيفتها على حافة الشرفة ، وكانت ترتدى قبعة رجـــل لبادية وقفازات ثقيلة ، وكان يتدلى تحت خصرها مقص يومض فى أشعة الشمس الباكرة

سألته . . « شأن من هذا ؟ شأنك أنت أم الكولونيل ؟ أيكما يستطيع أن يتسكع فى هذا الفناء ، ويرشدنى إلى المكان الذى ينمو فيه النبات أحسن نماء ، ويبدو فى أجمل صورة . ولكن إذا كان أى منكما قد استنبت من الأرض بنفسه حتى الآن ولو عشبة واحدة ، فأنا لم أرها ، أنا لا أضع قدمى فى المكان السيء ، الذى يعتقد أيكما أنت أو الكولونيل أنه ينبغى أن تزرع فيه زهرة . أنا أزرع زهورى بالضبط تماماً ، حيث أريد لها أن تنبت » .

قال سيمون : « وبعد ذلك تتحدينها أن تجرؤ على عدم الخروج من باطن الأرض . هذه هى الطريقة التى تفلحين بها الحديقة ، أنت وإيزوم . شكرا لله أن ليس عليه أن يكسب عيشه بهذا النوع من فلاحة البساتين الذى يتعلمه فى هذا المكان » .

ومضى يبرد نصل الفأس ثم مد رأسه فجأة نحو ركن البيت .

كان يرتدى قبعة مشينة من نسيج ما زال مجهول النوع منذ سنوات عدة . قبعة حدقت فيها مس جينى بازدراء وبرود ، قالت له : « إيزوم كسب عيشه بكونه ولد أسود . لم لا تكف عن برد نصل هذا الفأس وتجرب إن كان فى استطاعتك أن تتحدى بعض هذه الحشائش فى حوض السيلفيا أن تخرج من باطن الأرض؟ » .

قال سيمون : « على أن أصنع سنا لمشط الخيل هذا . اذهبى أنت إلى

حديقتك هناك . وسأقوم بتنظيف هـذا الحوض » ومضى يشحذ بانتظام نصل الفأس » .

قالت مس جيني « لقد أنفقت فى هـذا وقتا يكفى لتدرك أنه ليس ممكنا أن تبلى هذا النصل بمبرد فقط حتى مقبضه . إنك لاتزال منكبا عليه منذ ساعة الإفطار . أنا سمعتك . اخرج إلى هناك حيث الناس يمرون فيحسبوا على أى حال أنك تعمل » تأوه سيمون باكتئاب ، وقضى نصف دقيقة وهو يضع المبرد جانبا . وضعه على درجة ثم التقطه ونقله إلى درجة أخرى ثم وضعه على الدرجة التى وراءه ، ثم أجرى إبهامه على امتداد النصل مختبرا إياه بأمل مبتئس .

قال « يجب أن يصلح الآن ، ولكن الأمر سيكون بالضبط كقطع الحشائش بمشط » .

قالت مس جيني « جربه على أى حال . ربما تظنه الحشائش فأسا اذهب وامنحها فرصة لأن تفعل ، على أى حال » .

فأجابها سيمون مشاكسا وهو يقف ويحجل مبتعداً « أنا ذاهب ، أنا ذاهب . اذهبى أنت واهتمى بحديقتك هناك . سأعنى أنا بهذه » .

وهبطت مس جينى وضيفتها الدرج ، ومضتا معا نحو ركن البيت .

وقالت مس جينى « لا أستطيع أن أتصور لماذا يفضل أن يجلس هنا ، ويعمل بمبرده فى هذه الفأس الجديدة بدلا من أن يقتلع قبضة من أنصال الحشائش فى حوض السيليفيا هناك » .

ومضت تقول « ولكن هذا هو ما يريد أن يفعله ، أن يجلس هناك ويبرد هذه الفأس حتى تصبح وكأنها نصل منشار إذا سمحت له . منذ ثلاث سنوات أو أربع اشترى بايارد آلة لتقليم الحشائش والله يعلم لماذا ، ثم سلمها إلى سيمون ، والذين صنعوها ضمنوها لمدة عام ، ولكنهم لم يكونوا

يعرفون سيمون . كثيرا ما تصورت وأنا أقرأ فى الصحيفة فى العام الماضى عن التدمير وغيره أى وقت ممتع كان سيمون سيقضيه فى الحرب . كان فى استطاعته أن يريهم صوراً من التخريب لم تدر قط بخاطرهم ، ثم صاحت منادية « إيزوم ! » .

دخلنا الحديقة ، وتوقفت مس جينى عند البوابة وصاحت « أنت ، إيزوم ! » وفى هذه المرة كان ثمة رد ، ومضت مس جينى مع ضيفتها ، بينما قدم إيزوم من مكان ما متلكئا ، وشد البوابة من ورائه فانغلقت بالمزلاج .

نظرت مس جينى من فوق كتفها إلى الخلف ، وقالت « لم لم . . » ثم توقفت ونظرت إلى هيئة إيزوم العسكرية المفاجئة نظرة مدهوشة سريعة باردة . كان يرتدى حينئذ رداءا عسكريا وشعارا لفرقة فوق كتفه ، وشريط خدمة حائل اللون فوق كمه ، وقد برز عنقه الرفيع ذو الستة عشر عاما من الياقة المتهدلة الأوسع من مقاسه كثيرا وبان من تحت الكم جزء كبير يدعو للدهشة من رسغه وانحشر السروال مستيئسا داخل لفافات « القلشين » غير المتقنة ، التى ـ وقد يكون هذا بحاسة رفيعة للفريد والفذ أو بتجاهل لطيف للتقليد العسكرى ـ كان قد قام بطيها قبل ارتداء حذائه ؛ وهبطت قبعة ماوراء البحار الملوثة بأسف فوق رأسه المستديرة .

« من أين حصلت على هذه الملابس ؟ » ولمعت أشعة الشمس على مقص مس جينى . أما مس بينبو ، فى ثوبها الأبيض وقبعتها الخوصية الرقيقة ، فقد استدارت أيضا ونظرت إليه نظرة غريبة .

أجاب إيزوم « إنها ملابس كازبى . استعرتها منه فقط » .

قالت جينى « كازبى ؟ هل عاد ؟ » .

قال « نعم ، سيدتى ، عاد ليلة أمس فى قطار التاسعة والنصف » .

- « ليلة الأمس ؟ حقا ؟ أين هو الآن ؟ نائم على ما أظن » ..

- « نعم ، سيدتى ، هذا ماكان عليه عندما غادرت البيت » .

قالت مس جينى بطريقة لاذعة « وهذا يبين ، على ما أظن ، كيف استعرت ملابسه الرسمية ، حسنا ، فلينم هذا الصباح ، أعطه يوما ليفيق من آثار الحرب ، ولكن إذا كانت الحرب قد صنعت منه أحمق ، كما فعلت مع بايارد ، فالأفضل له أن يرتدى هذا الشيء مرة أخرى ، ويعود إليها . وأنا أعلن ، أن الرجال لا يستطيعون ، على ما يبدو أن يصمدوا لأى شيء » ، ومضت والضيفة فى ثوبها الأبيض البسيط تتبعها . قالت مس جينى « أنت بالغة القسوة على الرجال وليس لك ثمة زوج تشغلين به فضلا عن أنك تقدرين كل الرجال بمقياس رجالك من آل سارتورس » .

وتبرأت مس جينى منهم على الفور وقالت « ليسوا برجالى ، أنا ورثتهم فقط وأنت ماعليك إلا أن تنتظرى . سيكون لك قريبا رجل من أهلك تشغلين به ، عليك أن تنتظرى فقط حتى يعود هوراس إلى البيت وسترين كم سيطول به الوقت حتى يفيق منها » ثم قالت مرة أخرى « الرجال لا يستطيعون الصمود لأى شيء ، لا يستطيعون حتى احتمال التسكع كشياطين بينهم ، بلا هم ولا مسئولية ، وبلا حد للدناءات التى يستطيعون أن يفكروا فيها ويرغبون فى ارتكابها . هل تظنين أن فى استطاعة رجل أن يقعد يوما بعد يوم ، وشهرا إثر شهر فى بيت على بعد أميال من العمار ، قاضيا وقته بين قوائم الخسائر وهو يمزق أغطية الفراش وستائر النوافذ ومفارش الموائد ليصنع منها ضمادات وهو يرى السكر والدقيق واللحم تتناقص ويستخدم براعم الصنوبر للإضاءة ، لأنه لا يوجد شمع ولا شمعدانات لوضع الشمع فيها إن كان منه شيء ، ويختبىء فى أكواخ الزنوج بينما يشعل جنرالات اليانكى السكارى النار فى البيت الذى بناه جد جد جدك ، وأنت وكل أهلك ولدتم فيه ؟ لا تتحدثى إلى عن رجال يتعذبون فى الحرب » .

وقطفت مس جيني لسان العصفور بوحشية ومضت تقول ، انتظرى أنت فقط حتى يعود هوراس ، حينئذ سترين ، مجرد عذر طيب لهم ، ليجعلوا من أنفسهم أشياء مزعجة وليعطلوا كل شيء بينما تحاول النساء أن ينظمن الفوضى التى تركوها وراءهم بحربهم . جون على الأقل ، توافر له الكرم والطيبة فبعد أن ذهب وزج بنفسه فيما ليس له به شأن لم يعد ليزعج كل شخص إلى حد الذهول . ولكن ـ الآن وقد عاد بايارد فى وسطها وترك لكل شخص أن يتصور أنه قد استقر أخيرا ، ذهب ليقوم بالتعلم فى مدرسة ممفيس للطيران تلك ، ثم تزوج تلك الفتاة الحمقاء » .

ـ مس جيني !

ـ حسنا أنا لا أعنى هذا ، إلا أنه كان ينبغى أن تضرب بشدة . أنا أعرف هذا . ألم أفعل أنا نفس الشيء لقد كان السبب هو ذلك الدرع الذى ارتداه بايارد . تكلمى عن رجال يغريهم رداء عسكرى ! ثم بترت لسان العصفور جرونى إلى هناك ، إلى حفل الزفاف ، وانتبهى ، فى كنيسة مملوءة بالسيوف المستأجرة والبعض من تلاميـــذ بايارد الذين حاولوا أن يلقوا عليهما ورودا وهما خارجان . وأنا أعتقد أن البعض منهم لم يكن من تلاميذه ، لأن واحدا منهم ، فعلا ألقى ، فى النهاية ملء يده منها ، فأخطأت كل شيء وسقطت فى الشارع ، وقطفت لسان العصفور بوحشية ، وتناولت معهم طعام العشاء ذات ليلة .جلست فى الفندق ساعة حتى تذكرا أن يأتيا إلى . ثم توقفا عند متجر لبيع الحلوى وخرج بايارد وكارولين ودخلا وعادا بما يقرب من القنطار من اللفافات . ألقيا بها فى السيارة ، حيث سال منها الدهن على جوارنى الجديدة . كان ذلك هو العشاء الذى دعيت إليـــه ، واعلمى ، لم يكن فى البيت كله أثر لأى شيء يبدو عليه أو يشتم منه رائحة موقد . لم أعرض عليهما أن أساعدهما قلت لكارولين إننى لا أعرف

شيئاً عن هـذا النوع من التدبير المنزلى . لأن أهلى كانوا من طراز قديم إلى درجة أنهم كانوا يطهون الطعام » .

« ثم جاء الآخرون ــ بعض من أصدقاء بايارد العسكريين ــ وقطيع من زوجات الآخرين على حد ما فهمت . نسوة صغيرات كان ينبغى أن يكن فى البيوت يعنين بطعام العشاء . كن يثرثرن ويصرخن بهذه الطريقة الحمقاء التى تصطنعها النسوة الصغيرات المتزوجات عندما يفعلن شيئاً ، يأملن ألا يرضى عنه أزواجهن . كانوا جميعاً يخرجون الزجاجات من لفائفها ــ حوالى دستين على ما أظن . ثم جاء بايارد وكارولين بأدوات المائدة الفضية التى أعطيتها لهما ، والفوط المطرز عليها أسماؤهما وعلف هذا الحلوانى الذى يشبه مذاقه عشب المستنقعات فى أطباق من الورق . أكلناه هناك ونحن جلوس على الأرض ، أو واقفون ، أو حيثما كنت فى تلك اللحظة » .

«كانت هذه هى فكرة كارولين عن التدبير المنزلى » قالت إنهما سيستقران عندما تتقدم بهما السن ، إذا انتهت الحرب عندئذ . فى حوالى الخامسة والثلاثين . أظنها عنت هـذا . رفيعة كقضيب . لم يكن يوجد فيها الكثير لتضرب عليه . إلا أنه كان ينبغى مع ذلك أن تضرب . وبمجرد أن عرفت عن الطفل أسمته قبل أن يولد بتسعة أشهر . وأخبرت كل شخص عنه . اعتادت أن تتكلم عنه وكأنه جدها أو شيء من هـذا القبيل . ودائماً تقول بايارد لن يسمح لى أن أعمل هذا أو ذاك أو غيره » .

ومضت مس جينى تقطف لسان العصفور والضيفة بجوارها تبدو طويلة فى ثوبها الأبيض وبرزت بساطة البيت الجميلة الماثلة من بين الأشجار المتكاثفة واستلقت الحديقة فى ضوء الشمس مزهوة بأزهارها المتفتحة ، فواحة بالعطر ، زاخرة بطنين النحل الوسنان ــ صوت ذهبى رتيب ،

كأنه ضوء الشمس وقد أصبح مسموعاً — كل الحجاب غير المحسوس المباشر والمعتاد — ومن ورائه بالضبط فتاة بدوامة برنزية من الشعر ، وجسم صغير لدن ، فى حركة لا أنثوية غير متوقفة ، كأنها تجسيم دينامى لأحد الأشكال عديمة الجنس المنحوتة ، وقد التقطت فى لحظات العمل وهى تناضل كأنها تنظيم ميكانيكى كل عضو من أعضائه يجب أن يتحرك فى أداء أقل الحركات شأناً ويداها المتوحشتان من وراء الحجاب غير المحسوس وإن كان كافياً ، لا توجهان اتهاماً بل تتدفقان بالعاطفة .

انحنت مس جينى على حوض الزهور ، وظهرها الضيق رغم انحنائها مستقيم مع ذلك لا يقهر ومرق طائر سمان برقة عبر الهواء اللامع إلى شجرة المانوليا متجها إليها فى قوس منحن مبتور ، « وبعد ذلك عندما اضطر إلى العودة إلى الحرب ، أحضرها طبعاً هنا . وتركها بين يدى » . ووقفت الضيفة دون حركة فى ثوبها الأبيض وقالت مس جينى « أنا لم أعن هذا » وقطعت لسان العصفور .

قالت « يا للنساء المساكين ؟ . أحسب أن علينا فعلا أن نتقاضى انتقامنا ، أينما وحينما نستطيع أن نتقاضاه . كان عليها أن تتقاضاه من بايارد فقط » .

قالت نارسيسا « عندما ماتت ، لم يكن باستطاعته أن يعرف ، لم يكن باستطاعته أن يأتى لو عرف ؟ وأنت تستطيعين أن تقولى هذا ؟ » .

« بايارد ، أتظنين أن بمقدوره أن يحب أى شخص ، هذا الشيطان البارد ؟ » وقطعت مس جينى لسان العصفور « طوال حياته كلها لم يعنه أن يحرك إصبعا من أجل أى شخص سوى جون ، وقطعت لسان العصفور بوحشية . « يتبجحون هنا . وكأنها كانت غلطتنا . كأننا دفعناهم إلى الذهاب لتلك الحرب . والآن ، يتحتم عليه أن يملك سيارة ، يتحتم عليه أن يقطع كل

الطريق إلى عمفيس ليشترى واحـــدة . تصورى سيارة فى فنـاء بايارد سارتورس وهو الذى لا يقرض أموال المصرف إلى رجل يملك واحدة.. هل تريدين بعض البسلة ؟

أجابته نارسيسا « نعم ، أرجوك ، وانتصبت مس جينى ثم توقفت فى جمود تام ، وقالت ، انظرى فقط إلى هناك ، أرجوك ، وأشارت بعقصها ، « هذه هى الطريقة التى يتعذبون بها من الحرب ، هؤلاء المساكين ! » ومن وراء تكعيبة بسلة ، كان إيزوم فى ردائه العسكرى يسير بوقار فى خطوات واسعة جيئة وذهابا ، وفوق كتفه اليمنى فأس وعلى وجهه رسم الاستغراق الذاهل . وعندما استدار فى نهاية مساره غمغم فى نغمات رتيبة .

صاحت مس جينى ، « إيزوم ، أنت يا إيزوم ! » . .

فتوقف فى الحـال وسلاحه ما زال على كتفه ، وقال برقه « سيدتى ؟ » ومضت مس جينى تحملق فيه . فغاضت هيبته العسكرية وخفض فأسه ، وأدى حركة ما من حركات التخاذل وهو فى ردائه العسكرى .

« ضع هذه الفأس ، وأحضر هذه السلة هنـا ، هذه هى المرة الأولى فى حياتك التى تمسك فيها إحـــدى أدوات الحديقة بمحض اختيارك . ليتنى أستطيع أن أكتشف نوع الرداء الرسمى الذى يدفعك لحفر الأرض وأنت ترتديه ، فأشترى لك واحداً بالتأكيد » .

ـ « نعم ، سيدتى » .

ـ « إذا أردت أن تلعب لعبة الجند ، فاذهب مع بايارد إلى مكان ما وافعلها » . وأضافت « أنا أستطيع أن أزرع الزهور دون أية معونة من الجيش » . ثم تحولت إلى ضيفتها وفى يدها قبضة من لسان العصفور . وسألتها « وما الذى تضحكين عليه ؟ » .

قالت المرأة الصغرى « كلا كما يبدو مضحكا جداً . أنك تشبهين جندياً أكثر بكثير من إيزوم المسكين ، رغم كل ردائه العسكرى » ولمست عينها بأطراف أناملها وقالت « أنا آســفة . أرجوك ، اغفرى لى ضحكى » .

ودفعت مس جينى زفيرها بعنف « أوف ! » .

ووضعت لسان العصفور فى السلة ، ومضت إلى البسلة ، وقطفت منها بوحشية . وتبعتها الضيفة كما فعل إيزوم حاملا السلة وسرعان ما انتهت من البســلة ومضت مرة أخرى مع تابعيها وهى تتوقف من حين لآخر لتقطف وردة ، ثم توقفت أمام حوض زهور ، رفعت فيه الزنابق أجراسها اللامعة المقلوبة . لقد توقفت هى وإيزوم هذه اللحظة فى سعادة ذلك أن الألوان المختلفة قد كونت زخرفاً متناسقاً .

قالت لضيفتها « عندما جمعناها فى الموسم الماضى ، كنت أضع واحدة حمراء فى يد إيزوم اليمنى ، وواحدة صفراء فى يسراه — ثم كنت أقول له « حسناً . إيزوم ، أعطنى الحمراء » فلم يكن يخطىء قط فى مد يده اليسرى . وإذا نظرت إليه طويلا ، مد يديه معاً . « ألم أقل لك أن تمسك هذه الزهرة الحمراء فى يدك اليمنى ؟ » هكذا كنت أقول له . فيقول « نعم سيدتى . هذه هى » . وفى الحال تمتد يده اليسرى مرة أخرى . « يا غبى ليست هذه يدك اليمنى ؟ » هكذا كنت أقول له . فيقول « هذه هى اليد التى قلت منــذ لحظة إنها يدى اليمنى . « أليس كذلك أيها الأسود ؟ » وحملقت مس جينى فى ايزوم الذى أدى مرة أخرى حركاته المسترحمة المتذللة من وراء ابتسامته الرصينة المتباطئة .

« نعم . سيدتى . أعتقد أنه كذلك » .

ردت عليه مس جينى محذرة « وهذا أفضل لك . والآن كيف يستطيع

أى شخص أن يكون لديه حديقة محترمة بمعاونة غبى كهذا ؟ أنا أتوقع كل ربيع أن أجد القمح أو حشائش الليزبوديزيا ، وقد نمت فى حوض السوسن الأرجوانى أو غيره ، ثم لحصت الزنابق مرة أخـــرى ، وهى تختبر فى خيالها الألوان المتوازنة واحداً مع الآخر . ثم قالت وهى تحسم الأمر « لا . أنت لا تريدين أية زنابق » ومضت .

« لا يا مس جينى » . رافقتها الضيفة بوقار ، ومضوا إلى البوابة وتوقفت مس جينى وأخذت السلة من إيزوم .

« وأنت اذهب إلى البيت واخلع هذا الشىء ، أتسمعنى ؟ »

« نعم . سيدتى » .

وأنا أريد أن أطل من هذه النافذة بعد بضع دقائق ، وأراك فى الحديقة مرة أخرى بهذه الفأس » ثم أضافت . « وأريد أن أرى كلتا يديك فوقه هذه المرة ، وأريد أيضاً أن أراه يتحرك . أتسمعنى ؟ »

« نعم ، سيدتى » .

« وقل لكازبى أن يستعد لاستئناف العمل فى الصباح ، حتى السود الذين يأكلون هنا ، عليهم أن يعملوا قليلا » . ولكن إيزوم كان قد ذهب ومضتا معاً وصعدتا إلى الشرفة . وأسرت مس جينى إلى ضيفتها وهما تدخلان البهو ، « ألا يبدو عليه وكأن هذا هو ما سيفعله بالضبط ؟ إنه يعرف كما أعرف أنا ، إننى لن أجرؤ على التطلع من هذه النافذة ، بعد أن قلت ما قلته . ادخلى » وفتحت أبواب الردهة .

لم تكن الحجرة تستخدم إلا نادراً الآن ، رغم أنها كانت فى عهد جون سارتورس تستخدم بصفة مستمرة . كان يدعو دائماً لحفلات العشاء ، وحفلات الرقص فى المناسبات . حينئذ تفتح الأبواب المغلقة بينها وبين غرفة الطعام ، وثلاثة زنوج بآلات وترية على الدرج ، وكل الشموع

موقدة . وقد أحاط نفسه بأبهة من اللون والعطر والموسيقى وهو يختال فيها بعظمته وعجرفته المرحة . وفى هذه الغرفة ، أيضاً اضطجع ليلة فى ردائه العسكرى الرمادى حيث اختتم مهرجان ماضيه الخاص الملون ، وإن لم يكن غير الملطخ دائماً ، وتأمل للمرة الأخيرة ألوهيته الخابصة من نعومة بيته الكريمة المرحة .

ولكن ، فى ايام ابنه ، قل استعمالها ، رويداً رويدا ، وببطء وبطريقة غير محسوسة فقدت ذكورتها المرحة والجيدة فى نفس الوقت ، وأصبحت بالاتفاق المتبادل مكانا لزوجته ولزوجة ابنه جون ومس جينى لينظفنه تماماً مرتين كل عام ، ولينادمن فيه أيضاً ضيوفهن الأكثر رسمية ، بعد القيام بطقوس فك لفائف زجاجات خمر الهولند . كانت هذه هى حالها عند مولد أحفاده ، وظلت هكذا حتى وفاة أبويهم ثم وفاة زوجته . وبعد ذلك لم تشغل مس جينى بالضيوف الرسميين إلا قليلا ، ولم تشغل بالردهة قط . قالت إنها تبعث فيها قشعريرة .

وهكذا ظلت مغلقة باستمرار تقريباً ، وببطء اكتسبت جواً من الوخامة الضريحية المهيبة وأحياناً قد يفتح بايارد الصغير أو جون الباب ويحملق فى الغموض الحزين ، حيث يتشامخ الأثاث المغطى ، ويلوح بشكل ما من الرقة الشبحية وكأنه حيوانات المستادون المنقرضة ناصعة البياض ، إلا أنهما لم يكونا يدخلان ، ذلك أن الحجرة قد ارتبطت فى عقولها من قبل بالموت ، وهى فكرة لم تستطع حتى شجرة أيام عيد الميلاد ولا زيناته اللامعة أن تحجبها تماما . كانا بعيدين عن البيت فى المدرسة عندما بلغا سن الحفلات . ولكن حتى خلال العطلات ، ورغم أنهما كانا يملآن البيت بمجون معاصريهم المهذب ، فإن الغرفة لم تكن تفتح إلا ليلة عيد الميلاد ، حينئذ كانت الشجرة تقام ونار تشعل ، وإناء به مشروب البيض والجعة الساخنة على المائدة وسط الغرفة . وبعد أن ذهبا إلى انجلترا فى سنة ١٦

كانت تفتح مرتين فى العام ، لتنظف حسب الطقوس القديمة ، التى ورثها جتى سيمون عن أبائه الأولين ، وليشد البيانو . أو عندما تقضى مس جينى ونارسيسا هناك ضحى أو أصيلا ، ولكنها لم تكن تفتح رسميا على الإطلاق .

تشابخ الأثاث بلا شكل محدد فى أغطيته الغبراء . كان البيانو وحده مكشوفا ، وجرت نارسيسا المقعد خارجا وخلعت قبعتها وألقتها بجوارها . ووضعت مس جينى السلة . ومن الظلام وراء البيانو جرت مقعداً خشبى القاعدة مستقيا ، وكان مكشوفا أيضا ، وجلست وخلعت قبعتها اللبادية من على رأسها الأنيقة البيضاء . جاء الضوء عبر الباب المفتوح ولكن النوافذ كانت مغلقة وراء ستائر ثقيلة قرمزية ، قامت فقط بتعميق الدكنة وبجعل الأثاث المغطى غير الواضح السمات يبدو أكثر غموضاً .

ولكن خلف هذه الكتل المظلمة ، وفى جميع أركان الغرفة ، كانت شخوص تنتظر هناك ـ كممثلين يقفون فى الأجنحة بجوار المسرح ـ مرتدية نقبا مبطنة بالسلك والموسلين والحرير المنفوخ بالأطواق ، وربطات عنق جامدة وسترات منسابة ورمادية أيضا وأوشحة قرمزية وسيوفا مغمدة فى اضطجاعة جريئة . جيب ستيوارت نفسه . ربما على حصانه البراق المتوج بالزهور . أو بشعره اللامع المنسال فوق ثوبه الصوفى السميك الثمين ، تحت أشجار الدابوق ، وأغصان شجرة عيد الميلاد بالتيمور سنة ٥٨ . جلست مس جينى ، وظهرها كظهر جنـــدى عملاق لاينحنى ، واحتفظت بقبعتها فوق ركبتها ، وأعدت نفسها للإنصات ، عندما مست ضيفتها أوتارا من المفاتيح ثم دمجتها فى موجة واحدة ، ثم شدت الستار مرة أخرى على المشهد .

وفى المطبخ كان كازى يتناول إفطاره بينما كان سيمون والده ، والنورا شقيقته . وإيزوم ابن أخيه (فى ثوب عسكرى) يرقبونه . لقد كان تلميذاً

لسيمون فى الإسطبلات ، وخادما يؤدى كل شىء فى البيت ، فكان يقوم بكل العمل الذى يشرف عليه سيمون ، الذى كان يلقى على كتفيه كل أعبائه ، متعللا بمبرر الشيخوخة الفسيح ، وإقرارا بفضل الآباء ، كما كان يقوم أيضا بكل ما كانت مس جينى تستطيع أن تبتكره له ، ولا يستطيع هو أن يتفاداه وكان بايارد العجوز يستخدمه أحيانا فى الحقول . ثم جاء التجنيد ، وحمله إلى فرنسا ، إلى أرصفة ميناء سانت سوليبيس ، كنفر فى فصائل العمل حيث قام بما استطاع الأومباشية والشاويشية أن يضعوه على كتفيه غير العسكريتين من عمل ، وما استطاع أن يبتكره له الضباط البيض ولم يستطع هو أن يتفاداه .

وهكذا آل العمـــل كله فى المكان إلى سيمون وإيزوم ، ولكن مس جينى احتفظت بإيزوم ليقوم بالتوافه فى البيت جزءا طويلا من الوقت ، إلى الدرجة التى سرعان ماجعلت سيمون شديد المرارة ضد أمراء الحرب ، كأى ديمقراطى محترف حينئذ ، كان كازبى يعمل قليلا ، ويتسلى بالتافه من حياة القارة فى صورها الحربية . الأمر الذى ألحق بمستقبله الضرر إلى حدما ، لأن العجيج فى النهاية مات . ورحل الضباط ، وتركوا فراغا ملوءا بالمنازعات المرة المعتادة بين ورثة أرماجدون الشرعيين . ورجع كازبى إلى موطنه الأصلى وهو خسارة كاملة ، من وجهة النظر الاجتماعية ، ذلك أنه عاد بنفور قاطع من العمل شريفا كان أو نقيض ذلك ، وبجرحين مشرفين اكتسبا فى إحدى مباريات المبارزة بالموسى ولكنه عاد فعلا ، إلى رضى أبيه المشاكس ، وإعجاب النورا وإيزوم ، وقد جلس الآن فى المطبخ يتحدث إليهم عن الحرب .

كان يقول « أنا لاأقبل مزيداً من أى إهانة من أى شخص أبيض . غيرت الحرب كل هذا . إذا كنا نحن ، الناس الملونين صالحين بما فيه الكفاية ، لإنقاذ فرنسا من الألمان . إذن فنحن صالحون بما فيه

الكفاية لتملك نفس الحقوق التى يصلح لها الألمان . على أى حال هكذا يفكر الفرنسيون وإذا كانت أمريكا لا تفعل ، فثمة طرق لتعليمها . . . « نعم يا سيدى ، كان الجندى الملون هو الذى أنقذ فرنسا ، وأمريكا قبلها ، الكتائب السوداء قتلت من الألمان أكثر مما قتلت الجيوش البيضاء كلها معا ودع جانبا تفريغ السفن التجارية خلال اليوم بطوله . مقابل دولار واحد .

قال سيمون ، « الحرب لم تؤذ فمك الكبير هذا ، على أى حال » .

وصحح كازبى ، « الحرب أطلقت فم الرجل الأسود . أعطته الحق فى أن يتكلم . اقتلوا الألمان ثم ألقوا خطبكم . هذا هو ما قالوه لنا . حسنا ، وقد فعلنا هذا » .

سأل إيزوم كازبى باحترام ، « عم كازبى ، كم عدد الألمان الذين قتلتهم ؟ »

« لم أزعج نفسى قط بإحصائهم . مرات قتلت فى صباح واحد ، أكثر من كل الخلق فى هذا المكان كله . مرة كنا فى قاع إحدى السفن التجارية المقيدة إلى الشاطىء . وواحدة من هذه الغواصات جاءت وتوقفت ، وكل الضباط البيض جروا على الشاطىء واختفوا . نحن الأولاد فى القاع ، لم نعرف قط أن شيئا ماقد وقع ، حتى بدأ رجال يهبطون الدرج إلى أسفل . لم يكن معنا فى ذلك الوقت بنادق . ولذلك فعندما رأيناها ـ السيقان الخضراء ـ وهى تهبط الدرج زحفنا وراءها . وبمجرد أن يصل الواحد منهم إلى القاع ، كان أحد الأولاد يضربه على رأسه بقطعة خشب ويجره آخر بعيدا ليخلى المكان ، ويقطع زوره بفأس لحم . وكان منهم حوالى الثلاثين . . النورا هل بقى مزيد من القهوة ؟ »

غمغم سيمون « بالتأكيد » وجحظت عينا إيزوم بهدوء . ورفعت النورا إناء القهوة من فوق الموقد ، وملأت فنجان كازبى مرة أخرى .

ومضى كازنى يشرب القهوة برهة .

« ومرة أخرى كنت أنا وولد آخر نسير فى الطريق ، ألم بنا التعب من تفريغ هذه السفن التجارية طول اليوم ، ومرة اكتشف خادم الضابط اللص أين يحتفظ ببطاقات جوازات المرور ، فأخذ ملء قبضة منها . كنا فى الطريق إلى البلدة أنا وهو عندما مرت بنا سيارة نقل ، وسألنا الولد إن كنا نريد توصيله . كان تلميذ مدارس وكان يكتب أسماءنا على ثلاثة جوازات منها كلما وصلنا إلى مكان قد يكون موبوءاً بالشرطة العسكرية وهكذا مضينا فى حالة طيبة . متجولين فى الريف فى سيارة النقل الخاصة هذه ، حتى كان صباح تطلعنا فيه إلى حيث كانت سيارة النقل ، كان شرطى عسكرى يجلس فوقها بينما كان الولد سائق السيارة يحاول أن يشرح له . ولذا رجعنا إلى الطريق الآخر ومشينا وبعد هذا كان علينا أن نروغ من مدن الشرطة العسكرية ، لأننى والولد الآخر لم نكن نستطيع أن نكتب أسماءنا على هذه الجوازات .

« وكنا يوما نمضى فى طريق - كان طريقاً مخربا ، ولم يبد لنا وكأنه منطقة شرطة عسكرية ، ولكن كان عدد منهم فى آخر بلدة رغنا منها ، ولذا ، لم نعرف أننا كنا قريبين إلى هذا الحد من حيث يدور القتال . حتى مشينا إلى كوبرى ، ووقعنا فجأة على فصيلة كاملة من الألمان يستحمون فى النهر » . رأونا تقريباً فى نفس اللحظة التى رأيناهم فيها ، وغطسوا تحت سطح الماء ، أمسكنا أنا والولد الآخر رشاشين كانا موضوعين هناك ، وجلسنا على سور الكوبرى وكلما أبرز ألمانى رأسه ليلتقط نفسا أطلقنا عليه الرصاص كان بالضبط كصيد السلاحف فى بركة . أعتقد أن عدد من قتلناهم ، يقارب المائة إلا أن الرشاشين نضبا وهذا ما منحونى من أجله هذه » . وأخرج من جيبه ميدالية مطلية زاهية من أصل بورتوريكى وجاء إيزوم بهدوء ليراها .

وغمغم سيمون وقد جلس ويداه على ركبتيه ، يرقب ولده بعجب ذاهل . وجاءت النورا أيضا وقد تغطى ذراعاها بالدقيق .

سألت النورا ، « وماذا يشبهون ؟ هل هم كالناس ؟ »

وأجاب كازبى ، « إنهم ضخام الأجسام وحمر البشرة بصورة ما . حوالى ثمانى أقدام فى الطول . جماعات الملونين فى الجيش الأمريكى كله هم وحدهم الذين استطاعوا أن يخضعوهم .

وعاد إيزوم إلى ركنه بجوار الصندوق الخشبى .

وسأله سيمون « أليس عندك ياولد ـ عمل تؤديه فى الحديقة ؟ »

أجاب إيزوم « لا سيدى » ونظرته المفتونة ما زالت مركزة على عمه ، « مس جينى ، قالت إننا لانعمل هذا الصباح » .

فأجابه سيمون محذرا « حسنا ، لاتأت إلى معولا عندما تقفز عليك » ثم سأل ابنه « أين قتلت الجماعة التالية؟ » .

أجاب كازبى « لم نقتل مزيداً بعد ذلك . رأينا أن نكتفى بهذا القدر . وأن الأفضل أن ندع الباقين للأولاد الذين يأخذون أجراً على قتلهم . مضينا حتى انتهى الطريق إلى حقل . كانت هناك بعض القنوات وحواجز قديمة من الأسلاك ، وحفر فى الحقل وبعض الناس مقيمين فيها . الناس كانوا جنودا أمريكيين ونصحونا أن نبحث عن حفرة ، ونقيم هناك مدة إذا كنا نريد سلام الحرب وراحتها . ولذا اخترنا حفرة جافة وانتقلنا إليها . لم يكن ثمة شيء نعمله طول اليوم ـ إلا أن نستلقى فى الظل ونرقب البالونات الهوائية ونستمع إلى القصف على بعد أربعة أميال على الطريق تقريبا . ادعى الولد الذى كان معى أنهم كانوا بعض صيادى الأرانب . ولكننى كنت أكثر منه معرفة . الأولاد البيض كانوا يستطيعون الكتابة ولذا أعـــدوا لنا الجوازات ، وقضينا بعض الوقت فى الذهاب إلى حيث كان الجيش للحصول على الطعام وعندما نفدت الجوازات عرفنا أين يقيم جيش فرنسى معه مدافع فى بعض الغابات البعيدة . وهكذا كنا نذهب حيث كانوا يأكل » .

« استمر هذا مدة طويلة ، حتى كان يوم ، إذ ذهبت البالونات . وقال الأولاد البيض إن الوقت قد حان للتحرك مرة أخرى . ولكننى والولد

الآخر لم نجد ثمة فائدة فى الذهاب إلى أى مكان آخر . ولذا بقينا مكاننا وفى هذا المساء ذهبنا إلى حيث الجيش الفرنسى ، للحصول على بعض الطعام ولكنهم كانوا قد ذهبوا أيضا ، والولد الذى كان معى قال إن الألمان أمسكوا بهم ، إلا أننا لم نكن نعرف . لم نسمع قصفا كبيرا منذ اليوم السابق لذا عدنا مرة أخرى إلى الحفرة ولم يكن ثمة طعام ، ولذا زحفنا إليها وعدنا إلى الفراش ، ونمنا ليلتنا . وفى صباح اليوم التالى جاء شخص إلى الحفرة وداس علينا وأيقظنا . كانت واحدة من مرفهات الجنود تبحث عن البنادق الألمانية وعقد الأحزمة المعدنية . وصاحت « من هنا ؟ » فقال لها الولد الآخر « نحن . جنود الصدام » وهكذا خرجنا ولكن لم يمض إلا القليل حتى جاءت سيارة مملوءة بالشرطة العسكرية وكانت الجوازات قد نفدت .

سأل سيمون « وماذا فعلتم بعد ذلك ؟ » وجحظت عينا إيزوم بهدوء فى العتمة وراء الصندوق الخشبى .

« أخذونا ، وحبسونا فى سجن لمدة من الزمن ، ولكن الحرب كانت قد أوشكت على الانتهاء فاحتاجوا إلى الأيدى لتعيد شحن السفن التجارية ، ولذا أرسلونا إلى بلدة اسمها بريس ـ وقال مرة أخرى « أنا لا أقبل أى إهانة من أى رجل أبيض ، سواء كان شرطيا عسكرياً أو لم يكن » . ونحن الأولاد كنا فى غرفة ذات ليلة نلعب الزهر ، وعزف البوق فعلا أمر إطفاء الأنوار إلا أننا كنا فى الجيش ، حيث يستطيع الرجل أن يفعل ما يريد ، ماداموا يسمحون له أن يفعله ، ولذا فعندما جاء الشرطى العسكرى وقال أطفئوا هذه الضوء قال له أحد الأولاد « ادخل أنت وسنطفئك » . كان ثمة شرطيان عسكريان فاقتحما المكان وبدأ فى إطلاق النار ، وقلب أحدهم المصباح وهربنا . وفى صباح اليوم التالى ، وجدوا أحد الشرطيين العسكريين بلا شىء يمسك باقته وكان اثنان من الأولاد ميتين أيضا ولكنهم لم يستطيعوا أن يكتشفوا من كانوا معنا وبعد ذلك عدنا إلى الوطن .

وأفرغ كازبى فنجانه وقال « أنا لاأقبل إهانة من أى رجل أبيض بعد الآن ، نقيبا كان أو رئيسا أو شرطيا عسكريا ». الحرب أثبتت للبيض أنهم لا يستطيعون أن يفلحوا دون الرجل الأسود . يسحقونه فى التراب . ولكن عندما تنفجر المتاعب وتنطلق إنها « من فضلك ، سيدى . أيها السيد الرجل الملون . من هذا الطريق حيث يعزف النفير . أيها السيد الرجل الملون أنت منقذ الوطن ، والآن فإن الجنس الأسود سوف يجنى فوائد الحرب ، وهذا وشيكا » .

وغمغم سيمون « بالتأكيد » .

— نعم . سيدى والنساء أيضاً . حصلت على امرأتى البيضاء فى فرنسا. وسوف أحصل عليها هنا أيضاً .

قال سيمون : « دعنى أقل لك شيئاً أيها الأسود ، لقد رعاك الله الطيب مدة طويلة حتى الآن ، إلا أنه لن يشغل بك دائماً » .

أجاب كازبى فى الحال « إذن أظننى سأمضى دونه » ووقف وتمطى « أحسبنى سأذهب إلى الطريق الكبير وأخطف توصيلة إلى المدينة . إيزوم أعطنى هذه الملابس » .

كانت مس جينى وضيفتها واقفتين فى الشرفة عندما مر بجوار المنزل ثم انحرف عنه متجها إلى الممر .

قالت نارسيسا « هذا بستانيك يمضى . وتطلعت مس جينى ثم قالت مصححة « هذا كازبى » وأضافت « والآن ، أين تظنينه يمضى ؟ إلى المدينة وأراهن بدولار » ومضت ترقب ظهره الخاكى المسترخى ، الذى تمكن بوساطته من أن يعبر بشكل ما ، عن شىء ما من الوقاحة المتبلدة . ونادت « أنت يا كازبى ! » .

تباطأ عنـــد مروره بسيارة نارسيسا الصغيرة ، ودقق فيها النظر باستخفاف تكاسل حتى عن السخرية ، ثم مضى فى استرخاء ونادت مس

جيني مرة أخرى ، وهي ترفع صوتها « أنت يا كازبي » ولكنه مضى في الممر الخاص بانتظام وقحا مسترخيا ، وفي غير عجلة . قالت منذرة بالسوء « سمعني ، سننظر في هذا عندما يعود . من كان ذلك الغبي على أى حال ، الذي فكر في وضع السود في نفس الملابس العسكرية مع البيض ؟ مستر فاردامان كان أبعد نظراً . قال حينئذ لهؤلاء الأغبياء في واشنطن ، إنه ليس من الحكمة في شيء . ولكن رجال السياسة ! » وصمت الكلمة البريئة بتشويه شامل مدمر ، ومضت تقول « إذا سئمت يوماً صحبة السادة المهذبين ، فإنني أعرف ما سأفعله ، سأرشح نفسي للكونجرس . . . استمعي إلى وأنا أمضي في نقدي مرة أخرى . وأنا أعلن أنني أعتقد أحياناً أن كل أفراد عائلة سارتوريس وكل ممتلكاتهم قد عقدوا النية فقط على تعذيبي وإزعاجي . وشكراً لله إذ لن يتحتم على أن أرتبط بهم بعد موتي . لا أدري أين سيكونون . ولكن ما من سارتورس سيقيم في الجنة وقتا أطول مما سيضطر إليه » .

وضحكت الأخرى وقالت « مس جيني ، يبدو أنك متأكدة تماما من مصيرك الشخصي » .

« ولم لا أكون ؟ أما زلت أكتنز الإحسانات والتراتيل مدة طويلة ؟ ثم ظللت عينيها بيدها ونظرت إلى آخر الممر . كان كازبي قد وصل إلى البوابة ، ووقف بجوار الطريق في انتظار عربة تمر ، وهنا قالت فجأة « إياك أن تتوقفي له ، أتسمعينني ؟ ثم « لم لا تبقين للعشاء ؟ » .

أجابت الأخرى « لا ، يجب أن أعود إلى البيت ، العمة سالي ليست في حالة طيبة اليوم » ثم وقفت لحظة في ضوء الشمس وقبعتها وسلة زهورها على ذراعها ، واستغرقت في التأمل ، ثم أخرجت بعزم مفاجيء من صدر ثوبها ورقة مطوية .

سألتها مس جيني وهي ترقبها « وصلك آخر ، أليس كذلك ؟ دعيني أره » .

أخذت الورقة وفتحتها ، وخطت إلى الخلف بعيداً عن الشمس كانت نظارتها معلقة فى « قيطان » حريرى ينتهى إلى زنبرك فى غلاف ذهبى صغير معلق إلى صدرها بدبوس . شدت « القيطان » خارجاً . وثبتت النظارة على عظمة أنفها العالية ومن ورائها ، كانت عيناها باردتين نفاذتين كعينى جراح .

كانت الورقة قطعة واحدة من حجم الفولسكاب ، وقد حملت كتابة فى حروف واضحة متباعدة . لا تعبر عند النظرة الأولى عن أى شخصية من أى نوع ، يد شابة إلا أنها مع ذلك وفى نفس الوقت ، لطيفة وصريحة وأنيقة إلى الدرجة التى تبعث فى الحال على القليل من الدهشة .(١)

« أنت لم تردى على الخطاب الخامس والعشرين . أنا لم أتوقع أن تردى عليه بعد . ستردين فى القريب وأنا أستطيع أن أنتظر . أنا لن أؤذيك . أنا صريح وأمين وستعرفين عندما يلتقى طريقانا معاً . أنا لا أتوقع بعد أن تردى . ولكن أنت تعرفين أين تعملين إشارة » .

أعادت مس جينى تطبيق الورقة بإيماءة اشمئزاز رفيعة رقيقة وقالت « كنت سأحرق هذا الشيء ، لولا أنه الوحيد الذى لدينا لنمسكه به . سأعطيه لبايارد الليلة » احتجت الأخرى بسرعة وهى تمد يدها « لا لا . أرجوك . لا تفعلى .. دعينى آخذه وأمزقه »

— « طفلتى ، إنه الدليل الوحيد . هذا والآخر . سنستدعى مخبرا » .

— « لا . لا . أرجوك . لا أريد لأى شخص آخر أن يعرف عنه مس جينى ، أرجوك » . ومدت يدها مرة أخرى .

قالت لها مس جينى متهمة . أنت تريدين أن تحتفظى به ، تماما كما تفعل امرأة صغيرة حمقاء يطريها مثل هذا الشيء » .

قالت الأخرى مرة ثانية ، سأمزقه . كنت سأفعل هذا قبل الآن ، إلا أننى أردت أن أخبر شخصا ما . إنه — إنه . . . تصورت أننى

---

(١) الخطاب فى الأصل مملوء بالأخطاء اللغوية . (المترجم)

لن أشعر بالدنس كثيراً بعد أن أريه لشخص آخر . دعيني آخذه أرجوك » .

« هراء . لا ينبغي عليك أن تشعري بالدنس . أنت لم تشجعيه ، أم فعلت ؟ » .

ـ « مس جيني أرجوك » .

إلا أن مس جيني ظلت قابضة عليه وقالت بسرعة « لا تكوني حمقاء . كيف يستطيع هذا الشيء أن يجعلك تشعرين بالدنس ؟ أي امرأة شابة معرضة لأن يصلها خطاب خلو من التوقيع . وحشد منهن يستحسن هذا . نحن جميعاً مقتنعات أن الرجال يفكرون فينا بهذه الطريقة . ونحن لا نستطيع إلا أن نعجب بمن أوتي الشجاعة فيصارحنا ، دون اعتبار لمن يكون » .

ـ « فقط لو وقع الخطاب . لن يهمني من يكون . ولكن بهذه الطريقة . . . مس جيني ، أرجوك » .

قالت مس جيني مرة أخرى « لا تكوني حمقاء . كيف نستطيع أن نعرف من هو إذا دمرت الدليل ؟ » .

ـ « لا أريد أن أعرف » وتخلت مس جيني عن الورقة ، وقطعتها نارسيسا مزقاً صغيرة رمتها من فوق الحاجز ، ومسحت يديها في ثوبها « لا أريد أن أعرف . أريد أن أنسى كل شيء عن هذا الموضوع » .

ـ هراء . أنت ـ اللحظة ـ تموتين شوقاً لتعرفي . أراهن أنك تنظرين إلى كل رجل تمرين به ، وتتساءلين إن كان هو وسيستمر هذا طالما أنك لا تفعلين ثمة شيئاً ، والمرجح كذلك أن يسوء . الأفضل لك أن تدعيني أخبر بايارد » .

ـ « لا . لا . أنا أكره له أن يعرف . أن يفكر أنني قد . . ربما . . حسناً جداً بعد هذا ، سأحرقها في الحال دون أن أفتحها . . . . يجب أن أذهب فعلا . »

وقالت مس جيني ساخرة ببرود « طبعا ، ستلقين بها مباشرة فى الموقد » .

ونزلت نارسيسا الدرجات ، وعادت مس جيني إلى ضوء الشمس مرة أخرى ، وهى تدع نظارتها تندفع إلى غلافها « هذا شأنك طبعا . إلا أننى ما كنت أحتمله لو كنت مكانك ولكن ليست سنى ستة وعشرين . . حسنا تعالى لزيارتى ثانيا إذا وصلك آخر ، أو إذا أردت مزيداً من الزهور .

ـ نعم سأفعل . وشكرا لهذه .

ـ «ودعيني أعرف ما يبلغك من هوراس . شكرا لله . إنها مجرد آلة لنفخ الزجاج وليست أرملة حرب . »

ـ « نعم . سأفعل . وداعا . »

ومضت عبر الظل المبرقش ، فى ثوبها الأبيض البسيط ، وسلة زهورها مرسومة فوقه . ودخلت سيارتها . كان سقفها مرفوعا ، وارتدت قبعتها ، وقومت المحرك ونظرت إلى الخلف مرة أخرى ولوحت بيدها . «وداعا . »

وقد سار الأسود فى الطريق ببطء ، ثم توقف مرة أخرى وكان يرقبها خفية وهى تقترب ، وإذ مرت به نظر إليها بملء عينيه ، وعرفت أنه يوشك أن يناديها ففتحت صمام الوقود ومرت به بسرعة متزايدة . قادت سيارتها بسرعة إلى المدينة حيث كانت تقيم فى بيت من الآجر وسط أشجار الشربين ، فوق ربوة .

كانت تنسق لسان العصفور فى وعاء ليمونى معتم فوق البيانو ، وكانت العمة سالى ويات تتأرجح بانتظام فى مقعدها بجوار النافذة ، وهى تصفق ملء قدميها بالأرض عند كل اهتزازة . وقد استقرت سلة شغلها عـــلى حاجز النافذة ، بين تموجات الستائر الرقيقة ، واستندت بجوارها عكازتها الأبنوسية .

سألتها ، « وأنت ظللت هناك ساعتين ولم تريه قط ؟ »
أجابت نارسيسا ، « لم يكن هناك . ذهب إلى ممفيس . »

وتأرجحت العمة سالى بانتظام « لو كنت مكانهم ـ لأرغمته على البقاء هناك . لن أقبل أن يبقى هذا الولد قريبا منى ـ سواء كان من دمى أو لم يكن . . . من

أجل أى شئ ذهب إلى ممفيس ؟ ظننت هذه الطائرة أو ـ ماذا تسمينها قد تحطمت»

ـ « أظنه ذهب لعمل ما » .

ـ « وأى عمل لديه فى ممفيس ؟ بايارد سارتورس أعقل من أن يحول أى عمل إلى عقل الأرنب الأحمق هذا » .

قالت نارسيسا وهى تنسق نسان العصفور « لا أدرى . أظنه سيعود قريبا . تستطيعين أن تسأليه حينئذ » .

ـ « أنا أسأله؟ أنا لم أقل له كلمتين فى حياته . وأنا لا أنوى أن أفعل لقد اعتدت أن أعاشر السادة المهذبين » . وكسرت نارسيسا بعضا من الأعناق و نسقت الزهور فى باقة جميلة . « وما الذى فعله ، ولا يفعله سيد مهذب أيتها العمة سالى ؟ »

ـ « القفز من فوق خزانات المياه والصعود فى الجو فى بالونات . لمجرد تخويف الناس . أنت تظنينى أسمح لهذا الولد أن يظل فى جوارى ؟ كنت أحتجزه فى مستشفى المجانين ، لو أننى كنت بايارد أو جينى » .

ـ « لم يقفز من فوق الخزان . انزلق فقط فوق حبل مربوط بالخزان ثم قفز وغطس فى حمام السباحة . والذى صعد فى البالون كان جون » .

ـ « ليس هذا ما سمعته . سمعت أنه قفز من فوق هذا الخزان ، عبر صفاً كاملا من عربات البضائع وأكوام الخشب . ولم يخطىء حافة الحمام . . ببوصة واحدة .

ـ « لا . لم يفعل . انزلق على حبل من قمة بيت ثم غطس فى الحمام . كان الحبل مربوطا بالخزان » .

ـ « حسنا . ألم يكن عليه أن يقفز فوق الكثير من الخشب وعربات البضائع . ألم يكن فى استطاعته بهذه الطريقة أن يكسر عنقه . وبنفس السهولة ، كما يكسره بالقفز من فوق الخزان ؟ »

أجابت نارسيسا ، « نعم » .

- «لكنى . ماذا ينبغى على أن أقوله لك ؟ وماجدوى هذا ؟»

- «لا أعرف» .

- «ربما لاتعرفين وذلك كان السبب فى أن يفعل مافعله» . وتأرجحت العمة سالى برهة وهى مزهوة بانتصارها ووضعت نارسيسا اللمسات الأخيرة لياقة لسان العصفور الزرقاء . وفجأة وبسكون قفزت قطة رقطاء إلى النافذة بجوار سلة الشغل ، وكأنها تريد أن تعرض حيلة سحرية ، وبينما ظلت جاثمة ، نظرت داخل الغرفة لحظة ثم هبطت على بطنها . وبعنق مقوس أقبلت على تنظيف كتفها بلسان أحمر رفيع .

واتجهت نارسيسا إلى النافذة ووضعت يدها على ظهر الحيوان الأملس .

- «وبعد ذلك ، الصعود فى ذلك البالون . عندما» .

قالت نارسيسا مرة أخرى «هذا لم يكن بايارد . هذا كان جون» .

- «وهذا ليس ما سمعته . أنا سمعت أنه كان الآخر . وأن بايارد وجينى كانا الاثنان يرجوانه والدموع فى أعينهما ألايفعلها . أناسمعت . . .»

- «لم يكن أحدهما هناك . حتى بايارد لم يكن هناك . جون هو الذى فعلها ، وقد فعلها لأن الرجل الذى جاء مع البالون مرض . جون صعد فيه حتى لايخيب أمل الريفيين . أنا كنت هناك» .

وقفت هناك . وتركته يفعلها ، عندما كان فى استطاعتك أن تتصلى تليفونيا بجينى أو تعبرى الميدان إلى البنك حيث تجدين بايارد ، وقفت هناك ولم تفتحى فمك قط ، هل فعلت هذا ؟ .

أجابت نارسيسا «نعم» . وقفت هناك بجـــوار هوراس فى حلقة الريفيين المتباطئة المنتبهة ترقب الكرة وهى تنتفخ وتشد حبالها ، راقبت جون سارتوريس فى قميص صوفى حائل اللون وسراويل من المخمل بينما

مضى رجل الكارنفال يشرح له استعمال حبل فتح صمام الغاز والمظلة . وقفت هناك وهى تحس أنفاسها تخرج بأسرع مما تستطيع أن تستردها مرة أخرى وراقبت الشيء وهو يترنح إلى أعلى وجون جالس على قضيب هش يتأرجح به تحته ، وبعينين لم تستطع أن تغمضهما رأت البالون والناس وكل شيء يدور ببطء إلى أعلى وبعد ذلك وجدت نفسها ملتصقة بهوراس وراء ستر العربة وهى تحاول أن تلتقط أنفاسها .

هبط على بعد ثلاثة أميال فى دغل من الورد الوحشى ، وتخلص من المظلة ، وعاد إلى الطريق ونادى زنجيا عابراً فى عربة . وعلى بعد ميل من المدينة التقيا ، بايارد العجوز مندفعا بضراوة فى العربة . وتوقفت العربتان بجوار بعضهما البعض فى الطريق ، بينما أفرغ بايارد العجوز فى إحداهما ثورة غضبه الجنونى المتراكمة . وفى الأخرى جلس حفيده فى ملابسه الممزقة وعلى وجه المخدوش نظرة ذلك الذى حقق فى لحظة خاطفة رغبة رائعة إلى الدرجة التى تجعل الوقوع فى إثمها تطهراً لاخسارة .

وفى اليوم التالى ، وبينما كانت تمر أمام متجر اندفع منه فجأة ، بذلك العنف الباغت الذى تميز به هو وشقيقه ، متوقفا فى اللحظة الأخيرة ليتحاشى الاصطدام بها .

قال « أوه معذ . . . هالو » ومن تحت الأربطة المتقاطعة كان وجهه مرحا ، جريئا ، ووحشيا . ولم يكن يرتدى قبعة . وللحظة قصيرة حلقت فى وجهه بعينين واسعتين يائستين ثم صفقت يدها على فمها ومضت مسرعة ، تكاد أن تجرى .

ثم رحل مع شقيقه وقيدتهما الحرب ، ككلبين مزعجين حبسا بعيداً جداً فى قفص . وكانت مس جينى تحكى لها أخبارهما عنهما ، عن الخطابات المملة المقتضبة التى كانا يرسلانها إلى الوطن فى فترات متباعدة ، ثم مات ولكن بعيداً وراء البحار . لم يكن ثمة جسد ليعاد بغلظة إلى الأرض .

ولذا فقد بدا بالنسبة لها ، وكأنه لا يزال يضحك على هـذه الكلمة ـ كما ضحك على كل الأصوات التى تخرج من الفم وتعنى الراحة ، ذلك الذى لم ينتظر الزمن ومقوماته أن يعلمه أن نهاية الحكمة هى أن تحلق عالياً بالحلم إلى الدرجة التى لا تفقد معها الحلم فى البحث عنه .

واهتزت العمة سالى بانتظام فى مقعدها .

« حسنا ليس يهم من كان منهما . أحدهما سيء كالآخر ألا أننى لا أحسبها غلطتهما بالطريقة التى أنشئا بها . مدللين حتى العفن ، كلهما . لم تكن لوسى سارتورس طوال حياتها تسمح لأى شخص أن يسوسهما ، لوكانا ولدى » . . ومضت فى اهتزازها . لكننت أخرجتهما مما هما فيه بالضرب . كنت سأفعل ذلك لكى أربى هنديين متوحشين مثلهما . ولكن هؤلاء الناس وهم يتصورون أنه لم يوجد قط بين الناس من يصل إلى منزلة آل سارتورس ، حتى لوسى كرانستون ، وقد جاءت من عائلة فضلى ، كأفضل ما تكون العائلات فى الولاية . كانت تسلك وكأن العناية الإلهية هى التى سمحت لها أن تتزوج واحدا من آل سارتورس . وأن تكون أما لاثنين آخرين . كبرياء . كبرياء . . . . كاذبة » .

واهتزت بانتظام فى مقعدها . ومن تحت يد نارسيسا هربت القطة بعجرفة متكاسلة .

ـ « وكان حكما قدريا عليهما ، أن يؤخذ جون بدلا من هذا الآخر ، جون على الأقل كان يلمس قبعته تحية لسيدة فى الطريق ، ولكن ذلك الولد الآخر » وتأرجحت ـ بملل وهى تصفق ملء قدميها بالأرض ، خير لك أن تبتعدى عن هذا الولد ، سيكون قاتلك كما قتل زوجته الصغيرة المسكينة » .

قالت نارسيسا « أيتها العمة سالى ، إننى لم أتزوج منه بعد » ومن تحت يدها ومن تحت جلد القطة الناعم انسابت العضلات فجأة كالأسلاك إلى

عقد متينة وبدا جسم الحيوان وكأنه يستطيل كالمطاط فى نفس اللحظة التى مرق فيها من تحت يدها ، واختفى عن الأنظار عبر الشرفة .

صاحت نارسيسا ، « أوه ! » ثم استدارت بسرعة ، وأمسكت عصا العمة سالى وجرت من الغرفة .

قالت العمة سالى « ماذا ! ... أنت هاتى عصاتى هنا » وجلست تنظر إلى الباب ، وهى تسمع وقع كعبي الأخرى السريع فى البهو ثم فى الشرفة . ثم وقفت ومالت على النافذة وتطلعت ثم صاحت « أنت ، هاتى عصاتى هنا » .

أسرعت نارسيسا عبر الفناء إلى الحديقة . وفى حوض زهور الكانا ، كانت القطة قابعة وهى تتلفت من حولها وتدور برأسها وعيناها الصفراوان لاتطرفان . اندفعت نارسيسا نحوها وقد رفعت يدها العصا .

صاحت ، « اتركيه ! ارميه » ولثانية أخرى نظرت إليها العينان الصفراوان بوحشية ثم خفض الحيوان رأسه ووثب مبتعدا فى قفزة انسيابية طويلة ، والطائر بين فكيه .

صاحت « أوه ... ، عليك اللعنة عليك اللعنة ، أنت .. أنت أيتها السارتورس ! ! » وقـــذفت العصا وراء الومضة المبرقشة الأخيرة عندما انسابت القطة وراء ركن البيت .

وصاحت العمة سالى من النافذة « أنت أحضرى عصاتى ، وهاتيها هنا حالا » .

كانت هى ومس جينى جالستين فى الغرفة المعتمة . كانت الأبواب مفتوحة كالعادة وفجأة ظهر بايارد الصغير بينهما ووقف ينظر إليهما .

قالت مس جينى « هذا بايارد . تعال هنا ، وتكلم مع نارسيسا ياولدى » .
قال بغموض « هالو » ، واستدارت فى مقعد البيانو ، وانكمشت قليلا بجوار الآلة .

قال . « من ؟ » ودخل ، وأحضر معه ذلك العنف البارد المغلل الذى تذكره .

قالت مس جينى بمكر « إنها نارسيسا . هيا تكلم معها وكف عن التظاهر بأنك لاتعرفها » .

وأعطته نارسيسا يدها ، ووقف ممسكا بها بارتخاء ولكنه لم يكن ينظر إليها ، وسحبت يدها . نظر إليها مرة أخرى ثم نظر بعيدا وقد تشامخ فوقهما ومضى يمر بأصابعه خلال شعره .

قال « أريد شراباً . لاأستطيع أن أجد مفتاح المكتب » .

ـ « انتظر وتكلم معنا بضع دقائق وتستطيع بعد ذلك أن تأخذ كأسا » .

وقف شامخا فوقهما برهة ثم تحرك فجأة ، وقبل أن تستطيع مس جينى أن تتكلم كان قد جر الغطاء من فوق مقعد آخر .

صاحت مس جينى « دع هذا وشأنه أيها الجندى » ووقفت « هيا خذ مقعدى ، إذا كنت ضعيفا إلى الدرجة التى لاتستطيع معها الوقوف . سأعود فى دقيقة » ثم قالت لنارسيسا « على أن أحضر مفاتيحى » .

جلس متراخيا فى مقعده وهو يدلك رأسه بيده ونظرته تسبح فى مكان ما حول قدميه وحذائه . وجلست نارسيسا ساكنة تماماً ، وهى منكمشة بجوار البيانو وأخيرا تكلمت .

ـ أنا آسفة جدا على ماحدث لزوجتك ... ياجون ، طلبت من مس جينى أن تخبرك عندما ... » .

جلس يدلك رأسه ببطء فى سكون مؤقت يغلب عليه العنف .

سألها « أنت ، شخصيا ، لست متزوجة ، أليس كذلك ؟ » جلست ساكنة تماما . « ينبغى عليك أن تجربى الزواج » وأضاف « ينبغى على كل شخص أن يتزوج مرة ، كما ينبغى على كل شخص أن يذهب إلى حرب واحدة » .

عادت مس جيني بالمفاتيح ونصب قامته المديدة فجأة وتركهما .

قالت مس جيني « تستطيعين أن تعودى إلى العزف الآن لن يضايقنا مرة أخرى .

قالت نارسيسا « لا . يجب أن أذهب » ثم وقفت بسرعة وأخذت قبعتها من فوق غطاء البيانو .

ـ « لماذا ، أنت لم تحضرى إلا منذ لحظات » .

قالت نارسيسا مرة أخرى « يجب أن أذهب » . ووقفت مس جيني .

ـ « حسنا إذا كان الأمر كذلك . سأقطف لك بعض الزهور . لن يستغرق ذلك دقيقة . »

ـ « لا . مرة أخرى . أنا . . أنا عندى . سأعود لزيارتكم وشيكا وآخذ بعضا منها » ، « وداعا » وعند الباب ألقت نظرة سريعة عبر البهو ثم مضت وتبعتها مس جيني إلى الشرفة ، ، كانت قد نزلت الدرجات ، ومضت مسرعة إلى سيارتها .

هتفت بها مس جيني « عودى لزيارتنا سريعاً »

وأجابتها نارسيسا « نعم سريعا ، وداعا »

— ٢ —

عاد بايارد الصغير من ممفيس فى سيارته ، وكانت ممفيس على بعد خمسة وسبعين ميلا ، وقد استغرقت الرحلة ساعة وأربعين دقيقة ، لأن بعض الطريق كان زراعيا طفليا ، وكانت السيارة طويلة ومنخفضة ورمادية ، ولآلتها ، ذات الأسطوانات الأربع ستة عشر صماما ، وثمانى شمعات إشعال ، وقد ضمن بائعوها قدرتها على السير ثمانين ميلا فى الساعة ، رغم أنه كانت توجد ورقة ملصقة بحاجز الهواء الأمامى ، تطلب منه ألا يفعل هذا فى الأميال الخمسمائة الأولى .

جاء من الممر الخاص . وتوقف أمام البيت ، حيث كان جده يجلس

مادا ساقيه على حاجز الشرفة ، وكانت مس جيني تقف بجوار أحد الأعمدة في ثوب أسود أنيق . هبطت درجات السلم وراحت تتفحصها ، وفتحت الباب ودخلت لتجرب المقعد ، وأقبل سيمون نحو الباب وألقى عليها نظرة سريعة مزدرية وعاد ، وظهر إيزوم من وراء ركن البيت ، ودار بهدوء حول السيارة بإعجاب شامل متطلع ، ولكن بايارد العجوز ظل ينظر بازدراء إلى ذلك الشيء المستطيل المغبر - وسيجاره بيده وهو يزوم .

قالت مس جيني « إنها مريحة كمقعد هزاز » ونادته « تعال وجربها » ولكنه زام مرة أخرى وظل جالسا وساقاه على الحاجز ، وراقب بايارد الصغير وهو ينزلق وراء عجلة القيادة . جرب الآلة فأسرعت ثم توقفت . ووقف إيزوم بجوارها وكأنه كلب قيد بحبل ، وألقى بايارد الصغير عليه نظرة وقال له « تستطيع أن تركب المرة القادمة » .

قالت مس جيني « ولم لا يستطيع أن يركب الآن . إيزوم ، اقفز إليها »

وقفز إيزوم . وراقبهم بايارد العجوز وهم يتحركون بسكون عبر الممر . راقب السيارة وهي تختفي عن الأنظار منحدرة إلى الوادي وعلى التو تصاعدت سحابة من الأتربة فوق الأشجار ، إلى الأصيل اللازوردي وتعلقت وردية اللون في الشمس . ثم غاضت ، وصوت ، وكأنه رعد بعيد ، مات ، وهو يغمغم من ورائها .

ونفث بايارد العجوز سيجاره مرة أخرى . وظهر سيمون في الباب ووقف مكانه .

قال سيمون « والآن ، أين تظنهم يذهبون ساعة العشاء بالضبط ؟ » وزام بايارد العجوز ووقف سيمون بالباب يغمغم محدثا نفسه .

بعد عشرين دقيقة ، انزلقت السيارة إلى الممر لتقف في مكانها السابق تقريبا . وفي المقعد الخلفي كان وجه إيزوم كبيانو مفتوح . ولم تكن مس جيني ترتدي قبعة . كانت تمسك شعرها بكلتا يديها . وبعد أن توقفت

السيارة ظلت جالسة هكذا لحظة ، ثم أخذت شهيقا عميقا .

قال « تمنيت أن أدخن » ثم « أهذه أقصى سرعة لها ؟ »

نزل إيزوم وفتح لها الباب ، ونزلت بصعوبة إلى حد ما ، ولكن عينيها كانت لامعتين وكانت وجنتاها الجافتان العجوزتان متضرجتين .

سأل سيمون من مكانه بالباب « إلى أى مدى ذهبتم ؟ »

قالت بكبرياء « ذهبنا إلى المدينة ، وكان صوتها صافياً كصوت فتاة ، كانت المدينة على بعد أربعة أميال » .

وذات يوم من الأسبوع التالى جاء العجوز فولز إلى المدينة ووجد بايارد العجوز فى مكتبه . كان المكتب هو حجرة المديرين أيضاً ، حجرة كبيرة تحتوى على مائدة طويلة محاطة بالمقاعد ودولاب مرتفع يحتفظ فيه بمطبوعات المصرف ، ومكتب بايارد العجوز ذو الحصيرة التى تغلق سطحه ومقعده الدوار ، وأريكة كان يغفو عليها ساعة ظهر كل يوم .

كانت على المكتب ، كمكتبه فى البيت ، صنوف من الأشياء التى لا علاقة لها على الإطلاق بأعمال المصارف . وعلى الرف فوق المدفأة كان مزيد من الأشياء ذات الطابع الزراعى ، ومجموعة مغبرة من الغلايين وثلاثة أو أربعة قوارير من الطباق . كانت تزود بالرضا هيئة المصرف كلها من المدير إلى البواب ، وعدداً محترما من العملاء . وإذا سمح الجو ، كان بايارد العجوز يدفع مقعده إلى الخلف بجوار الباب الخارجى ، ويجلس عليه أكثر اليوم ، وعندما يجده العملاء هناك يعودون مرة أخرى إلى المكتب ، ويملئون غلايينهم من القوارير . وكان عرفا متبعا من نوع ما ، لم يقل به أحد ، ألا يأخذ أحد فى كل مرة إلا ملأ غليونه . هنا اعتزل العجوز فولز وبايارد العجوز ، فى زيارته الشهرية وتصايحا معا واحداً بعد الآخر ، فقد كان كلاهما أصم ، حوالى نصف ساعة أو ما يقربها ، وكنت تستطيع أن تسمعها بوضوح من الشارع ، وفى المتجر الملاصق من أى من الجانبين .

كانت عينا العجوز فولز زرقاوين وبريئتين كعيني صبي . وكان أول ما يعمله هو أن يفتح الحزمة التي أعدها له بايارد العجوز ويخرج منها قطعة من طباق المضغ ، ويقتطع منها مضغة يضعها في فمه ، ويعيد القطعة إلى مكانها ، ويربط الحزمة بدقة مرة أخرى . ومرتين كل عام ، كانت الحزمة تحوى طاقما كاملا من الملابس ، وفي المناسبات الأخرى طباقا وكيسا صغيرا من حلوى النعناع ، ولم يكن يقطع الخيط قط . بل كان دائما يفكه بأصابعه المتغلظة الجافة . ويعيد ربطه من جديد ، ولم يكن يقبل مالا .

وقد جلس الآن في « معطفه » النظيف حائل اللون ، والحزمة على ركبتيه ، يقص على بايارد عن السيارة التي مرت به وهو في الطريق صباح اليوم . وقد جلس بايارد ساكنا تماما يرقبه بعينيه الوحشيتين العجوزتين حتى انتهى .

سأله « هل أنت واثق ممن كان فيها ؟ » .

ـ « مرت بي بسرعة كبيرة جدا . ولم أستطع معها أن أعرف إن كان فيها أي شخص على الإطلاق ، سألت عند وصولي إلى المدينة ويبدو أن كل شخص يعرف إلى أي مدى يسرع بها ، إلا أنت » .

جلس بايارد العجوز هادئا برهة ثم رفع صوته مناديا :

« بيرون »

انفتح الباب ودخل الكاتب .

قال بصوت رتيب « نعم ، سيدي الكولونيل » .

ـ « اتصل ببيتي تليفونيا وقل لحفيدي ألا يمس تلك السيارة حتى أعود »

ـ « نعم سيدي الكولونيل » . وذهب بسكون كما ظهر .

واستدار بايارد العجوز بمقعده بعنف مرة أخرى ومال العجوز فولز إلى الأمام وهو يحملق في وجهه وسأله :

« بايارد ، ما هذا الذى فى وجهك ، متى ظهر عليه ؟ »

وسأله بايارد « ماذا ؟ » ثم رفع يده إلى بقعة صغيرة أبرزها احتقان وجهه « هنا ؟ لا أدرى ماذا تكون ؟ إنها هنا منذ أسبوع . لماذا ؟ » .

فسأل الآخر « وهل تكبر ؟ » ووقف ، ووضع حزمته جانبا ومد يده نحوه ، وتراجع بايارد العجوز برأسه إلى الخلف وقال بغضب « لاشيء . دعها » . ولكن العجوز فولز أبعد يد الآخر ، ولمس البقعة بأصابعه وقال « هم . صلبة كحجر . وهى تكبر أيضا . سألاحظها . وفى الوقت المناسب أستأصلها ، لم تنضج بعد » . وفجأة ظهر الكاتب بجوارهما بسكون وقال

ـ « طاهيك يقول إنه ومس جينى قد خرجا فى السيارة إلى مكان ما . أبلغت رسالتك » .

سأله بايارد العجوز « جينى معه . أقلت هذا ؟ »

قال الكاتب بصوته الرتيب « هذا ما يقوله طاهيك » .

ـ حسنا ، وهو كذلك .

وانسحب الكاتب ، والتقط العجوز فولز حزمته وقال « وسأمضى أنا أيضا ، سأعود فى الأسبوع القادم ، وألقى نظرة عليها ، خـــير لك أن تتركها حتى أعود » .

ومضى أثر الكاتب من الغرفة ، وعلى التو نهض بايارد العجوز ، ومشى عبر البهو ، ودفع مقعده إلى الخلف عند الباب وجلس .

عندما عاد ذلك المساء إلى البيت ، لم تكن السيارة بادية للعيان ، ولا أجابته عمته على ندائه ، ثم صعد إلى حجرته وارتدى حذاء الركوب وأشعل سيجاراً ، ولكن إذ نظر من نافذته إلى الفضاء الخلفى ، لم يجد إيزوم أو الفرس المسرجة . وكان الكلب العجوز قابعا ينظر إلى أعلى ، إلى نافذته فلما ظهرت رأس بايارد العجوز هم وذهب إلى باب المطبخ ووقف هناك

ثم نظر مرة أخرى إلى نافذته . نزل بايارد العجوز الدرج ومضى عبر البيت ودخل المطبخ حيث كان كازبى جالسا إلى المائدة يأكل ويتحدث إلى إيزوم والنورا .

كان كازبى يروى « ومرة أخرى أنا وولد آخر » ثم رأى إيزوم بايارد فهب من مكانه فى ركن الصندوق الخشبى ، ودارت عيناه البيضاوان فى رأسه المستدير وتوقفت النورا أيضا بمكنستها ولكن كازبى أدار رأسه دون أن يقف ، ومضى يمضغ بانتظام وطرف بعينه على بايارد العجوز الواقف بالباب .

قال بايارد « أرسلت لك كلمة فى الأسبوع الماضى أن تعود إلى هنا فورا ، أو لا تعد على الإطلاق ، هل وصلتك ؟ » .

وغمغم كازبى شيئا . ومضى يمضغ ، ثم دخل بايارد العجوز الغرفة وأمره « قم من عندك وأسرج فرسى »

أدار كازبى ظهره متعمدا ورفع كوب اللبن الحامض إلى فمه ، وهمست النورا « كازبى ، قم » وأجابها « أنا لا أعمل هنا » ولكن بصوت لا يستطيع أن يسمعه بايارد ثم استدار إلى إيزوم وقال « لم لا تذهب وتحضر له حصانه ؟ ألا تعمل هنا ؟ »

وتضرعت النورا « كازبى ، حبا فى الله » ثم قالت بصوت مرتفع « نعم ، سيدى الكولونيل سيذهب حالا » .

قال كازبى « من ! أنا ؟ هل يبدو على هذا ؟ » ورفع كوبه بتؤدة إلى فمه ، ثم تحرك بايارد مرة أخرى ففقد كازبى أعصابه ، ثم قام بسرعة قبل أن يبلغه بايارد ، وعبر المطبخ متجها نحو الباب ، ولكن بوقاحة مشاكسة بدت حتى فى شكل ظهره . وبينما كان يعالج فتح الباب لحق به بايارد .

سأله « هل ستذهب لتسرج فرسى »

أجاب كازبى بصوت تحت صمم بايارد بالضبط « لن أفعلها ، أيها الولد العجوز » .

ـ ماذا ؟ .

قالت النورا وكأنها تنوح : « أوه يا إلهى ، كازبى » ، ولجأ إيزوم إلى ركنه . رفع كازبى عينيه بسرعة إلى وجه بايارد وفتح الباب الساتر .

قال مرة أخرى وهو يرفع صوته « أنا أقول لك لن أفعلها » ، وكان سيمون واقفا عند أول الدرج بجوار الكلب وقد فغر فاه فاقد الأسنان نحوهما ، والتقط بايارد العجوز قطعة من خشب الوقود من الصندوق القريب وأسقط بها كازبى عبر الباب المفتوح إلى أسـفل الدرج عند قدمى أبيه حيث كان واقفا .

قال « والآن ، اذهب واسرج هذه الفرس » .

عاون سيمون ابنه حتى وقف على قدميه . وأخذه بعيدا نحو الجرن بينما أخذ الكلب ينظر إليهما باهتمام عميق وقال غاضبا « ما زلت أقول لك ، أفكار الحرب الخادعة هذه لن تتفق مع هذا المكان والأفضل لك أن تشكر الله الخير لأنه صنع لك رأساً صلبة كهذه . هيا اذهب وأحضر هذه الفرس ، واحتفظ بهذا الكلام عن حرية السود لأهل المدن . وعلى أى حال ، من أجل ماذا نريد نحن السود أن نتحرر ، أليس لدينا من البيض قدر ما نستطيع أن نعول ؟ » .

وقد نظر بايارد العجوز ، ذلك المساء ساعة العشاء ، إلى حفيده عبر الضأن المشوى وقال « ويل فولز قال لى إنك مررت به فوق تل ملجأ الفقراء وأنت تجرى بسرعة أربعين ميلا فى الساعة ؟ » .

أجابت مس جينى على الفور « أربعين .. هراء ، كانت أربعة وخمسين ،

كنت أرقب . . بايارد ماذا تسميه ؟ عداد السرعة ؟ »

وقد جلس بايارد العجوز حانى الرأس قليلا يرقب يديه وهما ترتعشان على سكين القطع والشوكة وأخذ يستمع من تحت الفوطة المثبتة فى صداره ، إلى قلبه ، وقد اصبح إلى حد ما أخف وأسرع قليلا . وهو يحس بعينى مس جينى على وجهه .

قالت بحدة « بايارد ، ما هذا الذى على وجنتيك ! » . فهم على الفور واقفا فجأة بالطريقة التى أفقدت مقعده توازنه فهوى إلى الخلف بضجة ، ومضى من الغرفة كالكفيف لا يرى شيئا .

- ٣ -

قالت مس جينى لبايارد العجوز وهى تقرأ صحيفتها ، « أنا أعرف ما الذى تريد منى أن أفعله ، أنت تريد منى أن أهمل رعاية البيت ، وأن أقضى كل وقتى فى هذه السيارة . هذا ما تريد منى أن أفعله . حسنا . وأنا لن أفعل هذا . لا مانع لدى من أن أركب معه من حين لآخر . ولكن لدى الكثير جدا الذى يشغل وقتى ، ويمنعنى من أن أضيعه فى رده عن قيادة هذه السيارة بسرعة كبيرة جدا » .

وأضافت تقول « وعنق أيضا » وطقطقت جريدتها بصوت حاد .

ثم قالت « وبالإضافة ، لست غبياً إلى الحد الذى تعتقد معه أنه سيقود ببطء ، لمجرد وجود شخص آخر معه . أليس كذلك ؟ إذا كنت تعتقد هذا فعلا ، فالأفضل لك أن ترسل سيمون معه . الله يعـــلم أن سيمون يستطيع أن يستغنى عن وقته . أنا لا أعلم أنه يفعل شيئا منذ أن كففت عن استخدام العربة » ، ومضت تقرأ صحيفتها .

وتصاعد الدخان من سيجار بايارد العجوز فى يده الساكنة .

قال « قد أرسل إيزوم ؟ »

وطقطقت الجريدة فى يدها بصوت حاد ، وحلقت فى ابن أخيها لمدة طويلة ثم قالت « الله فى سمائه يارجل ! لم لا تضع عليه الأصفاد والأثقال وتنتهى من الأمر كله ؟ » .

« حسنا » ، ألم تقترحى أنت أن أرسل سيمون معه ؟ سيمون لديه عمله الذى يقوم به ولكن كل ما يعمله إيزوم إذا عمل شيئاً ، هو أن يسرج حصانى مرة كل يوم ، وأنا أستطيع أن أقوم بهذا بنفسى .

قالت مس جينى . « كنت أحاول أن أمزح . علم الله ، كان على أن أزداد معرفة مع الأيام ولكن إذا كان عليك أن تبتكر شيئا جديدا ليقوم به السود ، فليكن هذا لسيمون . أنا أحتاج لإيزوم لأحتفظ بسقف هذا البيت فوق رأسك ولتجد شيئا على المائدة لتأكله » . وطقطقت جريدتها وسألته « لم لا تتحدث إليه بصراحة وتطلب منه ألا يقود السيارة بسرعة ؟ الرجل الذى يجد لزاما عليه أن يقضى ثمانى ساعات جالسا على مقعد على باب هذا المصرف ، لا ينبغى أن يضطر إلى قضاء بقية الأمسية هائما كالشيطان حول المدينة فى سيارة ، إذا كان لا يريد أن يفعل » .

سألها « وهل تجدين ثمة فائدة فى أن أطلب منه ؟ الملاعين ، لم يعر أحدهم قط أذنا صاغية لرغباتى » .

قالت مس جينى « تطلب ، يا الشيطان . من الذى قال شيئا عن تطلب . أؤمره ألا يفعل . قل له إذا سمعت مرة أخرى عن قيادته هذه السيارة بسرعة فإنك ستنتزع حياته منه . على أى حال ، أنا أعتقد أنك نفسك ترغب فى ركوب هذه السيارة ولكنك لا تعترف بهذا . كل ما فى الأمر ، أنك لا تريد أن يركبها عندما لا تستطيع أن تصحبه فيها » ولكن بايارد العجوز كان قد صفق قدميه بالأرض ووقف ، ومضى من الغرفة فى خطوات ثقيلة .

وبدلا من أن يرقى الدرج ، سمعت مس جينى خطواته وهى تتلاشى فى

نهاية البهو . وعلى التو ، وقفت وتبعته إلى الفناء الخلفى ، حيث كان واقفا فى الظلام . كان الليل مظلما فواحا بروائح الربيع المتدافقة ، وبالحشرات . وكان الجرن متشامخا إلى السماء ، ككتلة ظلماء ومن ورائها ظلام أزرق .

قالت بسرعة وهى تلمس ذراعه « لم يعد بعد . كنت سأخبرك . هيا اصعد الآن ، وعد إلى فراشـــك . أنت تعرف أنه سيشعرك بعودته عندما يعود . وأنت ، بتصوراتك الحمقاء هذه ستلقى به فى خيالك ، فى مستنقع بمكان ما » ثم قالت له برقة أكثر « أنت تفكر فى هذه السيارة بطريقة صبيانية جدا . ليست أكثر خطرا فى الليل منها فى النهار » .

وتثر يدها بعيدا عنه ، ولكنه استدار بخضوع ، ودخل البيت . وصعد الدرج ، وسمعت وقع قدميه فى غرفة نومه . وبعـــد هنيهة توقف عن صفق الأبواب والأدراج ، واستلقى تحت مصباح القراءة مع كتاب لدوماس . وبعد وقت انفتح الباب .

دخل بايارد الصغير ، وجاء إلى دائرة النور وعيناه كثيبتان .

لم يعر جده حضوره اهتماما ، فلمس ذراعه . وهنا رفع بايارد العجوز عينيه ، وعندما فعل هذا استدار بايارد الصغير وغادر الغرفة .

اعتكف بايارد العجوز فى مكتبه ، بعد أن أسدلت الستائر على نوافذ المصرف فى الساعة الثالثة وكان فى استطاعة الصراف وكاتب الحسابات وهما فى مكانهما فى صالة المعاملات بالبنك ، أن يسمعاه من وراء الباب المغلق وهو يصدم الأشياء من حوله ويصفقها ، ثم توقف الصراف عن العمل ، وبين أصابعه عدد من النقود الفضية المرتبة بأناقة .

قال « أتسمعه ؟ » ثمة شىء يشغله هـــذه الأيام ، اعتاد أن ينتظرهم فى غرفته ، وهو هادىء كالفأر حتى يحضروا إليـه ، ولـكنه فى الأيام القليـــلة الأخيرة ، يدور فى الحجرة ، ويصفح الأشياء ، وكأنه يقاتل

حشدا من الزنابير ، لم يقل الكاتب شيئا ثم وضع الصراف صف النقود الفضية جانبا وأخذ فى بناء صف آخر ، وقال .

« ثمة شىء فى صدره هذه الأيام ، هذا الطبيب ، لا بد أنه قد أسر بشىء فى أذنه على ما أظن » .

لم يقل الكاتب شيئا ولكنه سحب آلة الجمع إلى مكتبه وأعد ذراعها للعمل ، أما فى الغرفة الخلفية فقد مضى بايارد العجوز يتحرك فيها بصوت مسموع ، ورتب الصراف ما تبقى من النقود الفضية بدقة ، ثم لف سيجارة . أما الكاتب فقد انحنى فوق آلة الجمع وهى تطقطق بانتظام ولصق الصراف سيجارته وأشعلها ومضى متباطئاً إلى النافذة ، وازاح الستار ثم قال « سيمون أحضر العربة اليوم ، هذا الولد لا بد وقد حطم السيارة أخيراً على ما أظن ، الأفضل ان تخبر الكولونيل »

انزلق الكاتب من فوق مقعده المرتفع وعاد إلى الباب وفتحه ، ورفع بايارد العجوز عينيه ، وكان جالسا إلى مكتبه وقبعته فوق رأسه .

قال « حسنا يا بيرون » وعاد الكاتب إلى مكتبه .

ومضى بايارد العجوز عبر البنك وفتح الباب الخارجى ثم توقف تماما ومقبض الباب فى يده .

سأل سيمون « أين بايارد؟ » .

قال « لن يحضر » وتقدم بايارد العجوز إلى العربة .

ـ ماذا ؟ أين هو ؟

قال سيمون « هو وايزوم ذهبا إلى مكان ما فى السيارة ، الله وحده يعرف أين هما الآن . ان يأخذ هذا الولد من عمله فى وسط النهار ، ليركب السيارة ؟ » ، ووضع بايارد العجوز يده على مقبض العربة ، وقد برزت

البقعة البيضاء فى وجهه مرة اخرى ، ومضى سيمون يقول (بعد كل هـــذا الوقت الذى بددته وأنا احاول أن أضع شيئا من التعقل فى رأس إيزوم) ، وأمسك رأسى الحصانين مرفوعين إلى أعلى ، منتظرا مخدومه حتى يركب ، وهو يردد « ركوب السيارة . . . ركوب السيارة » .

قال بايارد العجوز . « فلتحل على اللعنة ، إن لم اكن اكد فى سبيل اتفه جماعة من الخلق صنعها الله . ثمة شىء واحد فى هذا الموضوع ، عندما يتحتم على فى النهاية ان اذهب إلى ملجأ الفقراء ، فإن كل واحد منكم ايها الملاعين سيكون فى انتظارى هناك » .

قال سيمون « والآن ، هأنتـــذا تتشاجر أيضا ، مس جينى ظلت تصرخ فى حتى من البوابة ، وأنت الآن قد بدات الشجار فعلا . ولكن إذا لم يدع مستر بايارد هذا الولد وشأنه ، فلن يكون أفضل من أى صبى اسود من اهل المدن ، رغم كل ما أستطيع أن أفعله » .

قال بايارد العجوز « جينى قد أتلفته بالفعل . حتى بايارد لا يستطيع أن يؤذيه كثيراً » .

قال سيمون موافقا « قلت الحقيقة بالتأكيد ، وهز الأعنه « هيا ! » .

قال بايارد العجوز « سيمون ، اسمع . انتظر دقيقة » .

وشد سيمون أعنة الخيل « وماذا تريد الآن ؟ » .

واستعادت البقعة التى على وجه بايارد مظهرها المعتاد .

قال له « عد إلى مكتبى واحضر لى سيجارا من القارورة التى على الرف » .

بعد يومين ، وإذ هو وسيمون يمضيان ببطء إلى البيت ساعة الأصيل ، وفى نفس اللحظة تقريبا مع رعدها المنذر ، انقضت عليه السيارة عند انحناء فى الطريق ، ثم انزلقت إلى المستنقع وعادت إلى الطريق مرة اخرى واندفعت

مدبرة . وفى اللحظة المبرقة رأى هو وسيمون بياض عينى إيزوم وصف أسنانه من وراء عجلة القيادة . وعندما عادت السيارة إلى البيت ذلك الأصيل ، أخذ سيمون إيزوم إلى الجرن وساطه بحزام سرج جلدى .

ذلك المساء ، جلسا فى المكتب بعد تناول العشاء . وقد وضع بايارد العجوز سيجاره غير المشعل بين أصابعه ومضت مس جينى تقرأ صحيفتها ، وهبت نسائم رقيقة محملة بالربيع .

قال بايارد العجوز فجأة « ربما يسأمها بعد قليل »

رفعت مس جينى رأسها وقالت « وعندما يفعل ، ألا تعلم ما الذى سيحصل عليه حينئذ ... عندما يجد أن هذه السيارة لا تمضى بسرعة كافية ؟» وحملقت فيه عبر جريدتهما ، وقد جلس بسيجاره غير المشعل وقد انحنت رأسه قليلا ولم يكن ينظر إليها « سيشترى طائرة » .

وطقطقت جريدتها وقلبت الصفحة « ينبغى أن يكون له زوجة » ثم مضت تقول وهى تقرأ جريدتها « دعه ينجب ولدا ، حينئذ يستطيع أن يكسر عنقه حالما ، وكلما أراد ذلك . يبدو أن العناية الإلهية لاتعرف العدالة على الإطلاق » ثم قالت وهى تفكر فيهما معا ، فى شقيقه الميت ، « لكن الله يشهد ، أننى أكره أن أرى فتاة أحبها ، وهى زوجـــة له » وطقطقت الصحيفة ، وهى تقلب صفحة أخرى « لا أدرى ما الذى تتوقعه منه غير هذا . من أى سارتورس . وأنت لا تضيع أمسياتك راكبا معه لمجرد أنك تعتقد أن هذا سيمنعه من قلبها . أنت تذهب معه ، لأنك تريد ـ عندما تقع الواقعة ، أن تكون فيها أيضا . ولذا فهل تظن نفسك تحسب للناس حسابا أكثر منه ؟ »

وكان ممسكا سيجاره ووجه مازال منكسا . وكانت مس جينى ترقبه من وراء صحيفتها .

« سأنزل المدينة غداً ، وسنذهب إلى الطبيب ليلقى نظرة على هذا الورم الذى فى وجهك ، أتسمعنى ؟ »

فى غرفته ، خلع ياقته ورباط عنقه أمام دولاب ملابسه ذى الأدراج ، وسقطت يده على الغليون الذى وضعه هناك منذ أربعة أسابيع ، ووضع الياقة ورباط العنق جانباً والتقط الغليون وأمسك به . وأخذ فى عرك انتفاخه المتفحم بإبهامه .

ثم غادر الغرفة بعزم مفاجىء وخطا متثاقلا عبر البهو ، حتى نهايته ، حيث يتصاعد درج إلى الظلام . وتحسس بأصابعه مفتاح النور ، وأضاء المصباح ورقى ، وهو يتبع بحذر فى الظلام استدارات الدرج الضيقة حتى وصل إلى باب ثبت بزاوية حادة ، وفتحه إلى غرفة عريضة منخفضة السقف تعبقت برائحة الغبار والصمت والأشياء العتيقة غير المستعملة .

انتثرت فى الغرفة قطع من الأثاث بلا تمييز ـ مقاعد وأرائك وكأنها أشباح صابرة تمسك فى احتضانة جافة متصلبة أشباحا أخرى ، إنها مكان مناسب للموتى من آل سارتورس ، ليجتمعوا فيه ويتحدثوا فيما بينهم ، عن الأيام السحيقة الجيدة والمفجعة معا ، وقد تراقص الضوء العارى على حبل مفرد هابط من وسط السقف وفك عقدته وجره عبر الحجرة إلى مسمار بالحائط فوق صندوق خشب وربطه هناك . وجر مقعـــدا إلى الصندوق وجلس .

لم يكن الصندوق قد فتح منذ عام ١٩٠١ ، عندما سقط ابنه جون تحت تأثير الحمى الصفراء وجرح قديم من رصاصة اسبانية . ومنذ هذا التاريخ جاءت مناسبتان ، فى يوليو وأكتوبر من العام الماضى ولكن الحفيد الآخر كان ولا يزال يملك التهور وكل تراث الأسرة المشئوم الذى لا يتصور ولذا فقد ترك المناسبتين تمضيان مؤقتا ، متوقعا أن يصيد عصفورين بحجر واحد كما يقولون .

وكان القفل متصلبا ، وحاول بصبر لمدة طويلة أن يفتحه . وانقشر الصدأ عنه والتصق بيديه ثم توقف ، وهم وبحث من حوله ، وعاد إلى الصندوق بشمعدان ثقيل من الحديد الزهر ، ضرب به القفـل حتى فتحه

واخرجه ، ورفع الغطاء . من الصندوق تصاعدت غلالة رقيقة من عطر خشب الشربين المنعش ، وشيء آخر ، شذا ، وكأنه رائحة رماد قديم كرائحة المسك المحمله برقة بالحنين إلى الماضي . وكان أول الأشياء ثوب. كان النسيج المطرز مطموسا تماما وحرير ميشلان الذى صنع منه أصفر مغبرا وحائلا وقد فقد معالم نسيجه تماما وكأنه ضوء الشمس فى فبراير . ورفع الثوب بعناية من الصندوق ، فتساقطت الدنتلا ناعمة وحائلة وكأنها نبيذ انسكب على يديه ، ووضعه جانبا ، ثم التقط بعد ذلك سيف طعان كان من صنع توليدو ، سلاحاً رقيقاً وجميلا وكأنه نغم ممتد من قوس كان ، وكان فى غمد من المخمل . والغمد أنيق زاخر الألوان ملطخ ، وقد تشققت حوافيه وجفت .

وضع بايارد العجوز السيف بين كفيه هنيهة ، وهو يستشعر ثقله بين يديه ، كان الأداة التى يعتبرها واحد من آل سارتورس سلاحا مناسبا لزرع الطباق فى برية بكر ، هو والكعوب القرمزية وأساور الرسغ المخملية ، كانت الأدوات التى يشق بها الأرض ويحارب بها جيرانه البسطاء المتسللين .

ووضعه جانبا . ثم جاء بعد ذلك سيف فارس ثقيل ، وصندوق من خشب الورد يحتوى على غدارتى مبارزة برسوم بارزة من الفضة ، كانت لها رقة خيل السباق الخداعة وآخر وصفه العجوز فولز بقوله « هذا المدمدم الأمريكى القصير » ، كان شيئا غليظا ، شريراً بقصباته الثلاث كل غايته كانت النفع بشكل فاجر وببرود ، وكان بين السلاحين كأنه حشرة باردة قاتله ترقد بين زهرتين .

أخرج بعد ذلك ، قبعة مشاة الجيش فى الأربعينات وإناء فخاريا صغيراً وسكينا مكسيكية ثقيلة ، وعلبة زيت ذات عنق طويل مما يستعمله سائقو القطارات . كانت من الفضة وقد حفرت عليها صورة قاطرة بمدخنة هائلة جرسية الشكل وقد أحيطت بضفائر أنيقة من الورد ومن تحتها الاسم فرجينا والتاريخ ٩ أغسطس سنة ١٨٧٢ .

بعزم مفاجىء وضع هذه الأشياء جانبا ثم أخرج الأشياء الأخرى ، سترة الحلف الاتحادي الجنوبي الرمادية الموشاة والمزينة بالجدائل . عباءة من الموسلين المشجر يفوح منها بضعف عطر اللافندر مستثيرا إلى الذكرى ، حفلات رقص أنيقة رسمية دارســــة وعطر ياسمين برى يتدافق فى لهب الشموع الرصين - ثم جاء إلى حشد من الأوراق المصفرة المربوطة بأناقة فى حزم وأخيرا إلى توراة هائلة مغلفة بالبرنز . رفعه إلى حافة الصندوق وفتحه كان الورق بنياً ناعماً من فعل السنين ، وكان له مثل ملس رماد الخشب المندي قليلا ، وكأن كل ورقة منه قد أمسكت إلى بعضها البعض بما عليها من طباعة قديمة حائلة . قلب الصفحات بعناية إلى الخلف حتى الصفحات البيضاء ، ومبتدئا من قرب نهاية الصفحة البيضاء الأخيرة تصاعد عمود من الأسماء والتواريخ ، فى بساطة مفاجئة وحائلة ، وهى تغيض رويداً رويداً حيث وضع الزمان عليها آثاره وعند القمة كان وما زال من الميسور تمييزها ، كما كان الأمر فى نهاية الصفحة السابقة ولكن فى منتصف هذه الصفحة توقفت ومنها حتى نهاية الصفحة كانت بيضاء إلا من آثار الزمن الرقيقة الضعيفة ، وجرة قلم بنية اللون ، هنا وهناك ، جلس بايارد العجوز وقتا طويلا يتأمل ألوهية اسم أسرته المتداعية المذهلة ، لقد سخر آل سارتورس من الزمن ولكن الزمن لم يسع للانتقام لأن الزمن أكثر امتداداً من آل سارتورس . والمرجح أيضا أنه كان غافلا عنهم . ولكنها كانت على أى حال مجاملة طيبة منه .

قال جون سارتورس ، « فى القرن التاسع عشر يعتـــبر علم الأنساب هراء ، وخاصة فى أمريكا حيث لا أهمية إلا لما يأخذه الرجل ويحتفظ به ، وحيث لنا جميعاً نسب واحد مشترك ، والبيت الوحيد الذى نستطيع أن نزعم انتسابنا إليه بأى قدر من الثقة هو سجن أولد بيلى . ورغم ذلك فإن الرجل الذى يعلن .أنه لا يهتم على الإطلاق بنسبه ليس إلا أقل غروراً بقدر قليل من ذلك الذي يستند في كل أعماله إلى تقاليد الدم . وأنا

أعتقد أن أى سارتورس يستطيع أن يمتلك قدراً محدوداً من الغرور ومن هراء الأنساب هذا إذا أراد » .

نعم كانت مجاملة طيبة ، وجلس بايارد العجوز يتأمل بهدوء الماضى الذى نطق به تلقائياً كان . . القدر ، العرافة التى تتنبأ بمصير حياته تسترق إليه النظر من وراء حاجز الشجيرات على جانب الطريق ، ماذا لو استطاع التعرف عليها ، ومرة أخرى ، جرى لاهث الأنفاس خلال دغل الشجيرات بينما مضى هزيم فرسه الدخانى اللون مسرعاً فى الظلام وانقضت عليه من خلفه مقعقعة دورية اليانكى ثم مضت مبتعدة عنه رويداً رويداً وقبع برئتيه المجهدتين الكادتين فى دغل الورد الوحشى ، يستمع إلى صوت الطراد وهو يندفع مبتعداً — ثم زحف وذهب إلى ينبوع كان يعرفه يتدفق من جذور شجرة زان وعندما انحنى عليه ، انعكست على وجهه أضواء النهار الأخيرة مبرزة بشكل حاد الجبهة والأنف فوق تجويفى العينين العميقين كالكهف ، وأنيابه المكشرة اللاهثة ، ومن الماء الساكن حملقت فيه وللحظة مفاجئة ، جمجمة .

الأخطار التى تهدد مصير الإنسان ولا يمكن النجاة منها . حسناً ، الجنة ، ذلك المكان المزدحم ، يرقد بالضبط وراء أحدها ، هكذا يزعمون . الجنة مملوءة بوهم كل إنسان عن نفسه والأوهام المتضاربة عنه والتى تتردد فى عقول الأوهام الأخرى . . . وتحرك قليلا وتنهد بهدوء وأخرج قلمه الحبر ، وفى نهاية العمود كتب .

(جون سارتورس ٥ يوليو سنة ١٩١٨)

وتحتها « كارولين هوايت سارتورس وولدها ٢٧ أكتوبر سنة ١٩١٨ » وعندما جف الحبر ، أغلق الكتاب وأعاده إلى مكانه وأخرج الغليون من جيبه ووضعه فى صندوق خشب الورد مع غدارتى المبارزة والغدارة

الأمريكية القصيرة ، وأعاد الأشياء الأخرى إلى أماكنها وأغلق الصندوق وثبته بالقفل .

وجدت مس جيني بايارد العجوز فى مقعده المضطجع إلى الخلف بجوار باب البنك . رفع عينيه إليها وهو يتظاهر بحزق بالدهشة ، وبدا صممه أكثر وضوحاً من المعتاد ولكنها أنهضته من مكانه بصرامة باردة ، وتقدمته ، وهو ما زال يغمغم ، فى الشارع ، حيث تحدث إليها التجار والآخرون وكأنها إحدى ملكات القبائل المقاتلة ، بينما مشى بايارد العجوز بجوارها غاضباً صامتاً وعلى مضض .

ثم استدارا وصعدا درجا ضيقاً محصوراً بين متجرين ، تحت صف من لافتات مغبرة تعلن عن مهن مختلفة . وفى نهاية الدرج كان ممر ضيق وأبواب عدة ، أقربها من خشب الصنوبر ، وقد زال لونه الرمادى من الجزء الأسفل فيه ، وكأنه ركل موارا وفى نفس الارتفاع وبنفس القوة وكان فى الباب نفسه ثقبان يبعدان عن بعضهما البعض بوصة واحدة ، ويحملان دليلا أخرس على السقاطة المفقودة ، التى تعلقت فى قفيز القفل المثبت فى عضد الباب ، وقد ثبتت فى مكانها بقفل جسيم صدىء من طراز عتيق . وأراد بايارد العجوز أن يتوقف هنا ، ولكن مس جيني قادته بحزم إلى باب آخر عبر البهو .

هذا الباب ، كان حديث الطلاء وكان معرقا ليبـــدو كخشب الجوز ، وقد ثبت فى نصفه العلوى لوح زجاجى سميك معتم يحمل اسما فى حروف ذهبية بارزة ، وموعدين لساعات العمل . فتحت مس جيني هذا الباب ، وتبعها بايارد العجوز إلى حجرة صغيرة تكاد أن تكون جحراً ولكنها تتميز بعقم سبرطى نظيف . كانت الجدران رمادية حديثة الطلاء لا يشوبها شيء ، وعليها صـــورة مطبوعة لإحدى لوحات كورو ، ولوحتان عنكبوتيتان من الرسم الدقيق المحفور على النحاس وفى إطارات طويلة ،

وحوت أيضاً بساطاً جديداً فى لون برتقالى دافىء ، ومنضدة عارية ، وأربعة مقاعد من خشب البلوط الغامق — وكلها بلا طابع ونظيفة وغير مكلفة ، ولكنها تكشف عند النظرة الأولى عن نفسية مالكها — نفسية مقيدة اليوم بالضيق المادى ، ولكنها مصممه ـ وسيكون ذلك من نصيبها أن تعمل يوماً بين البسط الفارسية والأثاث الثمين ، ولوحة واحدة لاتعاب على الجدران الصافية . وقفت امرأة شابة فى ثوب أبيض منشى من خلف منضدة أصغر حيث استقر عليها تليفون ، وربتت على شعرها .

قالت مس جينى « ميرتل ، صباح الخير . أخبرى دكتور الفورد أننا نرغب فى رؤيته الآن ، أرجوك » .

قالت الفتاة بصوت آلى تماماً . « أنت لديك موعد سابق ؟ » .

أجابت مس جينى ، « سنأخذ واحداً الآن ، أنت لا تقصدين أن تقولى إن دكتور الفورد لا يأتى للعمل قبل الساعة العاشرة ؟ »

قالت الفتاة كالببغاء ، وهى تحملق فى نقطة فوق رأس مس جينى ، « دكتور الفورد . . لا . . . لا يقابل أحداً دون موعد سابق . إذا لم يكن لديك موعد ، فإن عليك أن تحتجز . . . » قالت مس جينى مقاطعة بسرعة « كفى . أجرى ، وأخبرى دكتور الفورد أن كولونيل سارتورس يريد أن يراه — هيا ، أنت بنت طيبة » .

قالت الفتاة مطيعة ، « نعم سيدتى ، مس جينى » وعبرت الغرفة ، ولكنها توقفت عند الباب مرة أخرى ومرة أخرى أصبح صوتها كصوت الببغاء . « ألا تتفضلين بالجلوس ؟ سأرى إن كان الطبيب مشغولا » .

قالت مس جينى مكررة بلطف ، « اذهبى أنت وأخبرى دكتور

الفورد أننا هنا . قولى له أن على إن أشترى صباح اليوم بعض الأشياء ، وليس لدى ثمة وقت للانتظار » .

قالت الفتاة مؤيدة « نعم ياسيدتى ، مس جينى » واختفت ، وبعد برهة وفورة عادت ، وقد تكلفت أساليب حرفتها بإتقان وقالت ، « سيراكما الطبيب الآن . تفضلا أرجوكما » وفتحت لهما الباب ووقفت جانباً .

أجابتها مس جينى ، « أشكرك ، يا حلوة . أما زالت والدتك فى الفراش ؟

« لا ياسيدتى . إنها تستطيع أن تجلس الآن . شكراً لك » .
قالت مس جينى « هذا طيب . بايارد . هيا . »

كانت غرفة الطبيب أصغر من الأخرى ،وكانت معقمة بشكل عنيف. وكان بها صوان ذو طلاء معدنى أبيض ،مملوء بأدوات ثقيلة يلمع منها وهج وحشى ومنضدة معدنية للعمليات وصف من الأفران الكهربية والمعقمات ، وقد انحنى الطبيب على منضدة صغيرة أمامه ، وكان يرتدى سترة بيضاء من التيل ، وللحظة قصيرة لم يدر إليهما رأسه المتشاغلة بمكر ، ثم رفع عينيه ووقف

كان فى العقد الرابع من عمره . فى سنى الشباب التى لا يمكن تحديدها بالضبط وكان أحد الوافدين الجدد إلى المدنية وابن أخ أحد سكانها القدامى. وقد حقق تفوقا كبيرا فى مدرسة الطب ، وكان له مظهر حسن ، ولكن كان فيه ثمة نوع من الشعور بالكرامة ، ونوع من الأحكام اليقينة القاسية بالنسبة للإنسان ، الأمر الذى وقف عائقا بينه وبين المودة السهلة التى يتميز بها أهل المدن الصغيرة ، ودفع حتى هؤلاء الذين يذكرونه كصبى زائر ، ان يخاطبوه بدكتور أو سيد . كان له شارب صغير ، ووجه كالقناع ـ وجه مطمئن ، ولكنه خال من الود . وبينما جلس بايارد العجوز بسكون مضى الطبيب يتفحص بدقه بأصابعه الجافه النظيفة البروز الصغير فى وجهه ، وسألته مس جينى سؤالا ، ولكنه تابع باستغراق

استكشافه وكأنه لم يسمع ، وكأنها لم تتكلم ، وقد دفع مصباحا كهربيا صغيراً بعد أن عقمه داخل فم بايارد ، ومضى يضيء وهجه الياقوتى من وراء وجنته ويطفئه ، ثم أخرجه وعقمه مرة أخرى وأعاده إلى الصوان .

قالت مس جينى وقـــد عيل صبرها ، « حسنا » ؟ وأغلق الطبيب الصوان بدقة ، وغسل يديه وجففهما وجاء ، ووقف فوقهما ثم علق إبهاميه من جيبى سترته وكأنهما شصين وبدأ يتكلم برزانة ولنوجة بألفاظ مهنته ، ومضت الكلمات الشديدة تنزلق من فوق لسانه باستمتاع ابيقورى بطىء .

قال مختتما حديثـــه « ينبغى أن يزال فى الحال . يجب أن يزال وهو بعد فى مرحلة مبكرة . ولهذا فأنا أنصح بإجراء جراحة فورية » .

سألته مس جينى ، أنت تعنى أنه قد يتطور إلى سرطان ؟

— « مدام لا يمكن أن يحدث هذا مطلقا . إنها مسألة وقت . أهمليه ولن أستطيع أن أعدك بشىء . اقتطعيه الآن . ولن يضطر لأن يشغل به مرة أخرى » ثم عاد ينظر إلى بايارد العجوز مرة أخـــرى وهو يتأمله متباطئا ببرود مخيف ، واستطرد يقول ، « ستكون بسيطة جدا ، سأزيله بمثل هذه السهولة . وأحدث إشارة سريعة بيده .

سأل بايارد « ما هذا ؟ »

— « كولونيل سارتوريس ، أنا أقول إنى أستطيع أن أقتطع هــذا الورم بسهولة فلا تحس بما أفعل » .

نهض بايارد بطريقته الخاصة المفاجئة ، وهو يقول ، « فلتحل بى اللعنة إذا فعلت » .

قالت مس جينى آمرة ، « بايارد » ، اجلس . لن يجرى أحـد مبضعه عليك دون أن تعرف . هل ينبغى أن تجرى فى الحال ؟ »

« نعم يا سيدتى . لو كنت مكانه لما تركت ذلك الشىء على وجهى ليلة واحدة . وإلا — إذ أنه ليس من العدل ألا أحذرك — فما من طبيب يستطيع أن يتحمل مسئولية ما قد يحدث . »

ثم قال وهو ينظر ببرود وتأمل مرة أخرى إلى وجه بايارد ، « فى استطاعتى أن أزيله فى دقيقتين » ثم أدار رأسه جانبا ووقف ينصت ، ومن وراء الحائط الرقيق ، تدفقت إلى الغرفة موجات صوت عريض .

قال الصوت ، « خير يا أختى ، أليس هذا صوت بايارد سارتورس الذى يسب ويلعن فى الداخل » ثم أمسك كل من الطبيب ومس جينى عن الحديث ، وانفتح الباب ليملؤه أكثر رجال البلدة بدانة . كان يرتدى سترة من النسيج الخفيف فوق صدار وسروال كالغرارة من الصوف الأسود الناعم ومن فوق ثنيات قميصه تدلت طيات لغده فكادت أن تغطى ياقته المنخفضة ، ورباط عنقه الخيطى ، وقد تكللت رأسه التى تشبه رأس سيناتور رومانى ، بخصل شعره الأشقر الصاخبة ، وقال وهو يهدر « بحق الشيطان ، ماذا بك ؟ » ثم دخل إلى الحجرة ، فملأها تماما ، وجعل بمن فيها ومن أثاثها أقزاما .

ذلك كان الدكتور لوشياس كوينتس بيبودى ، البالغ من العمر سبعة وثمانين عاما ، ويزن ثلثمائة وعشرة أرطال ، ويملك قناة هضمية كقناة حصان . اشتغل بالطب فى الريف عندما كانت عدة الطبيب منشارا وجالون ويسكى وقارورة من دهان الكالوميل وكان الطبيب الخاص للواء جون سارتورس ، وحتى بعد انتشار السيارة ، كان يخرج فى أية ساعة من ساعات اليوم الأربع والعشرين ، وفى أى جو ، ليقطع أية مسافة ، فوق طرق تكاد أن تكون مسدودة فى عربة متوازنة ولا تتكون إلا من مقعد أو مقعدين فوق عدة ألواح من الخشب مثبتة على عجلتين ، ليعود أى شخص أرسل فى طلبه ، سواء كان أبيض أم أسود ، ويقبل — عادة — كأجر ، وجبة طعام من القمح المسلوق والقهوة ، أو ربما كمية صغيرة من

القمح أو الفاكهة ، أو بضع بصيلات زهور ، أو شتلات فاكهة .

حينما كان شابا طائشا احتفظ بكراسة يسجل فيها دخـــله وما يصرفه يوما بيوم ، واحتفظ بها بدقة شديدة . حتى بلغت أرصدته الوهمية عشرة آلاف دولار ، ولـكن ذلك كله كان منذ أربعين عاما ، ومنذ ذلك الحين لم يشغل بسجله على الإطلاق ، أما الآن ، فمن حين إلى حين ، يدخل ريتى مكتبه الرث ليوفى نذرا ، لعله احتفال بيوم دخول صاحب النذر الدنيا ، وعد به أبوه أو جده ، الأمر الذى نسى عنه دكتور بيبودى كل شىء منذ زمن بعيد . وما من أحد فى المنطقة لم يكن يعرفه ويرسل إليه فى عيد الميلاد ، فخذ خنزير مملح ، أو صيدا بريا ، وكان يقال إن فى استطاعته أن يقضى بقية أيامه متجولا فى الريف ، فى عربته ذات المقعد والألواح الخشبية التى كان يستعملها وما زال دون أن يشغل مطلقا بالطعام والمسكن ودون أن يصرف بنسا أيضا . ملأ الحجرة بإنسانيته الدافئة الصاخبة الساذجة وعبر الحجرة فاهتز البناء كله بوقع أقدامه ، وتقدم من مس جينى وربت ظهرها بيد كالمطرقة الخشبية .

قال : خير يا جينى ، هل توقعين كشفا طبيا على بايارد للتأمين عليه ؟ » قال بايارد العجوز مشاكسا ، « هـذا الجزار اللعين يريد أن يقطع فى ، لوش ، تعال واجعلهم يدعوننى وشأنى » .

قال دكتور بيبودى بصوته الجلجل : الساعة العـاشرة صباحاً ، وقت مبكر جداً للبدء فى تقطيع البعض . السود يختلفون . قطع أى أسود فى أى لحظة بعد منتصف الليل . ماذا به يا ولدى ؟ » .

قالت مسس جينى « لا أعتقد أنها أكثر من ثؤلول ، ولـكننى سئمت النظر إليها » .

قال دكتور الفورد بجفاف « إنها ليست ثؤلولا » وسرد مرة أخرى تشخيصه بتعبيرات فنية بينما احتواهم جميعا وجود دكتور بيبودى الخير الطيب .

قال مؤيداً ، « يبدو الأمر سيئا جدا ، أليس كذلك ؟ » ثم هز الأرض مرة أخرى تحت وقع أقدامه ، ودفع بابارد بحزم بيده المائلة إلى مقعده ، وبالأخرى جر وجهه إلى النور . ثم استخرج من جيب سترته نظارة ذات إطار حديدى وفحص وجه بابارد ، وقال ، « تعتقد أنه من الواجب اقتطاعه ، أليس كذلك ؟ »

أجاب دكتور الفورد ببرود « أنا أعتقد هذا . أنا أعتقد أنه لا مناص من اقتطاعه . لا ضرورة له هناك . سرطان » .

قال دكتور بيبودى بجفاف ، « عاش الناس زمنا طويلا مع السرطان قبل أن يخترعوا السكاكين . بابارد ، لاتتحرك » .

والناس من أمثالك هم أحد الأسباب . كانت العبارة على طرف لسان الرجل الأصغر ولكنه أمسك ، وقال بدلا من ذلك « كولونيل سارتورس ، أنا أستطيع أن أستأصله فى دقيقتين » .

انفعل بابارد بعنف وقال ، وهو يهم واقفاً ، « أكون ملعونا إذا تركتك تفعل ، لوش ، قف جانبا »

قال دكتور بيبودى بهدوء ، وقد أمسك به فى مقعده « لاتتحرك - ومضى يتفحص الورم - هل يسبب لك أى ألم ؟ »

« لا . أنا لم أقل قط إنه يسبب لى أى ألم . فلتحل على اللعنة . . . »

قال دكتور بيبودى « المرجح أن تحل بك اللعنة على أى حال . ستكون فى مثل حالك الآن إذا مت . لا أعرف شخصا يأخذ من حياته من المتعة والتسلية أقل مما تفعل » .

قالت مس جينى وهى تؤيده « قلت الحقيقة لأول مرة . إنه أكبر سناً عن عرفت فى حياتى على الإطلاق » .

ومضى دكتور بيبودى يقول ببساطة « وعلى ذلك فلا تشغل به . دعه يبقى مكانه . ما من أحد يعنيه شكل وجهك . لو كنت شابا فتيا ، تخرج لتكهرب الفتيات كل ليلة » .

قال دكتور ألفورد مقاطعا « إذا كان قد سمح لدكتور بيبودى أن يتدخل دون أن يتحمل أى نتائج . . »

قال بايارد « ويل فولز يقول إنه يستطيع أن يعالجها »

قال دكتور بيبودى بسرعة « بدهانه الخاص هذا ؟ »

قال دكتور ألفورد « دهان ؟ » كولونيل سارتورس إذا سمحت لأى دجال يمر بك ، أن يعالج هـــذا الورم بأدوية مصنوعة فى الريف ، أو خاصة به ، ستكون ميتا خلال ستة شهور » ثم استطرد يقول بسخرية « حتى دكتور بيبودى سيؤيدنى فى هذا » .

قال دكتور بيبودى ببطء « لا أدرى . لقد فعل ويل أشياء عجيبة بدهانه هذا . »

قال دكتور ألفورد « سيتحتم على أن أحتج على هذا . مسز دوبرى ، أنا أحتج ضد رجل من مهنتى . يجيز ، ولو بطريقة سلبية ، مثل هذه الطريقة » قال دكتور بيبودى « مهلا يا ولدى . ان نسمح لويل أن يضع عقاقيره على ثؤلول بايارد ، إنها تصلح للسود والماشية ولكن بايارد ليس فى حاجة إليها سندع هذا الشيء وشأنه ، طالما أنه لا يؤلمه » .

قال دكتور ألفورد « إذا لم يستأصل هذا الورم فورا ، فأنا انفض يدى من كل مسئولية . إهماله أمر مميت تماما كدهان مستر فولز . مسز دوبرى أنا أطلب منك أن تشهدى أن هذه الاستشارة قد انحرفت إلى هذا الاتجاه الخاطىء ، بلا خطأ منى ، ورغم احتجاجى » .

قال دكتور بيبودى « اهدأ يا ولدى ، هذا لا يستحق الجهد الذى يبذل فى استئصاله . سنفقد لك ذراعا أو ساقا بمجرد أن يقلب به ذلك الحفيد الأحمق سيارته .. بايارد ، هيا معى »

وبدأ دكتور ألفورد يقول ، « مسز دوبرى »

وربت دكتور بيبودى كتف الرجل الأصغر بيده الثقيلة وهو يقول « يستطيع بايارد أن يعود إذا شاء ، سآخذه إلى مكتبى وأتحدث معه قليلا . تستطيع جينى أن تعود به إلى هنا ، إذا أرادت . بايارد ، هيا » . وقاد بايارد العجوز من الغرفة . ووقفت مس جينى أيضا .

قالت « هذا الرجل لوش ، لايقل غباء وتخلفا عن العجوز ويل فولز يرهقنى العجائز إلى درجة المـــوت . انتظر أنت ، سأحضره إلى هنا ، وسننتهى من هذا الأمر » .

فتح دكتور ألفورد الباب لها ، ومضت من الغرفة فى غضب مكبوت مغلف بالحرير ، ولحقت بابن أخيها عبر الممر ومن خلال الباب المشوه وقفله الصدىء إلى غرفة تشبه نموذجا مصغرا لدمار أحدثته عاصفة جبارة ، خففت من شدته أتربة عتيقة لم يزعج من أمرها أحد .

صاحت مس جينى ، « أنت . لوش بيبودى » .

قال دكتور بيبودى « جينى ، اجلسى ، لا تتكلمى - بايارد ، فك زرار قميصك » .

سأل بايارد العجوز بشراسة « ماذا ؟ » ودفعه الآخر على مقعد .

قال موضحا « أريد أن أرى صدرك » وعبر الغرفة إلى مكتب قديم ى حصيرة على وجهه ، ونبش بين المهملات المغبرة المنتشرة عليه . كانت ناك مهملات وأتربة فى كل مكان من الغرفة الهائلة . وكانت نوافذها أربع تفتح على الميدان ، ولكن أشجار الدردار والجميز التى اصطفت

على جوانبه ظللت مكاتب الطابق الأول ، ولذا ، فقد كان يدخلها الضوء ، ولكن مخففا ، كضوء تحت ماء . وفى أركان السقف كانت شباك العنكبوت سميكة وثقيلة كطحلب أسبانى ، قذرة كالدنتيلا القديمة . أما الجدران التى كانت يوما بيضاء . فقد أصبحت سنجابية قذرة إلا من مربع هنا وهناك أخف لونا ، حيث ثبت فوقه ذات يوم تقويم عتيق ثم أزيل . وبالإضافة إلى المكتب ، فقد احتوت الغرفة أيضاً ثلاثة أو أربعة مقاعد غير متشابهة وفى مراحل مختلفة من الانحلال ، وموقد صدىء فى صندوق مملوء بنشارة الخشب ، وأريكة جلدية ، تحدد فى صمت بين زنبركاتها المحطمة شكل جسم دكتور بيبودى عندما يستلقى عليها ، وبجوارها عدد من الروايات الرخيصة ذات الأغلفة الورقية الكالحة ، وقد أخذت طبقات متوالية من الأتربة تتراكم على سطحها ببطء . كان هذا هو مكتب دكتور بيبودى ، وكان يقضى ساعات عمله على هذه الأريكة ، وهو يستعيد قراءتها مراراً وتكراراً . أما غيرها من الكتب فلم يكن يوجد على الإطلاق .

أما سلة المهملات بجوار المكتب ، والمكتب نفسه ، والرف فوق المدفأة المملوءة بالقمامة والنوافذ أيضا ، فقد انتثر عليها جميعا مطبوعات دورية ومصورات إعلانية ونشرات حكومية من كل نوع . وفى أحد أركان الغرفة كان مبرد ماء قذر من الزجاج المؤكسد فوق صندوق مقلوب وفى ركن آخر كانت حزمة من قصبات الصيد ، وقد مالت تحت تأثير ثقلها ، وفوق كل سطح أفقى استلقت مجموعة من الأشياء التى لا توجد إلا فى متجر سلع قديمة - ملابس قديمة ، زجاجات ، مصباح كيروسين ، صندوق خشبى معبأ بصفائح دهن الشحم وينقصه صفيحة ، ساعة فى إطار من الصينى على شكل نبات شب النهار ، وقد استندت إلى أربع صبايا كللت هاماتهن بالزهور ، وأصبن بكوارث عضوية متعددة ومثيرة للدهشة هنا وهناك ، وبين أشياء متربة اختلطت بلا تمييز ، أدوات مختلفة تتصل بمهنة المقيم فى الغرفة . كان دكتور بيبودى يبحث عن

إحدى هذه الأدوات فوق مكتبه التي تناثرت عليه الأشياء ، والذى استقرت عليه صورة شمسية واحدة فى إطار خشبي ، ورغم أن مس جينى قالت له مرة أخرى « أنت . لوش بيبودى أنصت إلى » فقد مضى يبحث عنها بهدوء مهذب وبغير عجلة .

قالت مس جينى لابن أخيها آمرة ، « أنت ، سو ملابسك ، وسنعود إلى ذلك الطبيب . لا أنت ولا أنا نستطيع أن نضيع مزيداً من الوقت مع أحمق عجوز مخرف » .

قال دكتور بيبودى مكرراً ، « جينى ، اجلسى » وسحب درجا وأخرج منه صندوق سيجار ، وملأ يده من الشصوص المصنوعة على هيئة الأسماك الصغيرة ، وقد حال لونها وبنيقه قذره ، وأخيراً سماعة ، ثم ألقى الأشياء فى الدرج ، وأغلقه بركبته .

جلست مس جينى فى ثوبها الأنيق ، وهى تتفجر غيظا بينما كان دكتور بيبودى ينصت إلى قلب بايارد العجوز .

قالت ، « حسنا ، هل تخبرك عن طريقة إزالة هذا الثؤلول من فوق وجهه ؟ لم يحتج ويل فولز لأى تليفون ليعرف هذا » .

قال دكتور بيبودى ، « إنها تخبرنى عما هو أكثر من هذا . إنها تخبرنى عن الطريقة التى ستخلص بايارد العجوز من متاعبه كلها . إذا أصر على المضى فى ركوب سيارة ذلك الطائش » .

قالت مس جينى « هراء ... بايارد سائق جيد . لم أركب أبداً مع خير منه » .

قال « يحتاج الأمر لأكثر من سائق جيد ، ليحافظ على هذا ، ودق على صدر بايارد بأصبعه الغليظ . وقال « سيتوقف ، إذا دار هذا الولد بذلك الشيء فى انحناء أو انحناءين كما رأيته يفعل » .

سألته مس جيني « هل سمعت عن أي سارتورس مات بعلة طبيعية كأي شخص آخر ؟ ألا تعلم أن هذا القلب ان يختطف بايارد قبل أن تحين ساعته ؟ » ثم قالت لابن أخيها ، « أنت انهض من مكانك وتعال معي » وثبت بايارد أزرار قميصه . وجلس دكتور بيبودي على الأريكة يرقبه بهدوء .

قال فجأة ، « بايارد ، لم لاتبق بعيداً عن هذا الشيء اللعين ؟ »

قال بايارد ، « ماذا ؟ » .

« إذا لم تبق بعيداً عن هذه السيارة فلـــن تحتاج إلى أو إلى ويل فولز ولا إلى ذلك الولد وكل مباضعه المغلية » .

وسأله بايارد العجوز ، « وما شأنك أنت ؟ » بحق الله ، ألا أستطيع أن أكسر عنقي بسلام إذا شئت ؟ » ووقف وكان يرتعد وقد ثار غيظه وتعثرت أصابعـــه بين أزرار صداره ووقفت مس جيني واتجهت إليه لتساعده ولكنه أزاحها بعنف ، وجلس دكتور بيبودي بهدوء ، وهو يدق بإصبعه الغليظ ركبته السمينة . قال بايارد العجوز « عشت فعلا أكثر عما ينبغي . أنا أول من أعرفهم ممن يحملون اسم أسرتي ويرون الستين . أحسب الله يحتفظ بي لأرى بعيني كشاهد يعتمد عليه فناءهم جميعا » .

قالت مس جيني ببرود ثلجي ، « والآن لقد ألقيت خطبتك ، وضيع لوش بيبودي الصباح عليك ، وعلى ذلك ، أظننا نستطيع أن نخرج ، وندع لوش يخرج أيضا ، ليعالج البغال مدة من الزمن ، وأنت تستطيع أن تتسكع هنا بقية اليوم ، وتجتر شعورك بالأسف على نفسك ، فذلك مايفعله أحد أفراد أسرة سارتورس . . لوش ، سعدت صباحاً »

قال دكتور بيبودي ، « جيني ، دعيه يدع هذا الشيء وشأنه » .

« ألا تنوي أنت وويل فولز علاجه له ؟ »

قال دكتور بيبودي مكرراً بهدوء ، « لاتدعيه يسمح لويل فولز أن

يضع أى شىء عليه . إنه على ما يرام . كل ما عليك هو أن تدعه وشأنه » .

قالت مس جينى « سنذهب إلى طبيب . هذا ما سنفعله . هيا » .

عندما أغلق الباب ، جلس الطبيب دون حراك وسمعهما من ورائه وهما يتشاجران ثم تحركت أصواتهما عبر الممر متجهة نحو الدرج ، وقد ارتفع صوت الشجار ، وكان صوت بايارد حادا مملوءاً بالسباب ، ثم غاضت الأصوات واستلقى دكتور بيبودى على الأريكة ، التى تشكلت بالفعل على جسمه ، ومد يده بطريقة عشوائية متباطئة ، والتقط إحدى الروايات المثيرة الرخيصة من كومة الكتب بجوار مقدمة فراشه .

— ٤ —

إذ كانا يقتربان من البنك ، جاءت نارسيسا بنبو من الاتجاه المضاد ، والتقوا عند الباب حيث أثنى على مظهرها ثناء عريضا ، وهى واقفة فى ثوبها شاحب اللون ، وهتف صوتها العميق بشىء فى صميمه ، ثم جلس على مقعده المائل وتبعتها مس جينى إلى داخل البنك حتى الصراف . لم يكن فى تلك اللحظة ، ثمة أحد وراء الحاجز عدا الكاتب الذى ألقى عليهما من فوق كتفه نظرة سريعة متلصصة ، ثم نزل من فوق مقعده العالى وتقدم من النافذة ، ولكن دون أن يرفع عينيه إليهما مرة أخرى .

أخذ إذن الصرف من نارسيسا ، وبينما مضت تنصت إلى رواية مس جينى عن غباء الرجال وعنادهم كما يظهر عند بايارد وبيبودى ، لاحظت الشعر المائل للاحمرار الذى يغطى ذراعيه حتى الفقرة الثانية من أصابعه ، ولاحظت أيضا باشمئزاز خفيف وإن يكن ملحوظا ، ودهشة محدودة ، ذلك أن الجو لم يكن دافئا بشكل خاص ، إن يديه وذراعيه كانتا مكسوتان بقطرات من العرق .

ثم أصبحت نظرتها جوفاء ، وأخذت أوراق النقد التى دفعها إليها

الصراف من تحت الحاجز وفتحت حقيبتها ومن داخلها المغلف بالحرير اللامع أطل فجأة غلاف وبعض مما عليه من كتابة ، ولكنها دفعته بسرعة بعيدا عن الأنظار ، ووضعت النقود فى الحقيبة وأغلقتها وعادتا وما زالت مس جيني تتكلم وتوقفت مرة أخرى عند الباب وهى مازالت مغلفة فى هدوءها بينما مضى بايارد العجوز يضايقها بشدة حـــول بعض المشكلات العاطفية الوهمية التى كانت تمدهما بالموضوع الوحيد للحديث بينهما ، وهى تهتف بوقار فى دورها فى أذنه ثم مضت تحيطها الطمأنينة وكأنها روح مرئية أو عطر ، أو صوت .

ظل الكاتب فى مكانه من النافذة ، وهى على مرأى منه .

كانت رأسه محنية ، ورسمت يده على الورقة سلسلة من الأشكال الأنيقة التى لا معنى لها ثم مضت واختفت عن الأنظار . وتحرك ، وإذ فعل ، لاحظ أن الورقة قد التصقت برسغه الرطب ، ولذا تحركت ، عندما تحرك ذراعه ثم تحررت بفعل كتلتها وسقطت على الأرض .

بعد أن أغلق سنوبس المصرف أصيل ذلك اليوم عبر الميدان ودخل شارعا واقترب من بيت مربع البناء ذى شرفة مزدوجة . انطلقت منها فى الأصيل أصوات ناشزة نائحة من آ لة صوتية رخيصة ودخل .

كانت الموسيقى تفيض من الحجرة التى على اليمين وإذ عبر بابها رأى رجلا بقميص بلا بنيقة جالسا على مقعد واحدى قدميه فى جوربها على مقعد آخر . كان يدخن غليونا انتشرت رائحته السيئة إلى آخر البهو ، كانت رائحة الصابون الرطبة الشديدة تفوح أيضا من البهو ولمع بساط المشمع وكان بعد مبللا . ومضى واقترب من صوت نشاط غليظ منتظم وأقبل على امرأة فى ثوب رمادى لاشكل له . توقفت عن المسح ونظرت إليه عبر كتفيها الرماديتين وهى تدفـــع شعرها المسترسل من فوق حاجبيها بذراع محتقنة .

قال سنوبس « مس بيرد ، مساء الخير ، ألم يعد فيرجيل إلى البيت بعد ؟ » .

قالت ، « لمحته مارا هنا منذ دقيقه . إذا لم يكن فى الخارج أمام البيت . ربما أرسله أبوه فى مهمة . مستر بيرد مريض بفخذه مرة أخرى . لعله أرسل فيرجيل فى مهمة . » وتساقط شعرها المسترسل أمام وجهها مرة أخرى ، فأزاحته بعيدا بحركة عنيفة ، « وسألته ألديك مزيد من العمل له ؟ »

« نعم سيدتى . ألا تعرفين فى أى اتجاه ذهب ؟ »

« إذا لم يكن مستر بيرد قد أرسله إلى أى مكان ، فربما يكون خلف البيت . إنه لا يبتعد كثيرا عن البيت ، عادة ، ومرة أخرى أزاحت شعرها جانباً ، كانت عضلاتها التى تشكلت منذ زمن طويل لتلائم العمل ، مسترخية فى حالة راحة . ثم قبضت على الممسحة مرة أخرى .

ومضى سنوبس وتوقف عند باب المطبخ فوق مساحة صغيرة مسورة ، وعارية من الحشائش وتحوى بيتاً للدجاج ، كان عارياً أيضاً من الحشائش وفيه عدة دجاجات ، تكأكأت على بعضها البعض أو مشت فى الأتربة فى استغراق يائس ، وعلى أحد الجانبين ، كانت حديقة مطبخ صغيرة تتكون من صفوف منظمة معنى بها من النباتات . وفى ركن الساحة كان ثمة كوخ من الألواح التى عراها الجو .

صاح « فيرجيل » . كانت الساحة خواء وبها أشباح ، أشباح الحشائش التى لم يشجع على نموها ، وأشباح الطعام فى شكل علب فارغة من الصفيح ، وصناديق وبراميل محطمة ، وكومة من خشب المواقد ، ولوحة تهريم ، استقرت على عرضها فأس أصلحت ذراعها بطريقـــة لا خبرة فيها ، بأسلاك صدئة طويت عليها . ثم نزل الدرجات ، وصاحت الدجاجات بأصوات غير متوافقة ، وهى تتوقع طعاماً .

« فيرجيل » .

وجدت العصافير ثمة طعاماً من نوع ما فى الأتربة بين الدجاجات ، ولكن الدجاجات نفسها ربما بمعرفة سابقة بخيبة الأمل ، والهلاك القريب ، تجمعت حول السلك وهى تقترب وتبتعد ، متنافرة شاردة الفكر ، ومضت ترقبه بعينين طامعتين لحوحتين . وفى اللحظة التى استدار فيها ليدخل المطهى ظهر الصبي بسكون وبراءة من الكوخ ، كان شعره فى مثل لون التبن وعيناه رقيقتين وكان فمه شاحباً يكاد أن يكون حلواً ، ولكن تحوط ركنيه الأسرار . وكانت ذقنه غير واضحة .

« مستر سنوبس ، أنت تنادينى ؟ »

أجابه سنوبس : « نعم إن لم تكن تؤدى عملا معيناً » .

قال الصبي . لا . أنا لا أفعل شيئاً » دخلا البيت وعبرا الغرفة حيث كانت المرأة تعمل بغضب جنونى مكظوم ، ورائحة الغليون وترديد الحاكى الكئيب يملآن البهو ، وصعدا الدرج المغطى كذلك بالمشمع المثبت إلى كل درجة ، بشريط من الحديد المطلى حتى يشبه البرونز ، وقد تشوه وتخدش بالأقدام الثقيلة . كان يحد البهو العلوى صفان متماثلان من الأبواب فتحا أحدها ودخلا .

كانت الغرفة تحوى فراشاً ، ومقعداً ، ومنضدة ارتداء الملابس ، وحوضاً للاغتسال ودنا لجمع الماء المنسكب بجواره . وكانت الأرض مغطاة بحصيرة من القش تهرأت فى أماكن عدة وقد تعلق المصباح الوحيد دون غطاء من سلك أخضر بنى ، وعلى الجدار فوق المدفأة الملوءة بالورق المهمل صورة مطبوعة بالألوان داخل إطار ، لعذراء هندية فى فراء ناصع لظبى وحشى تنحنى وثدياها عاريان على مشهد إيطالى تقليدى لبحيرة صغيرة رخامية يسطع عليها ضوء القمر ، وكانت تقبض على قيثارة ووردة ، واستقرت العصافير على حاجز النافذة ومضت ترقبهما بانتباه من خلال الستائر المغبرة .

دخل الصبي الغرفة مستحيياً . واحتوت عيناه الشاحبتان الغرفة ومحتوياتها بنظرة واحدة مدركة . قال « بندقية الهواء تلك ، لم تصل بعد يا مستر سنوبس ، أليس كذلك ؟ »

أجاب سنوبس « لا ، لم تصل ، ومع ذلك ستكون هنا قريباً . »

« مضى وقت طويل منذ أن طلبتها »

« هذا صحيح ، ولكنها ستكون هنا قريباً . ربما لا يجدون واحدة منها الآن فى المخزن » ومضى إلى الصوان وأخذ من درج فيه بضع أوراق فى حجم الفولسكاب ، وضعها على الصوان وجر مقعداً إليه ، وسحب حقيبة ملابسه ومن تحت الفراش ووضعها على المقعد ثم أخرج قلمه الحبر من جيبه وأعده للكتابة ووضعه بجوار الورق ، وقال « لا بد أن تصل فى أية لحظة » .

جلس الصبي على الحقيبة وأمسك بالقلم ، وقال مقترحا ، « لديهم بنادق هواء فى مخزن واتس لأدوات العمارة » .

قال سنوبس ، « إذا لم تصل البندقية التى طلبناها سريعا ، فسنشترى واحدة من هناك على أى حال ، متى طلبناها ؟ » .

قال الصبي بسرعة « أسبوع سابق قبـــل يوم الثلاثاء الماضى . أنا سجلت التاريخ عندى . . حسناً . . ستكون هنا قريبا . أنت مستعد ؟

نسق الصبي جلسته أمام الورق وقال « نعم ياسيدى » وأخرج سنوبس ورقة مطبقة من جيب سرواله العلوى ، ونشرها .

قرأ هذه الكلمات « رقم الرسالة ثمانية وأربعون . مستر جوبتلر ، سانت لويس ، ميسورى » ، ثم انحنى على كتف الصبي ليرقب القلم « هذا حسن . قريبا جد من قمة الورقة ، والآن » وترك الصبي ما يقرب من بوصتين ، ومضى يكتب ، وسنوبس يقرأ بخطه المدرسى المنظم ، متوقفا من لحظة إلى أخرى ، ليسأل عن هجاء كلمة .

« فكرت مرة أن أحاول أن أنساك . ولكننى لاأستطيع أن أنساك لأنك لا تستطيعى أن تنسينى . رأيت خطابى اليوم فى حقيبة يدك . كل يوم أستطيع أن أمد يدى وألمسك وأنت لاتعرفين . فقط أراك وأنت تمشين فى الشارع لأعرف ماأعرفه وما تعرفينه . يوما ما سنعرف معا عندما تعتادين عليها . أنت احتفظت بخطابى ولكنك لاتجيبين عليه . هذه علامة طيبة ، أنت لا ... » وقد وصل الصبى إلى نهاية الصفحة ، فسحبها سنوبس ، تاركا الأخرى معدة . ومضى يقرأ فى صوته الرتيب ذى الطنين « تنسينى وإلا فلن تحتفظى بها . أنا أفكر فيك فى الليل ، الطريقة التى تمشين بها فى الشارع وكأننى بحل . أنا أستطيع أن أقول لك شىء ، يثير دهشتك أنا أعرف أكثر من أن ألحظك وأنت تمشين فى الشارع بملابسك . سأفعل يوما ولن تدهشى حينئذ أنت تمرى بى ، وأنت لاتعرفين وأنا أعرف . ستعرفينها يوما ما ، لأننى سأخبرك ، والآن » ونزل الصبى إلى نهاية الصفحة » المخلص لك هال واجنر . رقم الرسالة أربعة وعشرون ونظر من فوق كتف الصبى » وقال هذا حسن . وجفف الصفحة الأخيرة وأخذها هى الأخرى ، وأغلق الصبى القلم ودفع مقعده إلى الخلف ، وأخرج سنوبس كيسا ورقيا صغيرا من سترته أخذه الصبى برزانة وهو يقول « أنا مدين لك يا مستر سنوبس » وفتح الكيس ونظر داخله ، وقال « من الغريب ألا تصل بندقية الهواء » .

قال سنوبس ، « بالتأكيد أنا لا أدراى لم لا تصل »

قال الصبى مقترحا « ربما تكون قد فقدت فى البريد » .

قال سنوبس ، « ربما أظن هذا هو ما حدث لها سأذهب إليهم غدا مرة أخرى » .

وقف الصبى ، ولكنه ظل مكانه بشعره الشاحب البنى اللون ووجهه الرقيق البرىء . وأخذ من الكيس قطعة من الحلوى وأكلها ببرود . وقال

« أحسب من الأفضل أن أخبر بابا ليذهب إلى مكتب البريد ويسأل إن كانت قد فقدت » .

قال سنوبس بسرعة « لا . أنا أنصحك ألا تفعـــل . عليك أن تنتظر . سأتولى أنا هذه المسألة بالتأكيد » .

« بابا لن يرفض ، سيذهب إليهم بمجرد عودته إلى البيت ويتولاها . أراهن أنه فى استطاعتى أن أجده الآن وأطلب منه أن يفعل هذا » .

قال سنوبس ، « لن يستطيع أن يفيدك بشيء . أترك المسألة لى . سأحصل لك على هذه البندقية بالتأكيد » .

قال الصبي مصرا « فى استطاعتى أن أقول له إننى كنت أعمل لك . أنا أذكرها تلك الخطابات » .

« لا . لا . انتظر ودعنى اهتم بها . سأهتم بها أول ما سأفعله صباح الغد » قال ، الصبي « وهو كذلك يامستر سنوبس ، وأكل قطعة أخرى من الحلوى دون حماسة وتحرك متجها نحو الباب وقال ، « وأنا أذكر كل واحد من هذه الخطابات . أراهن أننى أستطيع أن أجلس وأكتبها كلها من جديد . أراهن أننى أستطيع . مستر سنوبس ، بالمناسبة ، من هو هال واجنر ؟ هل يقيم فى جيفرسون ؟ » .

« لا . لا أنت لم تره فقط . إنه لايأتى إلى البلدة إلا نادرا . وهذا هو سبب قيامى بأعماله هنا . سأهتم ببندقية الهواء هذه » .

فتح الصبي الباب ، وتوقف مرة أخرى « عندهم بنادق هواء فى مخزن واتس . بنادق جيدة وأنا أرغب بالتأكيد فى الحصول على واحدة منها . نعم ياسيدى بالتأكيد أرغب » .

قال سنوبس مكرراً « بالتأكيد ، بالتأكيد . بندقيتنا ستكون هنا

غداً . عليك فقط أن تنتظر . سأهتم بالأمر حتى تحصل على تلك البندقية » .

ومضى الصبي . وأغلق سنوبس الباب ، ولبرهة قصيرة ظـــل واقفاً بجواره ورأسه محنية ، ويداه متشابكتان وتتصارعان ببطء معا . ثم أخذ الورقة المطبقة وأحرقها على الأرض وسحق الرماد المتفحم بحذاءيه حتى أصبح هباء ، ثم قطع بالسكين العنوان من قمة الورقة الأولى والتوقيع من نهاية الورقة الثانية ، وطبقهما ووضعهما داخل غلاف رخيص وأغلقه ووضع عليه طابع بريد ، وأخرج قلمه ، وبيده اليسرى كتب عليه العنوان بحروف مستقيمة كحروف الطباعة . وفى ذلك المساء أخـذه إلى المحطة ووضعه فى بريد القطار .

وفى أصيل اليوم التالى قتـل فيرجيل بيرد ببغاء كان يغنى على شجرة المشمش القائمة فى الركن بجوار مبيت الدجاج .

— ٥ —

كان فى استطاعة سيمون وهو يتجول أثناء النهار حول البيت ، أن يتطلع من حين إلى حين عبر الساحة الخالية إلى المرعى ليرى خيل العربة وهى تصبح ، يوما بعد يوم ، أكثر رثاثة ، وأقل زهوا بفعل التعطل وانعدام العناية اليومية بها ، وقـد يمر بالعربة الساكنة بلا حراك تحت مظلتها ولسانها ممتد بزاوية تدينه بالاتهام ، وفى غرفة السرج كان المعطف والقبعة البالية وقد تراكم الغبار فوقها وهى على مسمارها فى الحائط ، كانت تمسك فى انتظارها الصامت بسؤال صابر ممتثـل ، وأحيانا أخرى ، كان يقف رث الثياب ، محنى الظهر قليلا ، بفعل الحيرة العنود والشيخوخة ، على الشرفة بورودها العتيقة وزهور الويستريا ، ووقارها العريض الراسخ ، ليرقب آل سارتورس وهم يجيئون ويذهبون فى آلة أى سيد من جيله كان يزدريها ، وفى استطاعة أى معوز أن يمتلكها ، وأى أحمق أن يركبها

بدلا منه وكأن جون سارتورس يقف بجواره بوجهه الملتحى الصقرى ورسم الازدراء النبيل المتكبر على وجهه .

وإذ كان يقف هكذا والأصيل ينحدر بعرض الطرف الجنوبى للفناء ، وعطور الربيع المتقدم بحشودها الطائشة ، وطنين الحشرات الوسنان ، وغناء الطيور الشادى بانتظام ، كان يغمغم بكلام رتيب كأنه غناء فيه الغموض والاستجداء والعداء . وكان فى استطاعة إيزوم الواقف فى الظل الرطب داخل الباب أو عند ركن البيت أن يسمعه . كان ينسحب حينئذ إلى المطهى حيث تكد أمه بوجهها الهادىء الأصفر وغنائها الحزين الذى لاينتهى .

قال لها إيزوم « بابا فى الخارج يتكلم هناك مع السيد العجوز مرة أخرى . أعطنى ثمار البطاطس الباردة هذه » .

وسألته النورا وهى تعطيه البطاطس « ألم تكلفك مس جينى بأن تعمل شيئا ؟ » .

« لا . خرجت فى السيارة مرة أخرى » .

« من نعائم الله أنك لم تذهب معها كما تفعل كلما سمح لك مستر بايارد والآن اخرج من مطبخى أريد أن أمسح الأرض ولاأريد أن تترك عليها آثار قدميك » .

كثيراً ما كان إيزوم يسمع جده فى تلك الأيام وهو يتحدث إلى جون سارتورس ، وهو ماض فى عمله فى الإسطبل أو فى أجواض الزهور أو فى المرج ، يغمغم بكلمات إلى ذلك الظل المتعجرف الذى تسلط على البيت والحياة التى كانت تسعى فيه وعلى المشهد العريض ذاته الذى يخترقه خط السكة الحديدية وهو يتضاءل فى الأفق البعيد إلا أنه كان جليا فى تمثيله الدقيق للحقيقة الكبرى . كأنه كان مسرحا نصب لتسلية ذلك الذى امتلكه الحلم النكود ، وسخر منه بطرق ماكرة ملتوية حينما كان الحلم نفسه

دنسا . لقد تجسم الحلم بعد ذلك وأصبح صافيا وجميلا ، حينما تطهر الحالم نفسه من غلظة الكبرياء وفظاظة الجسد .

غمغم سيمون قائلا « ركائب السادة » ، كان مشغولا مرة أخرى بفأسه فى حوض السلفيا عند نهاية الممر « يركبون ذلك الشىء ، وركوبة السادة الأصيلة ، يأكلها العطب والدمار فى الجرن » ، لم يكن يفكر حينئذ فى مس جينى . ولم تكن ثمة أهمية لما تركبه النساء ، طالما كان رجالهن يسمحون بذلك . هذا وإن كن يسهمن فى استعراض عربات السيد . كن مقياسا حساسا للبيت كله ، المرآة التى تعكس السادة ، والخيل نفسها كانت تعرف هذا « ابنك نفسه ، وحفيدك التوأم نفسه ، يركبون وأمامك أنت نفسك مثل هذه الآلة العجيبة ومضى يقول « وأنت تسمح لهم أن يفعلوها ، أنت سىء مثلهم . فما عليك إلا أن تأمرهم ، أيها السيد جون إن كل هذه الحروب الأجنبية قد جعلت الفتيان يحيدون عن السلوك الحسن . إنهم لايعرفون كيف يسلكون كسادة . ماذا تظن مايدور فى رءوس الناس ياسيد جون عندما يرون أهلك أنفسهم يركبون نفس النوع من العربات التى - تركبها قمامة الناس ؟ ليس عليك إلا أن تستعيد سلطتك . ألم يكن آل سارتورس هم الذين يضعون للناس قواعد السلوك فى هذه البلاد من قبل الحرب ؟ والآن ، انظر فقط إليهم » .

استند إلى فأسه وراقب السيارة وهى تنحدر من الممر وتقف أمام البيت ، نزلت مس جينى وبايارد الصغير إلى الشرفة . كانت الآلة ماضية فى عملها وسحابة خفيفة من الغاز المحترق تحوم فى الأصيل اللامع ، وجاء سيمون بفأسه وحملق فى صف المؤشرات والمفاتيح فى لوحة القيادة ، واستدار بايارد وناداه :

قال آمراً ، « سيمون ، اقفل المحرك » .

سأل سيمون ، « أقفل ماذا ؟ »

« هذه الذراع الصغيرة اللامعة بجوار عجلة القيادة هناك . أدرها إلى أسفل » قال سيمون وهو يتراجع .

« لا ياسيدى . لن ألمسها . لن أسمح لها أن تنفجر فى وجهى » .

قال بايارد وقد عيل صبره « لن تؤذيك . ضع يدك فقط عليها وشدها إلى أسفل . هذه الذراع اللامعة الصغيرة هناك » .

حملق سيمون فى العدد والأشياء متشككا ، ولكن دون أن يقترب منها مطلقا ، ثم مد عنقه ونظر داخل السيارة وقال « أنا لاأرى هنا أى شىء ، إلا هذه الرافعة الكبيرة التى تنفذ من أرضية السيارة . ليست هذه هى الواحدة التى أشرت إليها ، أليس كذلك ؟ »

قال بايارد « الجحيم » ونزل الدرج فى خطوتين ومال من فوق الباب وقطع المحرك تحت عينيه المندهشتين الطارفتين وتوقف طنين الآلة .

قال سيمون ، « هل هذه هى الواحدة التى كنت تتكلم عنها إذن ؟ » وحملق فى الذراع الصغيرة برهة ، ثم اعتدل ونظر إلى غطاء المحرك « إنها تغلى تماما تحت هذا الغطاء ، أليس كذلك ؟ هل هذه هى طريقة وقفها ؟ » ولكن بايارد كان قد صعد الدرج ودخل البيت .

تلكأ سيمون بعد ذلك قليلا ، ومضى يفحص الشىء اللامع المستطيل ، وهو يتلمسه بخفة بيده . ثم يمسح بيده على فخذه . ومشى حوله ببطء ولمس الإطارات ، وهو يغمغم ويهز رأسه ، ثم عاد إلى حوض السلفيا ، حيث وجده بايارد عندما خرج بعد برهة قصيرة .

قال ، « سيمون ، هل تريد أن تركب ؟ »

توقف فأس سيمون ، واعتدل ، « من ، أنا ؟ »

« بالتأكيد . هيا سنمضى فى الطريق مسافة وجيزة » .

وقف سيمون بفأسه الساكن ، وهو يمشى بكفه على رأسه ببطء .

قال بايارد « هيا . سنمضى فى هذا الطريق فترة وجيزة . لن نؤذيك »

ووافق سيمون ، « نعم سيدى . لا أظنها ستؤذينى » .

وسمح لنفسه أن ينجذب ببطء إلى السيارة ، وهو يحملق فى أجزائها المختلفة ، يتأمل ببطء متشككا ، بعد أن أصبحت كمية فعلية فى حياته . وعند بابها ، وإحدى قدميه على حاجز الركوب ، بذل سيمون محاولة أخيرة للوقوف ضد قوى القدر الشرير الماكرة ، « أنت لن تجرى بها خلال الأحراش كما فعلت أنت وإيزوم ذلك اليوم ؟ »

وطمأنه بايارد ، ودخل ببطء ، وهو يغمغم بما قد يقع ، وجلس على مقدمة مقعده وساقاه مطويتان تحته وقد قبض على الباب بيد ، وجمع قميصه باليد الأخرى ومضت السيارة فى الممر . وعبرا من البوابة إلى الطريق ، وما زال يجلس محدودب الظهر مائلا إلى الأمام . واكتسبت السيارة مزيدا من السرعة ، وبحركة تشنجية مفاجئة أمسك قبعته فى اللحظة التى طارت فيها من فوق رأسه .

قال وهو يرفع صوته ، « أظننا بعدنا بما فيه الكفاية . » وضغط بقبعته على رأسه ولكنه إذ تركها ، كان عليه أن ينقض عليها مرة أخرى بوحشية فخلعها وأمسك بها تحت ذراعه ، ومرة أخرى تخبطت يده فوق صدره ، وأمسكت بشىء تحت قميصه . قال بصوت أعلى ، « على أن أقتلع الحشائش اليوم من حوض الزهور » واستطرد يقول « سيدى . مستر بايارد أرجوك » وازداد انحناء جسمه العجوز الجاف إلى الأمام على المقعد ، وألقى نظرات سريعة متلصصة على الشجيرات التى تنمو على جانبى الطريق وهى تولى بسرعة متزايدة .

ثم انحنى بايارد إلى الأمام وراقب سيمون الوشم المرسوم على ذراعه ، ثم اندفعا فى الطريق على زئير من الصوت كأنه الرعد المكتوم . الأرض ، وشريط الطريق الذى لا يكاد أن يصدق ، يجلجل من تحتهما ويولى خلفهما فى عاصفة من الأتربة المجنونة وخضرة جانبي الطريق ، أصبحت نفقا صلبا منسالا لا ينقطع ولكنه لم ينطق ببنت شفة ، ولم يحدث أى صوت آخر وعندما حول بايارد سخرية أسنانه القاسية إليه ، كان راكعاً على الأرض وقبعته الرديئة العتيقة تحت إبطه ، ويده تقبض بقوة على طيات من قميصه فوق صدره . وبعد ذلك ، ألقى بايارد عليه نظرة أخرى ، وكان سيمون يرقبه وحدقتا عينيه الغائمتين لم تكونا فى لونهما البنى اللين ، كانتا حمراوين ولم تطرفا رغم دفعات الهواء . كان فيهما ذلك اللمعان المجنون الذى يميز عيني الحيوان . دفع بايارد حاكم الوقود حتى اصطدم بأرضية السيارة .

كانت العربة تمضى فى الطريق وسنانة فى سلام . وكان يجرها بغلان وقد امتلأت بنسوة زنجيات أخذهن النعاس وهن على مقاعدهن . وقد ارتدت بعضهن السراويل . أما البغلان فلم يتيقظا قط ، ولكنهما مضيا ببطء بالعربة الخالية والمقاعد المقلوبة حتى بعد أن اندفعت السيارة إلى المستنقع الضحل ومرقت مرة أخرى إلى الطريق واندفعت كالرعد دون أن تبطىء .

توقف الرعد . ولكن السيارة مضت مندفعة تحت تأثير اندفاعها ، وبدأت تتمايل فى الطريق من جانب إلى جانب وبايارد يحاول أن يجر يدى سيمون بعيدا عن الرافعة الصغيرة . ولكن سيمون ركع على الأرض وقد أغمض عينيه بشدة والهواء المندفع يتلاعب ببقايا شعره الأشيب وقد أمسك الرافعة بيديه معا .

صرخ بايارد ، « دعها من يدك » .

وردد سيمون كمن يتلو تعويذة ، « يا إلهى ، هذه هى الطريقة التى توقفها بها . يا إلهى ، هذه هى الطريقة التى توقفها بها » ، بينما ظل يغطى الرافعة

بيديه معا ، وبايارد يضربهما بقبضته . وقد تعلق بهما حتى أبطأت السيارة ثم توقفت . ثم تحسس الباب وفتحه ومضى خارج السيارة . وناداه بايارد ولكنه مضى فى الطريق متعثرا متعجلا يعرج .

نادى بايارد مرة أخرى « سيمون » ولكن سيمون مضى إلى الأمام متصلبا وكأنه رجل حرم من استعمال قدميه مدة طويلة . « سيمون » ولكنه لم يبطىء ولم ينظر إلى الخلف ، وأدار بايارد السيارة مرة أخرى وقادها حتى استطاع أن يستدير بها . كان سيمون واقفا فى المستنقع بجوار الطريق ورأسه منحنية فوق يديه ، عندما لحق به بايارد وتوقف .

قال آمراً . « هيا . تعال واركب » .

« لا سيدى . سأمشى »

قال بايارد آمراً بحدة « اقفز ، هيا » وفتح الباب ولكن سيمون وقف فى المستنقع وقد دفع يده داخل قميصه ، وكان فى استطاعة بايارد أن يراه وهو يرتعد وكأنه محموم ، « هيا ، أيها الأحمق العجوز . لن أوذيك »

قال سيمون مكرراً بعناد ، « سأعود إلى البيت ماشيا ، وقال دون حماسة « أنت عليك أن تمضى بهذا الشىء » .

« آه ، سيمون ، هيا اركب . لم أكن أعرف أننى سأفزعك إلى هذا الحد . سأقود ببطء هيا » .

قال سيمون مرة أخرى « اذهب أنت إلى البيت ، سيستبد بهم القلق عليك . تستطيع أن تخبرهم أين أنا » .

ظل بايارد يرقبه برهة ، ولكن سيمون لم يكن ينظر إليه ، ثم صفع الباب ومضى بسيارته . ولم يرفع سيمون عينيه حتى بعد ذلك ، وبعد أن انفجرت كالعاصفة الرعدية ، وعاصفة أخرى من الأتربة المعتمة التى غاضت بعد ذلك . وبعد قليل برزت العربة من الغبار ، وكان البغلان مسرعين

وآذانهما مرتخية ، ودقت أجراسهما وهى تمضى بجواره ، تاركة وراءها فى الهواء المغبر المملوء بأصوات الحشرات الحادة صوت امرأه هستيرى مرتعد بلا ألفاظ .

وغاض هذا ببطء على مشارف الوادى ذى الهواء المتلألىء ، وأخرج سيمون من صدر قميصه شيئاً معلقا فى خيط غطاه الدهن معلق حول رقبته . كان شيئا صغيراً وبلا شكل معين ، وكان مغطى بفراء ملطخ . كانت العقلة الأولى من قدم أرنب خلفية التقطت بقصد من مقبرة عندما كان القمر محاقا ، وقد دلكها سيمون فى العرق الذى يغطى جبهته وعلى مؤخرة عنقه ، ثم أعادها بعد ذلك إلى صدره . وكانت يداه لا تزالان ترتعدان ، وارتدى قبعته وعاد إلى الطريق ، واستدار متجها إلى البيت فى ساعة الظهيرة المغبرة .

مضى بايارد فى السيارة هابطاً الوادى ومتجها إلى البلدة ، عابرا فى ذلك البوابات الحديدية والبيت الأبيض الوقور القابع بين أشجاره ومضى مسرعا . اندفع صوت الآلة غير المكممة إلى الأتربة ودفعها فى دوامات إلى أشكال متكاسلة متفجرة ، غاضت عبر الأرض المزروعة وخارج البلدة بالضبط أقبل على عربة أخرى ، ومضى بالسيارة متجها إليها وجها لوجه حتى شبت البغال وأمالت العربة ، ثم انحرف عنها ، واندفع بجوارها وليس بينه وبينها بوصة واحدة ، اقترب منها إلى الدرجة التى مكنت الأسود المستغيث فى العربة من رؤية السخرية الموحشة التى بدت فى أسنانه العارية من الشفاه .

ومضى ، وانقض بسرعة متزايدة وكأنه صيحة متصاعدة ، ومرقت أمامه المقابر وجده الأكبر فى أبهته المنحوتة وكأنها جميعاً وميض برق . وتذكر سيمون ، وهو يمضى على قدميه فى الطريق المترب نحو البيت ، وهو قابض على ساق الأرنب ، وهنا شعر بهمجيته وأفاض به الإحساس بالعار .

المدينة بين أشجارها ، وأشجارها المظللة كأنفاق خضراء ، وعلى امتدادها تمثل حيوات محكمة ، مآسيها الهادئة . أغلق المحرك ودخل الميدان بسرعة هادئة وكشفت الساعة المثبتة فوق بيت القضاء من بين الأشجار عن أوجهها الأربعة ، في لمحات من بين غصون الأشجار المتكاثفة . عشر دقائق قبل الثانية عشرة . وفي الساعة الثانية عشرة تماما يعتكف جسده في مكتبه في مؤخرة المصرف ويشرب نصف لتر من اللبن المحمض الذي يحضره معه كل صباح في زجاجة عازلة للحرارة ، ثم ينام بعد ذلك ساعة على الأريكة في مكتبه . وعندما استدار بايارد إلى الميدان كان المقعد المائل على باب البنك شاغرا بالفعل . أبطأ السيارة وأخذها برفق إلى جوار الطوار أمام لوحة مرفوعة لبيع السندوتش .

كان مكتوباً على اللوحة بطباشير طرى « سمك نهرى طازج اليوم » وفاحت رائحة طعام مثلج من وراء الأبواب الساترة ـ جبن ومخللات وأمثالها ـ ومعها روائح أخرى يغلب عليها قليلا رائحة دهن القلي .

وقف برهة على الطوار ، وحشود الظهيرة تتفرق وتمضى أمامه ـ سود في بطء ودون قصد كأشباح حلم مظلم هادىء برائحة كرائحة الحيوان ، وهم يغمغمون ويتضاحكون فيما بينهم ، وكان في همهماتهم غير الواضحة شيء معبأ بالبهجة ، وفي ضحكاتهم شيء جاد حزين ـ ناس من الريف ، رجال في ملابس العمل أو يرتدون القطيفة أو الكاكى دون ربطات عنق ؛ نساء في ملابس فضفاضة من الدمور ، وقبعات شمس ، جماعات من الفتيات الشابات في أثواب جاهزة ، غليظة الأناقة ، وقد تعتم تراثهم الفني من رشاقة الأجسام ، بإحساسهن الفائض بذواتهن ، وبالعمل ، وبكموب الأحذية العالية غير المألوفة ، وسيختفي بعد ذلك وإلى الأبد بحمل الأطفال ، شباب ورجال في مقتبل العمر ، في سترات رخيصة ينقصها الذوق ، وأقمصة وقبعات ، وقد لوحتهم الشمس بسيقان طويلة نحيلة كخيول السباق ، وأصوات مرتفعة ، وإلى حد ما شكسة وبجوار الحائط جلس زنجى أعمى يستجدى ، بقيثارة وحمالة من السلك تمسك نايا مرفوعا إلى فمه ، وقد لون صورة الروائح

والأصوات ، بألحان شاكية رتيبة ، مضبقه كمعادلة موسيقية ولكنها خلو من الموسيقى . كانت سنه على الأقل أربعين ، وحياته كانت الاستسلام الصبور لمدة سنوات من العمى ، ومع ذلك ، فقد كان هو أيضا يرتدى كاكيا قذرا ، بأشرطة أنباشى على أحد الكمين ، وشارة الكشافة خيطت بطريقة سيئة على الكم الآخر وعلى صدره شارة الذكرى الرابعة لقرض الحرية ، ودبوس معدنى صغير يحمل نجمتين ذهبيتين من الواضح أنها كانت لزينة السيدات ، وكانت قبعته التى لوحتها الشمس محاطة بشريط قبعة ضابط ، وعلى الطوار بين ساقيه استقر كوب معدنى يحوى قطعة نقد من فئة عشر الدولار ، وثلاثة بنسات .

بحث بايارد عن قطعة نقود فى جيبه ، وأحس المتسول باقترابه ، وأصبح لحنه وترا واحدا متكررا ، ولكن دون أن يكسر الإيقاع ، حتى رنت قطعة النقود فى الكوب ومضى ، دون أن يكسر الإيقاع أيضا ، ولا أنغام الناى التى لا معنى لها ، هبطت يده اليسرى وتحسست طريقها قليلا إلى الكوب وقرأت قطعة النقد بحركة واحدة ومرة أخرى استأنفت القيثارة والناى أنغامهما الرتيبة ، واستدار بايارد بعيدا ، وفى نفس اللحظة تكلم شخص بجانبه ، رجل عريض ممتلىء بوجه حاد لوحته الشمس وفودين أشيبين . كان يرتدى ثوبا من القطيفة وحذائى ركوب ، وكان جسمه لدنا كجسم الفرسان ، ويداه الهادئتان البنيتان كانتا يدى رجل تحبه الخيل . كان اسمه ماك كالم وهو أحد أفراد أسرة تتكون من ســـتة أشقاء ، وتعيش على بعد ثمانية عشر ميلا فى التلال . . . كان بايارد وجون يصيدان معه الثعالب وحيوان الراكون فى عطلاتهما .

قال ماك كالم « مازلت أسمع عن سيارتك ، هذه هى ... أليس كذلك ؟ »

وترك الطوار وتحرك بيسر حول السيارة وهو يتفحصها ويداه فوق عجزه .

« بطنها كبيرة جدا . وتبدو ثقيلة فى مؤخرتها أيضا . قبيحة . عليك أن تضع عليها الجاما إضافيا على ما أظن ؟ » .

أجاب بابارد « أنا لا أفعـــل . اقفز داخلها وسأريك ما تستطيع أن تفعله » .

أجاب الآخر « لا . أشكرك كثيرا » ثم عاد إلى الطوار ، بين السود الذين تجمعوا ليمعنوا النظر فى السيارة . ودقت الساعة فوق بيت القضاء الثانية عشرة ، وعلى امتــداد الشارع جاء الأطفال فى جماعات صغيرة فى طريقهم إلى البيت فى فسحة الظهيرة ـ فتيات صغيرات يحملن صناديق ملونة وحبالا للقفز ، وهن يتحدثن إلى بعضهن البعض بأصوات رفيعة ، فى شئون النساء العامة ، وأولاد تخففوا من ملابسهم بدرجات مختلفة يتصايحون ويتعاركون ويتدافعون الفتيات الصــغيرات بالمناكب ، فيتحاشدن على بعضهن البعض وينظرن إلى الأولاد الصغار نظرات باردة معادية .

قال ماك كولم « سآخذ تصبيرة » وعبر الطوار وفتح الباب الساتر وقال وهو ينظر إلى الخلف « هل أكلت ؟ تعال على أى حال واجلس معى دقيقة » وربت على عجزه بطريقة معبرة .

كان نصف المتجر للبقالة والحلوى ، والنصف الآخر مطعما . وقد وقف عدد من العملاء فى ساحة المتجر التى تناثرت فيها الأشياء وإن لم ينتقص ذلك من نظافتها وبأيديهم سندوتشات وزجاجات ماء الصودا ، وقد تحول إليهما رأس صاحب المتجر ، وهو وراء الحاجز ، وفى نظرته رقة وحيرة ، وشرود قليل . كان النصف الخلفى مملوءا بالمناضد التى جلس حولها رجال ونساء ، غالبيتهم من أهل الريف ، يأكلون بوقار وزين تنقصه اللباقة . وبجوار هذا المطهى ، الذى امتلأ بروائح القلى ، وأصواته الحادة ، حيث يمضى زنجيان فى عملهما ، وهما كأطياف تتحرك ببطء فى غيبوبة من الدخان الأزرق . عبرا هــذه الغرفة ، وفتح ماك كولم بابا ثبت بزاوية حادة فى الحائط ، ودخلا حجرة أصغر ، أقرب إلى أن تكون مقصورة كبيرة . كان ثمة نافذة على ارتفاع من الحائط ، ومائدة عارية وثلاثة أو أربعة مقاعد ، وفى الحال تبعهم إلى هناك أصغر الزنجيين .

. وضع على المائدة كوبين حديثى الغسل مازال الماء عالقا بهما فى شكل قطرات تنسال على الجدران . قال « نعم سيدى . مستر ماك كالم ومستر سارتورس » ووقف يجفف يديه فى مئزره . كان وجهه عريضا صافيا ، وجها يوثق به .

قال ماك كولم « ليمون وسكر وثلج ، أنت لاتريد شيئا من هذه المياه الغازية أليس كذلك ؟ » ووقف الزنجى ينتظر ويده على الباب .

أجاب بايارد « لا . أنا أفضل شرابا روحيا » .

قال الزنجى مؤيدا « نعم سيدى ، تريد شرابا روحيا » وعبر عن تأييده بانحناءة عميقة واستدار مرة أخرى وخطا جانبا إذ دخل صاحب المتجر فى مئزر جـــديد فى خطواته المعتادة الشاردة ، ووقف وهو يدلك يديه على عجزه .

قال « صباح الخير ، صباح الخير ، ريف ، كيف حالك ؟ بايارد ، رأيت مس جينى والكولونيل العجوز وهما فى طريقهما إلى مكتب دكتور بيبودى أمس . آمل أن يكون كل شىء على مايرام » كانت رأسه كالبيضة المقلوبة ، وقد صفف شعره بدقة مبتعدا به عن الجزء الأوسط من رأسه ، ليجمعه فى جناحين دقيقين حمراوين بنيين ، كأنهما جديلتان صناعيتان . وكانت عيناه بنيتين ناعمتين عاطفيتين .

قال ماك كالم « ادخل هنا واقفل هـذا الباب » وجر الرجل الآخر إلى الداخل ، وأخرج من تحت سترته زجاجة ذات أبعاد مذهلة ووضعها على المائدة . كانت تحوى سائلا ذا لون قهرمانى رقيق ، ودلك صاحب المتجر يديه على عجزه ، بينما مضى يلتهم الزجاجة بنظراته الساخنة الرقيقة .

قال « أيهـا المخلص العظيم ، أين كنت تخفى هـذه الزجاجة الهائلة ؟ فى ساق سروالك ؟ وفتح ماك كالم الزجاجة ومد يده بهـا وانحنى صاحب المتجر إلى الأمام وتشممها ، وعيناه مغمضتان ثم تأوه .

قال ماك كولم « صنع هنرى . أحسن تقطيرة صنعها منذ ستة شهور أتظنك تقبل كأسا إذا أمسك بك بايارد وأنا لتشربها ؟ » وقهقه الآخر بصوت عال لذج .

قال « أليس فتى ماجنا ، كثير الدعابة . أليس كذلك ؟ » وألقى نظرة على المائدة « ليس لديكما إلا كوبان . . . » ودق أحدهم على الباب ، وأمال صاحب المتجر رأسه المخروطية إليه ، وأشار بيده إليهما إشارة حادة : فأخفى ماك كولم الزجاجة دون عجلة عندما فتح الآخر الباب . كان الزنجى بكوب أخرى وليمون وسكر وثلج فى إناء مشدوخ . وسمح له صاحب المتجر بالدخول .

« هوستون ، إذا كانوا فى حاجة إلى هناك فى النصف الآخر من المتجر ، قل لهم إننى خرجت وسأعود فى دقيقة » .

أجاب الزنجى « نعم سيدى » ووضع حمله على المائدة . وأبرز ماك كالم الزجاجة مرة أخرى .

سأل « لماذا تصر على ترديد هذه الكذبة القديمة على عملائك ؟ كل شخص يعرف ما تفعله الآن » .

ضحك صاحب المتجر مرة أخرى ، وهو يملأ عينيه من الزجاجة وقال مكرراً « نعم ياسيدى . هو بالتأكيد فتى ماجن . حسنا ، أنتم يا أولاد لديكم الكثير من الوقت ولكن يتحتم على أن أعود إلى هناك ليمضى العمل بانتظام » .

قال ماك كالم « امض » وأعد صاحب المتجر لنفسه شرابا ورفع الكوب وهو يقلبه ويتشممه مرارا ، بينما تبعه الآخران ، ثم أخرج الملعقة من كوبه ووضعها على المائدة .

قال « أكره تماما أن أتعجل شيئا ممتعا ، ولكن الشغل لا ينتظر حينما تشاء ، كما تعلمون » .

قال ماك كولم مؤيدا « العمل يعطل الرجل عن الشراب » .

قال الآخر مؤيدا « نعم ياسيدى ، بالتأكيد يفعل » ورفع كأسه وقال وهو يشرب « فى صحـــة والدك . لا أرى السيد العجوز كثيرا فى البلدة هذه الأيام » .

قال ماك كولم « لا . لم يستطع أبدا أن ينسى انضمام بادى إلى جيش اليانكى ، قال إنه لن يعود للبلدة حتى يسحب الحزب الديمقراطى تأييده لوودرو ولسن » .

قال صاحب المتجر وكأنه شيخ حكيم ، « نعم ، سيكون هذا أفضل مافعلوه على الإطلاق ، أن يسحبوا ترشيحه ـ وينتخبوا رجلا مثل ديبز أو سناتور فاردامان رئيساً للجمهورية » . ثم استطرد يقول « حسنا ، كان هذا طيباً تماما . هنرى أعجوبة عصره بالتأكيد . أليس كذلك ؟ » ووضع كوبه واستدار إلى الباب « حسنا ، وأنتم يا أولاد ، كأنكم فى بيوتكم . إذا أردتم شيئاً ، نادوا ـ هوستون » وأسرع خارجا فى خطواته الذاهلة .

قال ماك كالم « اجلس » وجر مقعدا ، وجر بايارد مقعداً آخر ووضعه قبالته أمام المائدة . واستطرد يقول ، « ديكون ينبغى عليه بالتأكيد أن يعرف الويسكى الجيد . شرب منه ما يكفى لتعويم نضده الكبير وإخراجه طافيا من الباب » وملأ كوبه ودفع الزجاجة نحو بايارد ، وشربا صامتين مرة أخرى .

قال ماك كالم فجأة « تبدو فى حالة سيئة يا بنى » ورفع بايارد رأسه ، ووجد الآخر يتفحصه بعينيه الحادتين الهادئتين ، وقال « لقد أفرطوا فى تدريبك » . أنكر بايارد الأمر بإشارة عنيفة ، ورفع كوبه ، ولكنه ظل يشعر برقابة الآخر الهادئة ، « حسنا ، أنت لم تنس ـ على كل حال ـ كيف تشرب

الويسكي الجيد . . . لم لا تخرج وتأتي معنا للصيد ؟ ثمة أحمر عجوز مازلنا نحتفظ به لك . مازلنا نلتقي به ونفترق عنه لمدة عامين لم أسلط عليه جنرال العجوز بعد ، لأن العجوز سيلحق به ، وقد أردنا أن نحتفظ به لكم يا أولاد . جون ، كان سيستمتع بهذا الثعلب . أتذكر تلك الليلة حينما انطلق جوني مباشرة إلى جسر سامسون سابقا الكلاب ، وعندما وصلنا هناك ، كان هو والثعلب طافيين في النهر على قطعة الخشب السابحة فيه ، الثعلب على طرف ، وجوني على الطرف الآخر ، وهو يردد أغنيته الوقحة بأعلى ما يستطيع ؟ جون كان سيستمتع بهذا الثعلب . إنه يتفوق بذكائه كل مرة على الكلاب الصغيرة . ولكن جنرال العجوز سيمسك به .

وجلس بايارد وهو يدير الكوب في يده ، وأخرج علبة سجائر من جيبه ، وهزها وأسقط منها بضع سجاير على المائدة بالقرب من يده ، ودفع العلبة برقة عبر المائدة إلى الآخر . أشعل بايارد سيجارة وأفرغ كوبه ومد يده إلى الزجاجة .

قال ماك كالم مرة أخرى « تبدو وكأنك قطعة من جهنم يا ولد »

أجاب بايارد في صوت هادىء كصوت الآخر ، « أظنني عطشان ، وأعد لنفسه كأساً أخرى ، بينما مضت سيجارته تدخن عند طرف المائدة ، ورفع الكأس ، ولكن بدلا من أن يشرب ، أمسك بها لحظة تحت أنفه ، بينما توترت عضلاته أســـفل فتحتي الأنف حتى أصبحت بيضاء ثم أدار الكأس بسرعة بعيداً عنه ، وأفرغها في الأرض بيد متزنة . وراقبه الآخر بهدوء ، بينما ملأ كوبه حتى المنتصف بالخمر وأضاف إليه قليلا من الماء وأفرغها في جوفه . قال بصوت عال « ظللت فاضلا مدة أطول مما ينبغي » واندفع يتحدث عن الحرب . ليس عن القتال ولكن عن حياة مأهولة بشبان مثل الملائكة الساقطين وعن عنف نيزكي كعنف الملائكة الساقطين ، فيما وراء الجنة أو الجحيم في مكان فيـــه أخلاط منهما . خلود محكوم عليه بالفناء ، وفناء محكوم عليه بالخلود .

جلس ماك كالم يستمع بهدوء ، وهو يشرب الويسكى ببطء وانتظام ودون أثر محسوس ، وكأنه يشرب لبنا ، ومضى بايارد يتكلم وفجأة وجد نفسه ـ دون عجب ـ يأكل طعاما . كانت الزجاجة ممتلئة إلى أقل من النصف . وقد أحضر الزنجى هوستون الطعام وشرب كأسه ، شربه دون ماء ودون أن تطرف له عين ، وقال ، « إذا كانت عندى بقرة تحلب هذا فلن يحصل العجل على قطرة واحدة من اللبن على الإطلاق ولن أترك شيئا منه للخضيض . شكراً ، مستر ماك كولم ، سيدى » .

ثم أصبح خارج الغرفة ، ومضى صوت بايارد مالئا الغرفة الصغيرة شبيهة المقصورة مكتسحا رائحة طعام رخيص طهى بسرعة كبيرة جدا ، ورائحة الويسكى الحاد المسكوب على الأرض وناشراً أشباح شىء حاد رفيع كالهستيريا ، كوهج نيازك ساقطة على حدقة العالم المظلمة ومرة أخرى تسمع طرقة خفيفة بالباب ، وتظهر رأس صاحب المتجر البيضاوية وعيناه الحيتان الدافئتان .

قال وهو يدلك عجزه بكفيه ، « أنتم أيها السادة هل لديكم كل ما تريدونه ؟ » .

قال ماك كولم ، وهو يشير برأسه إلى الزجاجة ، « تعال وخذه » وأعد الآخر لنفسه شرابا فى كوبه الرخيص وأخذ فى شربه ، بينما اختتم بايارد قصة عن نفسه وضابط أسترالى وسيدتين فى صالة ليستر ذات مساء كانت صالة ليستر فى المنطقة المحرمة على العسكريين ، وفقد الأسترالى اثنين من أسنانه وفتاته ونالت عين بايارد لكمة فاسودت .

بينما مضى صاحب المتجر يرقب الراوى بعجب هادىء معذب .

قال « أيها المخلص العظيم ، هؤلاء الطيارون كانوا بالتأكيد من أولاد جهنم ، أليس كذلك ؟ أظنهم يطلبوننى مرة أخرى هناك فى مقدمة المتجر . هذه الأيام عليك دائما أن تظل على استعداد للقفز حتى تستطيع أن تأكل خبزك ، وخرج مسرعا مرة أخرى .

قال بايارد مرة أخرى بعنف وهو يرقب ماك كالم وهو يملأ الكوبين ،

« ظللت فاضلا مدة أطول مما ينبغى » ، هذه هى الخدمة الوحيدة التى كان جونى يؤديها لى إذ كان دائما يحول بينى وبين هذه الحياة البليدة الامينة ، مع زوج من عجائز النساء لا هم لهن إلا مضايقتى ، ولا شىء أعمله غير افزاع الزنوج . » وشرب كأسه ووضع الكوب على المائدة وظل قابضا عليها وقال ، « الألمانى اللعين ذو اليد الطرية . على كل حال ، لم يتعلم أبداً كيف يطير . ظللت أحاول أن أمنعه من التحليق هناك فى بندقية الهواء الملعونة تلك ، وسب أخاه الميت بوحشية . ثم رفع كأسه مرة أخرى ، ولكنه أوقفها وهى فى منتصف الطريق إلى فمه وقال « بحق جهنم أين ذهب شرابى؟ » .

أفرغ ماك كالم الزجاجة فى كوب بايارد ، وشرب مرة أخرى وصفع بالكوب السميك المنضدة ووقف وانهار إلى الخلف على الحائط ، وانقلب مقعده محدثا ضجة ، ثم تمالك نفسه ، وهو يحملق فى الآخر « ظللت أحاول أن أمنعه من التحليق هناك فى هذه « الكامل » ولكنه أطلق على النار ، أمام أنفى مباشرة » .

ونهض ماك كالم أيضا ، وقال بهدوء ، « تعال من هنا » وتقدم ليأخذ ذراع بايارد ولكن بايارد تحاشاه ومرا خلال المطهى وقطعا نفق المتجر الطويل . ومشى بايارد متزنا بشكل مرضى ، ومد صاحب المتجر رأسه إليهما من وراء النضد وقال :

« تعالوا لزيارتى مرة أخرى أيها السادة ، تعالوا مرة أخرى » .

قال ماك كالم ، « وهو كذلك ، ياديكون » ومضى بايارد . وإذ كانا يمران بنفافورة الصودا خاطبه محام شاب يقف بجواره غريب .

« كابتن سارتورس ، صافح مستر جراتون . جراتون كان فى الجبهة البريطانية فى الربيع الماضى » واستدار الغريب ومد يده ، ولكن بايارد حملق فيه ببرود ومضى فى خطواته المنتظمة ، إلى الدرجة التى دفعت الغريب للثورة حتى لا يلحق به الشعور بالإهانة

قال وظهر بايارد إليه ، « لعنة الله على روحه » وقبض المحامى على ذراعه قال هامسا بسرعة ، « إنه مخمور . إنه مخمور » .

قال الآخر بصوت عال . « لا يساوى عندى قلامة ظفر . ألأنه كان طياراً ملعون يظن . . . »

همس المحامى ، ش ش . . . ش » ، وجاء صاحب المتجر إلى قسم الحلوى وتطلع بقلق حقيقى شديد . قال ، « أيها السادة ، أيها السادة » وافتعل الغريب حركة عنيفة وتوقف بايارد .

قال ماك كالم وهو يستدير ، « انتظر دقيقة حتى أحطم له وجهه » ودفع الغريب المحامى جانبا ، وخطا إلى الأمام .

بدأ يقول « أنت لم تر اليوم . . . » وأخذ ماك كالم ذراع بايارد بقوة وسهولة .

« ولد ، هيا بنا » .

قال بايارد ، « وهو ينظر ببرود إلى الغريب الغاضب سأحطم وجهه القذر » ، وقبض المحامى مرة أخرى على ذراع رفيقه .

صاح الغريب ، وهو يدفعه بعيداً ، « ابتعد . فقط دعه يحاول هيا ، أنت ، أيها القذر » .

وصاح صاحب المتجر ، « أيها السادة . أيها السادة » .

قال ماك كالم ، « ولد ، هيا بنا . على أن أتفرج على حصان » .

قال بايارد مردداً « حصان » ، واستدار مطيعاً ثم توقف ونظر إلى الخلف ، وقال للغريب ؛ « لا أستطيع الآن أن أحطم وجهك . آسف . على أن أذهب لأرى حصانا ـ سأحضر لزيارتك فى الفندق فيما بعد » ولكن ظهر الغريب كان قد استدار إليه ، ومن ورائه كان المحامى يشير بوجهه ويديه إلى ماك كالم .

قال « ماك كالم ، ابتعد به ، حبا فى الله »

وقال بايار مرة أخرى « سأحطم وجهه فيما بعد . أوستيس ، لاأستطيع مع ذلك أن أحطم وجهك . علمونا فى المدرسة الابتدائية ألا نخدع حمقاء أو نضرب كسيحا » .

وقال ماك كالم مرة أخرى « هيا » ، ومضى به ، ومرة أخرى يجب أن يتوقف بايارد عند الباب ليشعل سيجارة ، ثم مضيا معا ، كانت الساعة حينئذ الثالثة ، ومرة أخرى سارا بين أطفال المدارس المنطلقين فى حشود . وقد مشى بايارد متزنا بما فيه الكفاية ، وبطريقة عدوانية إلى حد قليل ، ثم استدار ماك كالم إلى شارع جانبي ، ومضيا معا ، مارين فى ذلك بمتاجر زنوج ، وفيما بين مطحن دقيق يعمل ؛ وحلاجة قطن ساكنة ، استدارا إلى أرض منبسطة عنوءة بالخيل والبغال المقيدة ومن نهاية المكان جاء صوت صدام مطرقة بسندان ؛ ومرا بوجهها الأحمر وحصان صابر يقف على ثلاثة أرجل على باب حداد ـ ورجال فى ثياب عمال قاعدين بجوار الجدار الظليل ؛ ثم وصلا إلى بوابة عالية فى نهاية نفق من الآجر معتم اللون ويفوح منه رائحة النوشادر . وقد جلس عدة رجال فوق قمة البوابة واستند آخرون بأذرعهم المعقودة عليها . وجاءت من الحظيرة نفسها أصوات ، ومن خلال البوابة المشققة لمع شكل مترفع ساكن من اللهب اللامع .

وقف الحصان بجوار باب مخزن عدة الخيل والخدم ، كان الباب مفتوحا وكأنه فم كهف يتثاءب . وكان الحصان كلهب برنزى ساكن ، وعلى امتداد سترته اللامعة ، امتدت على مسافات ، رعشات صغيرة من لهب أشد شحوبا ؛ ألسنة صغيرة من العصبية والكبرياء ولكن عينه كانت هادئة ومتحجرفة ومن لحظة إلى أخرى وبأساوب الملوك ، كانت نظرته تكتسح المجموعة الجالسة عند البوابة بازدراء رفيع ، دون أن تراهم على الإطلاق كأفراد . ومرة أخرى ألسنة صغيرة من لهب أشحب تتقاطر مرتعدة على امتداد سترته . وحول رأسه كان حبل من الكتان ، وكان مقيداً إلى عضد باب

وخلفه كان رجل أبيض يتجول باحترام فى المكان على بعد منه وبه شعور المالك ، وبجواره سائس أسود ، ربطت بخيط إلى خصره جرازة من الكتان . توقف ماك كالم وبابارد عند البوابة ودار الرجل الأبيض حول الحصان فى سكونه الجليل وجاء إليهما . وجاء السائس الأسود أيضا بقطعة نسيج ناعمة قذرة وهو يرتل بصوت ناعم منغم . وسمح له الحصان بأن يقترب منه واحتمله وهو يزيل بقطعة النسيج اللهب الصغيرة العصبية اللاعقة ، التى امتدت من جديد فى تموجات متتالية تحت الجلد .

سأل الرجل الأبيض ماك كالم ، « أليس صورة رائعة ؟ » وقد استند بمرفقه إلى البوابة . كانت ثمة ساعة رخيصة من النيكل مربوطة إلى عروة حمالته بقيطان رفيع من الجلد الخام الذى تآكل بالاستعمال الطويل وأصبح أسود وناعما بفعل القدم ، وكانت لحيته الحليقة أثقل ما تكون عند زكنى فمه حتى طرف ذقنه . وكان يبدو وكأنه يمضغ طباقا باستمرار دون أن يغلق فمه . كانت تجارة الخيول حرفته وكان فى مقاضاة مستمرة مع شركة السكة الحديدية حول الأسلوب العنيف الذى صفت به قطيعه ، وقال ، « انظر إلى هذا الزنجى . سيدع توب يدلله كطفل . أنا نفسى لن أستطيع أن اقترب منه أكثر من عشرة أقدام . على اللعنة إذا كنت أعرف كيف يفعلها توب . لا بد أن تكون ثمة قرابة بين الزنوج والحيوانات . هذا ما أعتقده » .

قال ماك كالم بجفاف ، « أظنه يخشى أن تعبر به يوما قضبان السكة الحديدية فى الوقت الذى يصل فيه قطار التاسعة والنصف » .

قال الآخر مؤيدا ، « نعم . أظننى صاحب أتعس حظ فى كل المنطقة ، ولكن يتحتم عليهم أن يسووا الأمر هذه المرة . جررتهم كالجثث للاعتراف بحقوق .

قال ماك كالم : « نعم . ينبغى على شركة السكة الحديدية أن تزود قطيعك بدليل قطاراتها » ، وقهقه الآخرون بصوت عال .

قال التاجر ، « آه . لدى الشركة ، الكثير من المال . انت تتكلم وكأنني دفعت تلك البغال أمام القطار . دعني أخبرك كيف حدثت . . . »

— قال ماك كالم وهو يشير برأسه إلى الحصان « أظنك لن تدفعه أمام أى قطار » . ومضى الزنجى فى صقل سترته المرتعشة وهو يغنى له بصوت حزين رتيب . وضحك التاجر .

قال مسلما : « أظننى لن أفعل . حتى لا يهلك توب أيضا . فقط انظر إليه . الأقرب إلى أن أطير من أن اقترب من هذا الحيوان » .

قال بايارد لجأة « سأركب هذا الحصان » .

وسأل التاجر ، « أى حصان ؟ » وراقب الآخرون بايارد وهو يتسلق البوابة ويقفز إلى الداخل .

قال التاجر ، « أنت أيها الشاب ، دع هذا الحصان وشأنه » .

ولكن بايارد لم يهتم به ، وتقدم ، واكتسحه الحصان بنظرته الملكية وولى بعينيه . صاح التاجر ، « أنت دع هذا الحصان وشأنه ، وإلا فسأقاضيك . قال ماك كالم « دعه » .

قال التاجر « وأدعه يتلف حصانا ثمنه ألف وخمسمائة دولار ؟ هذا الحصان سيقتله . أنت ! سارتورس ! »

أخرج ماك كالم من جيب سرواله الخلفي حزمة من الأوراق المالية مشدودة بشريط من المطاط وقال مرة أخرى ، « دعه ، هذا ما يريده . »

وألقى التاجر نظرة سريعة على حزمة الأوراق المالية وأجرى حسبته بسرعة ، وبدأ يقول بصوت مرتفع ، « أنا أطلب منكم أيها السادة أن تشهدوا . . ثم توقف ، ومضوا يرقبون بايارد بقلق وهو يقترب من الحصان واكتسحه الحيوان مرة أخرى بعينيه المرتفعتين المتوهجتين ورفع رأسه

دون قلق ، وزفر . ونظر الزنجى من فوق كتفيه ، وجثم بجوار الحصان ، وقد زادت سرعة ترتيله الحزين ، وقال ، « ارجعوا إلى الخلف أيها البيض »

زفر الحصان مرة أخرى ؛ ورفع رأسه بحركة سريعة وقطع المقود فكأنه خيط عنكبوت وأسرع الزنجى محاولا أن يمسك نهاية الحبل الطائر . وصاح « ابتعدوا أيها البيض . ابتعدوا أسرعوا » .

راغ الحصان من يده ، وكشف عن أسنانه التى ظهرت فى شكل قوس رهيب ، وقفز الزنجى وانبطح على الأرض فى اللحظة التى حلق فيها الحيوان كانفجار برنزى وراغ بايارد من تحت الحوافر المنقضة كالسيوف ، وعندما دار الحيوان كدوامة من نار لها آلاف الألسنة ، رأى المتفرجون الرجل وقد تمكن من لف نهاية الحبل حول فكيه ، ثم رأوا الحيوان يكبح ويقف على قائمتيه الخلفيتين رافعا الرجل من الأرض وقد حمل جسمه وكأنه خرقة بالية على قوس حركته المبرق . ثم توقف وهو يرتعد ، عندما أغلق بايارد منخاريه بالحبل المطوى ، وفجأة كان على ظهره والحصان واقف برأس منكسة وعينين تدوران فى محجريهما ، وهو يهز سترته فى ألسنة مرتعدة قبل أن تنفجر مرة أخرى .

اندفع الحيوان كأجنحة برنزية منطلقة ، وتدافع المتفرجون بعيدا عن البوابة ورموا بأنفسهم على الأرض فى اللحظة التى تناثرت فيها البوابة وكأنها عيدان ثقاب تحت رعده البركانى المندفع . وأنمى بايارد فوق كتفيه وحول رأسه المجنونة جانبا ، واكتسحا السهل معا ، ناشرين الفوضى والعجيج بين الخيل والبغال المقيدة والمنتظرة حول محل الحداد ، وبين العربات هناك أيضا . وعند إلتقاء السهل بالشارع تناثر جماعة من الزنوج بسرعة من أمامهما ودون أن يغير الحصان من سرعته قفز محلقا فوق طفل أسود صغير فى يده قطعة من الحلوى كان يعترض طريقه ، فى هذه اللحظة استدارت بغال بعربة لتدخل السهل ، فشبت على سيقانها الخلفية أمام وجه الرجل الأبيض المروع

الذى فغر فاه فزعا ، وهو جالس فى العربة ، ومرة أخرى أدار باياردو صاعقته الرعدية واتجه بها بعيدا عن الميدان . وفى السهل من ورائه جرى المتفرجون فى الغبار الثائر وهم يتصايحون ، وكان التاجر بينهم أماريف ماك كالم فكان ولا يزال فى مكانه قابضا على حزمة الأوراق المالية .

تحرك الحصان من تحته وكأنه موسيقى مجنونة جبارة ، غير محكومة ، ورائعة وغير قابلة للسيطرة ، وقد أفاد الحبل فى توجيهه فقط ، لا فى الحد من سرعته ، ومن بين الصرخات المتصاعدة من جانبي الشارع ، حاد بالحيوان إلى شارع آخر ، كان شارعا أكثر هدوءا ، بعده يصبحان فى الخلاء ، حيث يستطيع الحيوان أن ينفث عن غضبه الجنونى دون مفاجآت من السيارات والمارة . وغاضت الأصوات من ورائه فى هزيمة الخاص .

« هارب ! هارب ! » ولكن الشارع كان مهجورا إلا من سيارة صغيرة كانت ماضية فى نفس اتجاهه ، وأمامهم وعلى بعد منهم تحت النفق الأخضر ، تناثرت مبتعدة عن الطريق نقط ملونة لامعة . « أطفال » قال محدثا نفسه « أرجو أن يظلوا بعيدا » كانت عيناه تدمعان قليلا ، ومن تحته الرفع والخفض المتدافقان ، وفى أنفه رائحة الغضب والقوة والكبرياء الجريحة ، كالدخان الذى يتصاعد من جسم الحيوان ، ومر مسرعا بالسيارة ، وقد لاحظ فى لحظة كأنها البرق وجــــه امرأة وفما منفرجا قليلا ، وعينين متسعتين بالعجب الهادىء . ولكن الوجه مرق مبتعدا دون أن يرتسم فى عقله ، ورأى الأطفال وقد تجمعوا إلى بعضهم البعض على جانب الطريق ، وعلى الجانب المقابل زنجى يرش الماء على الطوار وبجواره زنجى آخر بمــــنزاة .

صاح شخص ما مستغيثا من الشرفة ، وتفرق الأطفال المتجمعون وهم يصرخون واندفع شخص صغير الجسم فى قميص أبيض وسراويل صغيرة

ناحية الزرقة إلى قلب الشارع . وانحنى بايارد إلى أسفل وطوى الحبل حول يده وحرف الحيوان ناحية الطوار الآخر حيث كان الزنجيان واقفين وقد قفزا فيهما واندفع الشخص الصغير ومرق وراءه سالما ، ثم حزمة صغيرة من الخضرة المندفعة وساق شجرة ، كسالك عجلة مقلوب . وقدح الحصان شرر نار من الأسفلت المبلل . وانزلق ، واصطدم ، وعارك فى سبيل استعادة اتزانه ، واندفع ثم هوى ساقطا ، وبالنسبة لبايارد صدمة حمراء ثم ظلام .

نهض الحصان متعثراً على ساقيه ودار حول نفسه كالدوامة وتوقف ، ثم ضرب بعنف بحوافره الرجل المسجى ، ولكن الزنجى ذا المذراة دفعه بعيداً ، ثم أسرع بجسدة وبرأس تعلو وتهبط فى الطريق ، وعبر السيارة المنتظرة . وعند نهاية الشارع وقف يرتعد ويزفر وسمح للسائس الأسود أن يلبسه ، أما ريف ماك كالم فكان ولا يزال قابضا فى يـــده على أوراق نقده .

— ٦ —

حملوه وأحضروه إلى البلدة فى سيارة استولوا عليها لهذا الغرض ، وأيقظوا دكتور بيبودى من النوم ، وضمد دكتور بيبودى باستهتار رأس بايارد وأعطاه شرابا من الزجاجة المستقرة فى سلة المهملات المزدحمة ، وهدد بالاتصال بمس جينى تليفونيا إن لم يذهب إلى البيت مباشرة ، ووعد ريف ماك كالم أن يأخـــذه بنفسه إلى البيت ، وعرض صاحب السيارة المصادرة أن يحمله إلى هناك . كانت فورد ، أزيل الجزء الخلفى من جسمها وحلت محله حجرة صغيرة من الصفيح ، لا تزيد فى الحجم على بيت الكلاب وفى كل من نوافذها المرسومة جلست سيدة باسمة مصورة أمام آلة حياكة مصورة أيضا ، وكان فى الغرفة فعلا ، آلة حياكة ، وقد ثبتت بعناية وحملت هكذا متجولة فى الريف بوساطة الوكيل .

وكان اسم الوكيل ف . ك . سورات ، وقد جلس بوجهه الماكر المقبول ، وراء عجلة القيادة ، وجلس بايارد ورأسه تطن بجواره ، وتعلق بطوار السيارة شاب ذو ذراعين بنيتين ، وعلى رأسه بزاوية حادة قبعة من القش جديدة لأقصى حد ، وقد ترك لجسمه استقبال لكزات الطريق بسهولة ودون اهتمام ، إذ كانا ماضيين من البلدة إلى طريق الوادى .

أما الشراب الذى قدمه إليه دكتور بيبودى ، فبدلا من أن يهدىء أعصابه الصاخبة تلبث ساخنا ومتلكئا فى معدته ، وأثار فيه قليلا من الشعور بالغثيان ، وأمام عينيه المغمضتين تراقصت أشكال غريبة فى حدقات خفاقة مملة . وقد راقبها بغباء ودون دهشة ، وهى تنطلق من الظلام ، وتدور حول نفسها متكاسلة ، وتلتهم نفسها ، ثم تظهر من جديد وفى كل مرة بوضوح أقل ، ذلك لأن عقله قد بدأ يفيق . ومع ذلك ، ففى مكان ما ، كان ثمة وجه ، قد اندمج معها وإن ظل فى نفس الوقت منفصلا عنها وعلى بعد ساحق منها بترفع مطمئن . كان هادئا فى خضم تشنجاتها الغبية . وبدا وكأن له علاقة ما باللحظة نفسها عندما بلغت أوجها فى ظلام الصدمة ، وفى نفس الوقت بدا له رغم كل ترفعه وكأنه جزء من الفوضى الدوامة الناتجة ؛ جزء منها ، ومع ذلك استحضر إلى مركز الدوامة الحمراء نعومة دائمة ، كنعومة نسيم رقيق تحت ظلال . وهكذا بقى مترفعاً ، وبغير وضوح تام ، بينما غاضت الأشكال المتساوية وأصبحت ضيقا ثقيلا بالألم البدنى الذى تحدثه هزات السيارة . لقد ترك من حوله كصدى صفاء ناعما وشيئا آخر — شعورا بالاشمئزاز المتقبض الذى لا يخلو من الافتتان . . . به أو بشىء ما فعله .

كان الأصيل فى طريقه ، وعلى الجانبين رفع القطن والقمح رماحا خضراء فوق الأرض الفتية السوداء ، وفى الغابات الصغيرة حيث نفذت أشعة الشمس المنحدرة بين ظلال بنفسجية ، تنادت الحمائم بحزن ، وبعد قليل استدار سورات من الطريق العام إلى طريق عربات ضيق علوه بالحفر بين

حقل وغابة صغيرة ، ثم أصبحت الشمس قبالتهما مباشرة وخلع بايارد قبعته وحال بها بين الشمس ووجهه .

قال سورات « الشمس تؤلم رأسك ؟ لم يبق إلا القليل » ، ثم استدار الطريق إلى الغابات حيث كانت الشمس متقطعة ، وتصاعد تدريجاً إلى قمة رملية ، ومن ورائها امتدت الأرض فى حقول شعثاء مهملة ، ثم من ورائها مجموعة من أشجار الفاكهة فى حالة سيئة ، ودغل صغير من شجيرات الجوز القزماء الفضية الشاحبة بلون الابسنت ، وهى ترتعد باستمرار بلا رياح ، وبيت صغير لوحته الرياح . ومن ورائه وأكبر منه ، لاح جرن رمادى ، مغضن بفعل السنين . وانشق الطريق هنا ، اتجه أحد الذراعين الهزيلين إلى البيت ، وكان مغطى بالرمال ، ومضى الآخر بين الأعشاب إلى الجرن ، وأمال الشاب المتعلق بالسيارة رأسه داخلها وقال موجها « اتجه بالسيارة إلى الجرن » .

أطاع سورات . ومن وراء الأعشاب تجول فى الأرض كالتائه ، سياج متعثر فى حالة سيئة من الانحلال ، ومن الأعشاب المجاورة له انتصبت عارضتا محراث فى زاوية تعسه بينما مضت أسلحته تصدأ بسلام بين العشب ، وكذلك أدوات أخرى ، مضت تصدأ وقد احتجبت أجزاء منها هناك ـ أجداث العمل ، وقد ضمدت الأرض جراحها . الأرض التى أراد أن ينتهك حرمتها ـ كانت أكثر حناناً منهم . واستدار السياج بزاوية وأوقف سورات السيارة ، ونزل الشاب وفتح البوابة الخشبية المعوجة ، ومضى سورات بالسيارة إلى فناء الجرن حيث كانت عربة بعجلات سكرى وفراش مصنوع فى البيت ، وهيكل سيارة فورد صدىء ، وعلى مبردها المقبب العارى ، وقرب نهايته كان مصباحان ، أعطيا السيارة رسم الدهشة الصابرة الدائمة ، وبقرة هزيلة مضت ترقبهم بعينين كئيبتين وهى تجتر .

تعلقت أبواب الجرن كالسكارى من مفصلاتها ، وقد ثبتت إلى عضدها بلفائف من السلك الصدىء ، ومن ورائها تثاءب ظلام الردهة الكهفى

فى وحشية متعطنة — إحدى مهازل الأرض تحشد فيها رزاوها ومحصلاته المريضة . جلس بايارد على حاجز ركوب السيارة وأسند رأسه المضمدة على جانبها ، وراقب سورات والشاب وهما يدخلان الجرن ويصعدان ببطء درجات سلم غير مرئية ، ومضت البقرة تمضغ باكتئاب بطيء . وكقطع صغيرة من السحاب الموحل ، انسال الأوز على سطح البركة الأصفر المحاطة بضفاف دكتها الأقدام وشققت طينها الشمس . سقطت أشعة الشمس مائلة على أدبارها وعلى أعناقها الرشيقة ، وعلى جانب البقرة المزبلة المختلج بروى منتظم ولونت ضلوعها الواضحة بلون ذهبي موحل . وبعد برهة ظهرت قدما سورات وهما تتحسسان طريقهما على الدرج ، ثم جسمه اليقظ ومن ورائه الشاب الذى انزلق نازلا فى خطوات واسعة سريعة .

برز من الظلام وكان يحمل دنا فخاريا استند إلى جانب ساقه . وجاء وراءه سوارت فى قميصه الأنيق الأزرق دون ربطة عنق ، وأشار برأسه إلى بايارد ، واستدارا عند ركن الجرن بين أعشاب تبلغ فى الارتفاع الخاصرة ، ولحق بهما بايارد فى اللحظة التى انزلق فيها ، هو والدن ، بحركة واحدة بين صفين من الأسلاك الشائكة المفتولة المرتخية ، وانحنى سوارت ومر بينها بروية أكثر ، ثم رفع السلك الأعلى وداس على الأسفل بقدمه حتى مر بايارد . ومن وراء الجرن ، انحدرت الأرض فى الظل ، نحو تكاثف يكاد أن يكون دغلا من أشجار الصفصاف والبيلسان ، وإزاؤها انتصبت شجرة زان هائلة وحزمة من الشجيرات الصغيرة وكأنها جميعا أشباح متمسمة ، ومنها تصاعدت نسائم رطبة وكأنها أنفاس هبت للقيام . كان النبع يفيض من جذور شجرة الزان ، إلى إطار خشبي غرس حول قمته فى الرمل الأبيض ، الذى أخذته رعدة لطيفة لاتنقطع تحت الماء الشفاف المضطرب ، ثم مضى الماء بعد ذلك إلى أشجار الصفصاف والبيلسان .

دكت الأرض حول النبع حتى أصبحت ناعمة متماسكة وكأنها فناء بيت . وبجوار النبع استقر إناء حديدى مسود على أربع قطع من الآجر ، وكانت تحته كومة من رماد الخشب الشاحب وبقايا شظايا مشتعلة ، وأعقاب أحطاب

متفحمة . وبجوار الإناء استندت لوحة غسل ذات سطح معدنى معرج ، وتعلق كوب صدىء من الصفيح من مسمار مثبت فى الشجرة التى تنتصب فوق النبع . ووضع الشاب الدن وجلس هو وسوارت من حوله .

قال سورات « هب ، إذا كنا لن نقع فى متاعب إن أعطينا ويسكى لمستر بايارد . ومع ذلك ، دكتور بيبودى نفسه أعطاه كأسا ، ولذا أظننا نستطيع أن نعطيه واحدا أيضا . أليس كذلك يامستر بايارد ؟ » واستدار وهو جالس بوجهه الماكر الناعم إلى بايارد ، وأدار هب سدادة الدن ، المأخوذة من ساق ثمرة الذرة ، وخلعها ، وقدم الدن لسورات ، الذى قدمه لبايارد ، وأسر إلى سورات « أنا أعرف بايارد منذ أن كان صبيا فى سراويل قصيرة ، ولكن هذه هى المرة الأولى التى أتناول فيها أنا وهو شرابا . أليس كذلك يامستر بايارد ؟ أظنك ستحتاج إلى كوب تشرب منه ، أليس كذلك ؟ » ولكن بايارد كان يشرب بالفعل ، فقد رفع الدن ، وأسنده إلى ذراعه الأفقية . وثبت فتحة الدن إلى شفتيه بنفس اليد ، كما ينبغى أن يكون ، قال سورات « إنه يعرف كيف يشرب من دن ، أليس كذلك ؟ ثم أسر فى نغمة من يبرر ما فعله « كنت أعرف أنه على ما يرام » . أنزل بايارد الدن ، وأعاده إلى سورات ، الذى قدمه مجاملا إلى هب .

قال هب « هيا ، اضربها ! » وفعل سورات كذلك وأخذت تفاحة آدم عنده تتحرك حركة مكبسية منتظمة ، وهومت الحشرات الصغيرة فوق المجرى ودارت فى أشعة الشمس الأفقية ، وكأنها عصافات ذهبية هائمة . وخفض سورات الدن وقدمه إلى هب الذى مسح فمه على ظهر يده .

سأل « مستر بايارد ، كيف حالك الآن ؟ » ثم قال « عليك أن تغفر لى هذا كان ينبغى أن أقول كابتن سارتورس ، أليس كذلك ؟ » .

سأل بايارد « لماذا ؟ » جلس هو الآخر ووضع قدميه تحته واستند إلى جذع شجرة الزان . كانت الأرض المرتفعة من ورائهم تخفى الجرن والبيت عن الأنظار ، وقد جلس ثلاثتهم فى كأس صغيرة من السلام بعيدة جداً

عن العالم والزمن ، وممتلئة بأنفاس النبع الرطبة الناعمة ، وأشعة الشمس التى نفذت خلال أشجار البيلسان والصفصاف وانتشرت قليلا كالخمر . استلقت السماء منعكسة على سطح النبع وقد تحلت بأوراق الزان الساكنة بلا رياح . وأقعى هب أيضا ، وقد انعقد ذراعاه حول ركبتيه ومضى يدخن سيجارة وهو يرتدى قبعته المائلة . وقد جلس سوارت أمامه فى قميص ذى لون أزرق شاحب ، أبرز لون وجهه وذراعيه البنى العميق كخشب الجثة . واستقر الدن المستدير بينهم طيبا شفيقا .

قال سورات مرة أخرى ، نعم ياسيدى . أنا أجد دائما أحسن العلاج لأى جرح فى المزيد من الويسكى . الأطباء ، هؤلاء الأطباء هنا من آخر طراز يقولون لأى شخص شيئا غير هذا . ولكن دكتور بيبودى العجوز نفسه قطع ساق جدى بينما كان جدى مستلقيا على مائدة مطبخ بزجاجة خمر فى يده ، وحشية ومقعد بين ساقيه ، وأربعة رجال أمسكوا به ، وهو يسب ويغنى بألفاظ فاضحة إلى الدرجة التى اضطرت النسوة والأطفال إلى الذهاب إلى المرعى وراء الجرن حيث انتظروا هناك ، خذ مزيدا ، ومرر الدن فوق النبع وشرب بايارد مرة أخرى ، أظنك بدأت تشعر بشىء من الراحة ، أليس كذلك ؟ .

قال بايارد ، على اللعنة إذا كنت أعرف . ديناميت يا أولاد ، .

أمسك سورات بالدن وقهقه ، ثم رفعها إلى شفتيه . ومضت تفاحة آدم تعمل مرة أخرى كالمضخة . وقد وضحت حركتها أمام جدار البيلسان والصفصاف ، وقريبا سيزهر البيلسان بكتل شاحبة من البراعم الصغيرة . كانت مس جينى تصطنع منها القليل من النبيذ كل عام . وكان نبيذا جيدا ، إذا كان من يصنعه يعرف كيف يصنع وتوفر له الصبر . نبيذ زهور البيلسان . كأنه طقوس لعبة أطفال ، لعبة تلعبها بنات صغيرات فى أثواب صغيرة شاحبة ، بين ساعة العشاء والغسق ، ومن فوق النبع حيث كانت أشعة الشمس وما زالت تأتى منحدرة هومت الحشرات ودارت كالدوامات كأنها

دقائق غبار في غرفة ساكنة مهجورة . ومضى صوت سورات ناعماً ، وهو يردد دون توقف ، الإعجاب المهذب بصلابة رأس بايارد وأنه يجلس للشراب معه لأول مرة .

وشربوا أيضا ، وبدأ هب يقترض السجاير من بايارد ، وأصبح ، أيضاً . أكثر استباحة للفظ . راوياً بجرأة الملح والنوادر بلهجة أهل بلده ، عن الويسكي والبنات والحظ . ثم كان هو وسورات يتجادلان بود حول العمل . وبدا وكأنهما على استعداد للجلوس دون تعب وبراحة تامة ، وأقدامهما تحتهما ، ولكن ساق بايارد فقدتا الإحساس تماماً ، فدهما ليدغدغهما الدم المنساب وقد جلس الآن وأسند ظهره إلى الشجرة ومد ساقيه الطويلتين أمامه ، وكان يسمع صوت سورات دون أن ينصت إليه .

أصبحت رأسه شكلا ما من العناء المشدود ، وحيناً بدت له وكأنها تسبح مبتعدة من فوق كتفيه وتحلق بعيداً بجوار الحائط الأخضر . وكأنها بالون شفاف ، بداخله ، أو من ورائه ، ظل ذلك الوجه ، الذى لا يتضح تماماً ، ولا يغيض أبدا بشكل يكاد يبعث على الضيق - عيناه استدارتا بالدهشة العميقة المروعة ، يدان مرفوعتان تمرقان وراء قميص أبيض صغير وسروال أزرق ، فى اندفاعة رافعة غاصت فى ضجيج الصدام والظلام .

ومضى صوت سورات البطيء الناعم بانتظام ، ولكن دون أية مضايقة ؛ بدا وكأنه ينسجم بسهولة مع المشهد الساكن ، كان يتكلم عن أشياء دنيوية وكان يقول « سأحدثكم عن الطريقة التى تعلمت بها تقطيع القطن . أخذنى أخى الأكبر ووضعنى فى الصف الذى أمامه وبدأت وبمجرد أن قطعت قطعة أو قطعتين وجدته ورائى . وكلما قطع فأسى مرة ، كان فأسه يقطع مرتين ، ولم يكن عندى قط حذاء فى تلك الأيام ، ثم استطرد يقول بجفاف « وهكذا كان على أن أتعلم كيف أقطع القطن بسرعة ، وفأسه ماضية ورائى تنقض على عقبى العاريتين ، ولكننى ، أقسمت حينئذ ، وليحدث ما يحدث ، ألا أزرع شيئاً قط فى الأرض فى اللحظة التى أستطيع فيها

أن أقوم بأودى . الزراعة خير بالنسبة للذين يملكون الأرض ، ولكن الناس من أمثال أهلى لن يمتلكوا أرضاً على الإطلاق . وفى كل مرة حفرنا الأرض فيها كنا نزيل بأظافرنا الوحل لشخص آخر » ورقصت الحشرات ودارت فى دوامات أشد جنوناً فى ضوء الشمس ، فوق أماكن مجرى الماء المختفية ، وقد أخذ ضوء الشمس لوناً نحاسياً غنياً ، ووقف سورات وقال « حسناً يا أولاد . على أن أعود إلى البلدة » ثم نظر إلى بابارد مرة أخرى بوجهه الذكى العطوف وقال « أحسب مستر بابارد قد نسى تماماً الصدمة التى أصابته ، أليس كذلك ؟ » .

قال بابارد « اللعنة ، كف عن مناداتى بمستر بابارد » .

التقط سورات الدن « كنت أعرف أنه على ما يرام ، إذا تيسرت لك معرفته وقال لهب « ما زلت أعرفه منذ أن كانت قامته لا تصل إلى الركبة ، ولكن أنا وهو لم تلق الأيام بنا معا قبل الآن . » .

« أنا يا أولاد ولدت صبياً فقيراً بينما عاش أهل مستر بابارد فى ذلك المكان الكبير ولديهم كثير من المال فى البنوك وزنوج يقومون على خدمتهم ولكنه طيب » ثم قال مرة أخرى « لن يقول شيئاً عمن أعطاه هذا الويسكى . » .

أجاب هب « فليقل إذا شاء — لا يساوى الأمر عندى قلامة ظفر » .

وشربوا مرة أخرى وقد غابت الشمس أو كادت ، ومن أماكن المجرى الموحلة السرية جاء نقيق ضفادع صغيرة ، وكأنه صوت أشباح ، وخارت البقرة النحيلة غير المرئية من حول الجرن ، وأعاد هب السدادة إلى الدن ، ودفعها إلى مكانها بضربة من كفه وصعدوا التل ، وزحفوا خلال السياج ، كانت البقرة واقفة أمام باب الجرن وتطلعت إليهم وهم يقتربون ، وخارت مرة أخرى ، مبتئسة نائحة ، وقد غادر الأوز البركة ومضى فى استعراض وقور عبر فناء الجرن متجهاً نحو البيت ، حيث كانت تقف على بابه الذى حددته من الجانبين عليقة من الريحان الأسود الشامى ، امرأة .

قالت فى صوت ريفى مستو ، « هب » .

قال هب بسرعة ، « ذاهب إلى البلدة — بالتأكيد عليك أن تحلبى » .

وقفت المرأة فى الباب بهدوء ، وحمل هب الدن إلى الجرن ، وتبعته البقرة ، وسمها ، واستدار ، وأعطاها صفعة عالية على ضلوعها المزينة ؛ وسبها دون حماسة . ثم ظهر مرة أخرى واتجه إلى البوابة وفتحها ، ومضى سورات بالسيارة خلالها . ثم أغلقها مرة أخرى وربطها بالسلك وقفز إلى حاجز السيارة ، وتقدم بابارد وأقنع هب بالجلوس داخلها . وظلت المرأة واقفة بالباب ، وهى ترقبهم بهدوء . وبالقرب من الباب اندفع الأوز هائماً وهو يطلق صيحات متنافرة ، وقد تلوت أعناقها الأنيقه وكأنها إشارة تحية رسمية صامتة .

امتدت ظلال أشجار الفاكهة مستطيلة عبر الحقول المهملة ، ودفعت السيارة ظلها المستطيل أمامها وكأنها ظل طائر هائل محدودب الكتفين . وصعدوا التل الرملى فى آخر لحظات الغروب ونزلوا بعيدا عن ضـــوء الشمس إلى لحظة الغروب البنفسجية . كان الطريق برماله صامتا ، وتهادت السيارة وصعدت من الحفر المتآكلة المتحركة ثم إلى الطريق العام .

كان القمر المتنامى فى السماء فوق رءوسهم ، إلا أنه حينئذ لم يكن يعطى نورا ، ومضوا بالسيارة متجهين إلى البلدة ، مارين من حين إلى حين ، بعربة ريفية عائدة إلى البيت ، وهذه ، حياها سورات بإشارة رصينة من يده ، ذلك أنه كان يعرف تقريبا كل نفس فى الإقليم ، وإذ مر الطريق بجسر خشبى بين مزيد من أشجار الصفصاف والبيلسان وحيث كانت العتمة أشد كثافة وأشد وضوحا ، أوقف سورات السيارة ونزل منها متسلقا من فوق الباب .

قال « أنتم ياأولاد اجلسوا بهدوء . لن أغيب إلا دقيقة . على أن أملأ المبرد » . وسمعاه عند مؤخرة السيارة ، ثم ظهر مرة أخرى ومعه دلو من

صفيح ونزل بخفة ورشاقة إلى جانب الطريق بجوار الجسر. كان الماء يضحك ويغمغم تحت الجسر غير مرئى فى ساعة الغسق، وقد تحمل همسه بصوت الضفادع والجداجد. وما زالت الحشرات الضئيلة تحوم وتدور كالدوامات فوق الصفصاف الذى كان يحد مجرى الماء، لأن الخفافيش ظهرت من غير مكان، فى انقضاضات طويلة، لتختفى وسط انقضاضاتها فجأة، لتظهر مرة أخرى وهى تهوى ومن ورائها صفحة السماء الهادئة، خرساء كقطرات ماء على نافذة من زجاج، سريعة، صامتة، وصارمة وكأن أجنحتها قد قدت من الغسق واتخذت من الصمت ريشا.

تسلق سورات الشاطىء متعثرا ومعه الدلو، ورفع الغطاء وميل الدلو فوق المورد. وتعلق القمر فوقهم دون أن يبرز، إلا أن ظلا خفيفا لرأس سورات وكتفيه سقط فوق غطاء المحرك وفوق أرض الجسر الخشبية الشاحبة. كانت أوراق الصفصاف العريضة مرسومة فى ظلها بدقة وشحوب بقلم رفيع. ومضى آخر الماء بغرغرات وضجيج خفيف إلى داخل الآلة، وأعاد سوارت الدلو إلى مكانه وتلق السيارة من فوق الباب المغلق. وكانت المصابيح تضاء بوساطة مولد، فأضاءها. وبينما كانت السيارة ماضية بسرعة منخفضة توهجت المصابيح إلى أقصاها، ولكنه إذ زاد سرعتها هبطت إلى ضوء خفاق لا يزيد على ظل مضىء.

كان الليل قد خيم على المدينة عند ما وصلوا إليها، وبدت المصابيح المضاءة على ساحة بيت القضاء كحبات صفراء فوق الأشجار، ومن فوق اللون الأخضر الشاحب الذى حلق فى أطراف الأشجار تعلق منتصباً عمود أسود من الدخان وكأنه ريشة طائر متزنة، وأنزلهم ســـورات عند المطعم ومضى، ودخلا ورفع صاحب المطعم رأسه البيضاوية وعينيه المستديرتين الناعستين من وراء نضد الصودا الفوارة.

قال وقد أخذته الدهشة «أيها المخلص العظيم، ألم تعد بعد إلى البيت ياولدى؟ ما زال دكتور بيبودى يبحث عنك منذ الساعة الرابعة، وذهبت مس جينى إلى البلدة فى عربتها، لتبحث عنك. إنك ستقتل نفسك».

قال بايارد « فلتأخذك جهنم ياديكون ، تعال إلى الجزء الخلفي ، واحضر لي ولهب لحم خنزير وبيضا بما يساوي دولارين » .

وبعد ذلك عادوا إلى الدن في سيارة بايارد وهب وشاب ثالث كان وكيل شحن البضائع في السكة الحديدية ، مع ثلاثة زنوج وكان في المقعد الخلفي ، ولكنهم لم يمضوا بالسيارة إلى أبعد من الحقل القريب من البيت ، وتوقفوا هناك ، بينما مضى هب على قدميه في الطريق الرملي إلى الجرن . وتحلق القمر فوق رءوسهم شاحبا باردا وفي كل الأنحاء تعالت أصوات الحشرات الحادة وهي مختفية في الحشائش المغبرة . وفي المقعد الخلفي تهامس الزنوج فيما بينهم .

قال ميتش وكيل الشحن « ليلة رائعة » . ولم يقل بايارد شيئا . كان يدخن مكتئبا وقد أحاطت الضمادات البيضاء برأسه كالخوذة . كان القمر والحشرات وحدة ، مسموعة ومرئية ، بلا أبعاد ولا مصدر .

وبعد برهة ظهر هب وقد تتوج بهالة فضية ماثلة هي قبعته ، ومن ورائه غموض الطريق المتلاشي ، وجاء إليهم ، وطوح الدن بيده ووضعه على الباب ، ورفع غطاءه . وقدم ميتش الزجاجة إلى بايارد .

قال بايارد « اشرب » وشرب ميتش ، وشرب الآخرون .

قال هب « ليس لدينا ثمة شيء يشرب منه الزنوج » .

قال ميتش « نعم » واستدار في مقعده ، وقال « أليس لدى واحد منكم يا أولاد كوب أو شيء ما ؟ » وتهامس السود ثانية ، وفي همهماتهم شيء من الدهشة .

قال بايارد « انتظروا » وقام من مكانه وخرج ورفع غطاء المحرك وأخذ غطاء المبرد وقال « سيكون له إلى حد ما مذاق الزيت كأسا أو كأسين ، ولكنكم يا أولاد لن تحسوا به بعد ذلك » .

قال الثلاثة في صوت واحد « لاسيدي » ، وأخذ أحدهم الكوب ومسحه

بطرف سترته ، وشربوا هم كذلك فى دورهم ، وتلمظوا وهم يزفرون الهواء بعمق وأعاد بايارد الغطاء إلى مكانه وعاد إلى السيارة .

سأل هب ، والدن ساكن فى يده « من منكم يريد شرابا آخر الآن ؟ » .

قال بايارد موجها « اعط ميتش واحدا . عليه أن يلحق بنا » .

وشرب ميتش مرة أخرى ، ثم أخذ بايارد الدن ، ورفعه إلى فمه ، وراقبه الآخرون باحترام .

غمغم ميتش قائلا « فلتحل على اللعنة إذا لم يشربه كله ، لو كنت مكانك لخشيت أن أفعلها مرارا » .

أنزل بايارد الدن وقدمه إلى هب وقال « إنها رأسى الملعونة ، فى كل مرة أتوقع أن تخفف آلامها كأس أخرى » .

قال هب « الطبيب حزم هذه الضمادة أكثر مما يجب ، أتريد أن ترخيها قليلا ؟ » « لا أدرى » . وأشعل بايارد سيجارة أخرى ورمى الثقاب بعيدا « أظننى سأخلعها ، بقيت مكانها مدة كافية » ورفع يديه وتحسسها .

قال ميتش محذرا « خير لك أن تدعها مكانها » ولكنه مضى يبحث متحسسا بيديه مكان العقدة ، ثم دفع أصابعه تحت إحدى لفافات القماش وشده بشراسة وانحنى أحد الزنوج إلى الأمام بسكينة جيب ، وقطع النسيج ، وراقبوه وهو يفرطها ويرمى بها بعيدا .

قال ميتش « ما كان ينبغى عليك أن تفعل هذا » .

قال هب « دعه ينزعها إذا كان يريد ذلك . إنه على ما يرام » .

وصعدوا إلى السيارة ، ووضع الدن بين ركبتيه ، وقاد بايارد السيارة ، وكان صوت الطريق الرملى حادا تحت إطار السيارة العريضة . وصعد مرة أخرى وقد أصبح مغطى بالحصى إلى الغابات ، حيث كان ضوء القمر المبرقش

متقطعا وخداعا فى المشاهد المترامية المتلاشية . كانت أصوات الحشرات كأنها أنغام ناى منسابة ، غير مرئية وغير معروفة المصدر بين أشكال الضوء والظل المائجة ، وخرج إلى الطريق من الغابة وهبط ، والرمال فى آكام متحركة صامتة ، ثم استداروا إلى طريق الوادى ومضوا مولين عن المدينة .

ومضت السيارة ، مضت على العجيج الحاد الصادر من كاتم الصوت المغلق ، وتهامس السود فيما بينهم ، بضحكات مخطوفة رقيقـــة كأنها قطع من ورق ممزق يصفعها الهواء بعيدا وراءهم ، ومروا بالبوابات الحديدية وبيت بايارد الهاجع فى وقار بين الأشجار فى ضوء القمر ، وكشك الإشارات الصغير الصامت ، وحلاجة القطن ذات السقف المعدنى على جانب السكة الحديدية .

وأخيرا صعد الطريق إلى التلال . كان معبدا وكثير الانحناءات وخاليا من المرور ، وصمت الزنوج عندما رفع بايارد السرعة ، إلا أنها لم تكن شيئا يذكر بجانب ما كانوا يتوقعونه منه ، وتوقفوا مرتين بعد ذلك وشربوا ، ثم نظروا من قمة التل الآخر ، إلى عنقود آخر من الأضواء . كأنها حبات تجلطت فوق النزيف الشاحب حيث كان طريق السكة الحديدية يمضى ، وأخرج هب غطاء المبرد وشربوا مرة أخرى .

مضوا ببطء خلال شوارع مماثلة لشوارع بلدتهم ، متجهين إلى ميدان مماثل أيضا . واستدار الناس فى الميدان ونظروا إليهم متطلعين ، وعبروا الميدان ومضوا فى طريق آخر ، ثم بين مروج عريضة ونوافذ مظللة ، ثم عبروا سياجا حديديا وعادوا مرة أخرى بين أشجار سوداء وقضية ، وحدقت النوافذ المضاءة فى صفوف منتظمة ، كفوانيس مربعة علقت بين الأغصان .

توقفوا هنا ، بين الظلال . ونزل الزنوج وأخذوا السكان ذا الصوت العميق والقيثارة ثم أمسك الثالث بأنبوبة رفيعة تناثرت عليها مفاتيح ، لمع عليها القمر المتقطع فى نقط شاحبة ووقفوا ووسوسوا إلى بعضهم البعض

يتهامسون معا ، ويلتقطون من الأوتار أنغاما نائحة حبيسة ثم رفع صاحب المزمار مزماره إلى فمه .

كانت الأنغام أنغاما قديمة . بعضها كان معقد الشكل دقيق التركيب ولكن هذا كله ضاع عند التنفيذ ، وطبعت كلها بدلا من ذلك بالشجن والنواح ، وبالبساطة واختزال فى الإيقاع ، وسبحت الأنغام على أوتار شجية نائحة فوق الهواء الفضى ، لتفيض وتموت فى أصداء أضعف ممتدة عبر المشاهد العريضة الخداعة فى ضوء القمر . وعزفوا مرة أخرى لحنا من ألحان الفالس القديمة . وجاء حارس الكلية عبر المرج المبرقش إلى السياج وأسند ذراعيه إليه فكان كتلة من الظل المنصت بين الظلال الأخرى وعبر الشارع ، فى الظلال هناك ، وقف مستمعون آخرون واقتربت سيارة ثم أبطأت بجوار الطوار وأطفأت محركها وأنوارها ، وفى صفوف النوافذ مالت رءوس وحولها هالات من ضوء الغرف من خلفها ، بلا فردية ، أنثوية ، بعيدة ، رقيقة وسماوية الشباب .

وعزفوا ، « بيتى ، يابيتى الحلو » وعندما ماتت الأنغام العميقة سبح إليهم عبر الفراغ تصفيق رقيق من أكف صغيرة ، ثم غنى ميتش فى صوته الصافى الأجش فائق العذوبة « سيداتى ، سعدتن مساء » وكانت الأيدى الشابة أكثر تقديراً وإذ مضوا بسياراتهم مبتعدين سبحت وراءهم الرءوس الدقيقة المكللة بهالات من الشعر اللامع فى النوافذ المضيئة كما سبح وراءهم التصفيق الناعم طويلا ، وهو يفيض ويغيض فى الصمت الفضى ولا نهاية القمر .

وتوقفوا عند قمة التل الأول خارج المدينة ، ونزع هب غطاء البرد ، ومن ورائهم أضاءت أنوار متناثرة بين الأشجار ، وبدا ، وكأنه مازال يصل إليهم عبر العالم الساكن ، صوت تلك الأكف الشابة كزهور رقيقة منطرحة أمام ذكورتهم وشبابهم ، وشربوا دون أن يتكلموا وما زالوا مغلفين بالسحر الغائض لتلك اللحظة المفقودة . وغنى ميتش لنفسه بصوت

خافت وانطلقت السيارة تهر مرة أخرى ، وانحدر الطريق بانحناء سهل ، خاليا وناصعا . وتكلم بايارد وكان صوته قاسيا مفاجئا .

قال « كفى ياهب » انحنى هب إلى الأمام ومد يده وراء لوحة القيادة ، وانطلقت السيارة بهمهمة منتظمة مقيدة ، كانطلاق رعد مجنح ، ثم استوى الطريق وامتد طويلا إلى مرتفع آخر ، وارتفعت الهمهمة وتحولت إلى صياح واندفعت السيارة إلى الأمام بعنف قاصف للرقاب . وقد توقف الزنوج عن الكلام وأطلق أحدهم صيحة نادبة .

قال هب وهو ينظر إلى الخلف . « رينو فقد قبعته »

أجاب بايارد « إنه لا يحتاج إليها » وزأرت السيارة وهى تصعد التل واندفعت عبر القمة ومرقت من قوس حاد .

صاح الأسود نادباً ، « أوه ، ياإلهى ، مستر بايارد » وبتر تيار الهواء كلماته ، وكأنها أوراق شجر ، « مستر بايارد ، دعنى أخرج » .

أجاب بايارد ، « اقفز منها ، إذن » وتساقط الطريق من تحتهم وكأنه أرض مائلة ومضى عبر واد ، مستقيم كخيط مشدود . وقبض السود على آلاتهم الموسيقية وأمسك كل منهم بالآخر . وقرأ عداد السرعة خمسة وخمسين ، ستين ومضى يتقدم بانتظام . ومرقت بهم بيوت متناثرة تغط فى النوم وحقول ، وقطع من غابات كأنها أنفاق .

ومضى الطريق عبر أرض سوداء وفضية . وتنادت الحشرات من الجانبين ، وهى تردد تساؤلها الناعم ، ومن حين إلى حين ، وإذ كان الضوء الأمامى يكتسح الطريق فى انحناءاته المفاجئة كانت تلمع أمامهم فى التراب نقطتان من النار الشاحبة فى اللحظة التى يضطرب فيها الطائر متخبطاً فى مكان ما تحت المبرد .

وتصاعدت القمة بانتظام والغابات تنحدر على جانبيها . وتناثرت أكواخ زنوج على المنحدرات أو بجانب الطريق .

ثم غطس الطريق ثم صعد مرة أخرى فى فتحة ضيقة قطعتها هوة أخرى ، ثم وقف مباشرة أمامهم كالحائط ، وانقذفت السيارة إلى أعلى فوق الهوة وتركت الطريق تماما ، ومضت بشكل مروع ، وطارت استغاثة السود جميعهم بعيداً . ووصل المرتفع إلى قته وتوقف رعد السيارة وانزلقت بهدوء حتى وقفت . كان الزنوج جالسين فى قاع السيارة .

قال أحدهم مغمغما بعد وقت ، « أهذه هى السماء ؟ » .

قال الآخر ، « لن يدعوك ، يا أخ ، تدخل السماء ورائحة الخمر فى أنفاسك وبلا قبعة » . ثم قال الأول « إذا كان الرب لا يعنى بى أكثر مما فعل بتلك القبعة فأنا لن أريد على أى حال أن أذهب إلى هناك » .

قال الثانى ، « م م م ... ، عندما نزلنا هذا التل الأخير ، كاد هذا المزمار أن يطير من يدى ، ناهيك عن قبعتى » ، وأضاف الثالث ، « وعندما قفزنا فوق تلك الهوة أو أيا كانت تصورت اللحظة أن كل هذه السيارة قد طارت من يدى » .

وشربوا أيضاً . كان مكانا مرتفعا وكان الهواء باردا يتحرك بوقار ، وعلى كل من الجانبين كان ثمة واد مملوء بالضباب الفضى وبالطيور ، ومن وراء هذه التلال ، مضت الأرض الفضية فى طريقها إلى السماء ، وعبر الوادى ، نبح كلب من بعيد وبأنين ، وكان رأس بايارد هادئا وصافيا كناقوس أجوف ، وداخله ظهر الوجه أخيرا بوضوح ، تلكما العينان المستديرتان بالدهشة العميقة ، وعلى جانبيهما وبوقار جناحان معتمان من الشعر ، قال لنفسه ، إنها الفتاة بينبو ، وجلس برهة وهو يحملق فى السماء . وكانت الأضواء على ساعة البلدة ثابتة وصفراء فى المسافة الذائبة ، ولكن فى كل اتجاه آخر ، مضى العالم فى طريقه قمم ناعسة ونصف شفافة فى لون اللبن .

عندما جلست العمة سالى وبات للعشاء كانت نارسيسا قد فقدت شهيتها للطعام ، ومضت العمة تزدرد طعامها المطهو الطرى وهى تغمغم مشاكسة لأنها ترفض أن تأكل .

قالت العمة سالى « كانت أمى دائما تجعلنى أشرب قدحا من الشاى عندما كنت أحضر إلى المائدة فى مزاج سيء ولا أريد أن آكل ، ولكن الناس ، هذه الأيام ، يتصورون أن الله الطيب سيحفظهم فى حالة جيدة ، دون أن يحركوا أصبعا » . قالت نارسيسا مصرة ، « إننى على ما يرام فقط لا أريد أن أتناول أى عشاء » .

« هذا ما تقولينه . تدعين حالتك تتدهور ، والله يعلم أننى لست من القوة بما فيه الكفاية لأقوم على خدمتك . فى أيامى كان الشباب يراعون شعور من يكبرونهم سنا أكثر مما يفعلون اليوم » ، ودفعت طعامها إلى فمها بطريقة فجة وشكسة ورتيبة ومتكررة بينما كانت نارسيسا تعبث بقلق بالطعام الذى لم تستطع أن تأكله . وبعد ذلك مضت العمة سالى فى نفس حديثها وهى تتأرجح وشغلها الغريب الذى لا ينتهى أبداً فى حجرها ، لم تشأ أبدا أن تقول ماذا سيكون هذا الشغل عندما تنتهى منه ، ولا لمن ، ومازالت تعمل فيه منذ خمس عشرة سنة ، وهى تحمل معها دائما ، حقيبة قذرة بالية لا شكل لها من الحرير المشجر تحتوى على غرائب وأطراف من الأنسجة الملونة فى جميع الأشكال الممكنة . لم تستطع أبدا أن تخيطها حسب أى شكل معين ، ولذا فقد كانت تغير ، وتثبت وتتأمل وتعيد التثبيت والتغيير ، وكأنها قطع فى لعبة الصور المقطعة التى يستلزم تركيبها صبرا شديدا ، وهى تحاول دائما أن تنسقها فى شكل ما دون أن تستخدم فى ذلك مقصها وهى تسوى مزق أنسجتها الملونة بأصابع رخوة رمادية ، وهى تغير أوضاعها بلا انقطاع ، ومن صدر ثوبها تدلى خيط عنكبوتى متلو من الأبرة التى تظمته فيها نارسيسا .

جلت نارسيسا إلى كتاب فى الطرف الآخر من الغرفة ، ومضى صوت العمة سالى فى طنين مشاكس لا ينقطع بينما أخذت نارسيسا فى القراءة وفجأة نهضت ووضعت الكتاب جانبا ، وعبرت الغرفة ودخلت المقصورة حيث كان البيانو ، ولكنها لم تعزف أكثر من أربعة أوتار ، قبل أن تتهاوى يداها فى نشاز ، وأغلقت البيانو وذهبت إلى التليفون .

شكرتها مس جيني بحدة لاهتمامها وجرؤت على أن تقول لها إن بايارد كان فى خير حال وإنه مازال عضواً نشطاً فيما يسمى بالجنس البشرى ، ذلك لأنهم لم يتلقوا بعد تبليغاً رسمياً بموته من النائب العام . لا ، لم تسمع عنه ثمة شيئاً منذ أن اتصل بها دكتور بيبودى تليفونياً فى الساعة الرابعة ، وأبلغها أن بايارد فى طريقه إلى البيت برأس مصابة ، لقد صدقت بسهولة ما قيل عن الرأس المصابة ، أما الجزء الآخر من القصة فلم تضع فيه أى قدر من الثقة ، ذلك أنها قد عاشت ثمانين عاماً مع هؤلاء الملعونين من آل سارتورس وتعرف أن البيت هو آخر مكان فى العالم يفكر فى الذهاب إليه على الإطلاق أى سارتورس برأس مصابة . لا ، إنها ليست حتى مهتمة بمعرفة مكانه الحالى وكل ما ترجوه هو ألا يكون قد أصاب الحصان . فالخيـــل حيوانات ثمينة . عادت نارسيسا إلى غرفة الجلوس وقالت العمة سالى « مع من كانت تتكلم ولماذا » وسحبت مقعداً منخفضاً إلى جوار المصباح وعادت إلى كتابها .

قالت العمة سالى بعد برهـــة ، وهى تجمع مزق أنسجتها وتزجها فى الحقيبة « حسنا ، إذا كنت لا ترغبين فى الحديث .. أنا أشكر الله - أحياناً . لأنك أنت وهوراس لستما من دمى بالطريقة التى تمضون بها جميعا فى حياتكم . ولكن إذا رضيت أن تشربى هـــذا المنبه القوى فأنا لا أدرى من الذى سيحصل لك على جذور الساسا فراس اللازمة لإعداده انا لم أعد استطيع أن أفعل هذا ، وأنت لن تستطيعى أن تميزى بينه وبين شمر الكلاب أو أذن الدب » .

قالت نارسيسا محتجة « أنا بخير » .

وقالت العمة سالى مكررة ، « امضى فيما انت فيه ، واستلقى عاجزة على ظهرك ، وليس حولك إلا أنا والزنجية التـــافهة لتعنى بك . فى ستة أشهر ، لم تزل التراب حتى عن إطار صورة ، وهذا ما أعرفه بالتأكيد وأنا فعلت كل شىء إلا أن استجدى واسترحم » ، ووقفت وألقت تحية المساء وخرجت من الغرفة . وظلت نارسيسا جالسة وهى تقلب صحائف

الكتاب ، وسمعت الأخرى وهى تصعد الدرج ، ودقات عصاها المنتظمة المجهـــدة ترافقها ، وظلت نارسيسا جالسة قليلا بعد ذلك تقلب صحائف كتابها .

ثم رمت الكتاب بعيداً وذهبت إلى البيانو مرة أخرى ، ولكن العمة سالى نقرت على السقف بعصاها من فوقها ، فتوقفت وعادت إلى كتابها ، ولذا ، فإنها حيت بسرور حقيقى دكتور ألفورد عند ما جاء بعد برهة .

قال مفسراً « كنت ماراً وسمعتك تعزفين . أنت لم تتوقفى عن العزف ؟ »

وقالت مفسرة « إن العمة سالى قد ذهبت إلى فراشها ، وجلس متحفظا وتحدث إليها بطريقته الجامدة المتفقهة عن موضوعات علمية جافة لمـــدة ساعتين . ثم مضى ، ووقفت بالباب ترقبه وهو يسير فى الممر الخاص . وقد تعلق القمر فوق الرءوس ، وعلى امتداد الممر انتصبت أشجار الأرز فى قوس منحن جاف وكأنها رماح مسددة إلى السماء الشاحبة الموشاة برقة .

ثم عادت إلى غرفة الجلوس وأخذت كتابها وأطفأت الأضواء ، وصعدت الدرج ، وسعلت العمة سالى بهدوء مهذب . ووقفت نارسيسا فى مكانها عبر البهو تستمع لحظة إلى الأصوات التى ألفتها وفكرت وهى تمضى ، « سأكون مسرورة عند ما يعود هورى إلى البيت » .

أضاءت نور غرفتها وخلعت ملابسها وأخذت كتابها إلى فراشها حيث منعت بإصرار مرة أخرى وعيها من أن يطفو ، كما تمسك بجرو صغير تحت الماء حتى يتوقف نضاله . وبعد وقت قصير استسلم عقلها للكتاب ونمضت تقرأ ، وهى تتوقف من لحظة إلى أخرى لتفكر بحرارة فى النوم ثم تستأنف القراءة . ولذا فعنـــدما دج السود آلاتهم الموسيقية تحت نافذتها لأول مرة لم تكترث بهم إلا قليلا جداً وتساءلت وهى تشعر بسرور خفيف « لأى سبب فى العالم يعزفون لى ؟ » ، وتصورت فى الحال العمة سالى فى قبعة نومها وهى تنحنى من نافذة وتصرخ فيهم وتطردهم .

واستلقت وكتابها مفتوح ، وهى ترى على وجه الصفحة المنشورة الصور التى تخيلتها ، بينما سبحت أنغام الأوتار والمزمار النـــائحة إلى نافذتها المفتوحة .

وفجأة همت جالسة ، بيقين قاطع مطلق ، وصفقت الكتاب وانزلقت من الفراش . وأطلت من الغرفة الأخرى .

كان السود مجتمعين على المرج ، المزمار الموشى بالفضة ، والقيثارة ، وكتلة السكان الأجش الوقورة الهزلية . وفى الشارع عند مدخل الممر وقفت سيارة فى الظلال . وعزف الموسيقيون مرة ، ثم نادى صوت من السيارة ، فتراجعوا عبر المرج ، ومضت السيارة دون أن تضىء أنوارها كانت واثقة ، إذن . مامن شخص غيره يعزف لحنا واحدا تحت نافذة سيدة بما يكفى فقط لإيقاظها من نومها ثم يمضى .

عادت إلى غرفة نومها ، كان الكتاب على الفراش منكفئا على وجهه ، ولكنها ذهبت إلى النافذة ووقفت بين الستائر المفارقة ، تتطلع إلى العالم الأسود والفضى والليل الهادىء وخطر النسيم على وجهها وبين أجنحة شعرها السوداء المنسابة وكان رطبا وئيدا . وهمست « الوحش » ، وتخلت عن الستائر فانغلقت ونزلت الدرج على قدميها الصامتين مرة أخرى ، ووجدت التليفون فى الظلام ، وأدارت القرص وهو يردد جرسا مكتوما .

انطلق صوت مس جينى فى الظلام كعادته سريعا وحادا وباردا ، وبلا دهشة ولا شغف . لا ، لم يعد إلى البيت بعد . لأنه ـ على ماتعتقد ـ محبوس فى أمان فى السجن . إلا إذا كان الانحلال قد بلغ بضباط المدينة الحد الذى لا يستجيبون معه لطلب سيدة . يعزفون ؟ هراء . ماذا يريد بتجوله بفرقة عازفين ؟ لن يستطيع أن يجرح نفسه وهو يمضى مع فرقة عازفة إلا إذا قتـــله شخص ما بمكواه حديدية أو منبه . ولم هى قلقة عليه ؟ .

وأنهت نارسيسا الحديث واقفة مكانها فى الظلام ، وهى تضرب بقبضتها صندوق التليفون الخامد . الوحش ، الوحش .

تلقت فى تلك الليلة ثلاث زيارات ، كانت إحداها رسمية ، والثانية غير رسمية ، أما الثالثة فمن مجهول .

كان الجاراج الذى يلجىء سيارتها مبنى صغيرا من الآجر محاطا بنباتات دائمة الخضرة وكان أحد جوانبه استمرارا لجدار الحديقة ، ومن وراء الجدار كان مرج أخضر يدخل من الخلف إلى شارع آخر . وكان الجاراج على بعد خمس عشرة ياردة من البيت ، وكان سقفه يرتفع حتى نوافذ الطابق الأول ، وكانت نوافذ غرفة نوم نارسيسا تطل على سقفه المغطى بألواح الأردواز .

جاء الضيف الثالث عبر المرج وتسلق الجدار ومنه إلى سقف الجاراج ، حيث استلقى فى ظل الأرز ، فاحتمى بذلك من ضوء القمر . وقد ظل هادئاً هناك مدة طويلة ، وكانت الغرفة المقابلة له مظلمة عند وصوله ، ولكنه استلقى فى مخبأه ، كحيوان وبصبر حيوان ، وبلا حركة عدا رفع رأسه بين الحين والحين لاستكشاف المشهد المباشر وبسهام سريعة خفية منقذفة من عينيه .

ولكن الغرفة المواجهة له ظلت ظلماء ومرت ساعة . وبعد هذا دخلت سيارة الممر (عرفها ، كان يعرف كل سيارة فى البلدة) ودخل رجل البيت ، ومرت الساعة الثانية ، وما زالت الغرفة مظلمة ، وما زالت السيارة فى مكانها . ثم خرج الرجل ومضى بسيارته ، وبعد برهة انطفأ نور الطابق الأول ، ثم أضاءت النافذة المواجهة له ، ومن خلال الستائر الشفافة رآها تتجول فى غرفتها ، وراقب حركاتها المظللة وهى تخلع ملابسها ، ثم مضت واختفت من مجال رؤيته . ولكن المصباح ظل مضيئا وظل هو مستلقياً فى سكون بصبر لا ينفد استلقى هناك بينما مرت ساعة أخرى وتوقفت سيارة أخرى أمام البيت ، وجاء ثلاثة من الرجال يحملون أشياء

غريبة الشكل عبر الممر ، ووقفوا تحت النافذة فى ضوء القمر ، واستلقى أيضاً حتى عزفوا مرة ومضوا . وعندما مضوا جاءت إلى النافذة وأزاحت الستائر ووقفت برهة فى عتمة أجنحة شعرها المنسالة ، وكانت تنظر مباشرة إلى عينيه المختفيتين .

ثم هبطت الستائر مرة أخرى ، ومرة أخرى أصبحت ظلا متحركا من ورائها ، ثم انطفأ النور واستلقى هو منكفأ على وجهه فوق السقف ذى الانحدار الشديد ، فى سكون مطلق لمدة طويلة وهو يقذف من تحت وجهه المخبأ ومن عينيه نظرات خفية سريعة شاملة لا تتوقف ، وكأنها نظرات حيوان .

جاءوا — آخر الأمر — إلى بيت نارسيسا . لقد زاروا كل الفتيات غير المتزوجات فى بيوتهن المعتمة ، واحدة بعد الأخرى ، وفى كل مرة كانوا يظلون جالسين فى السيارة بينما يقف الزنوج فى المرج بآلاتهم الموسيقية المنسقة . وظهرت رءوس فى نوافذ مظلمة ، وأحياناً كان يضاء نور ، ومرة وجهت إليهم الدعوة للدخول ، ولكن هب وميتش رفضا باستحياء ، ومرة أرسلت إليهم المرطبات ، ومرة وجه إليهم السباب بحمية ، من شاب كان جالساً مع سيدته الشابة فى شرفة معتمة وفى أثناء هذا فقد غطاء المبرد ، وبينما كانوا يمضون من بيت إلى بيت ، شرب ستتهم دورة بعد أخرى من الدن بروح الأخوة وأخيراً وصلوا إلى بيت بينبو وعزفوا مرة تحت أشجار الأرز . كان ثمة ضوء فى نافذة واحدة ، ولكن لم يخرج إليهم أحد .

نزل القمر إلى الأفق . وكان نوره على الأشياء فضة باردة ، مبددة وشاحبة قليلا . وكان العالم فراغا وهم يمضون بسيارتهم المظلمة فى شارع خلا من الحياة وتجمد فى السواد والفضة كأى شارع فى القمر ذاته . ثم مضوا تحت ظلال منمنمة متقطعة وعبروا تقاطعات ساكنة ثم غاضت من ورائهم ، ومروا بين الحين والحين بسيارة واقفة بجوار طوار أمام

بيت ، وعبر كلب الشارع جارياً أمامهم ومضى عبر مرج ثم اختفى عن الأنظار وعدا هذا ، فلم يكن ثمة حركة فى أى مكان .

انفتح الميدان عريضاً على كتلة أشجار الدردار المغلفة بالأبسنت التى تحيط ببيت القضاء . ومن بينها ، كانت المصابيح الكروية على أبعادها المتساوية أشبه ما تكون الآن بعناقيد من العنب هائلة شاحبة . وفوق القبة المكشوفة لكل مصرف أضاء مصباح وحيد ، وآخر داخل بهو الفندق الذى اصطف أمامه عدد من السيارات ، وفيما عدا هذه فلم يكن ثمة أنوار .

وداروا حول بيت القضاء ، وتحرك ظل بالقرب من باب الفندق ، وفصل نفسه عن ظله وجاء إلى الطوار ، قميص أبيض يلمع داخل سترة مفتوحة ، وعندما تحركت السيارة ببطء نحو شارع آخر رفع الرجل يده بالتحية . وتوقف بايارد وجاء الرجل عبر الغبـــار الشاحب ووضع يده على الباب .

قال ميتش « ماذا بك ، تأخر بك الوقت كثيراً أليس كذلك ؟ »

كان الرجل وجه رزين دمث كوجه حصان . وكان يضع نجمة معدنية على صداره المفتوح وقد ارتفعت سترته قليلا فوق عجزه ، سأل « ماذا تفعلون يا أولاد ؟ كنتم فى حفل رقص ؟ »

قال بايارد « كنا نعزف للعذارى ، هل تريد شراباً يا بك ؟ »

« لا . عاجز عن شكرك » . وقف ويده على الباب ، وكان جادا بشكل رزين ودمث ، قال « ألم يتأخر بكم الوقت إلى حد ما يا أولاد ؟ »

قال ميتش « حقا إن الوقت متأخر » ورفع المأمور قدمه إلى السيارة ، وكانت عيناه فى الظلال تحت قبعته وقال ميتش ، « سنعود إلى بيوتنا الآن » وتلكأ الآخر قليلا وأضاف بايارد .

« بالتأكيد ، أننا فى طريقنا إلى بيوتنا الآن »

وأدار المأمور رأسه قليلا وخاطب الزنوج « أظنكم يا أولاد على استعداد النوم الآن ؟ »

أجاب الزنوج « نعم يا سيدى » وخرجوا من السيارة وأخذوا الكمان وأعطى بابارد ريتو ورقة بمالية ، وشكروه وحيوه تحية المساء ، وأخذوا الكمان ومضوا بهدوء فى شارع جانبى . ثم أدار المأمور رأسه مرة أخرى ، وسأل ميتش . « أليست سيارتك هذه التى تنتظر أمام مقهى روجرز ؟ »

« أظنها كذلك . ذلك هو المكان الذى تركتها فيه »

« حسناً ، أقترح عليك أن تأخذ هب إلى بيته ، إلا إذا كان ينوى البقاء الليلة فى البلدة . بابارد الأفضل أن تأتى معى »

صاح ميتش محتجاً « آه . يا لجهنم ، بك ؟ »

وسأله بابارد « لماذا ؟ »

أجاب الآخر . « أهله قلقون عليه . لم يروا جلدا منه أو شعرا منذ أن رماه ذلك الحصان أرضا . أين ضمادتك يابابارد ؟ »

قال باقتضاب « نزعتها . اسمع يا بك ، سنوصل ميتش ثم أذهب بعد ذلك أنا وهب إلى البيت »

قال المأمور بهدوء « إنك فى طريقك إلى البيت منذ الساعة الرابعة ويبدو أنك لا تقترب منه أبدا . أحسب من الأفضل أن تأتى معى ، كما قالت عمتك . »

« هل طلبت منك العمة جينى أن تقبض على ؟ »

« كانوا قلقين عليك يا ولدى اتصلت بى مس جينى ، وطلبت منى بشكل ما أن

أعنى بك حتى الصباح. ومن الخير لنا أن نفعل . كان ينبغى عليك أن تعود إلى البيت الليلة . »

قال ميتش محتجاً « لطفاً بنا يا بك »

أجاب الآخر بصبر « الأفضل لى أن أثير جنون بايارد عن أن أثير جنون مس جينى ، أنتم يا أولاد أمضوا والأفضل لبايارد أن يأتى معى »

خرج ميتش وهب من السيارة وأخذ هب الدن وألقى تحية المساء وذهب إلى حيث كانت سيارة ميتش تنتظر أمام المطعم . وجلس المأمور بجوار بايارد . لم يكن السجن بعيداً ، وسرعان ما تجاسمت ظلاله فوق ساحته المسورة « مبنى مربع لا تتطرق إليه الرحمة بنوافذه المرتفعة ذات القضبان قاسية ووحشية كطعنات السيوف ، واستدارا إلى ممر ضيق ونزل المأمور وفتح بوابة ومضى بايارد بسيارته إلى ساحة قذرة عارية من الحشائش وتوقف بينما تقدمه الآخر ومضى إلى جاراج صغير كانت تنتظر فيه سيارة من طراز فورد ، وأخرجها بمؤخرتها وأشار إلى بايارد بالدخول : كان بناء الجاراج قد أعد بأبعاد تتفق مع الفورد ، ولذا فإن مؤخرة سيارة بايارد بقى ناتئا من الباب .

قال المأمور « خير من لاشىء ، مع ذلك . هيا » دخلا خلال المطبخ إلى مسكن السجان وانتظر بايارد فى ممر مظلم حتى وجد الآخر ضوءا له . ثم دخل غرفة كئيبة منسقة تحتوى على عدد من قطع الأثاث البسيطة وبضعة متناثرة مما يستخدمه الرجال من ثياب .

قال بايارد محتجا « لن تنزلى عن فراشك ؟ »

أجاب الآخر « لن أحتاج إليه قبل صباح الغد وستكون قد خرجت حينئذ . أتريد منى أن أعاونك على خلع ملابسك ؟ »

قال الآخر « لا شكرا لك » ثم برقة أكثر « سعدت مساء يا بك أشكرك كثيراً ، وأجابه الضابط « سعدت مساء »

وأغلق الباب وراءه ، وخلع بايارد سترته وحذاءه وربطة عنقه وأطفأ النور واستلق على الفراش . سال ضـــوء القمر إلى الغرفة بطريقة غير محسوسة ، متكسراً ومجهول المنبع ، وكان الليل خلوا من كل صوت ومن وراء النافذة تصاعد إفريز البناء فى خطوات قصيرة متتالية إلى سماء نصف شفافة وعديمة الأبعاد . كانت رأسه صافية وهادئة فقد مات أثر الويسكى الذى شربه ، أو الأرجح ، كان الأمر وكأن رأسه كانت بايارا استلق على فراش غريب ، وقد انتشرت أعصابه المخدرة بالكحول كخيوط من جليد خلال ذلك الجسم الذى يتحتم عليه أن يجره معه إلى الأبد متجولا به فى عالم كئيب قاحل . صاح « ياجهنم ؟ » وكان مستلقيا على ظهره يحدق عبر النافذة حيث لم يكن ثمة شيء يرى ، كان ينتظر النوم ، ولايدرى إن كان سيأتيه أم لا ، ولا يهمه على الإطلاق إن فعل أم لم يفعل . مامن شيء ليرى وحياة الإنسان الطبيعية الطويلة ، الطويلة .

ثلاثة عشرينات وعشر سنوات ينبغى له أن يجر فيها حول العالم جسما عاصيا ويحتال فيها على مطالبة المصرة . ثلاثة عشرينات وعشرة ، كما قالت التوراة . سبعون عاما ، ولم يكن إلا فى السادسة والعشرين ولم يزد كثيراً على ثلثها ، ياللجحيم .



الجزء الثالث



هوراس بينبو ، فى ردائه العسكرى النظيف الذى بدا تعسا عليه ، لم يعمل إلا على تعميق جـــو الضياع الرفيع الناعم الذى يحيط به ، وأحمال أمتعته فى زكائب الجيش المثيرة للعجب ، وحقائب ملابسه ، وحزمه المغلفة بالورق . نزل من قطار الثانية والنصف وعبر حشود الركاب النازلين والصاعدين ثم وصل إليه صوت اسمه إذ نودى عليه ، فجال بنظرته الشاردة بين الوجوه المتسكائلة . وكأنه رجل يمشى وهو نائم ويستيقظ فجأة ليتحاشى زحمة المرور . صاح ، هالو ، هالو ، ثم دفع نفسه من القطار ووضع حقائبه ولفافاته على حافة الطوار ومشى بسرعة حامية إلى مقدمة القطار حيث عربة الأمتعة .

« هوراس ! » نادته أخته مرة أخرى ، وهى تجرى وراءه ، وخرج وكيل المحطة من مكتبه وأوقفه وأمسك به ، وكأنه حصان رفيع التربية وقد جمح ، وصافحه ، وحينئذ تمكنت أخته من اللحاق به . استدار إلى صوتها وعاد فى الحال تماما من شروده ، وشملها بقسوة بذراعيه حتى ارتفعت قدماها عن الأرض ، وقبلها على شفتيها .

قال وهو يقبلها مرة أخرى « عزيزتى نارسى العجوز » ، ثم وضعها على قدميها ، وتحسس بيديه وجهها ، كما يفعل الطفل ، وقال مرة أخرى ، « عزيزتى نارسى العجوز » ، وهو يتلمس وجهها بأصابعه الدقيقة العريضة ، ويملأ عينيه بها وكأنه يرتوى بعينه منها ؛ من ذلك الصفاء الدائم الذى يحيطها . ومضى يقول ، « عزيزتى نارسى العجوز » ، وهو يتحسس بيديه وجهها ، وقد نسى تماما كل مايحيط به حتى ذكرته .

« إلى أى مكان فى العالم تذهب ، وأنت تمضى فى هذا الاتجاه ؟ » .

ثم تذكر ، وتركها فى بين يديه ، واندفع وهى تتبعه ، وتوقف عند باب عربة الأمتعة ، حيث كان حمال المحطة وأحد خدم القطار يتلقيان الحقائب والصناديق إذ يدلى بها إليها كاتب الأمتعة .

سألته « ألا تستطيع أن ترسل أحدا لاستلامها ؟ » ولكنه ظل واقفا يحملق داخل العربة وقد نسيها مرة أخرى ، وعاد الزنجيان وخطا جانبا ، ولكنه ظل ينظر داخل العربة محلقاً ، وحركة رأسه كحركة طائر يبحث عن شيء . قالت أخته مرة أخرى « فلترسل من يأخذها » .

قال لها وقد نسى تماماً معنى كلماتها « ماذا ؟ أوه لقد رأيتها فى كل مرة انتقلت فيها من عربة قطار إلى أخرى . لن يكون إلا حظا بائسا أن أدعها تضيع وهى أمام عتبة بيتى ، أليس كذلك ؟ » وتحرك الزنجيان مبتعدين بإحدى الحقائب وخطا إلى الأمام أيضا ، وحملق داخل العربة ، « هذا تقريباً ما حدث لها ، نسى كاتب البضائع أن يضعها فى القطار فى مدينة م - ثم قطع حديثه وقال « هـذه هى » وصاح فى حمى من القلق وهو يرى الكاتب يدفع بعنف إلى باب العربة صندوقا ذا شكل غريب ، وقد كتب عليه عنوان عسكرى ، صاح فى لهجة أهـل المنطقة ، « على مهل يا كابتن إنها تحوى زجاجا » .

قال كاتب الأمتعة ، « وهو كذلك ياكولونيل » أظننا لن نلحق بها أى ضرر . وإذا فعلنا فكل ما عليك هو أن تقاضينا » واتجه الزنجيان إلى الباب ووضع هوارس يده على الصندوق ، والكاتب يدفعه خارج العربة . قال بعصبية ، « على مهل يا أولاد » ومشى بجانبهم وهم يمضون عبر الطوار وقال « والآن أرسوه على الأرض ببطء . أختى ضعى يدك معنا أرجوك » .

قال حمال المحطة « نحن نمسك به جيداً . لن يفلت منا » وظل هوارس يربت عليه بيديه ، وعندما وضعوه على الأرض مال بأذنه إليه .

سأله حمال المحطة « سليم ، أليس كذلك ؟ » .

قال حمال القطار مطمئنا ، « إنه بخـــير » واستدار وقال « فلنمض ! » .

قال هوراس ، وأذنه تلامس الصندوق « أظنه لم يصب بضرر ، أنا لا أسمع ثمة شيئا . لقد أحسنت تعبئته تماماً » ، وصفرت القاطرة وانتصب هوراس فجأة ، وجرى وراء العربات المتحركة وهو يدفع يده فى جيبه. كان الكاتب يغلق باب العربة ، ولكنه انحنى نحو يد هوراس الممدودة ، ثم اعتدل ولبس قبعته . وعاد هوراس إلى صندوقه ، وأعطى قطعة نقود أخرى للزنجى الثانى وقال ، « والآن ، انقله بعناية إلى المخزن ، سأعود إليه فى بضع دقائق » .

« نعم سيدى ، مستر بينبو سأعنى به » .

أسر إلى أخته وهو يدس ذراعه حول ذراعها ، ويمضيان معا نحو سيارتها ، « ظننت مرة أنه فقد ، تخلف فى بريست ولم يصل إلا على السفينة التالية . كانت معى أول مجموعة اشتريتها ـ مجموعة صغيرة كانت معى ، وكدت فعلا أن أفقدها هى الأخرى أيضا . وذات يوم كنت أنفخ واحدة صغيرة فى مقصورتى فى السفينة عندما أمسكت النار بكل شىء وبالمقصورة نفسها . قرر القبطان أنه من الأفضل ألا أحاول أن أفعلها مرة أخرى حتى نصل إلى الشاطىء ماذا يستطيع أن يفعل وكل هؤلاء الناس على ظهرها . ومع ذلك ، فقد طلعت الزهرية جميلة جداً » ، ومضى يثرثر ، « شىء صغير حلو . وأنا اتقدم . أنا أتقدم فعلا . مدينة البندقية . حلم لذيذ ، شرير إلى حد ما . يجب أن آخذك إلى هناك يوماً ما » .

ثم ضغط على ذراعها ومضى يردد « عزيزتى نارسى العجوز » وكأن مذاق اسم التدليل الساذج على لسانه كان شيئا أحبه ولم ينسه ومازال غير قليل من الناس يتلكئون حول المحطة . وقد تحدث إليه بعضهم فتوقف لهم وصافحهم ولحظ نفر من جنود البحرية وعلى ذراعه رسم رأس هندية تدل على الفرقة الثانية ، لحظ المثلث على كم هوراس ، فأطلق من بين شفتيه المزمومتين صوتاً سوقياً غير لائق .

قال هوراس ، وقد أدار إليه نظرته الحية المروعـــة ؟ « كيف حالك يازميل ؟ »

قال البحار ... « مساء الخير ياجنرال » وبصق ، ليس بالضبط عند قدمى هوراس ، وليس بالضبط فى أى مكان آخر . وضمت نارسيسا ذراع أخيها إليها بشدة .

قالت بصوت منخفض وهى تدفعه برفق إلى السيارة ، « هيا ، تعال إلى البيت ، وارتد بعض الملابس المهذبة » .

قال ، « اخلع الرداء العسكرى ؟ أنا معجب بنفسى وأنا فى هذا الرداء » ثم قال كمن مست مشاعره ، « هل تعتقدين فعلا أننى مدعاة للسخرية فى هذه الملابس ؟ »

قالت على الفور ، وهى تضغط على ذراعيه ، « بالطبع لا . بالطبع لا . انا آسفة لأننى قلت هذا . ارتد ثوبك العسكرى إلى المدى الذى تريده » .

قال بوقار ، « إنه رداء جيد . وأنا لا أعنى هذه » وأشار إلى العلامة التى على ذراعه ومضيا معاً وقال « سيدرك الناس فى عشر سنوات تقريبا ، عندما تبلى هيستريا غير المحاربين نفسها ، ويدرك أفراد الجند أن القوات العسكرية الأمريكية لم تخترع زوال الأوهام » .

سألته وهى تحتضن ذراعه بذراعها ، وتحيطه بودادها الصافى العميق الفياض ، « وماذا اخترعت ؟ » .

قال مرة أخرى ، « الله يعلم . ياعزيزتى نارسى العجوز » وعبر الطوار إلى سيارتها وقال لها ، « وهكذا فقدت شهيتك للملابس العسكرية » .

قالت وهى تهز ذراعه قليلا وهى تتخلى عنه ، « بالطبع لا . أنت ارتدها طالما أردت هذا » وفتحت باب السيارة . ثم هتف بهما شخص ونظرا إلى الخلف ورأيا الحمال يجـــرى وراءهما بحقيبة يد هوراس ، التى مضى وتركها على الطوار .

صاح ، « أوه يا إلهى . أشغل بها أربعة آلاف ميل ثم أفقدها على عتبة بيتى شكراً ياسول » ووضع الحمال الأشياء فى السيارة وقال هوراس لأخته « هذه أول مجموعة حصلت عليها وآنية الزهور التى نفختها على ظهر السفينة ، سأريها لك عندما نصل إلى البيت » .

جلست أخته إلى عجلة القيادة وسألته ، « أين ملابسك ؟ فى الصندوق ؟ » « ليس لدى أية ملابس . كان على أن أرمى معظمها لأجد مكانا للأشياء الأخرى . لم يكن ثمة مكان لأى شىء آخر » وظلت نارسيسا تنظر إليه برهة وقد فاضت بها مشاعر الغيظ والحب معاً فسألها ببراءة ، « ما الأمر ؟ أنسيت شيئاً ؟ » .

« لا ، اركب . العمة سالى فى انتظارك لتراك »

ومضيا بالسيارة وصعدا التل قليل الانحدار المظلل متجهين نحو الميدان ، وتطلع هوراس بسعادة إلى المشاهد المألوفة . خطوط حديدية قصيرة تقف عليها عربات البضائع ، والطوار الذى سيمتلىء فى الخريف ببالات القطن المتراصة فى صفوف مستديرة ، محطة قوى البلدة ، بناء من الآجر تفيض منه همهمة رتيبة غير منقطعة ، ومن حوله فى الربيع تتمايل أشجار الجنة الملتوية برءوسها المتوجة بزهور بنفسجية مغبرة ، ومن ورائها ضفة سوبت من الطين الذى يشبه لونه لون صدأ الحديد ، الضارب إلى الأحمر الهندى . ثم شارع من مبان أقل ، أغلبها جديد . نفس المنازل المحكمة الصغيرة ، وحولها أقل حيز ممكن من المروج ، بيوت بناها أهل الريف ، أقرب ماتكون إلى الشارع حسب التقاليد الريفية ومن حين إلى حين ، بيت يقوم على أرض كانت فراغا عندما رحل منذ ستة عشر شهراً . ثم شوارع أخرى تفتح تحت أقواس من الخضرة ، وأكثر ظلالا ، ببيوت أقل حداثة وأكثر وقاراً مرا بها وهما يبتعدان عن المحطة والمارة وكانت غالبيتهم فى تلك الساعة عادة من الصبيان السود المتسكعين ، أو من الشيوخ المتجهين

إلى المدينة بعد رقادهم ساعة القيلولة لقضاء ساعة الأصيل مستغرقين باهتمام فى أمور لاقيمة لها .

واستوى التل ودخل إلى السهل الذى أقيمت عليه البلدة الأصلية منذ مائة عام وأكثر ، وأصبح الشارع نهائياً أكثر تمدينا بما فيه من جراجات ومتاجر صغيرة بتجار فى قمصان ، وعملاء ، ودار السينما وبهوها وقد تناثرت فيه أشكال الحياة مروية فى صور ملونة مطبوعة . ثم الميدان بصفه المتصل غير المتقطع من مبانى الآجر المنخفضة التى لوحتها التغيرات الجويه وأسماء ميته باهتة ، وإن كانت صامدة بعناد تحت الطلاء المتشقق ، وسود متسكعين فى ملابس قصيرة الأجل جاهزة مستهترة يرتديها الجنسان ، وأناس من الأرياف فى أردية عسكرية بين الحين والحين وسكان المدينة الأكثر حمية يترددون فى بطء منتظم هادىء كحركة الفكين عابرين رجالا قعوداً على مقاعد ملقاة إلى الخلف أمام المتاجر .

كان بيت القضاء من الآجر أيضا ، بعقود حجرية صاعدة بين الدردار ، وبين الأشجار قام النصب التذكارى لجنود حلف الاتحاد ببندقيته فى وضع الاستعداد وقد ظلل عينيه المنحوتتين بيده الحجرية . وبين أروقة بيت القضاء وعلى مقاعد متناثرة على الخضرة ، كان آباء المدينة يجلسون ويتحدثون وينفون ، فى أردية عسكرية أيضا ، هنا وهناك . أما جاك العجوز وبورجار وجو جولستون الذين شابت نواصيهم ، فقد جلسوا فى اطمئنان ووقار المعاشات الصغيرة التى يتقاضونها ، يدخنون وينصتون من حول لوحة الداما . وعندما كان الجو يسوء كانوا ينتقلون إلى مكتب كاتب الدائرة القضائية .

وهنا كان يتسكع الشباب أيضاً ، يتراهنون بالدولارات ، أو يتقاذفون كرة اليد جيئة وذهاباً ، أو يستلقون على الحشائش حتى قدوم الفتيات فى ساعة متأخرة من الأصيل فى أثوابهن الملونة الصغيرة ، وعطورهن

الرخيصة المثيرة للشجون إلى الصيدليات وعندما كان يسوء الجو ، كان هؤلاء الشبان يتسكعون فى الصيدليات أو فى دكان الحلاق .

قال هوراس « كثير من الملابس العسكرية . الجميع سيكونون فى الوطن فى شهر يونية . هل عاد أبناء آل سارتورس ؟ » .

أجابت أخته ، « جون مات ، ألم تعرف هذا ؟ » .

قال بسرعة وقد بدا عليه الاهتمام السريع « لا . مسكين بايارد العجوز أى حظ تعيس حظهم هـــذا . إنها عائلة غريبة . دائماً يذهبون إلى الحروب . ودئماً يقتلون » . وماتت زوجة بايارد الصغير ، كتبت إلى عن هذا » .

« نعم . ولكنه هنا وعنده سيارة سباق ، ويقضى كل وقته وهو يتجول فى الريف بسرعة جنونية . نحن نتوقع كل يوم أن نسمع أنه قتل نفسه فيها » .

قال هوراس ، « الشيطان المسكين » ومرة أخرى « مسكين الكولونيل العجوز كان يكره السيارة وكأنها ثعبان . ماذا يكون رأيه عنها ياترى ؟ »

« إنه يصحبه »

« ماذا ؟ بايارد العجوز فى سيارة ؟ »

« نعم . تقول مس جينى إنه يفعل ذلك ليمنع بايارد من قلبها ، ولكنها تقول أيضاً إن كولونيل سارتورس لا يعرف ، أن بايارد سيحطم عنقيهما معاً وقريباً جداً ، قبل أن ينتهى من السيارة » عبر الميدان ، بين عربات مقيدة ، وسيارات منتظرة ومتناثرة دون نظام . قالت بعنف مفاجىء « أنا أكره بايارد سارتوس . أنا أكره كل الرجال » ونظر إليها هوراس بسرعة .

« حقيقة الأمر ؟ ماذا فعل بايارد بك ؟ إن هذا سؤال بال . أقصد ، ماذا فعلت ببايارد ؟ » ولكنها لم تجب . استدارت إلى شارع آخر تحده من الجانبين متاجر زنوج من طابق واحد ومظللة بمظلات من الصفيح جلس تحتها الزنوج . وهم يقشرون الموز أو لفافات زاهية الألوان من البسكوت الحلو ، ثم طاحون حنطة تعمل بآلة تدار بالجازولين وتصدر عنها أصوات متشنجة . وكانت تفرز حثالة وغباراً دقيقا ، بدا فى ضوء الشمس كنقط صغيرة لامعة ، وفوق بابها لافته كتبت بخط يد سيء « طاحون و . س . بيردز » وفيما بينها وبين حلاجة مغلقه صامتة بأقواس من وبر القطن المتراكم القذر ، كان سندان يدق فى نهاية فسحة قصيرة امتلأت بالعربات والخيل والبغال ومظللة بأشجار التوت ، واستلقى تحتها بعض أهل الريف فى مآزرهم .

قال هوراس بضيق ، «كان ينبغى عليه أن يكون أكثر مراعاة لشعور الرجل العجوز ، ومع ذلك ، فقد صبروا ـ ولم يكدوا ـ تجربة هزت الأسس والمشاعر الإنسانية من أعماقها . وسواء كانوا يعرفون هذا أم لا ، فما زال لديهم آخر يسبقهم بكثير وسيقوم بإنهاء المسألة كلها . فقط امنحيه فسحة من الوقت .. ولكن ، أنا شخصيا لا أفهم لم لايسمح له بقتل نفسه ، إن كانت هذه هى رغبته ، على ما يعتقد ، ومع ذلك فأنا آسف من أجل مس جيني..

قالت أخته مؤيدة بهدوء ، « نعم ، وهم قلقون من أجل قلب كولونيل سارتورس أيضا أقصد كل شخص ماعداه وبايارد . هورى أنا سعيدة أن أجدك بدلا من واحد من هؤلاء السارتورس ووضعت يدها بخفة وبسرعة على ركبته النحيفة » .

قال ، « عزيزتى نارسى العجوز » ثم أظلم وجهه مرة أخرى وقال ، « الشقى اللعين ، حسنا ، إنها مشكلتهم ، كيف كانت حال العمة سالى » .

« على مايرام » ثم « هورى ، إنها سعيدة فعلا بعودتك إلى البيت »

وأصبحت المتاجر القذرة وراءهما ، وقد فتح الطريق بين مروج عتيقة مظللة وواسعة وهادئة ، كانت هذه البيوت عتيقة جداً فى الشكل على الأقل ، وكانت بعيدة تماما عن الشارع وأتربته ، وقد شع منها سلام رفيع ونبيل ثابت كساعة أصيل بلا نسيم ، فى عالم خلو من الحركة والصوت وتجول هوارس من حوله بعينيه وأخذ نفساً عميقاً :

قال : « ربما كان هذا هو السبب فى الحروب .. معنى السلام »

استدارا إلى شارع مقاطع ، أضيق من سابقه ، ولكن أكثر ظلا منه وهدوءا أيضا ، وكان وسنانا ذهبيا يفيض بجو إغريقى من البساطة والجمال ، ودخلا من بوابة فى سياج حديدى مغلف بالياسمين ، وصعدا الممر المرصوف بقطع الحجارة البركانية الرمادية فى منحنى وقور من أشجار الأرز . كانت أشجار الأرز قد زرعت بوساطة مهندس إنجليزى بنى البيت فى الأربعينات على الطراز التيودورى الجنائزى الذى رضيت عنه المليكة فيكتوريا الشابة (باستثناء متواضع هو الشرفة) وبين الأشجار وتحتها وحتى فى أشد الأيام صحوا ، كانت ثمة كآبة عميقة وأريج لزج ثقيل وقد أحبت البيغاوات هذا ، وطيور السمان ، والشكلة التى تغنى فيها ساعة الأصيل بعذوبة متحشمة . ولكن الحشائش تحت الأشجار كانت نادرة أو منعدمة تماما ولذا فلم تكن ثمة حشرات عدا الجداجد فى الغسق .

تصاعد الممر إلى البيت ثم استدار أمامه ثم امتد أيضا وانحدر إلى الشارع فى قوس كامل من أشجار الأرز . وداخل القوس وقفت شجرة بلوط وحيدة ، عريضة وهائلة وقليلة الارتفاع ، وقد طوق ساقها مقعد خشبى . وفى هذا المرج الذى يشبه قرا فى منتصف الطريق إلى الاكتمال وداخل إطار القوس كانت أحراش من شجر زهور العرائس ، والريحان الأسود عتيقة كالزمن ، وضخمة بقدر ماتستطيع السن أن تفعل ، كانت فى ضخامة الأشجار ، وفى أحد أركان السياج كانت مجموعة غريبة من

أشجار الموز التى أوقف نموها وفى الآخر كانت شجرة لانتانا بزهورها اللامعة وجراحها المتجلطة ، كان فرنسيس بينبو قد أحضرها من باربادوس فى صندوق من صناديق القبعات العالية سنة ٧١ .

ومن حول شجرة البلوط ، ومن قوس الممر ذى الشكل المنجلى الجنائزى ، انحدر المرج على مساحة واسعة وبانتظام إلى الشارع بتجمعات عشوائية من النسرين والنرجس والجلاديولا . كان المرج فيما مضى مدرجا وكان للزهور حوض مستقل فى المدرج الأول ، ثم كسح ويل بينبو والد نارسيسا وهوارس المدرجات . وقد تم هذا بوساطة المحاريث والقصابيات ، وزرعت فيه بذور الحشائش من جديد ، وقد تصور حينئذ أن أحواض الزهور قد أبيدت . ولكن جاء الربيع التالى ، فنبتت البصيلات المتناثرة ، والآن ، وفى كل عام فإن المرج يصبح منمنما بإخلاط من الزهور الصفراء والبيضاء والحمراء دون نظام وكان عدد قليل من الفتيات يستأذن كل عام ويسمح لهن باقتطاف البعض منها كل ربيع ، وكان أطفال الجيران يلعبون بهدوء بينها وتحت أشجار الأرز . وعند قمة الممر ، عند استدارته هابطا مرة أخرى كان بيت الدمية المبنى بالآجر حيث كان يقيم هوارس ونارسيسا ، ويحوطهما دائما الأريج الرطب النافذ نوعا والذى ينبعث من أشجار الأرز .

كان البيت محلى باللون الأبيض ، وكانت هياكل نوافذه مستوردة من انجلترا ، وقد تسلقته كرمة ويستريا ذات ساق سوداء أكثر غلظة من رسغ رجل وامتدت على إفريز الشرفة وحول الباب وفوقه ، وكانت النوافذ السفلى مفتوحة على ستائر تموج فى الهواء برقة وقد كنت تتوقع أن تجد فى حافة النوافذ إناء خشبياً لامعا ، أو قطة متشامخة نظيفة جدا ولكن النافذة لم تكن تحمل الاسلة شغل مصنوعة من الخيزران انسالت منها ، وكأنها أوراق نبات شبرم ذابلة أطراف من شغل ملون بالأبيض والقرمزى ، وفى الباب ، كانت العمة سالى ، وهى امرأة

صغيرة تافهة ترتدى قبعة من الدانتيلا تستند على عكازة من خشب الأبنوس ذات مقبض محلى بالذهب .

كل شيء كما ينبغى أن يكون . واستدار هوراس ونظر إلى أخته وهى تعبر الممر حاملة اللفافات التى غفل عنها مرة أخرى .

صخب وضج وعبث فى الماء فى حمامه ، وأخذ يصيح إلى أخته حيث كانت تجلس على فراشه وقد ألقى رداءه العسكرى المنبوذ على مقعد ، وكان الرداء يحتفظ ولا يزال فى ثناياه الفظة الذابلة ، وبفعل الارتباط الطويل بينهما ، ببعض من جو الضياع المنهك الرقيق الذى يحيط به ، وقد استقرت على صوان ملابسه المنخفض المغطى بالرخام البوتقة وأنابيب جهاز نفخ الزجاج ، أول جهاز اشتراه ، وبجوارها أول آنية للزهور نفخها فوق سطح السفينة ـ شكل صغير بسيط من الزجاج الشفاف ، لايصل فى الطول إلى أربع بوصات ، هش كزهرة زئبق فضية ، وغير تام .

كان يصيح عبر الباب « إنهم يعملون فى كهوف ، تصلين إليها تحت الأرض بدرجات ، وأنت تحسين بالماء وهو يتسرب تحت قدميك وأنت تتحسين الطريق إلى الدرجة التالية ، وعندما تمدين يدك إلى الجدار لتستندى إليه فإنها تكون مبتلة عندما تستردينها كأنها كانت تلمس دما .

« هوراس ؟ »

« نعم . رائع وأمامك وعلى بعد منك ترين الوهج . فجأة يشع النفق بالأضواء من لا شيء ، ثم ترين الفرن ، بأشياء تعلو وتهبط أمامها ، فتحجب النور ، ثم تشع الجدران مرة أخرى بالأضواء ، فى البدء إنها مجرد أشياء بلا شكل محدد تقع هنا وهناك . غريبة ، بظلال على الجدران الدموية ، ظلال حمراء . ثمة وهج ، وأشكال سوداء كعرائس من ورق تتمايل وتصعد وتهبط أمامها كفتحة فانوس سحرى . ثم يظهر وجه وهو ينفخ ، وأوجه أخرى وكأنها تتجسد من الظلام الأحمر كبالونات حمراء .

« والأشياء نفسها . جميـــلة بشكل رائع ومفجع . تعرفين أنها تشبه الزهور المحفوظة . بشعة ومقدسة ، مطهرة ومصفاة كالبرنز إلا أنها هشة كفقاعات من صابون . وهى عبارة عن ألحان المزامير وقد تبلورت أصوات الناى والمزمار وإن كان أغلبها يشبه ألحـان المزامير   المزامير المصنوعة من قصت الشوفان . عليها اللعنة ، إنها تتفتح أمام عينيك مباشرة كالزهور . حلم ليلة من ليالى الصيف يتجول فى عقل حيوان أسطورى نادى ، وأصبح صوته غير واضح ، وهو يتصاعد ويعلو فى عبارات موزونة ، لم تستطع أن تميز منها شيئا ، ولكنها أدركت من درجة صوته الحادة أنها عبارات الشاعر ميلتون التى يصف فيها سقوط الملائكة ودمارها .

وأخيرا خرج ، فى قميص أبيض وسراويل من الصوف الخشن ، إلا أنه كان ولا يزال محلقا على أجنحة عباراته المشتعلة ، وبينما مضى صوته يرتل فى فقرات موزونة ، أحضرت له من الصوان حذاء ، ثم حملته بين يديها ووقفت أمامه فتوقف عن الترتيل ولمس وجهها مرة أخرى بيديه كما يفعل الطفل .

فى أثناء العشاء قطعت العمة سالى عليه ثرثرته وسألته ، « هل أحضرت صاحبك سنوبس معك ؟ » هذا السنوبس كان شابا ، أحد أفراد أسرة لا ينضب لها على ما يبدو — معين ، كانت فى السنوات العشر الأخيرة تتقاطر على البلدة فى قطرات من قرية صغيرة تسمى « فرنشيا نزبند » ، وقد ظهر فليم ، أول أفراد أسرة سنوبس فجأة ذات يوم وراء حاجز مطعم صغير فى شارع جانبى ، يتردد عليه أهل الريف . وكما فعل ابراهيم قديما ، وبعد أن ثبت أقدامه سلك كما سلك سيدنا ابراهيم من قديم الزمان إذ أحضر إلى البـــلدة أبناء دمه وعشيرته ، أسرة وراء أسرة ، وفردا وراء فرد ، وثبتهم حيثما كانوا يستطيعون كسب المال . ثم أصبح فليم نفسه مديرا لمحطة الإنارة والمياه فى البلدة ، وفى السنوات التالية ثبتت فائدته للحكومة المحلية ، ومنذ ثلاث سنوات ، ورغم دهشة بايارد واستنكاره وضيقه الذى لم يحاول أن يخفيه ، أصبح نائبا لمدير بنك سارتورس ، حيث يعمل أحد أقاربه بالفعل كاتب حسابات .

وقـــد ظل محتفظا بالمطعم والخيمة المقـامة خلفه ، التى قضى فيها هو وزوجته وطفله الأشهر الأولى عقب حضورهم إلى البلدة ، وكانت بمثابة محطة وصول بالنسبة لكل آل سنوبس ، يخرجون منها إلى أماكن العمل من الدرجة الثالثة من مختلف النحل — متاجر البقالة ، دكاكين الحلاقين (وكان منهم واحد ، عاجز بشكل ما ، كان يشرف على مشواة بقول) ، وتكاثروا وازدهروا . أما السكان القدامى فقد راقبوا هذا من بيوتهم الجيفرسونية ومتاجرهم الراقية ومكانهم ووجدوا فيه مصدر تسلية فى البدء . ولكن منذ وقت طويل تحول شعورهم إزاءه إلى شىء يشبه الدهشة الشديدة أو الهلع .

أما السنوبس الذى أشارت إليه العمة سالى فقد كان اسمه مونتجومرى وورد ، وقبل أن يطبق قانون التجنيد سنة ١٧ تقدم إلى أحد مكاتب التجنيد متطوعا ، ولكنه رفض من الخدمة العسكرية بسبب قلبه . وبعد ذلك ، أثار دهشة الجميع ، وخاصة أصدقاء هوراس بينبو ، إذ ارتحل فى صحبته إلى وظيفة فى جمعية الشبان المسيحيين ، ثم روى بعد ذلك عنه ، أنه قطع الطريق كله إلى ممفيس عندما تقدم متطوعا دون أن يحمل شيئا إلا قطعة من طباق المضغ وضعها تحت إبطه الأيسر . ولكنه كان قد ارتحل هو وراعيه عندما عرفت هذه القصة .

سألت العمة سالى ، « هل أحضرت رجلك سنوبس معك » ؟

قال ، « لا » ، وأظلم وجهه المرهق وفاض به اشمئزاز رفيع بارد « خيب أملى فيه إلى حد كبير جدا . لا أرغب حتى فى الكلام عنه » .

« كان فى استطاعة أى شخص أن يقول لك هذا قبل أن ترحل » ومضت العمة سالى تمضغ طعامها ببطء وانتظام . وغرق هوراس فى تأملاته لحظة ، وقد تقلصت يده ببطء على شوكته . « إن أفرادا من أمثال هؤلاء ، الطفيليات هم » . ولكن أخته قاطعته قائلة ، « من الذى يتم على أى

حال بأحد أفراد أسرة سنوبس . ثم إن الوقت من الليل قـــد تأخر لنتكلم عن فظائع الحرب ، وأحدثت العمة سالى صوتا ناعما من خلال الطعام فى فمها ، صوتا ينم عن الترفع الأصيل قالت « المسئول عن ذلك هو الجنرالات الذين عندهم هذه الأيام . ما كان يقبل جنرال جونستون أو جنرال فوريست أى واحد من آل سنوبس على الإطلاق فى جيشه » . لم يكن بين العمة سالى وبينهم أية صلة قربى . كانت تقيم فى البيت المجاور ، لا يفصلها عنهم إلا بيت واحد ، مع شقيقتين عانستين ، إحداهن أصغر والأخرى أكبر . كانت تتردد على البيت داخلة خارجة منذ أن كان هوراس ونارسيسا أطفالا يستطيعون التذكر . وقد ادعت لنفسها حقوقا فى حياتهما قبل أن يستطيعا المشى ، وامتيازات لم تحـــدد أبدا . ولم تحاول أن تنتفع بها مطلقا إلا أنها لم تسمح مطلقا أن يغمط الاعتراف المتبادل بوجود هذه الحقوق والامتيازات . كانت تدخل إلى أى حجرة فى البيت دون استئذان . وكانت تحب أن تتكلم بإسهاب ودون مجاملة عن أمراض طفولة نارسيسا وهوراس . وقد قيل إنها غازلت يوما ويل بينو ، رغم أنها كانت حينئذ امرأة فى الرابعة أو الخامسة والثلاثين عندما تزوج ويل . وقد ظلت مع ذلك تتكلم عنه باستخفاف من يتحدث عن شخص يملكه . ولكنها كانت تتكلم دائما بالخير عن زوجة ، كانت تقول ، « جوليا كانت فتاة طيبة حلوة الطباع » .

ولذا ، فعندما ذهب هوراس للحرب ، انتقلت العمة سالى إلى البيت لتؤنس نارسيسا ، ولم يتصور أحد من الثلاثة أى وضع للأمور غير هذا ، فكون نارسيسا يجب أن تحتفظ بالعمة سالى فى البيت لمدة عام أو عامين أو ثلاثة بدا أمراً لا مناص منه مثله فى ذلك مثل ذهاب هوراس إلى الحرب . كانت العمة سالى امرأة عجوزا طيبة . ولكنها كانت تعيش كثيرا فى الماضى، مخلفة عقلها بحزم نهائى واضح عن كل شىء حدث بعد سنة ١٩٠١ ، وبالنسبة لها . كان الزمن يمضى ببطء إذ تجره الخيل ، أما صراخ فرامل السيارات فلم يستطع أن ينفذ إلى فراغها العنود القنوع . وكان لها حشد

من غلظة المتقدمين فى السن التى هى من حقهم . وكانت تحب صوت حديثها ولم تحب أبداً أن تكون وحدها فى أية لحظة . وكانت تأكل طعاما غير مغرى سهل المضغ وبطريقة غير لطيفة ، ذلك أنها لم تستطع أبدا أن تألف الأسنان الصناعية التى اشترتها منذ اثنتى عشرة سنة ، ولم تكن تقربها قط إلا مرة كل أسبوع لتغيير الماء الذى تستلقى فيه .

مدت نارسيسا يدها تحت المائدة ولمست ركبة أخيها وقالت مرة أخرى، « هورى ، أنا مسرورة فعلا بعودتك إلى البيت » .

نظر إليها بسرعة ، وغاض الوجوم الذى ارتسم على وجهه فجأة وبنفس الطريقة التى حل بها وانزلقت روحه ، كسابح فى الماء ، إلى بحر هادىء بلا مد ، إلى ودها الغزير ذى الصفاء الدائم .

كان محاميا ، لمجرد رغبته فى القيام بالواجب إزاء تقاليد الأسرة ، ورغم أنه لم يكن يحس بميل خاص إلى المهنة ، خلا حب الكلمة المطبوعة ولأماكن إقامة الكتب ، فقد فكر بانفعال فى العودة إلى مكتبه بجوه الثقيل ولم يكن انفعال الحماسة أو الشوق . لا : كان شعوراً عميقا بعدم الغضاضة يكاد أن يكون سروراً . معنى السلام . الأيام السالفة التى لاتتغير ، ربما لا تكون مجنحة ، إلا أنها ليست مفجعة أيضا . إنك لا ترى معنى السلام ، ولا تحس بوجوده إلا من بعيد . ولم تأت الجداجد بعد ، وقد انسابت أشجار الشربين متصلة على جانبى الشارع ، كموجة أبنوسية منحنية بقنن صارمة مشرعة فى السماء ، وتساقط الضوء خارجا من النافذة ، عبر مدخل البيت على حوض من شجيرات الغاب ، صلبة كأنها من البرنز ، ليس فيها ثمة شىء من هشاشة الزهور ، ومن داخل الغرفة انطلق صوت العمة سالى الرتيب المرتعش وكانت نارسيسا هناك أيضا ، مع كتاب ، وقد ملأت الغرفة بوجودها الدائم المستقر ، كعطر الياسمين ، وكانت ترقب الباب الذى مر منه ، وقد وقف هوراس فى الشرفه بغليونه الخامد ، محاطا بجو شجر الأرز البارد الضاغط وكأنه وجود آخر . « معنى السلام » قال بصوت هامس مرة أخرى ، « معنى

السلام وأخرج الكلمات العميقة من فيه واحدة إثر أخرى وببطء ، وأفرغها فى ناقوس الصمت البارد الذى عاد إليه مرة أخرى آخر الأمر ، واستمع إلى الكلمات وهى تمضى متكاسلة وتغيض لتفنى ، فى صفاء كصفاء فضة خالصة وبلور إذ يصطدمان بلطف معا .

سأل عشية وصوله ، « كيف حال بيل ؟ »

وأجابته أخته « إنهم بخير . عندهم سيارة جديدة » .

قال هوراس وصوته يخلو من الانفعال « نعم . لاشك أن الحرب كان بمقدورها أن تؤتى هذه الثمرة على الأقل » .

وقد تركتهما العمة سالى أخيراً ، وأخذت تنقر بعصاها الطريق ببطء إلى غرفة نومها . ومدد هوراس ساقيه المكسوتين بالصوف أمامه ، وقد فاض به شعور النعيم ، وتوقف لحظة عن إشعال عيدان الثقاب لغليونه العنود ، وجلس فى سكون يرقب رأس أخته وقد انحنت على المجلة الموضوعة على ركبتيها ، وتخلت عن الأشياء الأقل أهمية وغير الدائمة . كان شعرها أشد نعومة من أية أجنحة مسترخية ، وقد انسال ملتمعا فى استسلام إلى عقدة بسيطة أسفل عنقها .

قال « بيل مراسلة سيئة ككل النساء » .

وقلبت صفحة دون أن ترفع رأسها .

« هل كنت تكتب إليها كثيراً ؟ »

« إنهن يدركن أن الخطابات لا تصلح إلا لتصل ما بين فترات الاستراحة بين الأحداث كالفواصل فى مسرحيات شكسبير » مضى يقول وقد نسيها ، « هل عرفت فى حياتك امرأة تقرأ شكسبير دون أن تتخطى الفواصل ؟ شكسبير نفسه كان يعرف هذا ، ولذا لم يضع قط امرأة فى الفواصل .

فليتصارع الرجال بألفاظ طنانة ، بينما السيدات فى مؤخرة المسرح يغسلن أطباق الطعام أو يضعن الأطفال فى الفراش » .

قالت نارسيسا مصممة ، « أنا لم أعرف قط امرأة تقرأ شكسبير إنه كثير الكلام جداً » .

وقف هوراس وربت على شعرها الأسود .

قال ، « أوه . أيتها الأعماق البعيدة . لقد اختزلت كل الحكمة فى جملة ، ووضعت جنسك فى مستوى الأفلاك » .

قالت ، مرة أخرى وهى ترفع رأسها ، إنهن لا يفعلن » .

سألها ، « لا ؟ ولم لا يفعلن ؟ » ، ثم أشعل إلى غليونه ثقابا آخر ، ومضى يرقبها عبر كفيه المحيطتين بالثقاب ، بجد وباهتمام ثابت ، وكأنه طائر منقض « وأصحابك مثل أرلن وسابانيني يتكلمون كثيراً ، ولم يكن لدى أحد المزيد ليقوله ، ولا تكلف الجهد ليقوله أكثر من درايزر العجوز » .

قالت ، « ولكن لديهم أسرارهم . أما شكسبير فليس لديه ثمة أسرار . إنه يقول كل شىء » .

قال ، « نعم لم يكن شكسبير حصيفا ، ولم يكن يستطيع أن يكتم الأسرار . وبمعنى آخر ، لم يكن سيدا مهذبا » .

« نعم ... هذا ما أعنيه »

« وهكذا ، ولكى تكون سيدا مهذبا ينبغى أن تكون لك ثمة أسرار » .

قالت وهى تعود إلى مجلتها ، أوه ، أنت تتعبنى » وجلس بجوارها على الأريكة وأخذ يدها فى يده ، ولامس بها خده وشعره المضطرب .

قال « إن قراءة شكسبير أشبه بالتنزه فى حديقة ساعة الغسق . الزهور التى يعرفها المرء كلها هناك فى مراقدها ، وقد مشطت شعرها استعدادا للنوم ، ولكن المرء يعرفها جميعها . ولذا فهو لا يضايقها إنه يمضى ثم يتوقف من الحين للحين لقلب ورقة ، لم يلحظها من قبل ، وربما يجد تحتها زهرة من زهور البنفسج أو الجرس الأزرق أو حشرة مضيئة . ربما يجد ورقة أخرى ، أو نصل عشبة . ولكنه سيجد عليها دائما قطرة ندى » ومضى بكفها يتحسس به وجهه وقلبت المجلة بيدها الأخرى ببطء ، وقد أنصتت إليه باستغراق وود هادىء » .

قالت مرة أخرى ، « هل كنت تكتب إلى بيل كثيراً ؟ وماذا كنت تقول لها ؟ » .

« كتبت ما كانت تريد أن تقرأه . ما تريده النساء جميعاً فى الخطابات الناس جديرون فعلا بنصف ما يعتقدون أنهم يجب أن يمتلكوه » .

قالت بإصرار ، « وماذا كنت تقول لها ؟ » ، ومضت تقلب ببطء صحائف المجلة ، ويدها الأخرى المستسلمة فى يده تتبع حركتها فوق خده .

قال « قلت لها إننى لم أكن سعيداً . وربما كنت كذلك حقا » ، واستخلصت أخته يدها برقه ووضعتها على الصفحة . قال .

« أنا معجب ببيل . إنها غبية بشكل لطيف . مرة أحسست بالخوف منها . ربما ... لا . أنا لا أخشاها . بى مناعة ضد الدمار . أنا أحمل تعويذة سحرية وهذه علامة صادقة على أن الوقت قد أزف لحلول هذا الدمار ، كما يقول الشيوخ الحكماء » ، ثم قال « وإن كانت الحكمة المكتسبة شيئا جافا يتبدد هباء منثوراً ، فى اللحظة التى يسود فيها الغباء الخارق ويمضى فى طريقه الأعمى لا يحول دونه شىء » ، وجلس فى التو دون أن يلمسها ، فى استرخاء مستغرق ، ثم قال ، وقد تيقظ « أوه أيها الصفاء الوديع » ، ثم

بدأ يردد ، « عزيزتي ، نارس العجوز » . ومرة أخرى أمسك بيدها . فلم تنسحب لا ولم تستسلم تماما .

قالت ، « هوري ، أظنك لست فى حاجة لأن تردد كثيراً أننى غبية » .

قال مؤيداً ، « نعم . ولكن يجب على أن أوقع بالكمال نوعا ما من الانتقام » .

وبعد ذلك استلقت فى غرفتها المعتمة ، وعبر الممر كانت العمة سالى تغط فى نومها وشخيرها هادىء منتظم وقد استلقى هوراس أيضا فى الغرفة المجاورة ، بينما ارتحل ضياعه الوحشى الضارب فى الخيال من حوله وذهب يجوب أماكنه العزلاء الوحيدة ، فيما وراء القمر ، بين مراع ثبتت بمسامير من نجوم إلى سقف كل الأشياء الأعلى ، حيث يعلأ وقع أقدام حيوانات وحيد القرن الهواء المحمل بحمحماتها أو تشغل هناك بأكل الكلأ ، أو تستلقى على ظهورها فى استراحة ذهبية الحافر .

كان هوراس فى السابعة عندما ولدت ، وفى خلفية طفولتها الواعية كانت أشياء ثلاثة ، صبى بوجه وحشى نحيف ، وشهوة لا تهجع للمآسى ، وشخص أسمر جرىء ، يحمل دائما رومانسية الأطعمة المهربة ، بيدين قويتين صلبتين ، كانتا تفوحان دائما برائحة صابون ، كاربولى مثير - مخلوق يشبه الله ، ولكن دون رهبة تصحبه ، وأخيراً ، مخلوق لطيف دون ساقين أو أية إشارة إلى أية حركة من أى نوع ، كأنه محراب صغير لإله ما ، محاط دائما بهالة من الحزن الرقيق وشباك لاتنتهى من خيوط حريرية ملونة . كان هذا الشىء الأخير وجوداً دائما برقة وتواضع حزين ، وكان الثانى يدور فى فلك كان يحمله فى مراحل منتظمة إلى الفضاء الخارجى ، ليعيده مرة أخرى بحيويته القوية المرحة إلى عالمها المحتدم أما الأول فقد جعلته ملكها بإصرار واع أموى ، ولذا ، فعندما بلغت الخامسة

أو السادسة فإن الناس اعتادوا أن يخوفوا هوراس بتهديده بإبلاغ نارسيسا عنه .

ماتت جوليا بينبو فى سلام عندما كانت نارسيسا فى السابعة . لقد استخلصت من حياتهم ، كما تستخلص قارورة صغيرة من عطر اللاوندا من صوان الملابس ، تاركة من ورائهــــا شيئا ما غامضاً ورقيقاً ومتلكئاً وخلال سنوات النمو المحتدمة فى السابعة والثامنة والتاسعة استبدت واعتادت أن تأمر الاثنين الآخرين ، ثم أصبح هوراس فى المدرسة فى سيوانى ، وبعد ذلك فى أكسفورد ، التى عاد منها فى الوقت المناسب ليرى ويل بينبو وهو يلحق بزوجته بين أشجار الأرز مدببة الرءوس ، والخاتم المنحوتة ، وغيرها من أشكال الرخام المحفوز الهادئة ، وبعد ذلك افترق هوراس عنها مرة أخرى بتوافق سيء غبي لأقدار الناس .

ولكنه كان قد استلقى الآن فى الغرفة المجاورة ، يجوب كالرحالة عوالم متلألئة آمنة فيما وراء القمر ، وقد استلقت هى أيضا فى فراشها المعتم ، مستقرة فى سلام ، سلام أقوى من أن يدعها تنام .

— ٢ —

عاد بسرعة وسهولة إلى إطار الأيام الرتيب ما بين بيته ومكتبه ، إلى الألفة البسيطة العميقة بينه وبين كتب مغلفة بجلود العجول ، لم تنتهك حرماتها قط ، وربما لاتزال توجد على أغلفتها المغبرة بصمات أصابع ويل بينبو الميتة وإلى لعب التنس فترة قصيرة كل أصيل على ملعب هارى ميتشيل الأنيق ، ولعب الورق فى المساء ، أيضا مع بيل وهارى عادة ، أو إلى سحر الكلمة المطبوعة الميسور دائما وغير العاجز أبداً (وهذا ما كان يؤثره) . بينما تجلس أخته عبر المنضدة أمامه ، أو تعزف برقة لنفسها فى الغرفة المعتمة عبر البهو . وكان يأتى لزيارتها بين الحين والحين ، رجال ، كان يستقبلهم هوراس بأدب لاينضب وإن كان

يشوبه شيء من الضيق ، ثم يتركهم سريعا ليتسكع فى الشوارع أو ليقرأ فى فراشه . كان دكتور ألفورد يأتى لزيارتهم بجفافه المعتاد مرة أو مرتين كل أسبوع ، وكان هوراس ، وهو بشكل ما ، أحد هواة الجدل السفسطائى ، يتسلى بأن يقذف فروة الطبيب العلمية الرقيقة بأسهم من أسئلة مغلفة بالريش الدقيق عن مشكلات العقل وما وراء الطبيعة ، كان يقضى فى ذلك بعض ساعة ، وهنا يلحظ أن نارسيسا لم تنطق ببنت شفة لمدة ستين أو سبعين أو ثمانين دقيقة . وقال لها هوراس ، « هذا هو سبب حضورهم لزيارتك ، من أجل علاج عواطفهم بالاسترخاء فى حمام الطين » .

وقد عادت العمة سالى إلى بيتها . بسلتها وأشرطتها الملونة وأسنانها المستعارة ، وتركت وراها إحساسا ثابتا بقيامها بواجب أكيد وإن كان غامضا على حساب الذات ، ورائحة متهالكة لجسد أنثوى عجوز ، غاضت ببطء بعد رحيلها ، وإن تسكعت مع ذلك ، فى أماكن غير متوقعة ، الأمر الذى جعل نارسيسا تتصور فى لحظات يقظتها وهى مستلقية فى فراشها فى العتمة ، فى فيض شعور من اللذة الحسية بعودة هوراس إلى البيت ، تتصور ، أن فى استطاعتها أن تسمع غطيط العمة سالى المنتظم المتنوع فى السكون المعتم المحشود الذى يسيطر على البيت .

وكان يبلغ أحيانا من الوضوح الأمر الذى يجعلها تتوقف فجأة وتهتف إلى الغرفة الخالية باسم العمة سالى . كانت العمة سالى تجيب أحياناً ، ذلك أنها قد قررت أن تمارس حقها فى الحضور فى أية ساعة ، تأخذها فيها الرغبة فى الحضور ، دون استئذان أو إعلان لتطمئن عليهما ، ولتشكو بشدة من أهل بيتها . كانت عجوزا ، عجوزاً جداً بحيث إنه تعذر عليها أن تنفعل بسهولة بالتغيرات ، وقد أصبح من الصعب عليها أن تتلاءم من جديد مع أساليب شقيقتيها : وبعد غيبتها الطويلة فى دار كان يسلم فيها لها الجميع بكل شيء يتصل بشئون البيت . أما فى بيتها فقد صرفت شقيقتها الكبرى شئون البيت بأسلوب مقتدر مشاغب ، وهى وشقيقتها الصغرى أصرتا على المضى فى معاملة العمة سالى وكأنها مازالت فى طفولتها

منذ خمسة وستين سنة ، حيث يتحتم الإشراف على طعامها وملابسها وساعات يومها وليلها بشدة مشاكسة .

، قالت تشكو بغضب ، « لا أستطيع حتى أن أذهب إلى الحمام فى سلام . ولى نية قوية أن أحزم أمتعتى وأعود إلى هنا ، وأدعهما تمضيان فى حياتهما كأحسن ماتستطيعان » .

ومضت تتأرجح متبرمة بحالها فى المقعد الذى لم تناقش ملكيتها له ، باتفاق لم ينطق به أحد . وهى تتجول بعينيها الغاضبتين المحمرتين قالت ، تلك الفتاة السوداء لاتنظف الأشياء حتى نصف تنظيف ، منذ أن غادرت البيت . هذا الأثاث . والآن . . . قطعة قماش مبللة » .

قالت مس صوفيا شقيقة مس سالى الكبرى ، لنارسيسا ، « أتمنى أن تستعيديها إليك . لقد أصبحت ، منذ أقامتها عندك ، شديدة العناد حتى لم يعد من الممكن العيش معها . ماهذا الذى أسمعه عن هواية هوراس الجديدة . . . صنع الآوانى الزجاجية ؟ » .

وقد وصلت بواتقه وأنابيقه الرئيسية سالمة . وفى البدء ، أصر على استخدام القبو ، فأخرج منه آلة تقليم المرج وأدوات الحديقة ، وكل العدد المتراكمة ، وسد النوافذ بالبناء حتى يجعل من القبو سرداباً . ولكن نارسيسا استطاعت أخيراً أن تستدرجه إلى الطابق العلوى من الجراج ، حيث أقام موقده وأشعل النار فى المبنى مرة . ووقعت له أربع حوادث مؤسفة وأنتج زهرية واحدة تكاد أن تكون كاملة بلون الكهرمان الصافى ، وكانت أكبر من سابقتها وأكثر وقاراً وأبهة وصفاء ، وكان يضعها دائما على مائدة فراشه ، وأطلق عليها اسم شقيقته ، وكان يهتف بهما دون تفرقة فى لحظات انطلاقاته حـــول إدراك معنى السلام ، والفوز به صافيا . ويناجيهما بقول الشاعر : « أنت . ياعروس الهدوء التى لم تغتصب بعد »

خرج هوراس عارى الرأس فى سروال رياضى وسترة زرقاء وشبت

على جيبها شارة نادى أكسفورد ، ووضع مضربه تحت إبطه ، ومضى حول البيت ، وبدا الملعب للعيان بلاعبيه فى حركة مستمرة عنيفة . وقد جلست بيل تحت رواق من الأعمدة البيضاء البارزة جزئيا من الجدران والمغطاة عروق سقفه بأغصان العنب ، وبدت كالفراشة تحيط بها حاشية اللحظة الهشة المتناسقة . وقد جلست معها اثنتان ، كانتا واضحتين ومن ورائهما أوراق الريحان الأسود المعتمة ولم تكن زهوره قد تفتحت بعد . أما المرأة الأخرى «كانت ثالثتهن فتاة صغيرة فى ثوب أبيض وشعر عسلى مقصوص حول جبهتها ومضرب تنس على ركبتيها ، فقد تحدثت إليه ، وحيته بيل بأسلوب يفيض بالكآبة الواهنة ويدل على أنه ملك لها . وكانت يدها فى يده دافئة مستسلمة وكأنها زئبق يترجرج فى كفه ، الذى مضى يتحسس برقة العظام الرقيقة واللحم القلق المعطر . وكانت عيناها كعنبتين فى كرمة تعيش فى غرفة زجاجية معبأة بالحرارة وفمها أحمر زلقا يفيض بعدم الرضا .

أخبرته أنها قد فقدت مياونى .

قال هوراس ، « استطاعت مياونى أن تراك على حقيقتك من خلال رقتك . ربما أصبحت أكثر تهاونا . أناقتك أقل كثيرا فى المستوى من أناقة مياونى . أنت بالتأكيد لم تتوقعى أن تخدعى دائماً امرأة تستطيع أن تمنح وظيفتى الطعام والشراب كل هذا العناء الشديد وكما فعلت مليونى ، أليس كذلك ؟ أم تراها تزوجت مرة أخرى ؟ » أجابت بيل بغيظ : « لقد اشتغلت بالأعمال الحرة . صالون تجميل . ولماذا ؟ لن أستطيع وقسما بحياتى أن أعرف . مثل هذه الأشياء لاتنجح هنا . هل تستطيع أن تتصور نساء جيفرسون وهن يمنحن عملا لصالون تجميل ، باستثناء ثلاثتنا ؟ مسز ماردرز وأنا ربما ، أنا واثقة أننا فى حاجة إليه ، ولكن ماحاجة فرانكى به ؟

قالت المرأة الأخرى « ما يبدو عجيبا بالنسبة لى ، هو من أين جاء المال ؟ » .

بيل ، « يعتقد الناس أنك ، ربما أعطيتيه لها ؟ »

قالت بيل ببرود « منذ متى وأنا أتبرع بنقودى للأعمال الخيرية ؟ » وابتسم هوراس ابتسامة شاحبة . وقالت مسز ماندرز :

« بيل نحن نعرف جميعا إلى أى حد أنت طيبة القلب . لا تكونى متواضعة » .

قالت مرة أخرى « أنا قلت أتبرع بنقودى للأعمال الخيرية ، وقال هوراس بسرعة :

« إن هارى على استعداد دائما لأن يقايض . على الأقل سيوفر هذا الكثير من استهلاك النبيذ من قبوه ، إذ لن يجد نفسه مضطرا لأن يجاريك فيقدم الخمر لكل أولئك الرجال الذين تملئين بطونهم بالشاى ، أحسب أنه لن يقدم شاى هنا فى الحديقة بعد الآن ؛ أليس كذلك ؟ »

قالت بيل « لا تكن أحمق »

قال هوراس « أنا أدرك الآن ، أن التنس ليس هو الشىء الذى آتى من أجله إلى هنا . أنا أحضر من أجل ما أحس به دائما من شعور جبار مرهق بالعظمة عندما تقـــدم ميلونى إلى الشاى . . . رأيت ابنتك وأنا قادم »

قالت بيل دون اهتمام « إنها قريبة منا ، على ما أظن » .

قالت له « أنت لم تقص شعرك بعد » ثم « لم كان الرجال حمقى فيما يختص بالحلاقين ؟ » ومضت المرأة الأكبر سنا ترقب بيل وهوارس بذكاء وبرود ، عبر ذقنها المزدوجة المترهلة . وجلست الفتاة الصغيرة هادئة فى ثوبها

البسيط ناصع البياض ، وقــد وضعت مضربها فى حجرها ، ويدها السمراء عليه كأنها جرو بنى نائم . وكانت ترقب هوراس باهتمام رصين . ولكن بأدب كما يفعل الأطفال ، قالت بيل « أما أنهم لا يذهبون مطلقا إلى الحلاق ، أو أنهم يصرون على أن تلزق رءوسهم تماما بالدهون وغيرها » .

قالت المرأة الأخرى « هوراس شاعر » وكان لحمها يتهدل مسترخيا من فوق عظمتى وجنتيها وكأنه قطع من المخمل الملوث قليلا . وعيناها شبيهتين بعينى ديك رومى عجوز ، مفترسين لا تطرفان ، وقحتين إلى حد ما . « ينبغى أن يغفر للشعراء ما يفعلون ، عليك أن تتذكرى هذا يا بيل »

أحنى هوراس رأسه لها شاكراً وقال « جنسك لا يفتقد اللباقة أبدا يا بيل . مسز ماندرز واحدة من القلائل الذين أعرفهم ممن يعطون حرفة القانون قيمتها الحقيقية . »

قالت بيل « أظنها لا تختلف عن أى عمل آخر . تأخرت اليوم . لم لم تأت نارسيسا ؟ » قال هوراس موضحا « أقصد ، وهى تصفنى بأنى شاعر . القانون كالشعر ، هو الملجأ الأخير لكل أعرج وكسيح وغبى وأعمى ، أجرؤ أن أقول إن قيصر اخترع القانون ليحمى نفسه من الشعراء . »

قالت بيل « ما أبرعك ! »

وتكلمت الفتاة الصغيرة فجأة « مس بيل ، لم تهتمين بما يضعه الرجال على شعرهم ؟ إن مستر ميتيشل أصلع »

وضحكت المرأة الأخرى ضحكا لزجاً رتيباً ، وهى ترقبهم بعينين لا تطرفان ولا تضحكان ومضت ترقب بيل وهوراس ، وتضحك برتابة ومكر وبرود ، قالت « ومن أفواه الأطفال . . . وتطاعت الفتاة الصغيرة بعينيها الصافيتين الهادئتين من واحد إلى الآخر ثم وقفت .

قالت « أظننى سأذهب لأرى إن كان ممكناً أن ألعب الآن . »

وتحرك هوراس أيضا ، وقال « أنا وأنت . . . » ولكن بيل لمسته بيدها دون أن تدير رأسها إليه .

، قالت آمرة « قرانكي اجلسي لم ينتهوا من مباراتهم بعد » ثم قالت لمسز ماردرز « يحسن بك ألا تضحكي كثيراً ومعدتك خالية . هوراس اجلس ، أرجوك . . »

ظلت الفتاة واقفة برشاقة نحيلة مضطربة ، والمضرب في يدها ، ثم أدارت وجهها مرة أخرى نحو الملعب وجلس هوراس على المقعد القريب من بيل من الناحية الأخرى ، وسقطت يدها واختفت في يده وهي تختلج بتلك الحركة الغامضة ، ثم جمدت ، وكأنها قد حولت تياراً في مكان ما إلى جهة أخرى ، كأنها شخص يدخل حجرة مظلمة باحثاً عن شيء ، ثم يجده ثم يطفىء النور مرة أخرى .

قال هوراس مخاطباً المرأة الأخرى عبر بيل الجالسة بينهما « ألا تميلين إلى الشعراء ؟ » ولم تدر الفتاة الصغيرة رأسها .

قالت « إنهم لا يستطيعون الرقص . ومع ذلك أحسبهم بلا عيب . لقد ذهبوا إلى الحرب . الفضلاء منهم فعـــلوا . كان منهم واحد يجيد لعب التنس ، وقد قتل . رأيت صورته إلا أنني لا أذكر اسمه »

قالت بيل « أوه حباً في السماء . لا تمضي في الحديث عن الحرب » وارتعشت يدها في يد هوراس « كان على أن انصت لمدة عامين لهاري ، وهو يبرر لي عدم ذهابه للحرب كما لو كان يهمني ما إذا كان قد ذهب أم لم يذهب » ،

قالت مسز ماندرز بذكاء « كانت له أسرة عليه عمادها . » استرخت بيل قليلا ، وقد أسندت رأسها إلى ظهر مقعدها ، ويدها المختفية تتحسس ببطء ، في يد هوراس ، مستكشفة ومنقبة دون انقطاع ، كأنها إرادة حرة منفصلة مستطلعة ، وإن كانت تفتقد الحرارة .

قالت الفتاة مستطردة « البعض منهم كانوا طيارين ثم وقفت وقد أسندت أحد ردفيها الصغيرين غير البارزين إلى حافة المائدة ، واحتضنت مضربها تحت ذراعها ، وأخذت فى تقليب صفحات المجلة ، ثم اغلقتها ، ومضت ترقب مرة أخرى اللاعبين فى حركتهما على الملعب ، كهرجين هزيلين يثيران السخرية ، وقالت « رقصت مرة مع أحد أولاد آل سارتورس . أصابنى من الفزع ما أعجزنى عن معرفة مع من منهما رقصت . لم أكن حينئذ أكثر من طفلة » .

سأل هوراس ، « هل كانا شاعرين ؟ أقصد الذى عاد منهم ؟ أنا أعرف الآخر الذى مات . لقد كان شاعرا » .

قالت وعيناها على اللاعبين ، « إنه يستطيع بالتأكيد أن يقود سيارته » وكان شعرها - وهى أول من قصته فى البلدة وعقصته - مسترسلا ، ليس بنيا ولا ذهبيا ، وبدت أنفها الصغيرة ، ويدها المادئة السمراء مازالت تقبض على المضرب . ثم تحركت بيل وسحبت يدها من يده .

قالت ، « هيا ، اذهبوا جميعاً والعبوا ، كلاكما يثير أعصابى » وهم هوراس واقفا بخفة وقال « فرانكى هيا بنا فلنبارزهما معا » .

وأخذا مكانهما من الملعب وتباريا مع الشابين ، وكان هوارس لاعبا غير عادى ، لامعا ، وإن كان لعبه غير متجانس . وكان فى استطاعة من يعرف التنس وبأعصاب هادئة أن ينتصر عليه دون جهد بأن يدعه فقط يهزم نفسه بأخطائه . أما هذان اللاعبان فلم يكن فى استطاعتهما ذلك . وشريكته أضاعت الكثير من فرط ثقتها بنفسها ، واستطاع هوراس أن يستعيد النقاط الضائعة بقذف الكرة . وبالتخطيط البعيد ، الذى بلغ من الجرأة حداً ستر أخطاء لعبه .

وفى اللحظة التى كسب فيها هوراس النقطة الأخيرة ظهرهارى ميتشل ، فى سراويل ضيقة وقميص حريرى أبيض وحذاءى رياضة أنيقين جديدين كلفا عشرين دولاراً . وكان يحمل مضرباً جديداً فى كيس عليه رسم الصانع . وقف بساقيه القصيرتين ورأسه الكروية الصلعاء ، وفكه الأسفل البارز

بأسنانه التالفة وقف بجوار صورة زوجته الأنيقة وبعد قليل وبعد أن يضطر إلى شرب فنجان شاى ، سيجمع كل الرجال الموجودين حينئذ ويمضى بهم عبر البيت إلى حمامه ويسقيهم الويسكى ، ثم يملأ كوباً ويأخذه إلى راشل فى المطبخ وهو فى طريق عودته . كان على استعداد دائم أن يعطيك القميص الذى يغطى به ظهره . كان أحد المضاربين على القطن ، وكان ممتازاً فى هذا ، كان قبيحاً كالخطيئة ، وطيب القلب ، وكثير الكلام وإن تعذر إقناعه بالمنطق ، وكان ينادى بيل « بالأم الصغيرة » حتى ردته عن هذا .

ترك هوراس وزميلته الملعب واقتربا من الجماعة الجالسة .

وقد جلست مسز ماندرز الآن وذقنها المزدوجة المتهدلة مختفية وراء فنجان شاى واستدارت الفتاة إليه بأدب وقالت وكأنها تختتم اللعب ، « أشكرك لاشتراكك معى فى اللعب أرجو أن أكون أفضل يوماً ما . » ثم قالت « لقد قهرناهما » .

قالت هارى ميتشل ، وقد بانت أسنانه التالفة ، « إيه أيها الولد الكبير ، أنت والآنسة الصغيرة انتصرتما عليهما » واستطال فكه البارز الثقيل وهو يهبط إلى أســـفل ، ثم ينغلق فجأة قاضيا عن رغبة قلقة فى النضال .

قالت الفتاة مصححة بصوتها الصافى ، « مستر بينبو هو الذى فعلها » ثم جلست على المقعد المجاور لبيل وقالت ، « ظللت أدعهم يغزون الجزء الخاص بى من الملعب »

قالت بيل ! « هوراس ، شايك سيبرد . »

قدم إليه الشاى ، خادم يعمل بستانياً وسائساً وسائقاً ، وقد وضع مؤقتاً فى سترة بيضاء يفوح منها رائحة المطاط المكبرت والنوشادر . وأخرجت مسز ماندرز ذقنها من وراء الفنجان .

قالت . « هوراس يجيد اللعب إلى أقصى حد . نعم إلى أقصى حد . لايستطيع الرجال الآخرون أن يكونوا قرناء له . كنت محظوظة ياطفلتى إذ كان شريكك » .

قالت الفتاة ، « نعم ياسيدتى . أظنه لن يغامر بمشاركتى مرة أخرى » .

قالت مسز ماندرز بسرعة ، « هراء - لقد استمتع هوراس باللعب معك . مع فتاة صغيرة نضيرة . ألم تلحظى هذا يابيل ؟ »

لم تحر بيل جواباً وصبت الشاى لهوراس . وفى هذه اللحظة جاءت ابنتها عبر المرج فى ثوبها الأصفر الفاقع . كانت عيناها كنجمتين ، أكثر نعومة ورقة من عينى غزال وألقت على هوراس نظرة سريعة لماحة .

قال « تايتينيا ، كيف حالك ؟ »

وأدارت بيل رأسها قليلا ، رافعة إناء الشاى فوق الفنجان ، ووضع هارى فنجانه على المائدة ، وذهب ، وركع أمامها بركبة واحدة ، وكأنه يتودد إلى جرو . وتقدمت الطفلة وما زالت ترقب هوراس بعينين مشمئتين وحياء رقيق ، وتركت أباها يحتضنها ويدللها بيديه القصيرتين الثقيلتين .

قال هارى ، « حبيبة أبيها » واستسلمت بسرور وهى ترى ثوبها الأنيق الصغير وهو يتجعد وإن بذلت بعض المقاومة ، ثم انطلقت نظرتها اللامعة مرة أخرى . قالت بيل ، « أختى ، لاتفسدى ثوبك ؟ » وتحاشت الطفلة ذراعى أبيها بحركة رشيقة ، وسألتها بيل ، « وما الأمر الآن ؟ لم كففت عن اللعب ؟ »

قالت الطفلة ، لاشىء ، أردت فقط أن أعود « وجاءت ووقفت بحياء بجوار مقعد أمها .

قالت بيل ، « تحدثى إلى الجالسين . ألا تعلمين أنه يجب عليك أن تتكلمى إذا جئت إلى حيث يوجد من هم أكبر منك سنا ؟ » وفعلت الطفلة ذلك ، خجلة ودون الوقوع فى خطأ إذ حيتهم واحداً بعد الآخر وهى تدور عليهم ، واستدارت إليها أمها وسوت وربتت على شعر طفلتها المسترسل الناعم ، وقالت ، « والآن ، هيا اذهبى والعبى . لم ترغبين دائما فى التحويم حيثما يوجد البالغون ؟ أنت لايهمك ماتفعله » .

قال هارى « آه . دعيها تبق ، إنها تريد أن تشهد أباها وهوراس وهما يلعبان التنس »

قالت بيل مرة أخرى « هيا ، اجرى » وربتت عليها أخيراً « وعليك أن تحتفظى بثوبك نظيفاً » .

قالت الطفلة « نعم يا سيدتى » وأطاعتها واستدارت ، وألقت على هوراس نظرة أخرى لامعة سريعة ، ومضى يرقبهما وهى مبتعدة ورأى راشل تفتح باب المطبخ ثم تتحدث إليها وهى تعبره ، ورآها تستدير إليها وتصعد الدرج إلى المطبخ . قالت مسز ماندرز « يا لها من طفلة مهذبة »

قالت بيل « إنهم من الصلابة حتى يتعذر عمل شىء معهم ، بها بعض خصال أبيها . هارى اشرب شايك . »

أخذ هارى الفنجان عتثلا من على المائدة وامتص محتوياته الدافئة إلى داخله ، وهو يحدث فحيحا بفمه ، وقال « حسناً ، والآن أيها الولد الكبير ، ما رأيك فى مباراة زوجية ؟ هؤلاء العصافير يظنون أن فى مقدورهم أن يهزمونا » .

قالت بيل معترضة « فرانكى تريد أن تلعب مرة أخرى ، هارى ، دع الملعب للصبية قليلا » ولكن هارى كان مشغولا بإخراج مضربه ، ثم توقف ورفع وجهه ذا الفك البارز وعينيه المتمتمتين اللطيفتين .

احتجت الفتاة بسرعة قائلة « لا ، لا . أخذت كفايتى ، أفضل أن أتفرج قليلا »

قالت بيل « لا تكونى حمقاء . إنهما يستطيعان أن يلعبا فى أي وقت.
هارى ، اطلب منهم أن يدعوها تلعب . »

قال هارى « بالتأكيد ، تستطيع السيدة الصغيرة أن تلعب ، هيا ، العبي ما تشاثين » ثم انحنى مرة أخرى وأعاد مضربه إلى غلافه المعقد ، وربط المسامير المحواة هنا وهناك وبدا فى ظهره الضيق كما يبدو على أى صبى .

قالت الفتاة « مستر ميتشل أرجوك . »

قال هارى مرة أخرى « هيا ، اسمعوا أيها الفتيان ، ما رأيكم فى تنظيم مباراة مع السيدة الصغيرة ؟ »

قالت بيل للفتاة « لا يعنيك أمره . هو وهوراس يستطيعان اللعب فى أى وقت آخر وعلى أى حال سيتحتم عليه أن يكون اللاعب الرابع إذا لعب »

ووقف اللاعبان ينتظران متأدبين .

قال أحدهم « بالتأكيد . مستر هارى ، هيا ، أنا وفرانكى نلاعبكما ، أنت وجو »

قال هارى مرة أخرى « هيا يا أولاد اذهبوا والعبوا مباراة ، لدى بعض عمل أتحدث فيه إلى هوراس ، اذهبوا جميعكم ، هيا » وتغلب على احتجاجاتهم المهذبة ، وأخذوا الملعب ، ثم أدار راسه إلى هوراس وفى إشارته معنى .

قالت بيل « اذهب معه ، الطفل ! » ، ودون أن تنظر إليه ، دون أن تلمسه ، احتوته كله فى وعد خصيب ملتهب ، وقد جلست مسز ماندرز عبر المائدة قبالتهم ، فضولية وذكية وباردة وفنجانها فى يدها ، قالت بيل « إلا إذا كنت ترغب فى اللعب مرة أخرى مع هذه الطفلة الحمقاء . »

قال هوراس مردداً « حمقاء ؟ إنها أصغر جدا من أن تكون حمقاء دون أن تدرى » قالت له « اذهب وعد سريعاً — مستر ماندرز وأنا سئمنا بعضنا البعض » .

ومضى هوراس وراء مضيفه إلى البيت ، مضى وراء خطوه القصير المنزلق ، وصلعة رأسه التى لاتختفى أبداً . وجاء صوت بيل الصغيرة منتظما إليهما وهما يمران بالمطبخ وهى تروى شيئا مما أثار عجبها فى أثناء النهار ، يقطعها من لحظة إلى آخر لفظ ناعم مستفهم من راشيل . وفى الحمام ، أخرج هارى زجاجة من صوان « ودخلت راشيل ، وقد سبقها إليهما وقع قدميها الثقيلتين المجهدتين على الدرج . كانت تحمل إليهما دورقا من الماء المثلج .

قالت وكأنها تستجوب هارى « لم لا تذهبون جميعاً وتلعبون إذا كنتم تريدون ذلك ؟ لم تدعون هذه المرأة تعاملكم أنتم وهذه الطفلة كما تفعل على أى حال ؟ أنت ، عليك أن تأخذها وتؤدبها بعصا ، تدخل مطبخى فى الساعة الرابعة عصرا وتعمل فيه يد الفوضى ، وأنت لا تقدم إلى شيئا من المساعدة » ثم قالت « أعطنى قليلا من الشراب يا مستر هارى أرجوك يا سيدى . »

ومدت يدها بكوبها ، وملأه لها هارى ، ومضت متثاقلة من الحجرة وسمعاها وهى تهبط الدرج ببطء وتثاقل على ردفيها الهابطين . قال هارى « ماكان فى استطاعة بيل أن تمضى فى حياتها دون راشل » ، ثم بلل كوبين بالماء المثلج ووضعها فى المغسل « إنها كثيرة الكلام ككل السود » ، ثم صب فى الكوبين ووضع الزجاجة ، إذ تستمع إليها تتخيل بيل وكأنها نوع من الحيوانات المتوحشة ، نمر ملعون أو شىء مامن هذا القبيل ولكن بيل وأنا نفهم بعضنا البعض ، عليك — على أى حال — أن تتساهل مع النساء إنهن يختلفن عن الرجال ، خلقن بطريقة عكسية ، يشكون عندما لا ترضيهن ويشكون عندما تفعل ، وأضاف قليلا من الماء إلى كوبه ، ثم قال فجأة دون

مبزر » سأقتل الرجل الذى يحاول أن يحطم بيتى ـ كما أفعل بحية ملعونة .
حسنا ، فلنأخذ كأسا أخرى أيها الولد الكبير » .

وسرعان ما أضاف القليل من الماء إلى كوبه الفارغة وازدرده أيضا ، ثم عاد إلى مرارته الأولى .

« لا أستطيع أن ألعب على ملعبى الخاص الملعون . بيل تحضر كل هؤلاء الخلق الملاعين كل يوم . لست أريد إلا ملعبا أستطيع أن ألعب فيه كل أصيل زوجا من المباريات السريعة عند عودتى من العمل إلى البيت كفاتحة للشهية قبل العشاء . ولكن فى كل يوم ملعون أعود إلى البيت من العمل أجد عصابة من الفتيات الصغيرات والشبان المخنثين يستعملون ملعبى وكأنه ملعب عام فى حديقة ملعونة » وشرب هو كأسه ببطء أكثر وأشعل هارى سيجارة ورمى بالثقاب على الأرض ، ومدد ساقه فوق المغسل . وقال « أظنه يتحتم على أن أبنى ملعبا آخر لاستعمالى الخاص ، وأضع حوله سياجاً من الأسلاك الشائكة وأغلقه بقفل من طراز بيل ، حتى لا تستطيع بيل أن تدعو أصحابها إلى الطعام فيه ، هناك مساحة واسعة بجوار السياج . لا أشجار فيها أيضا سأبنيه تحت الشمس الملعونة وأظن بيل ستسمح لى باستخدامه من حين إلى حين . حسناً ، ما رأيك فى أن تعود إليهم ؟ »

ومضى أمامه عبر غرفة نومه ، وتوقف ليعرض على هوراس بندقية كثيرة الطلقات اشتراها حديثا ، ويهديه علبة سجاير استوردها من أمريكا الجنوبية ، ثم نزلا وخرجا فى الساعة المتأخرة من الأصيل ، كانت الشمس أفقية عبر الملعب حيث كان ثلاثة من اللاعبين يجرون ويقفزون ، ووقع أحذيتهم المطاطية الناعمة السريعة ، يتبع ضربات الكرة المتتالية . وكانت مسز ماندرز فى مكانها بذقنها المزدوجة ، بالرغم من أنها كانت تتحدث عن اعتزامها الذهاب وأدارت بيل رأسها إلى الخلف ولكن هارى مضى ومن ورائه هوراس .

قال لمسز ماندرز بسخرية ثقيلة « إننا ذاهبان لمشاهدة مكان نبنى عليه ملعب تنس وأظننى سألعب التنس أنا شخصيا . وكان الوقت قد تأخر أيضا عندما عادا . كانت مسز ماندرز قد ذهبت ، وجلست بيل وحيدة تقرأ مجلة . وقد جاء إلى الفتاة فرانكى شاب بسيارة فورد مضعضعة ، ولكن شابا آخر جاء أيضا ، وعندما جاء هوراس وهارى ، تزاحم الثلاثة بأدب على هارى وهم يدعونه لمشاركتهم فى اللعب .

قال هارى ، وقد بان عليه السرور الواضح ، « خذوا هوراس . سيعطيكم ما يعوض عليكم نقودكم » ولكن هوراس رفض معتذراً ، ومضى الثلاثة يلحون على هارى .

قال حاسما الأمر ، « دعونى إذن أحضر مضربى » ، وتتبع هوراس وقع الأقدام الكثيرة خلفه عبر الملعب . ثم ألقت بيل نظرة سريعة وقالت :

« هل وجدتم مكانا ؟ »

قال هارى ، وهو يخرج مضربه مرة أخرى « نعم ، حيث أستطيع أنا أن ألعب أحيانا . مكان بعيد جداً من الشارع بحيث لا يستطيع أن يراه أى مار ، ثم يتوقف ، ولكن بيل كانت قد استأنفت القراءة من جديد . فك هارى المسامير من حول المضرب وأخرجه .

قال لهوراس « سألعب مباراة واحدة ، وأنت وأنا نستطيع أن نلعب مباراة سريعة قبل الغروب » .

قال هوراس « نعم » ، وجلس يرقب هارى وهو يمضى متثاقلا إلى الملعب ويأخذ مكانه ، وراقب الرمية الأولى للكرة . ثم طقطقت مجلة بيل وانصفقت بالمائدة . قالت ، وهى تقف « تعال » ، ووقف هوراس وسبقته بيل وعبرا المرج ودخلا البيت ، كانت راشل تتجول فى المطبخ ومضيا عبرا البيت حيث أصبحت كل الضوضاء بعيدة ، والتمت قطع الأثاث فى دعة ، وقد زالت ملامحها فى أضواء الغروب المحتضرة . وانزلقت يد بيل إلى يده .

وقبضت عليها وضغطت بها فخذها الحريرى ، ومضت به عبر بهو معتم إلى غرفة موسيقاها . كان الهدوء مخيما على هذه الغرفة أيضا ، وكانت خالية ثم توقفت قبالته فى نصف استدارة ، وتبادلا القبل ولكنها ابتعدت سريعا ، وتحركت مرة أخرى ، وسحب مقعد البيانو من تحته ، وجلسا عليه معا متواجهين وتبادلا القبل مرة أخرى . قالت وهى تلمس وجهه وفوضى شعره الجميل بأطراف أناملها « أنت لم تقل لى أنا أحبك ، منذ وقت طويل »

قال هوراس مؤيدا « نعم منذ أمس » وقال لها . وهى تنحدر بصدرها عليه وتنصت إليـــه ، بنوع ما من الشرود المبهور ، وكأنها قطة هائلة ساكنة ، ولكنه إذ انتهى ومضى يتحسس وجهها وشعرها بيديه الرقيقتين المتوحشتين ، انتزعت صدرها من عليه ، وفتحت البيانو ولمست المفاتيح وعزفت ألحانا عاطفية سوقية ، من الذاكرة ، ومن النوع الرائج حينئذ الذى قد تسمعه فى أى مسرح هزلى ، عزفتها بمهارة سطحية وبإحساس مرهف لما تتضمنه من عذوبة مبالغ فيها . وقد ظلا هكذا جالسين برهة بينما غاض النور ، وبيل فى فراغ آخر وقتى من الضجر إذ اصطنعت لنفسها عالما تتجول فيه حالمة رائعة وبلمسة خفيفة من الأسى . وهوراس جالس بجوارها يرقبها فى دور المأساة الذى فرضته على نفسها ، ويرقب نفسه وهو يلعب دوره كالممثل العجوز الذى رق شعر رأسه ، وبان قطاع وجهه العجوز عبر ذقنه ، ولكنه يستطيع أن يؤدى أى دور عند أية إشارة ، بينما يجلس الرجال الأصغر سنا فى الأجنحة وهم يعضون على أصابعهم غيظا .

ثم فاض وقع أقدام هارى الثقيلة على الدرج إذ كان يصعده ، وضجيج صوته الغليظ الذى لا يمكن تمييز كلماته ، حيث كان يمضى بشخص آخر من الدرج الخلفى إلى حمامه . توقفت بيل عن العزف ومالت إليه وقبلته مرة أخرى ، وتعلقت به وهى تقول « هذا لا يحتمل » ثم ابتعدت عنه

وللحظة قصيرة ظلت تقاوم وهى بين ذراعيه ثم اندفعت يدها بعنف هائل على مفاتيح البيانو ، ومرقتا خلال شعر هوارس وهبطتا على وجنتيه وهى تضمها بقوة ؛ ثم ابتعدت مرة أخرى ، « والآن اجلس هناك . »

وقد أطاع . وهى على مقعد البيانو جالسة فى ضوء ظليل . لقد أصبحا فى لحظة الغسق . ولم يكن يرى سوى خط رأسها المحنية وظهرها ، الساكن الحزين . فأعاد ذلك إلى نفسه إحساسه بالشباب . وجالت برأس هوراس أفكار . نحن نحاول دائما أن نسابق أنفسنا ، كعجائز النسوة المتشككات ، إذ يتجسسن على الخدم . لا ، كصبية يحاولون سبق استعراض . قال « يوجد الطلاق دائما » .

« لن أتزوج مرة أخرى ؟ » ، وانطلقت يداها إلى الأوتار ثم دمجتها جميعها ومضت بها إلى وتر وحيد . وفوق رءوسهم كان هارى يمشى بخطوة الثقيل المفاجىء ، فيرج البيت ، « ستكون زوجا لا يحتمل » .

قال هوارس ، « لن أكونه طالما ظللت غير متزوج . »

قالت ، « تعال هنا » وذهب إليها ، وفى عتمة الغروب أصبحت مرة أخرى ، حزينة وصغيرة ومؤتلفة مع شعور لحوح بالضياع . أما هو فقد عرف مدى خصوبة العالم بالألم ، والزمن الذى يحاول ، آملا ، أن يخدع نفسه عن حقيقته . قالت ، « هوراس ، أريد أن أحمل طفلك » ، ثم جاء طفلها هى ، عبر البهو . جاءت الطفلة ووقفت فى استحياء بالباب .

وللحظة قصيرة كانت بيل حيوانا اضطرب وجن خوفا . اندفعت مبتعدة عنه فى حركة مجنونة دوامة ، وانقضت يداها على مفاتيح البيانو فى اللحظة التى تمكنت فيها من السيطرة على محاولتها الغريزية العنيفة للهروب تلك المحاولة التى تركت فى لحظة الغروب إحساسا عدوانيا مجنونا يشوبه دافع وقائى ويفيض فى موجات متراكمة ، موجهة إلى هوراس أيضا .

قال هوارس ، « تايتينيا ، تعالى »

وقفت الفتاة الصغيرة ، حيية فى الظل . قالت بيل لهوراس فى صوت حاد واضح كالفحيح ، « حسنا ماذا تريد ؟ اجلس هناك » ثم قالت للطفلة ، « بيل ، ماذ تريدين ؟ » وانسحب هوراس قليلا ولكنه لم يقف .

قال ، « عندى حكاية جديدة سأرويها لك حالا » ولكن بيل الصغيرة ظلت مكانها وكأنها لم تسمع ماقاله ، قالت أمها .

« بيل اذهبي والعبي .. لم عدت إلى البيت ؟ لم تحن ساعة العشاء بعد »

قالت ، « ذهب الجميع إلى بيوتهم . ليس ثمة من ألعب معه »

قالت بيل ، « إذن اذهبي إلى المطبخ وتكلمي مع راشل » وضربت مفاتيح البيانو بعنف مرة أخرى ، « أنت تزعجينني إلى درجة الموت ، وأنت تتجولين هكذا حول البيت » وظلت الفتاة الصغيرة واقفة برهة أيضا ، ثم أطاعتها فاستدارت وذهبت .

قالت بيل مرة أخرى ، « اجلس هناك » واستعاد هوراس مكانه ، وعزفت بيل أيضا ، بصوت مرتفع وبسرعة ، وبحذق هستيرى بارد ، ومن فوق رءوسهم مضى خطو هارى الثقيل عبر الغرفة ثم نزلوا الدرج وما زال هارى يتكلم ، ومضت الأصوات نحو خلفية البيت ، وتوقفت وظلت بيل تعزف ، ومن حوله ولاتزال فى الغرفة المتعاتمة ذلك الإحساس العدوانى الواقى الأعمى كانقباضة عضل ظلت مكانها بعد أن زال باعث الخوف ـ قالت دون أن تدير إليه رأسها « هل ستبقى لتناول العشاء معنا؟ »

قال لها وهو يتيقظ فجأة إنه لن يفعل لم تقف معه ولم تدر إليه رأسها وخرج من الباب الأمامى إلى ساعة الغسق الربيعية المتأخرة ، لقد ظهرت بالفعل نجمة باهتة فوق الأشجار الساكنة بلا رياح . وعلى الممر ، وبالضبط أمام الجاراج . كانت سيارة هارى الجديدة تنتظر وفى هذه اللحظة كان يفعل شيئا بآلتها ، بينما أمسك خادم البيت والفناء

والإسطبل بمصباح طوارىء فوق رأسه التى تشبه الصخرة البارزة ، وكانت ابنته وراشل تمسكان بأدوات أو أجزاء مخلوعة من أجهزة السيارة وقد انحنيا بوجهيهما غير المتشابهين من وراء ظهره إلى ضوء المصباح الأزرق الناعم ، ومضى هوارس إلى بيته . حل الغسق ، ثم المساء بسرعة . وقبل أن يصل إلى ركن الشارع حيث يستدير ، شعشعت مصابيح الشارع ثم انطفأت ، ثم توهجت فوق مقاطع الطريق تحت الأشجار المتعانقة .

— ٣ —

كانت أمسية الحفل الموسيقى التى تعزف فيه بيـل الصغيرة واللحظة الفاصلة فى سنتها الدراسية الموسيقية . وطوال الأمسية كلها لم تنظر إليه بيل ، ولم تخاطبه بكلمة واحدة ، ولا فى لحظة زحام الضيوف المنصرفين عند الباب ، ولا عند ماكان هارى يحاول إغراءه على الصعود إلى الطابق العلوى لأخذ كأس ، وقد أحس بها بجواره لحظة ، وعبق رائحة العطر الثقيل الذى تستعمله ، إلا أنها لم تقل له ، حتى فى تلك اللحظة كلمة واحدة ثم تخلص أخيراً من هارى ، وانغلق الباب على صلعة هارى اللامعة الكروية وبيل الصغيرة ، واستدار هوراس إلى الظلام ، ولم يجد نارسيسا فى انتظاره . كانت فى منتصف الطريق إلى الشارع .

قال لها مناديا « إن كنت ذاهبة فى طريق ، فسأصحبك » ولم تحر جوابا ولم تبطء خطواتها ولا أسرعت أيضا عند ما لحق بها .

قال : « لم يحتمل البالغون كل هذا الجهد ليضطروا الأطفال لعمل أشياء سخيفة ، ماذا تظنين السبب ؟ » كان لدى بيل ملء بيتها من الناس الذين لا يهمها أمرهم فى شىء ، وأغلبهم لا يرضى عنها ، وأبقت بيل الصغيرة فى الحفل ثلاث ساعات بعد موعد نومها . والنتيجة هى ، أن توترت أعصاب هارى ، وبيل فى حال مزاجية سيئة ولا تستطيع بيل الصغيرة أن تذهب إلى فراشها من فرط الاستثارة ، وأنت وأنا نتمنى لو كنا فى بيتنا ونأسف لأننا لم نبق فيه ،

سألته نارسيسا ، « إذن لماذا تذهب هناك ؟ » ، وفجأة ألجم هوراس ، ومضيا معا فى عتمة الليل . متجهين نحو نور المصباح التالى ، وقد تدلت من حوله أغصان الشجر وكأنها صخور مرجانية سوداء فى بحر أصفر .

قال هوراس ، « أوه ، ثم ، رأيت تلك القطـــة العجوز إذ كانت تتحدث إليك » .

« ولم تصف مسز ماندرز بالقطة العجوز ؟ لأنها قالت لى شيئا يعنينى ، ويبدو أن كل شخص آخر يعرفه بالفعل ؟ » .

« إذن هى التى قالت لك ، أليس كذلك ؟ كنت أتساءل . . . » ودس ذراعه تحت ذراعها الخامد . « عزيزتى نارسى العجوز » . وعبرا الظل المبرقش تحت نور المصباح ومضيا معا إلى الظلال مرة أخرى .

سألته : هل هذا صحيح ؟

قال : « أنت تنسين أن الكذب ، ليس إلا صراعا فى سبيل البقاء إنه أسلوب الإنسان الهزيل فى جرجرة الأشياء من حوله لتتفق مع الصورة التى رسمها لنفسه مقدما كمخلوق فى هذه الأرض . وهـذا هو انتقامه من الآلهة الشريرة » .

سألته بإصرار « هل هذا صحيح ؟ » ومضيا معا ، ذراعا فى ذراع ، هى تنتظر بجدية وإصرار ، وهو يشكل العبارات فى رأسه وينبذها ، وقد وجد الوقت الذى يتسلى فيه بعجزه الغريب أمام إصرارها .

قال وقد بدا الهم على وجهه « الناس لا يكذبون عادة عن الأشياء التى لا تعنيهم . إنهم جامدون تجاه العالم ، حتى إذا لم يكونوا كذلك تجاه الحياة . ولكن ليس عندما يكون الواقع أشـــد إثارة بكثير من كل ما تستطيعه أخيلتهم » وأخذت ذراعها من ذراعه حاسمة الأمر .

« نارسى . . . »

قالت : « لا تفعل . لا تقل لى هذا » وكان الركن الأخير من الشارع ، المضىء بنور المصباح ، هو ركن بيتهما ، إذ يدوران هـ . ومن فوق

نفق الشارع المحدب ، كانت الآلهـة الشريرة تطلع بأعين باهتة لا تطرف وزج هوراس يده فى جيب سترته ، وقد أسكت لحظة بينما مضت أصابعه تتحقق من الشيء غير العادى الذى وجده فى جيبه . ثم أخرجه ، قطعة من ورق الكتابة الثقيل ، وقد طبقت مثنى . وشبعت بعطر ثقيل ذاو . كان عطراً مألوفا أثار حيرته فى تلك اللحظة ، وكأنه وجه يرقبه من فوق رسم على نسيج معلق على حائط . وكان يعرف أن الوجه سيطفو بعد لحظة ، ومضى يستطلعه . عبر مفاوزتيهه ، إلا أن أخته تكلمت فجأة وبقسوة وهى بجواره .

رائحتها تغطيك من قمة رأسك إلى أخمص قدميك . « أوه ، هورى ، إنها قذرة » !

قال بتعاسة : « أنا أعرف . أنا أعرف » .

كانت الأيام قد تقدمت كثيراً فى يونيو ، وقد انساب عطر الياسمين الذى نقلته مس جينى إلى حديقتها ، بانتظام إلى البيت ، وملأه بأمواج رتيبة متراكمة ، كأنها أصداء وأنغام متخافتة من آلات كمان كبيرة . لقد غاضت الزهور المبكرة . وانتهت الطيور من أكل ثمار الفراولة ،ومضت تقطع النهار كله جالسة فى شجيرات التين ، تنتظر لحظة نضجه ، وقد تفتحت زهور الزينيا والديلفنيم دون أية مساعدة من إيزوم . ولما كان كازنى قد عاد إلى حد ما إلى حالته الطبيعية ، ولم يكن الوقت قد أزف للراحة فقد كان من الميسور أن يوجد إيزوم على الجانب الظليل من سياج أشجار الحناء ، الممتد على طول الحديقة ، وهو يشذبها ويقطع الأوراق ، ورقة ورقة من غصن ما بمقص من مقصات البغال ، ويظل فى ذلك حتى تعود مس جينى إلى البيت ، ثم يمضى هو ليستلق على جانب الجدول ، وقد وضع قبعته على وجهه ، وقصبة صيده بين أصابع قدميه ، حتى تنقضى ساعات الأصيل . وقد مضى سيمون يتسكع حول البيت وفيه روح المشاكسة . ومضت قبعته المرتفعة وسعطفه التيلى يجمعان الأتربة وعصافة التبن ، وهما معلقان على مسمار فى غرفة معدات الخيل ، وازدادت الخيل

وهى فى مراعيها ، شحما وكسلا ووقاحة . كانت القبعة والمعطف ـ تنزلان من فوق المسمار ، وتسرج الخيل إلى العربة ، ولكن مرة واحدة فى الأسبوع . . فى أيام الآحاد للذهاب إلى الكنيسة فى البلدة . قالت مس جينى إن السن قد تقدمت بها إلى الدرجة التى لا تسمح لها بالمخاطرة بحقها فى الغفران بالذهاب إلى الكنيسة بسرعة خمسين ميلا فى الساعة ، وإن عليها من الذنوب ، بقدر ما يستطيع سلوكها العادى أن يتحمل تبعته وخاصة وأن عليها ، بطريقة ما أن تأخذ روح بايار العجوز أيضا إلى الجنة ، وهو الذى يطوى الريف كالمجنون ، كل أصيل فى السيارة مع بايارد الصغير معرضا عنقيهما للخطر المحدق .

أما عن روح بايارد الصغير فلم تزعج مس جينى نفسها على الإطلاق إذ لم يكن له ثمة روح . وقد أخذ يتجول فى المزرعة على حصانه ، حاضا المستأجرين الزنوج بطريقته الباردة على العمل وكان ينتهى وهو فى سروال من الكاكى كلف دولاران ، وحذاء للحقل كلف أكثر من أربعة عشر جنيها ، بآلات الزراعة ، وبالجرار الذى أغرى بايار العجوز على شرائه ، لقد أصبح الآن إنسانا متحضرا مرة أخرى أو كاد ، كان الآن يتردد فقط من حين إلى حين على البلدة وغالبا ما كان ذلك على صهوة حصانه .

وكانت حصيلة الأمر ، أن أصبحت أيامه بريئة مثمرة إلى الدرجة التى جعلت عمته وجده يعانيان بعصبية إحساسا بالتوقع والمفاجأة .

قالت مس جينى لنارسيسا فى اليوم الذى خرجت فيه من البيت مرة أخرى ، « اذكرى كلماتى جيدا . إنه يختزن الإثم ، الذى سينفجر كله مرة واحدة يوما ما وحينئذ سيدفع الثمن غاليا ، الله يعلم ماذا سيكون ـ ربما يأخذ هو وإيزوم سيارته والجرار ، ويدخلان فى سباق حواجز . ما السبب فى زيارتك ؟ هل وصلك خطاب آخر ؟ »

قالت نارسيسا بمرح ، « وصلنى عدة خطابات ، إننى أحتفظ بها حتى

أجمع منها مايكفى لكتاب . ثم أحضرها لك جميعها لتقرأيها » ، وقد جلست مس جينى قبالتها منتصبة الظهر كجندى من جنود الحرس ، بهذا الاحتدام الحاسم الذى كان يجعل التجار والغرباء يتعثرون فى تحقيق أغراضهم ، وصور الفشل مرسومة فى أخيلتهم قبل أن يبدءوا . وقد جلست الضيفة ساكنة ، وقبعتها الخوصية الرقيقة على ركبتيها . قالت « جئت لمجرد رؤيتك » وفى لحظة خاطفة فاض بوجهها يأس جاد عميق ، الأمر الذى جعل مس جينى تشتد صرامة فى جلستها ، وتنفذ بعينيها الخارقتين الرماديتين إلى أعماق ضيفتها

« طفلتى ، ما الأمر ؟ هل اقتحم عليك الرجل بيتك ؟ »

« لا . لا » واختفت النظرة ، ولكن مس جينى مضت ترقبها بتلكما العينين الحادتين العجوزين ، كانتا تريان ـ فيما يبدو ـ أكثر بكثير مما تتصور .. ومما تتمنى ، « هل أعزف قليلا ؟ مضى وقت طويل منذ أن عزفت ، أليس كذلك ؟ »

قالت مس جينى ، « حسنا إذا كنت ترغبين » . كان ثمة غبار على البيانو . وقد مسحته نارسيسا بحركة لطيفة . وقالت « إذا سمحت لى بالحصول على قطعة من قماش . . »

قالت مس جينى « الآن دعينى » والتقطت طرف ثوبها ، ومسحت لوحة المفاتيح بقوة « هيا هذا يكفى . » ثم سحبت مقعدها من وراء الآلة وجلست ، إلا أنها ظلت ترقب جانب وجه الأخرى ، مقدرة ما وراءه ، ومشغوفة إلى حد ما بمعرفته . ولكن سرعان ما استثارت الأنغام القديمة ذكرياتها مرة أخرى ، وفى لحظات رقت نظراتها ونسيت الأخرى ، والمتاعب التى طفت على وجهها برهة ، افتقدت كلها مكانها فى أيام مس جينى المقهورة الميتة التى تحياها ، ومضى بعض الوقت قبل أن تلحظ أن نارسيسا كانت تبكى بهدوء وهى تعزف .

مالت مس جيني إلى الأمام ولمست ذراعها ، وقالت لها آمرة « والآن قولى لى ما الأمر » وقالت لها نارسيسا ، وهى ماضية فى البكاء بهدوء ، فى صوتها الجاد الأنثوى الدافىء .

قالت مس جيني « أوف ، هذا ماينتظر من رجل ليس لديه مايفعله أكثر من هوارس . أنا لاأجد سببا يدعوك للقلق إلى هذا الحد » .

قالت نارسيسا وهى تنوح فجأة كفتاة صغيرة وهى تغطى وجهها بكفيها « ولكن هذه المرأة . إنها قذرة جدا » .

وأخرجت مس جيني منديل رجل من جيب ثوبها وأعطته للأخرى « ماذ تعنين ؟ ألا تغتسل بما فيه الكفاية ؟ » .

« ليس هذا ما أعنيه . أنا أقصد .. أنها .. أنها ... » ثم استدارت نارسيسا فجأة ووضعت رأسها على البيانو .

قالت مس جيني ، « أو . كل النساء هكذا . إذا كان هـــذا هو ماتقصدينه » . وظلت فى جلستها الجافة التى لاتقهر ، تتأمل كتفى الأخرى المنكمشتين ، « أوف . قضى هوراس كثيراً جداً الوقت وهو يتعلم إلى الدرجة التى لم يتعلم معها شيئا . ـ لم لم تكشفى لى الأمر فى الوقت المناسب ألم تتوقعى حدوث هذا ؟ » .

وبكت الأخرى ولكن بهدوء أكثر الآن . ثم اعتدلت فى جلستها وجففت عينيها فى منديل مس جيني ، « لقـــد بدأ قبل أن يرحل . ألا تذكرين ؟ » .

« هذا صحيح . أنا أذكر فعلا شيئا مامن ثرثرة نسوة ، من الذى قال لك على أى حال ؟ هوراس » ؟

« مسز ماندرز فعلت ثم قال لى هوراس إلا أننى لم أتصور قط أنه قد ... ماتصورت أبداً ... » وهبطت رأسها مرة أخرى على البيانو

واختفت بين ذراعيها وقالت وهى تنوح ، « لم أكن لأعامل هوراس بهذا الأسلوب »

« سارة ماندرز هى التى قالت لك . كان فى إمكانى أن أعرف .... أنا أعجب بالشخصية القوية حتى وإن كانت سيئة » . ثم وقفت فجأة وقالت « حسنا ، لن يساعدك البكاء فى شىء . فكرى فيما ينبغى أن تفعليه إزاء الأمر . إلا أننى كنت أتركه يمضى فيه ، سيفيد منه إذا ما انقلبت عليه وجعلت منه موطئا لنعالها .... من السىء جداً أن يفتقد هارى الحمية لكى ... إلا أنه سيسر بهذا ، أنا أعلم أن هذا ما كنت سأفعله ... كفى . كفى » ثم قالت عندما بدى على الأخرى القلق « لا أحسب هارى سيؤذيه . والآن ، جففى وجهك . والأفضل أن تذهبى إلى الحمام . سيكون بايارد هنا حالا . وأنت لاتريدين أن تدعيه يرى أنك كنت تبكين ، أليس كذلك ؟ » وألقت نارسيسا نظرة سريعة على الباب وربتت على وجهها بمنديل مس جينى

وكان يحضر ويبحث عنها فى البيت ، ويمضى فى الممر ويهبط إلى المرج فى الأصيل المشمس إلى حيث تجلس تحت شجرة البلوط فى أثوابها البيضاء التى يحبها ، إلى حيث كان يتردد كل أصيل ببغاء ليغنى ، ليروى عليها آخر مغامرة له فى نفخ الزجاج . لقد أصبح لديه خمس أوان فى ألوان مختلفة ، وكلها تكاد ألا تكون بلا عيب ، ولكل منها اسم .

وكان عندما ينتهى منها ، وبينما هى لم تكد تبرد ، كان يتحتم عليه أن يحملها عبر المرج ، إلى حيث كانت تجلس مع كتاب ، أو مع ضيفة تأخذها الدهشة ربما ــ فى ملابسه الملطخة المضطربة ، ويديه المغلفتين بالصناج ، حيث تستقر آنية الزهور نائمة هشة ــ كأنها فقاعة ؛ وبوجهه المسود بالدخان أيضا الذى يرتسم عليه أثر من جنون ، وعاطفة جياشة ورقة وتقشف

— ٤ —

ومضى زمن كانت الأرض تحمله فيه فى هوة من الممكن أن تسمى

قناعة .. كان يتيقظ مع شروق الشمس لزرع الأشياء فى الأرض ويرقبها وهى تنمو ويرعاها ، وكان يسب السود والبغال ويدفعهم للحركة ، ويحتفظ بهم فى حركة ، وأعاد إلى مطحن الغلال هيأة العمل ، وعلم كازبى قيادة الجرار ، وكان يحضر ساعة تناول الطعام ، وفى المساء تفوح منه رائحة زيت الآلات والاسطبلات والأرض، ثم يذهب إلى فراشه بعضلات مقدرة للجميل ، وبإيقاعات الأرض الرزينة تتردد فى جسمه ، وهكذا ينام ، إلا أنه كان يستيقظ فى سلام غرفته المظلمة ودون نذير سابق ، متواتراً يتصبب بعرق رعب قديم وفى هذه اللحظات ، كان العالم يضطجع بعيداً عنه . بعيداً عن حيوان وقع فى مصيدة ، وهو فى أعالى السماء الزرقاء وقد أخذه جنون الرغبة فى الحياة . لقد وقع فى نفس الشباك الماكرة التى خدعته ، ذلك ، الذى تحدى القدر كثيراً جداً ومرة ثانية تمنى أنه لو سقط إلى أعلى إذا وجدت الرصاصة طريقها إليه . لو انفجر فى السماء ، فى أى مكان ماعداً الأرض . ليس الموت ، لا ، إنه التفجر الذى كان عليك أن تعبره مرات كثيرة قبل أن تصطدم . هو الشيء الذى ملأ فمك بالقيء ،

ولكن أيامه كانت مليئة على الأقل واكتشف الكبرياء مرة أخرى . أما الآن .. فكان يمضى بسيارته إلى البلدة ليحضر جده بحكم العادة وحدها ، ورغم أنه كان يعتبر ، ومايزال ، سرعة خمسة وأربعين ميلا فى الساعة هى سرعة السفر العادى بالسيارة ، إلا أنه لم يعد يستخلص شيئاً من المتعة الشيطانية فى الدوران بالسيارة ، عند المنحدرات على عجلتين ، ولا فى فصل البغال عن العربات بصدم دعائمها بحاجز سيارته وهو مار . وقد ظل بايارد العجوز يصر على اصطحابه فى السيارة ، إذا كان عليه أن يركبها ، ولكن باطمئنان أكثر ومرة تحدث إلى مس جينى عن اعتقاده المتزايد أن بايارد الصغير لم يعد يرغب فى تدمير نفسه بطريقة عنيفة .

أما مس جينى فقد كانت امرأة صادقة التفاؤل بطبيعتها ، أى أنها كانت تتوقع دائما وفى كل وقت أسوأ الأشياء ، ولذا فقد كانت تلتقى كل يوم بالمفاجآت السريعة . وقد أخرجت بايارد العجوز من وهمه عن حفيده .

وفى أثناء ذلك أرغمت بايارد الصغير على شرب الكثير من اللبن. وأشرفت على طعامه وساعات يومه بطريقتها العسكرية ، وأحيانا ، كانت تدخل غرفة نومه فى الليل وتجلس لحظات بجوار فراشه وهو نائم .

ورغم كل شىء ، فقد تحسنت طرق بايارد الصغير . ودون أن يحس بتطور الأمر ، غرق فى رتابة من الأيام ، ووقع فى مصيدة من أنماط متكررة من النشاط ، ألفتها عضلاته إلى الدرجة التى استطاع معها جسمه أن يمضى اليوم كله دون عون منه على الإطلاق . لقد اصطادته الأرض بحيلها الدقيقة ، وهى دليلة العجوز ، فلم يدرك أن خصلات شعره قد اجتثت ، لم يدرك أن مس جينى وبايارد العجوز قد أخذا يتساءلان منذ زمن كم سيمضى من الوقت قبل أن تستطيل مرة أخرى .. وقد فكرت مس جينى ، « أنه يحتاج إلى زوجة ، ربما لاتستطيل خصلاته حينئذ . يحتاج لامرأة صغيرة تحمل معه همه . وقالت لنفسها ، « بايارد عجوز جدا وأنا لدى الكثير جدا لأعمله ، لكى أجد وقتا أشغل فيه بالشيطان الطويل » .

ومن حين إلى حين ، كان يرى نارسيسا فى البيت ، وأحياناً على المائدة ، وكان يحس بنفورها منه ، وإحجامها عنه ، وأحيانا ، كانت مس جينى ترقبهما وهى فى مقعدها بنوع ما من التوقيع والغيظ ، وكل منهما يتظاهر بعدم إحساسه بوجود الآخر ، « إنه يعاملها كما يعامل كلب دورقا من البلور ، وهى تنظر إليه كما ينظر دورق من البلور إلى كلب » .

ثم مضى موسم البذر وجاء الصيف ، ووجد نفسه بلا شىء يعمله . كان الأمر بالنسبة له كمن أفاق من النوم فجأة مضطرب الوعى والحس ، من الوديان الدافئة المشمسة ، حيث يعيش الناس ، إلى بقاع بلقع تشمخ فيها قمم باردة من اليأس الوحشى ، فوق الوديان المفقودة بين نجوم سوداء متوحشة .

انحدر الطريق فى قوس ناعم أحمر بين أشجار صنوبر تلاطمت داخلها

رياح يوليو الساخنة محدثة صوتا ، كأنه صوت قطارات بعيدة ماضية .
ثم هبط بعد ذلك إلى كتلة من الصفصاف أقل خضرة ، حيث كان يمر
مجرى من الماء تحت جسر من الحجر . وعند قمة المنحدر توقفت البغال
الفزعة أرنبية الشكل ، ونزل الزنجي الأصغر وأخذ من العربة غصنا من
البلوط الأبيض قلبت أوراقه ، واحتجز العجلة الخلفية بأن زج الغصن بين
العجلة المتهالكة والمدعمة بلفات من السلك وبين محورها . ثم تسلق المنحدر
مرة أخرى إلى العربة الغربية ، حيث كان يجلس الزنجي الآخر في جمود تام ،
وأعنة البغال المصنوعة من الحبال المفتولة بين يديه ورأسه متجهة إلى
مجرى الماء . سأل « ماذا كان هذا ؟ » .

وسأل الآخر ، « ماذا كان ماذا ؟ . وقد جلس والده ، ينصت في
سكون تام ، كما أنصت الزنجي الأصغر . إلا أنه لم يكن ثمة صوت آخر ،
عدا زفيف الريح الطويل بين أشجار الصنوبر الوقورة ، وصفير منسال من
طائر سمان في مكان ما من بين قلاعها الخضراء قال ، « بابا ، هل تسمع
شيئاً ؟ .

قال وقد حرك الأعنة فجأة ، « شيء ما تحطم هناك . شجرة سقطت ،
ربما ، » ثم هتف بالبغال ، « ووب ، يابغال . » اهتزت البغال آذانها
التي تشبه آذان ذكور الأرانب ، ونقلت العربة إلى الحركة ، ومضوا تحت
الظلال الرطبة المبرقشة ، وصوت احتكاك العجلة المثبتة يصحبهم ، ومن
ورائهم أثرها على الطريق ، شريط براق يميل إلى الزرقة على تراب الطريق الأحمر
الناعم . وعند قاعدة التل اخترق الطريق الجسر الحجرى ، وتصاعد مرة
أخرى ، ومن تحت الجسر تلألأ الماء وتماوج بلون بني بين أشجار
الصفصاف ، وبجوار الجسر المعبر استلقت سيارة في المياه مقلوبة على ظهرها .
وما زالت عجلاتها الأمامية تدور ، وآلتها تعمل بسرعة قليلة ويتقاطر منها
دفعات شاحبة من غازات العادم . ومضى الزنجي الأكبر إلى الجسر ثم
توقف ، وظلا جالسين يتطلعان بجمود إلى بطن السيارة المستطيل ثم تكلم
الزنجي الأصغر فجأة .

« إنه هناك إنه فى الماء تحتها . أستطيع أن أرى قدميه خارجها » .

قال الآخر ، وقد بدا عليه الاهتمام والضيق معاً ، « إنه معرض للموت غرقا هناك . » ثم هبط من العربة . وانحدر الزنجى الأصغر إلى المجرى ، ولف الآخر الأعنة ببطء حول إحدى الدعائم التى تثبت جسم العربة إلى هيكلها وزج ثمار الجوز المقشرة المنبهة تحت المقعد ، ودار حول العربة وسحب القضيب من العجلة المحتجزة ووضعه فى العربة ، ثم نزل بحذر إلى شاطىء المجرى حيث كان يجلس ابنه ، محلقا فى ساقى بايارد المختفيتين تحت الماء .

قال آمرا ، « إياك أن تقترب كثيراً من هـــذا الشىء ياولد . قد ينفجر .. مازال دائرا ألا تسمعه ؟ » ،

قال الأصغر ، « علينا أن نخرج هذا الرجل منها . سيغرق . »

« لاتلمسه . سيقول البيض إننا فعلناها . سننتظر حيث نحن الآن حتى يمر بنا شخص أبيض » .

قال الآخر « سيغرق قبل هذا . وهو مستلق فى هذا الماء » وكان حافيا وخطا إلى الماء ثم توقف مرة أخرى وموجات صغيرة بنية من الماء تنبع وتلتمع حول ساقيه النحيفتين السوداوين .

قال الأب ، « أنت جون هنرى ! تعال هنا بعيدا عن هذا الشىء » .

قال الولد مرة أخرى ، « علينا أن نخرجه من هناك » . ومضى الاثنان ، أحدهما فى الماء والآخر على الشاطىء يتجادلان بود وهدوء بينما كان الماء يتلألأ حول طرفى حذاء بايارد . ثم تقدم الزنجى الأصغر بحذر وأمسك قدم بايارد وشدها . وقد استجاب الجسم وتحرك ثم خمد مرة أخرى ، أما الزنجى الأكبر سنا فقد ظل جالساً وهو يغمغم بعداء ، وخلع حذاءيه

وخطا إلى الماء أيضا ، قال جون هنرى ، وهو جالس فى الماء وذراعاه تحت السيارة ، « ثمة شىء يعترض جسمه . إنه محجوز تحت عجلة القيادة ، ولكن رأسه ليست مغمورة تماما تحت الماء . دعنى أحصل على العمود الخشبى » .

ثم صعد إلى حيث كانت العربة وأحضر الساق منها ، وعاد إلى حيث كان أبوه يقف ، ويتملى من ساق بايارد وبه شعور من الاستهجان والدهشة الوقورة ، وبمعونة الساق رفعا السيارة بما يكفى لسحب بايارد من تحتها . رفعاه إلى الشاطىء حيث تمدد فى ضوء الشمس بوجهه الهادىء المبلل وشعره الملبد ، وأخذ الماء يتقاطر من حذاءيه ، وقد وقفا من حوله يبدلان قدما بعد قدم ، وهما يعتصران الماء من ملابسهما .

قال الأكبر سنا أخيراً « إنه ابن كولونيل سارتورس ، أليس كذلك ؟ » وجلس على الرمال بصعوبة ، وهو يتأوه ويزوم ، وارتدى حذاءيه .

أجاب الآخر . « نعم ياسيدى . بابا . هل مات ؟ . »

قال الآخر بخفة ، « بالطبع ميت » . بعد أن قفزت به هذه السيارة من فوق الجسر ، وألقت به فى المجرى ؟ ماذا تظنه إذن فى أية حالة إن لم يكن ميتاً ؟ وماذا ستقول عندما يسألك القانون كيف حدث أنك الوحيد الذى وجده ميتاً ؟ قل لى هذا . ؟ »

« قل لهم إننا جئنا لمساعدته » .

« هذا ليس من شئونى . أنا لم أقد هذا الشىء فوق الجسر ـ انصت إليها وما زالت تغمغم وتدمدم حتى الآن . هيا امض بنا لأنها ستنفجر » .

قال جون هنرى ، « الأفضل لنا أن نأخذه إلى البلدة . ربما لا يمر أحد من هنا اليوم » . ثم انحنى ورفع كتفى بايارد . وثبته فى وضع جالس ، وقال ، « بابا ، عاونى على حمله إلى الطريق » .

قال الآخر مرة أخرى « ليس هذا من شئونى . » إلا أنه انحنى وأمسك بساق بايارد ـ ورفعاه ، فتأوه دون أن يسترد وعيه » .

هتف جون هنرى ، « هل سمعت هذا إنه ليس ميتاً . إلا انه كان من الجائز أن يكون ، بجسمه الخامد الطويل ورأسه معقوفة بشكل مروع ومحشورة فوق كتف جون هنرى . واستراحا قليلا ، واستدارا إلى الطريق . هتف جون هنرى . « هاه ! هيا بنا » .

وناضلا معه بجهد صاعدين الشاطئ المنحدر حتى وصلا إلى الطريق ، حيث تخلى الأكبر سنا عن نصيبه من الحمل وتركه يستقر على الأرض . « أوف ، وقذف زفيره بحدة وقال ، « ثقيل كغرارة دقيق » .

قال جون هنرى ، « بابا ، هيا . دعنا نحمله إلى العربة » وانحنى الآخر مرة أخرى . ورفعا بايارد ، وقد التصق التراب الأحمر بفخذيه المبللتين ، وحملاه وهما يزومان على مراحل إلى العربة . قال جون هنرى « يبدو كرجل ميت . بالتأكيد أنه يعمل مايعمله ميت . سأركب فى الخلف هنا ، وأحمى رأسه من الاصطدام بالعربة » .

قال أبوه آمراً ، « أحضر عمود الفرملة الذى تركته فى المجرى » ونزل جون هنرى واستعاد العمود وركبه فى العربة ورفع رأس بايارد إلى ركبتيه . وفك أبوه الأعنه وصعـــد إلى المقعد المتهالك واستعاد ثماره المقشرة .

قال مرة أخرى « أنا لاأحب هذا النوع من الأحمال . ووب ، يابغال ، وحركت البغال العربة من سكونها مرة أخرى ، ومضت . ومن ورائهم كانت العربة مستلقية على ظهرها فى المجرى ، ومازالت آلتها تغمغم فى سرعة هادئة .

أما صاحبها فقد كان مستلقياً فى عربة بلا زنبركات ، مسترخيا وخامداً

مع هزات الطريق وظل هكذا عدة أميال . كان جون هنرى يضع قبعته الخوصية المهشمة بين وجه الرجل الأبيض والشمس . وقد ظل بابارد مستلقيا مكانه ثم تأوه مرة أخرى .

قال جون هنرى ، « بابا ، هدىء من سرعتك . أيقظته صدمات الطريق » .

أجاب الآخر ، لا أستطيع أن أفعل شيئا إزاء هذا! . أنا لم أقفز بهذه السيارة من فوق الجسر . علـى أن أصل إلى البلدة ثم أعود إلى البيت هيا ، يابغال » .

وجهد جون هنرى فى التخفيف عليه من وقع الصدمات ، وتأوه بابارد مرة أخرى ، ورفع يده إلى صدره . ثم تحرك وفتح عينيه ، ولكنه أغمضهما فى الحال عن وهج الشمس . وظل مستلقيا يسب ويلعن ورأسه على ركبتى جون هنرى . ثم تحرك مرة أخرى محاولا الجلوس . إلا أن جون هنرى منعه ، ثم ناضل بشدة وفتح عينيه مرة أخرى .

قال ، « دعنى . عليك لعنة الله . أنا مصاب »

قال « نعم سيدى الكابتن . فقط إذا استلقيت بهدوء - »

تحامل بابارد على نفسه بعنف ، وهو يقبض على خاصرته ، وأسنانه تلمع من بين شفتيه المشدودتين ، وقبض على كتف جون هنرى بأصابع كخطافات من صلب وصرخ « قف ، وهو يحملق بوحشية فى ظهر الزنجى الآخر « أوقفه ! أرغمه على الوقوف إنه يغرس أضلاعى الملعونة داخل صدرى» وسب مرة أخرى ، محاولا أن يهم على ركبتيه . وقد قبض على كتف جون هنرى ، وأمسك باليد الأخرى خاصرته . واستدار الزنجى الأكبر ونظر إليه ، وصاح بابارد : « اضربه بشىء . أرغمه على الوقوف . أنا مصاب . اللعنة على كل شىء »

وتوقفت العربة ، كان بايارد فى تلك اللحظة على أربعته ، وقد تدلت رأسه وأخذت تتمايل من جانب إلى جانب . وكأنه حيوان جريح . وراقبه الزنجيان بهدوء ، وتحرك ، وحاول أن ينزل من العربة . قفز جون هنرى إلى الأرض وعاونه ، وخرج منها ببطء ، واستند إلى العجلة وكان وجهه شاحباً يتصبب عرقاً وقد صر على أسنانه وشد شفتيه .

وقال جون هنرى ، « كابتن . عد إلى العربة ودعنا نصل إلى طبيب فى البلدة »

وبدا وكأن اللون نفسه قد فر من عينيه أيضاً ، واستند إلى العربة وهو يبلل شفتيه بلسانه ، ثم تحرك مرة أخرى وجلس إلى جانب الطريق وأصابعه تتعثر فى أزرار قميصه وكان الزنجيان يرقبانه .

سأل ، « ولد هل معك سكين ؟ »

قال جون هنرى ، « نعم سيدى » وأبرزها ، وبتوجيه من بايارد شطر القميص وخلعه له ، وبمعاونته ، لف بايار القميص بقوة حول جسمه ووقف

« معك سيجارة » ؟

ولم يكن لدى جون هنرى ، وقال عارضا ، « بابا معه بعض طباق المضغ » .

« أعطنى مضغة إذن . » أعطاه مضغة وعاوناه على العودة إلى العربة ، ثم إلى المقعد وأخذ الزنجى الآخر الأعنة . وقعقعوا وجلجلوا بطريقة متقطعة فوق تراب الطريق الأحمر من الظلال إلى النور ، صاعدين هابطين .

واحتضن بايارد صدره بذراعيه بعنف ، وهو يمضغ ويسب ويلعن بانتظام . ومضوا ومضوا ، وعند كل لكزة من لكزات الطريق ، ومع

كل نفس من أنفاسه ، كانت أضلاعه المكسورة تطعن فى لحمه وتنغرس فيه ، ومضوا ومضوا من الظلال إلى ضوء النهار ، ثم إلى الظلال مرة أخرى .

ثم تل أخير . وخرج الطريق من الظلال وعبر الوادى المستوى العارى من الأشجار ، والتحم بالطريق العام . وهنا توقفوا ، والشمس ترسل شواظها على كتفيه العاريتين ورأسه العارية ، بينما أخذ فى الجدل مع الزنجى العجوز عما إذا كان عليهم أن يأخذوه إلى البيت أم لا . وهاج هائج بايارد.وسب ولعن ، إلا أن الآخر ظل معادياً ، ولا يتزعزع ثم أخذ بايارد الأعنة من يديه وأدار البغال إلى الوادى ، وبأطراف الأعنة ساط الحيوانين المذهولين ودفعهما إلى حركة مجنونة .

كان هذا الميل الأخير أسوأ ما فى الطريق كله . وقد أحاطتهم من كل جانب الحقول المزروعة الممتدة حتى التلال المتلألئة . كانت الأرض مشبعة بالحرارة ، ومستصلحة ومحروثة ومشبعة مرة أخرى ومخمورة بما شربت ، وهى تنتح الحرارة وكأنها أنفاس مخمور . وكانت الأشجار على جانب الطريق متباعدة ، لم تكتمل النمو ، وتباطأت البغال إلى مشى يثير الجنون فى الأتربة التى تثيرها ، ثم تخلى عن الأعنة مرة أخرى ، وتعلق بالمقعد وهو فى غفوة حمراء ، لا يعى إلا عطشاً كريهاً ، وكان يدرك أنه فى الطريق لأن يفقد وعيه . وقد أدرك الزنجيان أيضاً أنه على وشك أن يفقد وعيه ، وخلع الزنجى الأصغر قبعته البالية وارتداها بايارد .

اتخذت البغال بآذانها المضحكة بالغة الضخامة أشكالا غريبة ، واندمجت فى أشكال أخرى خالية من المعنى ، ثم انفصلت عنها واندمجت معها مرة أخرى . وكانت تبدو فى بعض الأحيان وكأنها تتقدم إلى الخلف ، وأنها ستزحف بشكل مرعب مارة بنفس الشجرة أو بنفس عمود التليفون

مرة تلو المرة ، وبدا له وكأن ثلاثتهم والعربة المقعقعة والحيوانين ـ قد وقعوا فى طاحونة مجنونة . حركة لا تتقـــدم ، أبدية وبلا أمل فى الخلاص .

ولكن ، أخيراً ، ودون أن يكون واعيا بالأمر ، استدارت العربة ودخلت بين البوابات الحديدية ووقعت الظلال على أكتافه العارية وفتح عينيه ، وسبح أمامه بيته وطفا فى سراب باهت . وتوقفت هزات العربة ، وعاونه الزنجيان على النزول ، وتبعه الأصغر إلى الدرج وهو يمسك بذراعه . ولكنه دفعه بعيداً عنه وصعد الدرج وعبر الشرفة . وفى البهو ، وخاصة بعد وهج العراء ، ظل لحظة لا يستطيع أن يرى شيئاً ، وهكذا وقف يتطوح ، وبه غثيان ، وهـو يفتح عينيه ويغمضهما . ثم اندفعت عينا سيمون من العتمة .

قال سيمون ، « باسم الله ، ماذا كنت تفعل ؟ »

قال « سيمون ؟ » وتطوح ، وتعثر قليلا محاولا أن يستعيد توازنه ثم اصطدم بشىء « سيمون » .

وتحرك سيمون بسرعة ولمسه ، « ظللت أقول لك إن هـذه السيارة ستقتلك . ظللت أقول لك هذا ! » وأحاط سيمون بايارد بذراعيه وقاده إلى الدرج . إلا أنه رفض أن يستدير هنا ، ومضى إلى مؤخرة البهو وعاونه سيمون على الوصول إلى المكتب ، وتوقف وهـــو منحن على مقعد .

قال متعثراً ، « المفاتيح . العمة جينى . أحضر شرابا » .

قال سيمون ، « العمة جينى ذهبت إلى البلدة مع مس بينبو . لا يوجد أحد هنا . لا يوجد أحد هنا على الإطلاق عدا الزنوج . ظللت أقول لك ! » وتأوه مرة أخرى ، وهو يتضرع إلى بايارد ، « ولكن لا يوجد دم مع ذلك . مستر بايارد ، تعال إلى الأريكة واستلق عليها » .

قال بايارد ، « المفاتيح ، أحضر المفاتيح » .

« نعم سيدى . سأحضرها » ولكنه ظل يلوح بيديه الشاردتين من حول بايارد ، حتى سبه بايارد ودفعه بعنف بعيداً عنه . وظل يتأوه ، « لايوجد دم » واستدار وحجل من الغرفة . وجلس بايارد ، منكفئاً إلى الأمام ، وقد احتضن صدره بعنف . وسمع سيمون وهو يصعد الدرج ويمضى فوقه . ثم عاد وراقبه بايارد وهو يفتح الدرج ويخرج الدورق ذا الغطاء الفضى . أخرجه ثم حجل مرة أخرى خارجاً ، وعاد بكوب ، ليجد بايارد بجوار المكتب يشرب من الدورق ، وعاونه سيمون على العودة إلى مقعده ، وصب له شراباً فى الكوب ، ثم بحث له عن سيجارة ، وظل يحجل من حوله شارداً ودون جدوى ، « مستر بايارد ، دعنى أناد الطبيب » .

« لا . أعطنى شراباً آخر » .

وأطاع سيمون ، « شربت ثلاثة بالفعل . دعنى اتصل بمس جينى والطبيب ، مستر بايارد ، أرجوك ياسيدى »

« لا . دعنى وحدى . أخرج من هنا »

وشرب الكأس . وقد ذهب الغثيان والأشكال السرابية وشعر بتحسن . وعند كل نفس من أنفاسه كانت خاصرته تطعنه بإبر ساخنة ، ولذا فقد حرص على أن يتنفس بخفة . لو أنه استطاع فقط أن يتذكر هذا . . . نعم . لقد شعر بتحسن كبير ، ولذا وقف بحذر ، وذهب إلى المكتب وأخذ شراباً آخر . نعم . ذلك هو العقار الذى يصلح الجرح ، كما قال سورات . كذلك الوقت حينما نفذت فى بطنه رصاصة ومامن شىء كان يستطيع البقاء فى معدته إلا خمر الجن واللبن . وهذا ، هذا لم يكن شيئا على الإطلاق ، مجرد بضعة أضلع تقوست . سيشد هيكله بسلك من أسلاك البيانو فى عشر دقائق . لا ليس كجونى . نفذت كلها مباشرة فى فخذه .

الجزار الملعون لم يرض حتى أن يرفع عينيه ولو قليلا . ينبغى ألا ينسى ألا يتنفس ببطء .

وعبر الغرفة ببطء ، ومرق سيمون أمامه فى عتمة البهو ، وصعد الدرج متباطئا . وهو قابض على سياجه ، بينما كان سيمون يطوح بيديه ويرقبه . ودخل غرفته ، الغرفة التى كانت له مع جون ، واستند برهة إلى الجدار حتى استطاع أن يتنفس بهدوء مرة أخرى ، ثم مضى إلى الصوان وفتحه ، وخر على ركبته بحذر ويده تستند إلى خاصرته وفتح الدرج الذى كان هناك .

لم تكن ثمة أشياء كثيرة فيه ، ثوب ، كتاب صغير ذو غلاف من جلد وظرف رصاصة بندقية صيد مربوط بها بسلك مخلب دب مجفف . كان دب جون الأول ، وكانت الرصاصة التى قتله بها فى بطن النهر بالقرب من أراضى ماك كالم إذ كانت سنه اثنتى عشرة سنة . أما الكتاب فقد كان العهد الجديد ، وكان مكتوبا على الورقة البيضاء التى تحول لونها وأصبح بنياً « إلى ولدى ، جون ، فى عيـــد ميلاده السابع . فى ١٦ مارس ١٩٠٠ ، من والدته » . وكان عنده واحد مثله تماما ، كان ذلك هو العام الذى رتب فيه جده أمر رحيلهما ليلتحقا بالمدرسة ، فأوقف قطار البضائع المحلى ليأخذهما إلى البلدة . وكانت السترة سترة صيد مصنوعة من نسج القاوع ، تلطخت واصطبغت بما كان يوماً دما ، وتخدشت وتمزقت بفعل أشواك الورد البرى ، وما زالت تفوح منها بضعف رائحة ملح البارود .

ورفع الأشياء ، وهو راكع ، واحداً إثر الآخر ، ووضعها على الأرض ثم التقط السترة مرة أخرى وسحبت إلى خياشيمه رائحتها الحادة العتيقة المتهالكة الفواحة بهمس الحياة والدفء وهمس ، « جونى ، جونى ، وفجأة رفع الثوب إلى وجهه ثم أوقفه فى منتصف الطريق بنفس الحدة ،

وبينما كان الثوب محمولا بين يديه تطلع فوق كتفية بسرعة ، إلا أنه تمالك نفسه على الفور ، وأدار رأسه ورفع الثوب وغمر وجهه فيه ، بتحد وإصرار ، وظل راكما برهة .

ثم هم واقفا . حمل الكتاب وتذكار الصيد والسترة ومضى إلى صوان ملابسه . وأخذ صورة من أحد الأدراج ، كانت صورة جون مع أعضاء نادى الطعام فى جامعة برنستون وأخذ هذه أيضا تحت إبطه وهبط الدرج ومضى إلى الباب الخلفى ، وعندما نفذ منه كان سيمون يعبر الساحة بالعربة ، وعندما مر بالمطبخ كانت النورا ترتل إحدى أغانيها الناعمة التى لاتنتهى .

استقر الإناء الأسود والدلاء الخشبية وراء الموقد ، وهنا كانت النورا تغسل الملابس فى جو مناسب ، وقد كانت تغسل اليوم ، وتمايل حبل الغسيل من جهة إلى جهة بحمله المبلل المتهدل ، ومن تحت الإناء ، كان الدخان يتصاعد متلويا من الرماد الناعم وقلب الإناء بحذائه ، ودفعه بعيدا ، وأحضر من مظلة الخشب ملء ذراع من عيدان الصنوبر الزيتية ووضعها على الرماد ، وسرعان ماتوهجت النار باهتة اللون فى الهواء المنير ، وعندما أمسكت النيران بالخشب بقوة وضع السترة والعهد الجديد وتذكار الصيد والصورة بين اللهب ودفعها وقلبها حتى احترقت تماما ، ومضت النورا ترتل برقة فى المطبخ وهى تعمل ، وجاء صوتها دافئاً نائحاً حزينا على أمواج الهواء المضيئة . يجب أن يتذكر ألا يتنفس بعمق .

وأسرع سيمون بالعربة إلى البلدة ، ولكنه كان قد سبق بالخبر إليها فقد تحدث الزنجيان إلى تاجر عن اكتشافهما لبايارد وهو ملقى على جانب الطريق ، ووصلت الأنباء إلى المصرف وأرسل بايارد العجوز إلى دكتور بيبودى ولكن دكتور بيبودى كان قد خرج للصيد ، ولذلك فقد أخذ دكتور ألفورد بدلا منه ، ومراعماً فى سيارة دكتور ألفورد بسيمون عند حافة المدينة ، فاستدار وتبعهم

ولكنه عندما وصل إلى البيت كانوا قد خدروا بايارد الصغير فأصبح عاجزاً مؤقتاً عن إحداث مزيد من الأضرار ، وعندما وصلت مس جينى ونارسيسا إلى البيت بعد ساعة ، دون أن تتوقعا أية مفاجأة ، كان قد ضمد واستعاد وعيه مرة أخرى . لم تكونا قد سمعتا عن الحادث ، ولم تتعرف مس جينى على سيارة دكتور ألفورد المنتظرة فى الممر الخاص ، ولكنها ألقت نظرة واحدة على السيارة الغريبة وقالت .

« هذا الأحمق قد قتل نفسه أخيراً » . وخرجت من سيارة نارسيسا وأسرعت إلى البيت وصعدت الدرج .

كان بايارد مستلقيا فى فراشه ، وكان شاحباً ساكناً وارتسم على وجهه شىء من الخوف كان بايارد العجوز والطبيب على وشك الانصراف وانتظرت مس جينى حتى أصبحا خارج الغرفة . ثم أطلقت عاصفة غضبها الجنونى ، ومسحت على شعره ، بينما كان سيمون يحجل ويموء فى الركن بين الفراش والجدار «وهو كذلك . مس جينى ، وهو كذلك ظللت أقول له هذا » .

وغادرته ونزلت إلى الشرفة حيث كان دكتور ألفورد فى انتظار أداء واجبات الرحيل كما ينبغى . وكان بايارد العجوز ينتظره فى عربته ، عندما ظهرت مس جينى ، استعاد الطبيب جفافه مرة أخرى ، وأكمل واجباته ومضى ، وركبا معاً .

وبحثت مس جينى فى أنحاء الشرفة ، ثم فى البهو ، وتساءلت «أين — » ثم نادت « نارسيسا » وجاءها رد ندائها ، فقالت « أين أنت » ؟ وجاء الجواب أيضاً ، ودخلت البيت ، ورأت ثوب نارسيسا الأبيض فى العتمة حيث كانت جالسة على معقد البيانو . قالت مس جينى ، « إنه متيقظ . تستطيعين أن تأتى وتريه » ووقفت الأخرى وأدارت وجهها إلى الضوء وسألتها مس جينى « ما الأمر ؟ » تبدين أسوأ منه حالا بكثير . أنت شاحبة كورقة بيضاء » .

قالت الآخرى . لاشيء ، أنا . . ، وحملقت فى مس جينى لحظة ، وهى تضم ـ قبضتيها إلى جبينها ، « يجب أن أذهب ، وخرجت إلى البهو « تأخر الوقت ، وهوزاس » .

سألتها مس جينى بشغف ، تستطيعين أن تأتى وتتحدثى إليه ، ألا تستطيعين هذا ؟ لا يوجد أثر من دم إذا كان هذا ما تخشينه »

أجابت نارسيسا ، « ليس هذا . أنا لست خائفة »

اقتربت مس جينى منها متطلعة نفاذة العينين وقالت بحنان ، « حسنا ، وهو كذلك . إذا كنت تفضلين ألا تفعلى . ظننت فقط طالما أنك هنا . أنك ربما ترغبين فى أن ترى أنه فى حالة طيبة . ولكن لا تفعلى إذا كنت لا تشعرين برغبة فى ذلك ! » .

«لا . لا . أنا أرغب . أنا أريد » ومرت بمس جينى ومضت ، وعند قاعدة الدرج انتظرت حتى لحقتها مس جينى ، ثم مضت ، صاعدة بسرعة ، ووجهها بعيد عن مس جينى .

سألتها مس جينى « ماذا دهاك ؟ »وحاولت أن ترى وجهها ، « ماذا حدث لك هل وقعت فى حبه »

« أنا أحبه . . أحب بايارد » وتوقفت ثم أسرعت ، وهى تقبض على السياج بعنف ، ثم بدأت تضحك برقة ، ووضعت يدها الأخرى على فمها ، وصعدت مس جينى الدرج برفقتها ، وهى تنفذ إلى أعماقها بعينيها الحادتين ، وبها شعور من الدهشة وبرود ، وأسرعت نارسيسا وتوقفت عند قمة الدرج مرة أخرى ، ومازال وجهها محولا عن مس جينى وتركت مس جينى تمر بها ، وخارج الباب بالضبط ، توقفت واستندت إليه ، وهى تحاول أن تحبس ضحكها وارتجافها ثم دخلت الغرفة ، حيث وقفت مس جينى بجوار الفراش ، ترقبها .

وقد تلكأ فى الغرفة بعض من رائحة الأثير الثقيلة الحلوة ، واقتربت من الفراش كالعمياء ووقفت بجواره وقبضتا يديها المضمومتين مختفيتان. كانت رأس بابارد شاحبة هادئة كقناع منحوت طلى برقة بطاقة عنقه المبددة ، وكان يرقها وظلت تحملق فيه برهة ، وسبحت مس جينى والغرفة وكل شىء بعيداً عنها

صاحت بصوت رفيع محبوس ، أيها الحيوان ، أنت أيها الحيون لم يتحتم عليك دائماً أن تفعل هذه الأشياء حتى أضطر لرؤيتك ؟ ،

أجابها بابارد برقة ، ودهشة محدودة ، «لم أكن أعرف أنك هناك» . كانت تأتى كل بضعة أيام ، بناء على دعوة مس جينى وتجلس بجوار فراشه وتقرأ له .

لم يكن يهتم على الإطلاق بالكتب . ومن المشكوك فيه أن يكون قد قرأ برغبته على الإطلاق كتابا واحدا . إلا أنه كان يظل مضطجعا دون حركة فى قالبه بينما كان صوتها الجاد الدافىء يمضى ويمضى فى الغرفة الهادئة . وأحيانا كان يحاول الحديث معها . ولكنها كانت تتجاهل محاولاته وتمضى فى القراءة ، فإذا أصر ، كانت تخرج من الغرفة وتتركه . ولذا فسرعان ما تعلم أن يستلقى ، غالبا وعيناه مغمضتان ، سارحا وحده فى فيافى يأسه الكئيبة القاحلة ، بينما ينسال صوتها وينسال فوق الأصوات البعيدة التى كانت تصل إليهما — مس جينى تؤنب إيزوم وسيمون فى الطابق الأسفل أو فى الحديقة — وزقزقة الطيور فى الشجر وراء النافذة بالضبط ، وتأوهات مضخة الماء وراء الجرن التى لا تنقطع . وأحيانا كانت تتوقف وتنظر إليه لتجده نائماً فى سلام .

— ٥ —

جاء العجوز فولز فى خضرة يونيو اليانعة ، وصل إلى البلدة وكانت شمس الصباح ولا تزال أفقية ، وقد جلس فى ثوبه المرتب المغبر أمام بابارد العجوز الذى كان يرتدى تيلا ناصع البياض وزهرة جيرانيوم

بدت وكأنها جرح أحمر سعيد ، وكانت الغرفة رطبة وساكنة ، بضوء المصباح الصافى ، والغبار الذى يثيره البواب الزنجى فى لحظات دخوله الغرفة وخروجه منها ، وهى قليلة ، أما الآن وقد تقدمت السن ببايارد ، وازدادت أساليبه جفافا وتشبثا مع صممه المتزايد ، فقد ازداد ميله لإحاطة نفسه بأشياء من طينة مشابهة ، فكشف عن كفاءة لاتصدق فى اختيار الخدم الذين يشكلون أيامهم على طراز أيامه ، فى أسلوب من التسكع والضياع اليائس ، ومن هؤلاء الخدم البواب الذى كان يطلق على بايارد العجوز لقب جنرال ، ويطلق عليه بايارد العجوز والعملاء الذين كان يؤدى لهم واجبات ، فيما يبدو ، لا آخر لها ، ومن نوع سىء وذى أهمية متواضعة ، كانوا يطلقون عليه لقب دكتور جونز ، كان أسود محنى الظهر بفعل الطبع الشكى والسن المتأخرة ، وكان يستغل كل شخص يسمح له بذلك ، وكان بايارد العجوز يسبه ويلعنه طول الوقت الذى يكون قريباً فيه منه ، ويسمح له أن يسرق طباقه ومخزن المصرف من الفحم للشتاء آخذاً فى كل مرة ملء دلو ليبيعه للزنوج الآخرين .

كانت النافذة التى جلس وراءها بايارد العجوز وضيفه تطل على ساحة فضاء بها قمامة وأعشاب مغبرة وكانت محاطة بجدران كالحة هى مؤخرة مبان من طابق واحد من أنواع متباينة ، حيث كانت توجد متاجر صغيرة - لتصليح وتجارة المخلفات وأمثالها - وكان لها وجودها المتواضع وذاتها المجهولة . وكان أهل الريف يستخدمون الساحة نفسها فى أثناء النهار كمحط لخيولهم وبغالهم ، وكانت بعضها مقيدة داخلها بالفعل ، وهى وسنانة ذاهلة ومجترة . وكانت العصافير تحوم فى سحب مشاكسة حول الإفرازات النوشادرية القديمة التى تركتها أجيالها الغابرة ، وكانت الحمائم أيضاً ، تنزلق منحدرة بصوت كحفيف النوافذ المعدنية الصدئة ، وتتبختر وتتجمل فى أبهة مصقولة شرسة ، وهى تغنى لبعضها البعض بأصوات حنجرية غير واضحة .

جلس العجوز فولز على الجانب الآخر من المدفأة المملوءة بالقمامة ، وهو يمسح وجهه بمنديل أزرق نظيف .

قال معتذرا فى صوت كالرعد « إنهما ساقاى العجوزتين الملعونتين . اعتدت أن أمشى اثنى عشر أو خمسة عشر ميلا فى رحلة أو إلى اجتماع تراتيل ، فلا أتكلف من الجهد إلا أقل مما تجشمه لى هذه الأميال الثلاثة التى أقطعها إلى المدينة ، ثم مسح بالمنديل على وجهه الذى أصبح فى كل هذه السنوات بنيأ ومرحا بفعل الأرض السمحاء الممتدة . « يبدو وكأنهما قد صمما على خذلانى ، وأنا لم أصل بعد إلا إلى الثالثة والتسعين ، وقبض على لفافته فى يده ، الأخرى ، وظل يمسح على وجهه ولم يفتحها .

صاح بايارد العجوز ، « لم لم تنتظر على الطريق حتى تمر بك عربة . دائما تجد ولدا ملعونا قادما إلى المدينة يملأ عربة من الأعشاب ؟ »

قال الآخر مؤيداً ، « كان من الجائز أن أفعل ولكن الوصول إلى هنا بسرعة كبيرة يتلف على يوم عطلتى ، أنا لست مثلكم أنتم أهل المدينة ، ليس لدى من الوقت الكثير حتى أستطيع أن أتعجله » ثم وضع المنديل جانبا ووقف ووضع لفافته بحرص على الرف ، وأخرج من جيب قميصه شيئا صغيراً ملفوفا فى قطعة قماش بالية نظيفة ، ومن بين أصابعه المتعثرة المتباطئة برزت علبة نشوق معدنية ، صقلت بفعل الزمن والاستعمال حتى اكتسبت لون الفضة الناعم الخابى . وقد جلس بايارد العجوز يرقبه ، راقبه بهدوء عندما نزع غطاء العلبة ووضعه أيضا جانبا بحذر .

قال العجوز فولز ، « والآن ، أدر وجهك نحو النور » .

« ويلى ، لوش بيبودى يقول إن هذا العقار سيصيبنى بتسمم فى الدم » ومضى الآخر فى استعداداته البطيئة ، وعيناه الزرقاوان البريئتان مشغولتان فى استغراق . قال مصححا بهدوء ، « لوش بيبودى لم يقل هذا قط أحد هؤلاء الأطباء الشبان قال لك هذا . بايارد . حول وجهك إلى النور » .

أما بايارد العجوز فقد جلس متوتراً ، وأسند ظهره إلى المقعد ويديه على مرفقى المقعد ، وظل يرقب الآخر برزانة بعينيه العجوزين النفاذتين وبشيء من الحزن . لقد امتلأت عيناه بأشياء لا أسماء لها ، كأعين الأسد العجوز ، كما امتلأت بالإصرار .

أخذ العجوز فولز كتلة مناسبة من دهانه القاتم ووازانها على أحد أصابعه ، ووضع العلبة بجواره على مقعده الشاغر ، ووضع يده على وجه بايارد العجوز . . إلا أن بايارد العجوز ظل يقاوم وإن كان بطريقة سلبية ، وفى عينيه أشياء لا يمكن التعبير عنها ، وأزاح العجوز فولز وجهه بحزم ورقة نحو النور الداخل من النافذة .

« تعال هنا . لم أعد شابا بما فيه الكفاية لأضيع وقتى فى إيذاء الناس ، والآن ، لا تتحرك ، حتى لا ألطخ وجهك بالدهان ، فات الوقت الذى كانت فيه يداى ثابتتين تستطيعان التقاط رصاصة بندقية من فوق غطاء موقد ساخن » .

وهنا استسلم بايارد ، ونشر العجوز فولز دواءه على البقعة بلمسات صغيرة رشيقة ثم أخذ قطعة القماش ومسح الفائض من فوق وجه بايارد ، ورمى بها « إلى اليوم التاسع من يوليو . ستذبل وتتساقط . ولا تدع أحداً يلمسها » وقال راويا « أخذت جدتى هذه الوصفة من إحدى نساء قبائل الشوكتا منذ أكثر من مائة وثلاثين سنة ، ولم يتحدث أحدنا قط عما فى هذه العلبة ، ولا ترك لها أثراً وراءه ، ووقف بصعوبة ونفض التراب من فوق ركبتيه ثم أعاد الغطاء إلى العلبة بنفس العناية غير المتعجلة ووضعه جانبا ، والتقط حزمته من فوق الرف ، واستعاد مكانه .

« ستصبح سوداء غداً . وطالما ظلت سوداء فإن مفعولها مستمر . لاتضع ماء على وجهك قبل صباح الغد ، وسأحضر مرة أخرى بعد عشرة أيام ، وأدهنها مرة أخرى ، وفى يوم ـ » واستغرق فى التفكير

مرة أخرى وهو يعد ببطء على أصابعه المغضنة ، وشفتاه تتحركان ولكن دون أن تحدثا صوتا ـ « فى اليوم التاسع من يوليو ، ستسقط ، ولا تدع مس جيني ولا أياً من هؤلاء الأطباء يضايقك فى شأنها » .

ثم جلس وركبتاه مضمومتان معا . كانت حزمته مستقرة على ركبتيه ، وقد فتحها بعد أن أدى طقوسه العتيقة المعقدة ، وبعد أن ظل يتحسس بأصابعه العقدة الحمراء محاولا فكها ، بأناة تكفى لإثارة شخص أصغر منه ودفعه للسخط عليه والصياح فيه . أما بايارد العجوز فقد أشعل سيجاراً وأسند قدميه إلى حافة المدفأة ، وفى الوقت المناسب حل العجوز فولز أسرار العقدة ، وخلص الخيط ووضعه على مسند مقعده . ولكنه سقط على الأرض ، فانحنى إليه ، وأخذه بين أصابعه الكليلة ، ووضعه مرة أخرى على مسند المقعد . وظل يرقبه لحظة ليتأكد من أنه لن يسقط ثانية ، ثم فتح الحزمة . جاءت أولا علبة طباقه ، فأخرج منها قطعة وتشممها ، وقلبها فى يده ، ثم تشممها مرة أخرى ودون أن يقضم منها وضعها مع أخريات من صنفها جانبا ، وزج بيده داخل الحزمة : ثم فتح عنق الكيس الورق الذى أخرجه ، وتطلعت عيناه ، البريئتان كعينى صبي ، إلى محتوياتها بشهية ووقار .

قال : « أنا أعترف أننى أحيانا أحس بالخجل فعلا من رغبتى فى الحصول على حلوى الفم هـــذه . إنها لاتترك لى لحظة راحة على الإطلاق » ، ثم هز الكيس الورق ، دون أن يفقد ملاحظته للأشياء الأخرى المسندة على ركبتيه ، وأخذ منه اثنين أو ثلاثة من الأشياء المخططة التى تشبه حيوانات صغيرة ملونة بأطراف متعددة ، أخذها فى كفه ثم أعادها كلها إلا واحدة ، وضعها فى فمه « وأنا أخشى الآن أن أفقد أسنانى يوما ، فيتحتم على أن آكل الأنواع الطرية منها . أنا لا أستسيغ أبدا الحلوى الطرية » ، وقد أخذ خده فى التقبب قليلا مع حركة مضغه برتابة بطيئة ، كحركة التنفس ، ثم حملق داخل الحزمة مرة أخرى ، ووضعها فى يده وكأنه يزنها ويقدر محتوياتها .

«كانت أيام فى سنة ٦٣ وقبلها حينما كان يستطيع الرجل أن يشترى قطعة أرض وزوجا من الزنوج بهذا الكيس من الحلوى . أنا أذكر هذا وقد حدث مرات وكل شىء قد اتجه ضدنا ، ولم يعد ثمة سكر ولا قهوة وأصبح الطعام شحيحا ، فكنا نأكل الدقيق العطن عندما كان هناك دقيق ليسرق ، وحشائش المستنقعات عندما كان يتعذر سرقة الدقيق ، وكنا نعسكر فى الليل تحت المطر » وسبح صوته موليا بين أشباح عتيقة هى أشباح صلابة النفس والجسد ، فى عوالم من النضال الساحر عديم الفائدة ، حيث تقيم هذه الأشباح . ضحك بهدوء ووضع قطعة أخرى من حلوى النعناع فى فمه .

« أذكر ذلك اليوم عندما كنا معسكرين حول جيش جرانت المتجه إلى الشمال ، كان جرانت فى جرينادا حينئذ ، وأيقظنا نحن الأولاد ، الكولونيل وأخذنا الخيول والتحقنا بفان دورن فى ذلك الطريق . كان ذلك حينما كان الحصان الفضى مع الكولونيل . كان جرانت حينئذ فى جرينادا ، ولكن فان دورن انطلق ذات يوم واتجه إلى الشمال . ولم نكن نعرف نحن الأولاد . ربما كان الكولونيل يعرف ولكنه لم يقل لنا أبداً ، وليس يعنى هــــذا أننا كنا نهتم كثيراً ، مادمنا متجهين إلى بلادنا .

« وهكذا ركب رفاقنا معا ، متجهين للحاق بكتلة الجيش بعد ذلك . هذا ماكان يعتقده الآخرون ، ولكن الكولونيل لم تكن لديه أية فكرة عن هذا . لم يكن تاج استشهاده قد أعد بعد ، وكان ينتوى العودة إلى البيت لقضاء فسحة قصيرة . لم نكن فارين . كنا نعرف أن فان دورن يستطيع أن يصمد لهم تماما أسبوعاً أو أسبوعين . كان يفعل هذا عادة . كان رجلا طيبا .

قال بايارد مؤيداً «كانوا كلهم رجالا طيبين فى تلك الأيام ، ولكنكم ،

أنتم أيها الأولاد الملاعين ، كنتم تتخلون كثيراً عن القتال وتعودون إلى بيوتكم » .

قال العجوز فولز مدافعا ، « حسناً . حتى إذا كانت أرض التلال تفيض بالدببة الجارية فليس فى استطاعة الرجل أن يمضى دون انقطاع فى اصطيادها . حتم عليه أن يترك القتال بين الحين والحين ، حتى إذا كان هذا لإعطاء الكلاب والخيل قسطا من الراحة . إلا أننى أعتقد أنه كان فى استطاعة تلك الكلاب والخيل أن تمضى فى الصيد ، كأحسن ماتستطيعه غيرها » . ثم قال وقد أخذته كبرياء وقور ، « طبعاً لم يكن فى استطاعة كل شخص أن يثابر على المضى مع ذلك الحصان ذى اللون الضبابى . لم يكن فى كل جيش الاتحاد ، إلا حيوان واحد يستطيع أن يصمد له . ذلك الحصان الأخير الذى اقتنصه زيب فوثرجيل من أحد فرسان الحرس التابعين لشيرمان ، فى رحلته الأخيرة إلى تينس » .

« مامن أحد استطاع أن يعرف ما كان يفعله زيب فى رحلاته هذه . زعم كولونيل أنها كانت فقط لسرقة الخيل . إلا أنه لم يكن يعود قط بأقل من حصان واحد ومرة عاد بسبعة من أشرف مامشى منها على الأرض ، على ما أعتقد . وقد حاول أن يستبدل بها شيئا من اللحم والقمح ، ولكن لم يرد أحد أن يأخذها . ثم حاول أن يعطيها للجيش ولكن حتى الجيش رفض أن يأخذها ، فأطلقها ثم طالب قيادة جو جونستون بثمن عشرة خيول بيعت لفرسان فورست . لا أعلم إن كان حصل على رد على الإطلاق . رفض نيت فورست أن يأخذ هذه الخيول . وأشك إن كانوا قد أكلوا لحما فى فيكسبرج . . . أنا لم أكن أثق كثيراً فى زيب فوترجيل ، وهو يذهب ويعود ، بطريقته هذه ، وحده ولكنه كان يعرف الخيل وكان يحضر معه عادة حصانا طيبا ، كلما ذهب إلى الحرب . إلا أنه لم يحضر أبداً واحداً يشبه هذا » .

وقد ذهب الانتفاخ من فه ، فأخرج مطواة من جيبه واقتطع قضمة أنيقة من الطباق ، والتقطها بفمه من على نصل السكين . ثم أعاد حزم لفائفه وربط الخيط حولها وارتعد رماد سيجار بايارد برقة حول قلبه المتوهج إلا أنه لم يتساقط .

بصق العجوز فولز بأناقة بصاقاً بنياً فى المدفأة ومضى يروى ، « كنا ذلك اليوم فى منطقة كالهون . كان صباحا صيفيا جميلا كأجمل ما يكون الصباح ، وقد استرخى الرجال والخيل وطعموا وفاض بهم شعور الرضا ، ومضوا يتسكعون على امتداد الطريق خلال الغابات والحقول حيث كانت الطيور تشدو ، وصغار الأرانب تتقافز فوق الطريق . وكان الكولونيل وزيب راكبين معاً جنباً إلى جنب على تلكما الحصانين . كان الكولونيل على جوبيتر ، وزيب على ذلك المهر الذى يبلغ من العمر عامين ، وكانا يتفاخران كعادتهما وكنا جميعا نعرف جوبيتر حصان الكولونيل ، ولكن زيب مضى يردد أنه لن يتلقى من أى رجل الغبار الذى يثيره حصانه . كان الطريق مستقيما عبر بطن الوادى فى اتجاهه نحو النهر ، ومضى زيب يستفز الكولونيل ليسابقه ، حتى قال الكولونيل ، « وهو كذلك » ثم قال للأولاد أن يحضروا وذهب هو وزيب وانتظرونا عند معبر النهر على بعد اربعة أميال ، ثم وقف هو وزيب بجوار بعضهما البعض وانطلقا .

« كان الحصانان أجمل شيء رأيته فى حياتى . انطلقا معا كصقرين ، والعنق توازى العنق . واختفيا عن الأنظار فى مثل لمح البصر والغبار من ورائهما ثائر فى دوامات ، إلا أننا استطعنا أن نتتبعهما من خلال الغبار المتصاعد من ورائهما ، وكأنه يمتص من الطريق مسحوبا إلى أعلى ، وكأن واحدة من تلك السيارات تمضى فى وسطه وعندما وصلا إلى حيث ينحدر الطريق إلى النهر ، كان الكولونيل قد انتصر على زيب بما يقرب من ثلاثمائة ياردة . وكانت ثمة شجرة خضراء تحت الحافة

المرتفعة ، وعندما مرق الكولونيل فوق المرتفع رأى جماعة من فرسان اليانكى، بخيولهم المقيدة ، وبنادقهم المسندة يتناولون طعامهم بجوار النبع . قال الكولونيل إنهم كانوا جالسين هناك يتطلعون إلى المرتفع عندما اعتلاه ، وفى أيديهم فناجين القهوة وقطع الخبز ، وبنادقهم مسندة على بعد أربعين قدماً منهم وقد جحظت عيونهم نحوه .

لم تكن لديه - على كل حال - فسحة من الوقت ليستدير ويرتد ، إلا أننى لاأظنه كان يفعل حتى لو توافر له الوقت . انحدر على الفور من فوق المرتفع واندفع بحصانه بينهم ناثراً نيران الطهو ، والبنادق والرجال ، وهو يصيح « استسلموا يا أولاد . من تحرك منكم فهو ميت » وحاول أحدهم أو اثنان الفرار ولكن الكولونيل انتضى مسدسيه ، وأطلقهما فوق رءوسهما ، فعادا وجلسا بين الآخرين ، وهكذا قعدوا واستأنفوا تناول طعامهم ، عندما وصل زيب ، وهكذا أيضا وجدناهم عندما وصلنا بعد ذلك بعشر دقائق ثم بصق العجوز فولز مرة أخرى بأناقة ، بصاقا بنيا وضحك بهدوء وتلألأت عيناه وكأنهما حلزون بجرى لامع ، تلك القهوة ، كانت جبارة رائعة ، بالتأكيد » .

وهكذا كنا ، مع حزمة من الأسرى لاجدوى لنا منهم . احتفظنا بهم اليوم كله ، وأكلنا طعامهم ، وعندما جاء الليـــــل أخذنا بنادقهم ورميناها فى مجرى النبع وأخذنا ذخيرتهم وما تبقى من الطعام ، ووضعنا حارسا على خيولهم ، ثم نمنا ، نمنا الليل طوله فى أغطية هؤلاء اليانكى الصوفية الجيدة ، ونحن نسمعهم ، هؤلاء الأسرى ، وهم يتسربون واحداً بعد الآخر منحدرين على الشط ، ثم خائضين فى الماء إلى الشط الآخر . ومن حين إلى حين كانت تزل قدم أحدهم ، أو يهوى فى الماء أو شيئا ما من هذا القبيل ، ثم يعم السكون بعد ذلك برهة . لنسمعهم بعد ذلك وهم يحاولون نفس الشيء ، وهم يزحفون تحت الأحراش متجهين إلى

الماء ، ونحن نائمون هناك ، بحافة أغطيتهم الصوفية مرفوعة بأيدينا فوق وجوهنا . كان قد مضى من الوقت الكثير قبل أن يتسلل آخرهم بالطريقة التي رآها مناسبة له .

« ثم أطلق الكولونيل صيحة من حيث كان ينام ، كان فى استطاعة هذه المخلوقات التعسة أن تسمعها على بعد ميل » .

كان يقول ، « اذهب أيها اليانكى . واذهب وابحث لنفسك عن حذاء هندى » .

« وفى الصباح التالى أسرجنا خيولنا وحملنا غنائمنا ، وأخذ كل رجل حصانا ، وتحركنا نحو أرضنا . كنا قد أمضينا فى بلدنا أسبوعين ، وبذر الكولونيل قمحه ، عندما سمعنا عن غزو فان دورن لهولى سبرنجز واحتراق مخازن ذخيرة جرانت . وبات وكأنه لم يعد فى حاجة إلى مساعدتنا على الإطلاق ، ظل يمضغ طباقه برهة ، وهو يراجع الأمر بهدوء مستعيداً من الموت فى حضرة الرجال ترابا ، مع التراب الذى من أجله ، ودون علم ربما ، قاتلوا تلك الأيام البطولية محزومة البطون ، فى معارك لا يستطيع إلا قلة ممن يدبون على الأرض الآن ، أن يدخلوها معه .

نثر بايارد العجوز الرماد من سيجاره وقال « ويل ، بحق الشيطان ، عم كنتم تتقاتلون على أى حال ؟ » .

وأجاب العجوز فولز ، « بايارد ، فلتحل على اللعنة إن كنت عرفت هذا يوما » .

بعد أن رحل العجوز فولز ، بحزمته الصغيرة ، وخده المنتفخ البرىء ، ظل بايارد العجوز جالسا يدخن سيجاره ، ثم رفع يده ولمس الورم الصغير فى وجهه ، ولكن برقة متذكراً تعليمات العجوز فولز لحظة رحيله . وإذ تذكر هذا ، جالت برأسه فكرة أخرى أن الفرصة لم تضع لإزالة الدهان بالماء .

ووقف واتجه إلى المغسل فى ركن الحجرة ، وقد ثبت فوقه صوان صغير ، بمرآة على بابه وفيها تفحص البقعة السوداء فى خده ، لامسا إياها مرة أخرى بأصابعه ، ثم فاحصا بعد ذلك يده . نعم . لايزال من الممكن إزالته .. ولكن ، فلتحل عليه اللعنة إن فعل ، فليكن ملعوناً إذا كان لايعرف بالضبط مايريده ، ورمى سيجاره بعيداً وغادر الغرفة ومضى بخطوه الثقيل فى بهو المصرف متجها نحو الباب حيث كان مقعده هناك ... إلا أنه قبل أن يصل إلى الباب استدار واتجه إلى نافذة المصرف ، حيث كان الصراف بمظلة عينيه الخضراء يجلس وراءها .

قال « رس » .

رفع الصراف عينيه ، « نعم يا كولونيل » .

« من يكون هذا الولد الملعون الذى يتسكع حول هـــذا المكان ، ويتلصص بعينيه من هذه النافذة طول اليوم ؟ وخفض بايارد العجوز صوته كمن يدخل فى حديث .

« أى ولد ، ياكولونيل ؟ » .

وأشار بايارد العجوز بإصبعه ، ورفع الصراف نفسه على مقعده العالى ، ونظر خلال الحاجز ورأى وراء النافذة المشار إليها ، ولدا فى العاشرة أو الثانية عشرة يرقبه ببراءة وبطريقة عرضية . هتف ، « أوه ، إنه ابن ويل بيرد ، من الفندق الذى هناك . صديق بيرون ، على ما أظن » .

« ماذا يفعل هنا ؟ كلما مررت من هنا أراه هناك يتطلع من النافذة ؟ ماذا يريد ؟ » .

قال الصراف حادسا ، « ربما يكون لص مصارف » .

صاح بايارد وقـــد أحاط كفه المقوس بوحشية حول أذنه ، « ماذا ؟ » .

صاح الآخر ، وهو يميل إلى الأمام على مقعده ، « ربما يكون لص مصارف » .

وزفر بايارد العجوز بشدة ومضى يضرب الأرض بقدميه بعنف ، وصفق مقعده بالباب الذى وراءه وجلس الصراف مكوما فوق بعضه بلا شكل . وهو يغمغم فى أعماق جسمه الغليظ . قال دون أن يدير رأسه ، « سمح الكولونيل لويل فولز أن يطببه بذلك الدهان » . أما سنوبس فلم يحر جوابا وهو فى مكانه ، ولم يرفع رأسه أيضا . وبعد برهة تحرك الولد أيضا وانساق دون قصد معين ، وببراءة مبتعداً عن المصرف .

أصبح فيرجيل بيرد مالكا لمسدس يقذف تياراً من الماء النوشادرى الذى يسبب آلاما مبرحة للعين ، وفانوس سحرى صغير ، وصندوق أنيق قديم من صناديق الحلوى ، كان يستخدمه لعرض ممتلكاته من بيض الطيور وتشكيلة من الحشرات ، ماتت ببطء وهى مثبتة بالدبابيس ، ورصيد متواضع من الدراهم الصغيرة .

وفى يوليو غير سنوبس مسكنه . وتحاشى أن يلتقى بفيرجيل فى الطريق ، وهكذا ظل أسبوعين لم ير فيهما الولد على الإطلاق ، حتى كانت أمسية ، حينما خرج بعد العشاء من الباب الأمامى لمسكنه الجديد ووجد فيرجيل جالساً ببساطة وأدب على عتبة البيت .

قال فيرجيل ، « أهلا مستر سنوبس » .

— ٦ —

بلغ الغضب والغيظ بمس جينى أقصى حد ، ذلك الأصيل ، حينما عاد بايارد العجوز إلى البيت صاحت كالعاصفة ، « أنت أيها العجوز العنيد . ألا يستطيع بايارد أن يقتلك عاجلا ، بما فيه الكفاية ، حتى يتحتم عليك أن تدع هذا الساحر العجوز ويل فولز يصيبك بتسمم فى الدم ؟ وبعد ما قاله لك دكتور ألفورد ، ووافقه عليه حتى لوش بيبودى ،

وهو الذى يعتقد أن جرعة من الكينين أو الكالوميل تشفى كل شىء من عنق مكسورة إلى تورم الأصابع بتأثير الصقيع ؟ إننى أعلن : أنى أضيق ذرعا بكم أحيانا أيها الناس ، ولا أدرى أى جريمة ارتكبتها وأكفر عنها باضطرارى للحياة معكم . بمجرد أن هدأ بايارد بشكل ما ، واستطعت أن أكف عن الجرى كلما دق جرس التليفون ، يتحتم عليك أن تذهب وتدع هذا المقسول العجوز يدهن وجهك بشحم العجلات والصناج الأسود . إننى أفكر جادة فى أن أحزم أمتعتى وأخرج ، وأبدأ حياتى من جديد فى مكان مالم يسمع فيه أهله مطلقاً عن أى سارتورس ، وهاجت وماجت ومضت فى ذلك ، وهاج بايارد العجوز أيضاً ، بألفاظ عنيفة وسباب قطيع ، وتمطت أصواتهما وماجت فى البيت ، حتى خفف سيمون وإلنورا من وقع أقدامهما فى المطبخ ، وأنصتا . وأخيراً خرج بايارد من البيت ووقع أقدامه ثقيل وركب حصانه ومضى تاركا مس جينى تبلى غضبها الجنونى على الهواء الفارغ ، ثم ساد البيت سلام إلى حين .

ولكن العاصفة اختمرت ساعة العشاء مرة أخرى وانفجرت ، وكان فى استطاعة سيمون ، من وراء باب غرفة الساقى أن يسمعهم ، ومعهم بايارد الصغير أيضا ، وهو يحاول صاخباً أيضا أن يهدىء ثائرتهم . كان يصرخ « كفى . كفى . حبا فى الله لاأستطيع حتى أن أسمع صوتى وأنا أمضغ طعامى فى فمى »

استدارت مس جينى عليه على الفور وصاحت « وأنت أيضا . أنت مثله تماما ، متعب شاق أنت وأساليبك العنيدة المظلمة المشئومة وأنت تجوب المنطقة كالشيطان فى تلك السيارة لمجرد أنك تتصور أنه ربما يوجد شخص ما يعنيه على الإطلاق إن كنت ستحطم عنقك التى لاقيمة لها أم لا ، ثم تأتى بعد ذلك إلى مائدة العشاء ورائحتك كرائحة خادم الإسطبلات لمجرد أنك اشتركت فى حرب . أتظن نفسك الشخص الوحيد فى العالم الذى ذهب على الإطلاق إلى حرب ؟ أتظن رجلى بايارد ، عندما عاد من الحرب ،

كان يجعل من نفسه مبعث ضيق لكل شخص يتحتم عليه أن يعايشه ؟ ولكنه كان سيداً مهذباً ، كان يشعل نيران جهنم كسيد مهذب ، وليس مثلكم أنتم يا أهل ريف المسيسيبي . فلاحون أجلاف . انظر ماذا فعل بحصان فقط . لم يكن بحاجة إلى طائرة .

قال بايارد الصغير ، « انظرى إلى الحرب التافهة التى ذهب إليها . كانت حربا صغيرة إلى الدرجة التى جعلت الجد لا يرضى حتى بالبقاء فى فيرجينيا حيث كانت تدور » .

وأجابت مس جينى على الفور ، « وما من أحد أراده هناك . رجل يجن جنونه لمجرد أن رجاله عزلوه وانتخبوا بدلا منه كولونيلا أفضل . جن جنونه وعاد إلى الريف ليقود عصابة من القتلة قطاع الطرق » .

قال بايارد الصغير مرة أخرى « كانت حربا تافهة وعلى حصان . أى شخص يستطيع أن يشترك فى حرب على حصان . مامن فرصة لديه ليعمل الكثير من أى شىء » .

قالت مس جينى بسرعة ، « على الأقل استطاع أن يجعل نفسه يقتل بطريقة مهذبة . أتى بحصان مالم تستطع أنت أن تفعله بتلك الطائرة » .

قال سيمون وأنفاسه تصطدم بباب غرفة الساقى ، « ما أعنف شجارهم . هؤلاء الناس البيض يتشاجرون بالتأكيد » .

وهكذا كان مد وجزر فى البيت فى الأيام التالية ، ثم أبلى الأمر نفسه ، ثم فاض مرة أخرى عندما عاد بايارد إلى البيت بدهنة جديد على وجهه . إلا أن سيمون كان حينئذ قد أصبحت له متاعبه الخاصة أيضا ، متاعب استشار فيها بايارد آخر الأمر ذات أصيل . كان بايارد الصغير فى فراشه بأضلعه المهشمة ، ومس جينى ترعاه بحب وحشى دءوم ، ومس ينبو تعوده وتجلس معه وتقرأ له ، وعاد سيمون إلى شئونه الخاصة مرة

أخرى . لقد هبطت القبعة العالية والمعطف من فوق المسمار ، وتناقصت سجائر بايارد العجوز بمعدل سيجار واحد يوميا واستهلك زوج الخيل المتوافق كسلها المتراكم ما بين البيت والمصرف ، حيث كان ينحدر بها سيمون ويوقفها كل أصيل . كما كانت عادته منذ القدم ، بسيجاره المثبت فى وجهه ، وسوطه الرشيق المنشور ، وكل استعراضات اللحظة الرائعة . قال سيمون متفلسفاً ، السيارة لابأس بها للاستمتاع والاستثارة ، ولكن لكل سيد مهذب أصيل لايوجد إلا شيء واحد ، هو الخيل » .

وهكذا جاءت فرصة سيمون جاهزة بين يديه ، ومرة كانا قد خرجا من المدينة ، وقد استقر زوج الخيل فى سرعته المنتظمة ، فانتهز الفرصة .

قال مفتتحا الحديث « حسنا ، كولونيل ، يبدو وكأننا ، أنت وأنا سنضطر إلى الاتفاق على بعض الترتيبات المالية »

« ماذا » ؟ واستحضر بايارد العجوز انتباهه من حديث كان يتجول بين الحقول المزروعة المألوفة والتلال الزرقاء المضيئة من ورائها .

« قلت إنه يبدو أننا ، أنا وأنت سنضطر لعمل بعض الترتيبات بشأن قدر قليل من المال »

أجاب بايارد العجوز « سيمون ، أنا مدين لك بالشكر . إلا أننى لست فى حاجة إلى المال الآن . أشكرك على كل حال »

وضحك سيمون من أعماقه ، « كولونيل ، أنا أعلن ، أنت بالتأكيد رجل فكه ، غنى مثلك يحتاج إلى المال ! » ثم ضحك مرة أخرى ، ضحكا لزجا قصيراً « نعم ، سيدى ، بالتأكيد أنت رجل فكه » ثم توقف عن الضحك واستغرق فى الخيل برهة . كانا توأمين ، روزفلت وتافت . بمؤخرات انسيابية وأفخاذ عريضة مريحة ، « أنت تافت ، ميل على هذا الطوق . الكسل يتزايد فيك وسيقتلك يوما بالتأكيد . » وجلس بايارد العجوز يرقب رأسه القردية الشكل وقبعته

المالية المختالة ، ثم أدار سيمون وجهه المتغضن البرىء فوق كتفه مرة أخرى وقال « ولكن ، بالتأكيد يتحتم علينا أن نهدىء هؤلاء الزنوج بطريقة ما » .

« ماذا فعلوا ؟ ألا يستطيعون أن يجدوا ثمة شخصا يأخذ أموالهم »

قال سيمون شارحا « حسنا ، سيدى ، الأمر هكذا . إنه بشكل ما غريب من كل ناحية . أنت ترى ، كانوا يجمعون المال لبناء تلك الكنيسة التى احترقت ، وعندما حصلوا على النقود ، أعطوها لى ، بمالى من مركز رسمى هام فى مجلس إدارة الكنيسة ، ولأننى من أحسن الأسر فى المنطقة . حدث هذا فى عيد الميلاد الماضى ، والآن ، إنهم يريدون استرداد النقود » .

قال بايارد العجوز « هذا غريب »

وافقه سيمون فى الحال ، « نعم سيدى ، أحسست مثلك بنفس هذا الشعور » .

« إذا أصروا ، أظنه من الأفضل لك أن تعيده إليهم »

« والآن هأنت قد اقتربت من المشكلة ، وأدار سيمون رأسه مرة أخرى ، كان أسلوبه أسلوب من يعترف بسر خطير ، وقد فجر قنبلته بعد لحظة هدوء ، وبطريقة بالغة التأثير المسرحى ، « لقد ضاعت النقود »

أجاب بايارد العجوز ، وقد غاضت فكاهته فجأة ، « عليها اللعنة ، أنا أعرف هذا . أين ذهب هذا المال ؟ » .

قال سيمون ، وما زالت نغمته سرية ، وإن تخللها العجب الحزين من بلادة العالم « وهؤلاء الزنوج يتهموننى الآن بسرقتها » .

« هل تريد أن تقول لى إنك أخذت نقوداً تتعلق بناس آخرين ثم ذهبت وأقرضتها لغيرهم ؟ »

قال سيمون « أنت تفعل مثل هذا الأمر كل يوم . أليس إقراض

المال هو عملك الأساسى ؟ »

ودفع بايارد العجوز من أنفه صوتا غليظا عنيفا ، وقال « عليك أن تسترد هذه النقود وتعيدها إلى هؤلاء الزنوج ، وإلا فستنتهى إلى السجن ، هل تسمعنى ؟ »

قال سيمون بلهجة تفيض بالألم ، أنت تتكلم بالضبط كهؤلاء الزنوج الذين يقيمون فى طرف البلدة . » ثم قال مذكراً سيده « هذه النقود قد ذهبت الآن » .

« استعدها .. ألا يوجد لديك رهن لها ؟ »

« ألا يوجد لدى ماذا ؟ »

« شيء يساوى المال فى القيمة تحتفظ به حتى تسترد المال ؟ »

« نعم سيدى . عندى هذا ، ثم ضحك بهدوء مرة أخرى ، ضحكة طرية لزجة ، ساخرة وغنية بالإشارات اللطيفة « نعم سيدى » . وهو كذلك ، لدى هذا . إلا أننى لم أسمع الكلمة قبل الآن . والآن سيدى ، ليس الأمر كذلك .

سأله بايارد العجوز ، « هل أعطيت المال لامرأة زنجية ؟ »

قال سيمون « حسنا ، سيدى الأمر كذلك . » ولكن الآخر قاطعه :

« آه . بالشيطان . وأنت تتوقع منى الآن أن أدفعه لهم ، أليس كذلك ؟ كم كان المبلغ ؟

« لا أذكر كم كان بالضبط . يزعم هؤلاء الزنوج أنه كان حوالى سبعين أو تسعين دولارا أو ما يقرب من هذا . ولكن لا تعرهم التفاتك . ادفع لهم ما يتراءى لك صوابا . سيأخذونه . »

« أكون ملعونا لو فعلت . يستطيعون أن يستخلصوه من جلدك الذى لا يساوى شيئا ، أو أن يرسلوك إلى السجن .. أيا كان ما يرغبون فى

عمله ، ولكن سأكون ملعونا إذا دفعت منه شيئا واحدا » .

قال سيمون « كولونيل ، وبعد .. أتسمح لبعض زنوج البلدة هؤلاء أن يتهموا أحد أفراد أسرتك بالسرقة » ؟

صاح بايارد العجوز « امض ! » واستدار سيمون على المقعد ، وهتف بالخيل ، ومضى وسيجاره مرفوع باختيال إلى حافة قبعته ، ومرفقاه مفرودان ، والسوط وقد امتد برشاقة إلى الخلف فى يده ، وهو يلقى بين الحين والحين نظرة تفيض بالتسامح والازدراء على الزنوج العاملين بين صفوف القطن .

أعاد العجوز فولز الغطاء إلى علبة الدواء المعدنية ، ومسح العلبة بعناية بقطعة القماش البالية ، ثم ركع على الأرض أمام المدفأة الباردة وقرب ثقابا مشتعلا من الخرقة .

قال متسائلا ، « أظن هؤلاء الأطباء ما زالوا يقولون لك إنه سيقتلك ، أليس كذلك ؟ » .

وأسند بايارد العجوز قدميه إلى حافة المدفأة . ووضع ثقاباً مشتعلا حاطا بكفه فى طرف سيجاره ، فظهرت فى عينيه صورة لهبين دقيقين مشتعلين . ورمى الثقاب بعيداً وزام .

راقب العجوز فولز خرقته البالية وهى تمسك بالنار ببطء ، وخيطا رفيعا من الدخان المصفر اللون نفاذ الرائحة ، وهو يتصاعد ويتلوى ويتبدد فى الهواء الساكن . قال : « بين كل حين وحين ، يتحتم على الرجل بشكل ما ، أن يقف ويخرج ويبصق فى وجه الموت ، من أجل خير نفسه . يتحتم عليه أن يضع على نفسه ، بشكل ما ، حدا ، وكأنه بذلك يضع حافة فأسه على حجر المسن . ثم جلس القرفصاء أمام التثناءات الدخان نفاذة الرائحة وكأنه صورة مصغرة لطقوس دينية همجية ، إذا كشف الرجل عن وجهه بين الحين والحين للموت ، فسيتركه الموت حتى تحين ساعته » .

« الموت يجب أن يأخذ الرجل غيلة » ..

قال بايارد العجوز ، « ماذا » ؟

وقف العجوز فولز ونفض التراب بعناية من ركبتيه . قال بصوت مدو « الموت كالأشياء الفارغة الجبانة الأخرى . لن يهاجم رجلا ينظر إليه فى عينيه ، إلا إذا اقترب منه كثيراً ، أبوك كان يعرف هذا . وقف فى باب ذلك المخزن ، ذلك اليوم ، عندما استحضر المهيجان السياسيان الزنوج ليصوتوا لهما فى ذلك اليوم سنة ٧٢ » وقف هناك بسترته من طراز ألبرت وقبعته المصنوعة من فراء القندس ، وذراعاه مطبقتان ، وقد ذهب كل شخص آخر ، وقف يرقب الرجلين القادمين من ميسورى ، وهما يسوقان الزنوج على الطريق إلى المخزن ، وقف فى وسط الباب بالضبط . بينما تراجع المحرضان وأيديهما فى جيوبهما حتى ابتعدا عن الزنوج ، وسباه ، وهو واقف مكانه هكذا . وعقد ذراعيه على صدره ، ويداه باديتان للعيان » ولبرهة وجيزة رأى بايارد العجوز ، وكأنه يتطلع من خلال زجاج غطاه الضباب ، ذلك الشكل المتعجرف المألوف الذى استحضره بشكل ما ذلك العجوز ذو الملابس الرثة واحتفظ به فى فراغ ذاته التى كان ينكرها .

« وعندما ذهبا وعادا إلى الطريق ، دخل الكولونيل من الباب ، وأخذ صندوق بطاقات الانتخاب ، ووضعه بين قدميه .

« أنتم أيها الزنوج جئتم لتنتخبوا ، وهو كذلك تعالوا هنا وانتخبوا » .

« وعندما انفضوا وتفرقوا . أطلق ذلك المسدس الأمريكى الكبير فوق رءوسهم مرتين ، ثم عبأه مرة أخرى وخرج إلى الطريق ، إلى بيت مس وينتر بوتوم حيث كان يقيم ذلك الرجلان .

« قال ، وهو يرفع قبعته : « سيدتى ، لدى أمر صغير أريد أن أتحدث فيه مع المقيمين عندك . اسمحى لى ، » وأعاد قبعته إلى رأسه ومضى إلى

الدرج ، فى خطو كالاستعراض العسكرى ، وهى فاغرة فاها . مضى مباشرة إلى قلب الغرفة ، حيث كانا جالسين وراء مائدة ، فى مواجهة الباب ، ومسلساهما على المائدة » .

« وعندما سمعنا نحن الأولاد ، وكنا واقفين فى الخارج ، الطلقات الثلاث ، جرينا داخلين . كانت مس وينتر بوتوم واقفة هناك ، تتطلع مشدوهة إلى أعلى من أول الدرج ، وفى دقيقة جاء الكولونيل وقبعته متعجرفة فوق عينيه ، فى مشية منتظمة ، وكأنه قاض يدخل محكمة ، وهو ينفض التراب من مقدمة سترته بمنديله . ونحن واقفون هناك ، نرقبه . ثم وقف أمام مس وينتر بوتوم ورفع قبعته ثانية .

قال : « سيدتى ، اضطررت لأن أفسد نظام غرفة ضيوفك كثيراً جداً . رجاء أن تقبلى اعتذارى ، وكافى زنوجك بتنظيفها ، وأرسلى كشف الحساب إلى » .

« سيدتى : اعتذاراتى مرة أخرى لاضطرارى لإبادة حشرات قذرة فى بيتك » . ثم قال لنا « أيها السادة سعدتم صباحا » ، ووضع قبعته الفندسية تلك على رأسة ومضى .

قال العجوز فولز : « وبايارد ، بشكل ما كنت أحسد هؤلاء الشماليين . أكون ملعوناً إذا لم أفعل . يستطيع الرجل أن يتخذ زوجة ويعيش معها زمناً طويلا ، إلا أنهما مع ذلك ليسا من دم واحد . ولكن الشخص الذى يستحضرك إلى الحياة أو يخرجك منها . . . »

من حيث كان يقبع وراء باب مخزن الطعام ، كان فى استطاعته أن يسمع صوتى مس جينى وبايارد العجوز وهما يعصفان بانتظام ، وعندما ذهبا إلى المكتب ، جلست إلنورا وكازبى وإيزوم حول المائدة فى المطبخ فى انتظاره ، وقد جاء إليهما هزيم ثورة مس جينى ، وعناد بايارد العجوز الصخرى فى موجات مكظومة ، وكأنها أمواج بحر تتلاطم من بعيد .

سأل كازبى ابن أخيه « وعم يتشاجرون الآن ؟ هل ذهبت وفعلت شيئاً ؟ ، وأدار إيزوم عينيه بهدوء فوق فكيه العاملين بانتظام وغمغم ، « لا سيدى لم أفعل شيئاً » .

« يبدو وكأنهما سينفجران بعد قليل . إلنورا ، ماذا يفعل بابا ؟ »

« هناك فى البهو يتسقط الحديث . اذهب وقل له أن يأتى حتى يتناول عشاءه وأستطيع أن أنتهى من عملى » .

انزلق إيزوم من مقعده ، وهو يمضغ ، وغادر المطبخ . وتزايد عجيج الصوتين المنتظم حيث كان جده يقف فى ردهة البهو المعتم . كان شكلا غير واضح ، كأنه طائر عتيق قبيح وقد استطاع إيزوم أن يميز كلمات ، سم . . . دم . . . تتصور أنك تستطيع أن تقطع رأسك وتعالجها . . . يا أحمق ضعه على قدمك ولكن . . . رأس وجه . . . تموت وتخبر الخلاص . . . أحمق مثلك يموت بسبب حماقـــة رأسك ، رأس ثور . . . استلق أولا على ظهرك . . .

ثم طغى صوت بابارد العجوز على الأخرى مؤقتا « أنت وذلك الطبيب الملعون تزعجاننى إلى درجة الموت . لن تكون لدى ويل فولز ثمة فرصة لقتلى . لا أستطيع الجلوس فى مقعدى فى البلدة ، دون أن يتسحب هذا النطاط من حولى ، وعلى وجهه خيبة الأمل ، لأننى ما زلت على قدمى حيا أرزق . وعندما أعود إلى البيت ، عندما أخلص منه ، لا تستطيعين حتى أن تدعينى أتناول عشائى بسلام ، يتحتم عليك أن تعرضى على حشدا ملعونا من الصور الملونة لما يعتقد أحمق ملعون أنه موجود داخل الجسم » .

همس إيزوم « بابا ، من الذى سيموت ؟ »

أدار سيمون رأسه ، « ياولد ، لم تتطلع هنا ؟ اذهب حالا إلى المطبخ حيث يجب أن تبقى » .

قال إيزوم : « العشاء ينتظر . بابا ، من الذى سيموت ؟ »

« ما من أحد سيموت . هل يبدو الموت على أحد ؟ والآن اخرج من البيت » . وعادا معا عبر البهو ودخلا المطبخ ، وقد ماجت الأصوات من ورائهما وعصفت ، وإن فقدت وضوحها بفعل الجدران . إلا أنها ظلت سائلة وجلية .

سأل كازبى وهو يمضغ « وعم يتشاجران الآن ؟ »

قال سيمون : « هذا من شئون البيض . اهتم بشئونك ، وسيكونون هم على ما يرام » ، وجلس ، وهمت إلنورا وملأت فنجانا من إناء القهوة فوق الموقد وأحضرته إليه « لدى الناس البيض متاعبهم ، تماما كالزنوج ، أعطنى يا ولد ، طبق اللحم هذا » .

وقد أخذت العاصفة مجراها كل ليلة فى البيت ، ثم توقفت على ما يبدو وبالاتفاق المتبادل ، وإن ظل كل من الطرفين متحصنا فى خنادقه ، لتستأنف مرة أخرى فى الأمسية التالية ساعة العشاء . وهكذا ، يوما بعد يوم ، حتى كان الأسبوع الثانى من يوليو ، بعد ستة أيام من إحضار بايارد الصغير بصدره المهشم إلى البيت ، إذ ذهبت مس جينى وبايارد العجوز ودكتور ألفورد إلى ممفيس لاستشارة خبير فى الدم وأمراض الغدد واسع الصيت ، استطاع دكتور ألفورد أن يعقد معه بصعوبة محدودة اتفاقا رسميا . وقد استلقى بايارد الصغير فى قالبه فى الطابق العلوى ، ولكن نارسيسا بينو وعدت بالحضور والبقاء معه ذلك اليوم .

وفيما بينهما استطاعا أن يضعا بايارد العجوز فى قطار الصباح المبكر ، وإن ظل يحتج ويسب ويلعن ، كثور عنيد معذب . وكان فى العربة آخرون ممن يعرفونه وممن لاحظوا مصاحبة دكتور ألفورد لهما ، فأخذهم حب الاستطلاع والقلق . وقد استغل بايارد العجوز هذه الفرصة وحاول فرض إرادته بهدمات عنيفة تجاهلتها مس جينى .

وأخذوه ، كصبى صغير مشاكس ، إلى العيادة حيث سيلتقى بالطبيب

الإخصائى ، وجلسوا فى غرفة تشبه بهو فندق صيفى خال من الرسميات ، بين آخرين جلسوا ينتظرون أيضاً فى هدوء وهم يتكلمون همساً . بين قعقعة صحف ومجلات . كانوا جميعا ينتظرون وصول الإخصائى وقد انتظروا وقتاً طويلا .

وقد هاجم دكتور ألفورد ، بين الحين والحين بشاشة المرأة الجالسة إلى لوحة التليفون ، تلك البشاشة التى لا يمكن النفاذ منها ، وفى كل مرة صد هجومه ، وعاد ليجلس متصلبا بجوار مريضه وهو يعى أنه مع كل دقيقة تمر ، يفقد جزءاً من تقدير مس جيني له ، وقد تم إخضاع بإيارد العجوز أيضا ، رغم أنه ظل يدمدم على مس جيني بأمل بين الحين والحين .

قاطعته أخيراً وقالت « أوه ، كف عن السباب . لا تستطيع أن تخرج الآن . خذ . خذ ، هذه جريدة الصباح .. خذها واهدأ » .

ثم دخل الإخصائى مسرعا وذهب إلى المرأة الجالسة إلى لوحة التليفون ، ورآه دكتور ألفورد ، ووقف ، وذهب إليه . استدار الإخصائى ـ كان رجلا محتدما أريبا يتحرك بعنجهية ، حركة تشنجية ، كأنه يتدرب على مبارزة بسيف صغير ، وقد استدار فكاد أن يطأ قدم دكتور ألفورد . ثم ألقى عليه نظرة ثلجية عيل صبرها ، ثم صافحه وأطلق سيلا من الألفاظ المتقطعة العالية « أرى أنك أتيت فى الموعد بالضبط . فى الموعد .. عظيم ! . عظيم ! . المريضة هنا ؟ احتملت الرحلة بسهولة ، هل فعلت ؟ »

« نعم يادكتور ، إنه ـ »

« حسن ، حسن . . خلعت ملابسها وكل شيء معد ، إيه ؟

والمريض . .

واستدار الطبيب ، « لحظة واحدة . أوه ، مسز سميث » .

« نعم يا دكتور ، » ولم ترفع المرأة الجالسة إلى لوحة التليفون رأسها ، ودخل فى هذه اللحظة ، إخصائى آخر من نوع ما ، إخصائى ضخم يحوطه

جو من الفخامة والسرية وكأنه ترتى ملكى ، دخل وألجم دكتور ألفورد ، ولبرهة قعقع كل منهما وجلجل على الآخر ، بينما ظل دكتور ألفورد واقفاً وقد تجاهلاه، وهو يكظم غيظه بصلابة وأدب ، وقد أحس بتساقط قيمته المهنية رويداً رويداً فى نظر مس جينى . ثم انتهى الإخصائيان ، وسحب دكتور ألفورد رجله إلى المريض .

« قلت إنك أعددت المريض ؟ حسن ، حسن ، هذا يوفر الوقت . سأتناول الغداء فى المدينة اليوم . هل تناولت طعام غداءك ؟ » .

« لا . ولكن المريض... »

قال الإخصائى ، « أجرؤ أن أقول إنك لم تفعل . توجد فسحة من الوقت مع ذلك » ثم استدار بسرعة متجها إلى منفذ مستور ، إلا أن الدكتور ألفورد قبض على ذراعه بحزم ولكن بلطف وأوقفه . كان بايارد العجوز يقرأ الصحيفة . وكانت مس جينى ترقبهما ببرود . وقبعتها فوق قمة رأسها تماماً .

قال دكتور ألفورد ، « مسز دوبرى : الكولونيل سارتورس ، هذا دكتور برانت . الكولونيل سارتورس هو ...

« كيف الحال ؟ جاء مع المريضة إليه ؟ ابنة ؟ حفيدة ؟ » ورفع بايارد العجوز عينيه .

قال ، وهو يحيط أذنه بكفه ، « ماذا ؟ » ورأى الإخصائى يحملق فيه .

« ما هذا الذى على وجهك ؟ » ودفع يده بحركة مفاجئة ولمس البروز المتفحم وإذ فعل انفصل الشىء فى أصابعه ، تاركا على خد بايارد العجوز المغضن ، بقعة مستديرة من الجلد الوردى الجميل كبشرة طفل .

وفى القطار ، تكلم بايارد العجوز فجأة بعد أن ظل وقتا طويلا غارقاً فى الفكر العميق « جينى ، أى يوم من أيام الشهر هذا ؟ » .

قالت مس جينى ، « التاسع ، لماذا ؟ »

وظل بايارد العجوز جالساً أيضا ، ثم وقف وقال ، « أظننى سأذهب لأدخن سيجاراً . دكتور ، ما رأيك ، لاأحسب قليلا من التدخين يؤذينى ؟ »

وبعد ثلاثة أسابيع ، وصلهم كشف حساب من الطبيب الإخصائى يطالبهم فيه بخمسين دولاراً . قالت مس جينى بلهجة لاذعة « أنا أعرف الآن لم هو مشهور جداً » ، ثم قالت لابن أخيها ، « الأفضل لك أن تشكر طالعك لأنه لم يأخذ قبعتك من فوق رأسك » .

وكان موقفها من دكتور ألفورد دفاعيا إلى أقصى حد فكانت تحميه بوحشية ؛ وإلى العجوز فولز كانت توجه تحية مقتضبة عاجلة إلى أقصى حد ، وتمضى وأنفها مرفوعة فى الهواء ، أما لوش بيبودى فلم تكن تخاطبه على الإطلاق .

- ٧ -

دخلت مع الصباح النضير الحار إلى البهو الرطب ، حيث كان سيمون قابضاً على منفضة فى يده ، باهتمام ودون فائدة ، فهز لها رأسه وقال ، « ذهبوا اليوم إلى ممفيس . مستر بايارد ينتظرك . اصعدى مباشرة يا آنسة . »

قالت « شكراً لك » ، ومضت وارتقت الدرج وتركته مشغولا بطرد الغبار من سطح إلى آخر ثم إعادته مرة أخرى . صعدت إلى تيار هوائى منتظم كان يهب من الأبواب المفتوحة فى نهاية البهو ، ومن خلال هذه الأبواب استطاعت أن ترى قطاعا من التلال الزرقاء ، والسماء ملحية اللون . توقفت عند باب بايارد ووقفت برهة وهى تضم الكتاب إلى صدرها .

وكان بالبيت رغم حركة سيمون فى البهو الأسفل ، هدوء غريب

مريب يبعث على الخوف ، ذلك أنه خلا من الطمأنينة التى يبثها فيه وجود مس جينى الدائب . وكانت تصلها أصوات خافتة قادمة من بعيد جداً ـ أصوات من خارج البيت ، انسالت تموجاتها الأخيرة الوسنانة إلى البيت على هواء يوليو المتدفق بالحيوية ، أصوات بلغ بها النعاس والبعد أن عجزت عن أن تموت وهى بعيدة .

ولكن صوتاً ما لم يصل إليها من الغرفة التى أمامها . ربما كان نائماً . والدافع الأصلى ، الوعد الذى أعطته ، وقوة قلبها المستيئس التى مكنتها من الحضور رغم غياب مس جينى ، قد تخلت عنها بعد أن أدت دورها ، فوقفت خارج الباب بالضبط ، آملة أن يكون نائماً ، آملة أن ينام اليوم كله .

إلا أنه يتحتم عليها أن تدخل الغرفة لتعرف إذا كان نائماً ، ولذا لمست وجهها بيديها وكأنها تعيد إليه بذلك الاستقرار الوقور المفقود حتى يراه ، ثم دخلت .

قال بايارد « سيمون . كان مستلقياً على ظهره . ويداه تحت رأسه ، وقد مد باصريه عبر الغرفة إلى النافذة » وتوقفت مرة أخرى داخل الغرفة وبجوار الباب بالضبط . وأخيراً وقد استثاره صمتها ، أدار رأسه ونظرته الجوفاء . « حسنا ، أنا ملعون لم أصدق أنك ستأتين اليوم . »

قالت « نعم كيف حالك ؟ »

ومضى يقول « وأنت تضعين إحدى قدميك فى البهو كلما خرجت مس جينى من الغرفة ، هل هى التى جعلتك تحضرين ؟ »

« طلبت منى أن أحضر . إنها لا تريد لك أن تبقى وحدك طوال اليوم ، وليس فى البيت إلا سيمون . هل تشعر بتحسن اليوم ؟ »

قال فى صوت مسترسل « هكذا ؟ ألا تجلسين ، إذن ؟ » ومضت إلى

ركن من الغرفة حيث كان مقعدها المألوف وجرته عبر الغرفة . وكان يرقبها وهي تدير المقعد وتجلس ، وسألها « وما رأيك في الأمر ؟ »

« أي أمر ؟ »

« حضورك حتى لا أبقى وحدى ؟ »

قالت « أحضرت معى كتاباً جديداً . حصلت عليه أخيراً . أرجو أن يعجبك ، هذا الكتاب »

قال « أرجو هذا ، ولكن دون أى اقتناع ، » أظن أننى سأستمتع بكتاب آخر بعد قليل أليس كذلك ؟ ، ولكن ما رأيك فى حضورك إلى هنا اليوم ؟ »

قالت « أحسب أنه لا ينبغى أن يترك شخص مريض بلا أحد من حوله إلا الزنوج » وقد انحنى وجهها على الكتاب . « اسم هذا الكتاب ـ »

« لم لا يرسلون ممرضة إذن ؟ ما من فائدة فى حضورك إلى هنا » . والتقت نظرته الحادة أخيرا ، بعينيها الجادتين المستيئستين . سأل بإصرار : « لم تأتين وأنت لا ترغبين فى الحضور ؟ »

قالت « لا . . يضايقنى هذا » ثم فتحت الكتاب ، « اسم هذا الكتاب . . »

قال مقاطعا « لا تفعلى . سيتحتم على أن أنصت إلى هذا الشىء الملعون طوال اليوم . فلنتكلم قليلا » . ولكن رأسها كانت منحنية ويداها جامدتان على الكتاب المفتوح « ما الذى يجعلك تخافين من الحديث معى » ؟

قالت بمكرورة ، « خائفة ؟ أتفضل أن أذهب ؟ »

« ماذا ؟ لا . . اللعنة على كل شىء . أنا أطلب منك أن تكونى آدمية مرة واحدة وتتحدثى إلى . تعالى هنا » . لم تنظر إليه ، ورفعت يديها بينهما

وكأنه لم يكن مستلقياً على ظهره عاجزاً على بعد ياردتين منها . قال لها آمراً ، « تعالى هنا واقتربى منى قليلا » وقفت وقد قبضت على الكتاب بشدة .

قالت « أنا ذاهبة . سأطلب من سيمون أن يظل حيث يستطيع أن يسمعك عندما تناديه . وداعاً » .

قال ، « حسناً . ومضت مسرعة نحو الباب » .

«وداعاً» .

« بعد كل ما قلته الآن ، عن بقائى وحدى بلا أحد من حولى فى البيت إلا الزنوج ؟ » وتوقفت عند الباب ، وقال بمكر بارد « بعدما قالته لك العمة جينى ـ ماذا أقول لها ، الليلة ؟ لم تخافين من رجل مستلق على ظهره فى سترة ملعونة من الحديد المصبوب ، على أى حال ؟ » إلا أنها ظلت تنظر إليه بعينين وقورتين يائستين . قال بعنف ، « وهو كذلك . اللعنة على كل شىء ، اذهبى إذن » . ورمى رأسه على الوسادة ومضى يحملق من النافذة ، بينما عادت إلى مقعدها . قال برقة « ما اسم هذا الكتاب ؟ » وقالت له . « لتمض إذن . على أية حال أظن أننى سأنام سريعاً » .

فتحت الكتاب وبدأت تقرأ بسرعة ، وكأنها كانت تقبع وراء ستار الكلمات الذى أقامه صوتها بينما مضت تقرأ بانتظام زمناً ، وهو على فراشه لايأتى أية حركة ، وكان رأسها محنياً على الكتاب ، واعيا بمرور الوقت . كأنها كانت فى سباق مع الزمن . ثم انتهت جملة وتوقفت ، دون أن ترفع رأسها ، إلا أنه تكلم على الفور تقريباً « امضى . مازلت هنا . حظاً أفضل المرة القادمة » .

وهكذا انقضت ساعات ما قبل الظهيرة . وفى مكان ما ، كانت ثمة

ساعة تدق كل ربع ساعة وفيما عدا هذا ، فلم يكن ثمة صوت فى البيت .
وقد انتهى نشاط سيمون فى الطابق الأسفل منذ وقت طويل ، ولكن همهمات من الصوت كانت تصلها على فترات من مكان ما ، غمغمة لايمكن تمييزها . لم تهتز الأوراق على الغصن الصاعد وراء النافذة واندمجت فى الهواء الساخن ، آلاف الأصوات فى نغم واحد وسنان ـ أصوات الزنوج ، أصوات الحيوانات فى ساحة الجرن ، تأوهات مضخة الماء الرتيبة ، وصيحات مفاجئة صاخبة من الدجاج فى الحديقة أسفل النافذة ، تقطعها صيحات إيزوم الخالية من كل معنى وهو يسوقها خارج الحديقة .

وقد نام بايارد ، وعندما أدركت هذا أدركت أيضا أنها لاتعرف متى توقفت بالضبط عن القراءة ، وظلت جالسة والكتاب مفتوح على ركبتها ، على صفحة لم تترك كلماتها أى صدى على عقلها ، ومضت تنظر إلى وجهه الهادىء . لقد أصبح مرة أخرى كقناع من برنز طهره المرض من حرارة عنفه إلا أن العنف كان ولا يزال نائما هناك ، وإن كان أصفى قليلا . . . ثم حولت نظرها بعيداً وظلت مكانها بالكتاب المفتوح ، ويداها المستقرتان بلا حركة على الصفحة ، وأخذت تطلع من النافذة ، تعلقت الستائر فى مكانها ساكنة بلا حركة وتعلقت الأغصان خارج النافذة بلا حركة أيضا ، تحت أصابع الشمس المتقطعة ، وجلست هى الأخرى بلا حياة ، لايهتز نسيج ثوبها بتنفسها غير المحسوس وهى تفكر أن السلام لن يتحقق لها إلا فى عالم خال من الرجال تماماً .

دقت الساعة اثنتى عشرة مرة . وبعدها على الفور ، وبمقدمة من أنفاس ثقيلة محشرجة وحركات متلصصة كحركات فأر هائل ، وحركات جرذانية مختلسة أيضا فى البهو ، دفع سيمون رأسه من الباب ، وكأنه جد جميع القردة .

قال فى همس مبهور ، « ألم ينم بعد ؟ »

قالت نارسيسا وهى ترفع يدها ، « ش ش ش . » ودخل سيمون على

أطراف أصابعه ، وهو يتنفس بثقل ، ويسحب قدميه على الأرض .

قالت نارسيسا بسرعة ، « ش ، ستوقظه » .

قال سيمون فى همس ، « الغداء معد » .

قالت هامسة ، « تستطيع أن تحتفظ بغدائه دافئاً حتى يستيقظ ، هل تستطيع أن تفعل هذا ؟ » ثم نادته هامسة أيضا « سيمون ! » . ووقفت ولكنه كان قد جاء إلى المائدة ، حيث تحسس صف الكتب الموجودة عليها ، واستطاع فى النهاية أن يسقط أحدها على الأرض ، محدثا ضجة عشوائية . فتح بايارد عينه .

قال ، « يا إلهى الطيب ، أنت هنا مرة أخرى ؟ » .

قال سيمون متضايقاً ، « حسناً ، والآن ، إذ لم نوقظه أنا ومس بينبو » .

قال بايارد ، « لم لا تستطيع أن تحتمل رؤية أى شخص نائم على ظهره وعيناه مغمضتان ، لاأستطيع أن أفهم . شكراً لله لأنك لم تولد فى مستنقع كالبعوض » .

قال ، « استمعى إليه . ينام وهو يتشاجر ، ويستيقظ من النوم ليتشاجر . أعدت إلنورا الطعام لكما » .

قال بايارد ، « إذن لم لم تحضره ؟ وغداء مس بينبو أيضاً » وأضاف ، « إلا إذا كنت ترغبين فى النزول إلى الطابق الأسفل ؟

كان سيمون فى كل ما يأتيه من حركة صورة هزلية لنفسه . وقد اتخذ لنفسه الآن مسلك اللائم المتألم : « غرفة الطعام هى مكان الضيوف » .

قالت نارسيسا : « لا . سأنزل إلى الطابق الأسفل . لن أدع سيمون يتحمل هذا العناء » .

قال سيمون نافياً ، « ليس ثمة عناء . كل ما فى الأمر أنه ليس ـ ».

قالت نارسيسا . « سأنزل . اذهب أنت وأعد صينية مستر بايارد» .

قال سيمون ، « نعم سيدتى » واتجه إلى الباب « تستطيعين أن تنزلى حالا ، ستضعه إلنورا على المائدة فى اللحظة التى تصلين فيها » وخرج .

قالت نارسيسا . « حاولت أن أبعده ..»

قال بايارد مقاطعاً ، « أنا أعرف ، لن يسمح لأحد بالنوم ساعة تناول الطعام . والأفضل لك أن تذهبي وتتناولى طعامك ، وإلا فسيعيد كل شىء إلى المطبخ . وليس عليك أن تعودى بسرعة من أجلى » .

« ليس على أن أعود بسرعة ! » وتوقفت عند الباب واستدارات إليه . « ماذا تعنى ! ظننتك تعبت من القراءة ، ربما » .

« أوه ، » ونظرت بعيداً ، وظلت مكانها واقفة ، وقد اكتست بيأسها العميق .

قال فجأة « اسمعى ، هل أنت مريضة أو بك أى شىء آخر ! أتفضلين العودة إلى البيت ؟ » .

قالت ، « لا . » وتحركت مرة أخرى ، « سأكون هنا سريعا » .

وتناولت طعامها فى أبهة موحشة فى غرفة الطعام المعتمة ، بينما ظل سيمون بعد أن أرسل صينية بايارد مع إيزوم يتحرك حول المائدة حاضاً إياها على قبول أطباق الطعام ، بإصرار لطيف ، مستنداً على الصوان بجوار الحائط يغمغم برتابة بحديث بدا وكأنه بلا بداية ولا أمل فى نهايته . وظل الحديث ينساب بسهولة من ورائها ، وهى ماضية إلى نهاية البهو ، وكان

مستمراً أيضاً عندما وقفت عند الباب الأمامى ، ألفاظ بلا حروف ، وكأنها سحرت بوجودها الذاتى وتغذت من ذات عزمها .

وقد استلقى حوض السلفيا وراء المدخل فى وهج لا يحتمل من الضوء الأبيض ، فى بقع صاخبة ومن ورائه تلألأ الممر بالحرارة ، حتى تحول إلى نفق أخضر أقواسه من أشجار البلوط والخروب ، فأصبح رطبا حتى وصل إلى البوابات وشريط الطريق الساخن . ومن وراء الطريق امتدت الحقول المتلألئة ، وقد تناثرت فيها متباعدة كتل من الأشجار الساكنة حتى التلال التى ذابت فى زرقة يوليو الشاحبة .

ظلت مستندة برهة على الباب ، وهى فى ثوبها الأبيض ، وخدها ملتصق بعارضة الباب الباردة الناعمة ، فى نسيم رقيق كان يهب بانتظام من جهة ما ، رغم أن ورقة ما لم تهتز ، وقد انتهى سيمون من غرفة الطعام ، وصعدت من المطبخ إلى البهو همهمة أصوات وسنانة ، محمولة على تلك الاهتزازة الرقيقة من الهواء التى كانت أدفأ من أن تسمى نسيما .

وأخيراً سمعت حركة ما فى آخر الدرج ، وتذكرت إيزوم وصينية بايارد ، فاستدارت وفتحت أبواب القاعـــة ودخلت . كانت الستائر مسدلة بإحكام وأسهمت حزمة الضوء التى تبعتها فى تعميق العتمة . وجدت البيانو ووقفت بجواره برهة . وهى تتلمس سطحه المغبر ، متذكرة فى خيالها مس جينى منتصبة الظهر لا تقهر ، وهى جالسة فى مقعدها بجواره . سمعت إيزوم وهو ينزل الدرج ، وسرعان ما ماتت خطواته وهى تبتعد فى البهو ، وسحبت المقعد وجلست ووضعت ذراعيها على امتداد الغطاء المغلق .

دخل سيمون غرفة الطعام مرة أخرى ، وهو يغمغم لنفسه ، ثم جاءت إلنورا بعده ، وصفقا الأطباق إلى بعضها البعض وهما يتحدثان معاً بألفاظ بلا حروف مستحيلة التمييز ، تصعد برقة وتهبط . ثم ذهبا . ولكنها ظلت

مكانها جالسة ، وذراعاها على امتداد الخشب الرطب ، فى الغرف الهادئة المعتمة حيث كان كل شيء يتكاسل قليلا ، حتى الزمن .

ودقت الساعة مرة أخرى وتحركت . وفكرت « كنت أبكى . كنت أبكى » قالتها فى همس كئيب مستمتع بما فيه من وحشة وحزن . ثم وقفت بالقرب من باب الغرفة أمام المرآة الطويلة وحملقت فى صورتها المنعكسة المعتمة ، وهى تلمس عينيها بأطراف أصابعها . ثم مضت وتوقفت مرة أخرى عند قاعدة الدرج ، وأنصتت . ثم صعدت الدرج بحمية ، ومضت إلى غرفة مس جينى ، ودخلت حمامها وغسلت وجهها .

وقد ظل بايارد مستلقياً كما تركته . كان يدخن سيجاره . وبين النفثات كان يدق طرفها دون اهتمام بطبق موضوع على الفراش بجواره . قال « حسنا »

قالت وهى ترفع الطبق « ستشعل النار فى البيت بهذه الطريقة . أنت تعرف أن مس جينى لن تسمح لك أن تفعل هذا »

قال بشيء من الخجل « أنا أعرف هذا » وجرت المائدة ووضعت عليها الطبق .

« أتستطيع أن تصل إليه الآن ؟ »

« نعم . شكراً . هل أعطوك كفايتك من الطعام ؟ »

« أوه . نعم . سيمون شديد الإلحاح كما تعرفه . هل أقرأ لك أيضاً أم تفضل أن تنام ؟ »

« اقرئى ، إن كان هذا لا يضايقك . أظننى سأظل متيقظا هذه المرة »

« وهل هذا تهديد ؟ »

نظر إليها بسرعة وهى تأخذ مكانها وتلتقط الكتاب « قولى لى ، ماذا حدث لك ؟ »

« كنت قبل الغداء فى غاية الضيق . هل أعطاك سيمون شرابا أم ماذا ؟ »

« لا ليس إلى هذا الحد من السوء » وضحكت ، وكانت ضحكتها وحشية قليلا ، وفتحت الكتاب ، وقالت وهى تقلب صفحاته بسرعة ، « نسيت أن أضع علامة على المكان ، هل تتذكر ؟ لا ، كنت نائما أليس كذلك ؟ هل أعود إلى حيث توقفت عن الإنصات ؟ »

« اقرئى حيثما تشائين . أظنه كله يشبه بعضه بعضا . أحسبنى سأظل متيقظا إن اقتربت قليلا »

« ثم إذا شئت . لا يضايقنى هذا »

« أتعنين أنك لن تقترى أبدا . » سألها وهو يحدجها بنظراته الجوفاء . وحركت مقعدها قليلا ، وقربته منه وفتحت الكتاب مرة أخرى وقلبت صفحاته .

قالت بتردد ، « أظننى توقفت هنا تقريبا . نعم . » ثم قرأت لنفسها سطرا أو سطرين ثم بدأت بصوت مرتفع ، وقرأت إلى نهاية الصفحة ، حيث تثاقل صوتها فى دهشة جادة . ثم قلبت الصفحة التالية ، ثم أعادتها مرة أخرى . « أنا قرأت هذا مرة ، أنا أتذكر الآن » . وقلبت الصفحات ، وقد تجعدت جبهتها الهادئة قليلا .

قالت : « لا بد أننى كنت نائمة أيضاً » ثم ألقت عليه نظرة تحفل بالعجب والصداقة . يبدو وكأننى قرأت صفحات وصفحات » .

قال مرة أخرى ، « أوه اقرئى فى أى مكان » .

« لا ، انتظر هذه هى ، » ثم قرأت مرة أخرى والتقطت خيط القصة ، ورفعت عينيها مرة أو مرتين بسرعة ورأته وهو يرقبها ، بنظرة كئيبة ولكن هادئة ، ثم توقف عن النظر إليها وأخيراً ، إذ وجدت عينيه مغمضتين ، ظنته نائما ، انتهت من الفصل وتوقفت .

قال فى صوت وسنان ، « لا ، ليس بعد . » ثم ، إذ فشلت فى استئناف القراءة فتح عينيه وطلب منها سيجارة ، وضعت الكتاب جانباً وأشعلت له ثقابا ، ثم أخذت الكتاب مرة أخرى .

وأبلى الأصيل نفسه ، ذهب الزوج ولم يبق فى البيت ثمة صوت عدا صوتها ، ودقات الساعة كل ربع ساعة ، وفى الخارج أخذت الظلال تستطيل وتستطيل ، رسل السلام القادمة فى طليعة المساء ، ثم ذهب فى سبات ، رغم اعتقاده المضاد ، وبعد قليل توقفت ووضعت الكتاب جانباً ، استلقى جسمه الطويل متصلباً فى قالبه تحت الغطاء ، . وظلت جالسة تنظر إلى وجهه الهادىء الجرىء ، وتتكره المحطم ، وفاض حزنها الهادىء وأحست بالعطف عليه ، كان خلوا من كل عاطفة على الإطلاق لأى شىء ، قاسياً .. جداً .. جداً .. لا ، ليست هذه هى الكلمة ولكن ، بارداً ، تحاشتها ، كان فى استطاعتها أن تفهم القسوة ، ولا تفهم البرود ..

ومضى الأصيل ، وكان المساء يحاول أن يجد نفسه ، وقد جلست فى تأملاتها الساكنة الهادئة ، تتطلع من النافذة ، ولم يكن الهواء قد صافح أوراق الشجر بعد ، جلست هكذا وكأنها تنتظر شخصاً ما ليقول لها ماذا تفعل الآن ، وفقدت كل تصور للزمن إلا أن يكون مجرى معتما غير متعجل ، ظلت تحملق فيه إلى أن تمكنت تعاويذ المساء المسحور من أخذ المساء نفسه مولية به .

أحدث صوتا لا يوصف ، وأدارت رأسها بسرعة ، ورأت جسمه مشدوداً بشكل مرعب داخل قالبه وقبضتيه مضمومتين بعنف شـــديد ، وأسنانه بارزة تحت شفتيه المشدودتين ، أخذت فظلت فى مقعدها وقد غاض اللون من وجهها وعجزت عن القيام بأية حركة ، ثم أحدث الصوت مرة أخرى ، ولحت أنفاسه وصفرت من بين أسنانه ، ثم صرخ بصوت خال من الكلمات سرعان ما اتصل بدفقة من ألفاظ السباب واللعن ، وعندما وقفت أخيراً بجواره ، ويداها على فمها ، استرخى جسمه ، ومن تحت جبهته الناضحة بالعرق ، نظر إليها بعينين واسعتين مصممتين ، تربص فيهما الرعب والجنون ، والغضب الحبيس واليأس .

قال بصوت جاف رقيق ، « كاد أن يصيبنى أخيراً ، عليه اللعنة » ، ومضى يرقبها من وراء المحنة الفائضة فى عينيه الواسعتين ، « كانت ثمة

حلقة منهم حول صدرى ، وفى كل مرة أطلق النار ، كان يشد الحلقة من حول صدرى قليلا . . . وتحسس الغطاء بيديه وحاول أن يشده إلى وجهه ». أتستطيعين أن تأتينى بمنديل ، يوجد عدد منها فى الدرج العلوى هناك » .

قالت : « نعم نعم » ثم ذهبت إلى الصوان ، وأمسكت به لتسند جسمها المرتعد ، ووجدت المنديل وأحضرته إليه . حاولت أن تجفف جبينه ووجهه ، ولكنه أخذ المنديل منها ، وفعل هذا بنفسه . قالت وكأنها تنوح « أنت أفزعتنى . أنت أفزعتنى إلى درجة كبيرة . ظننتك . . »

قال باقتضاب « آسف . أنا لا أفعل هذا عن عمد ، أريد سيجارة » .

أعطتها له ، وأشعلت الثقاب ، ومرة أخرى كان عليه أن يقبض على يدها حتى يستقر اللهب فيها ، وأخذ أنفاسا عميقة من السيجارة عدة مرات وهو قابض على يدها . حاولت أن تخلص رسغها ، ولكن أصابعه كانت كالصلب ، وخانها جسمها المرتعد ، وتساقطت مرة أخرى على مقعدها ، وهى تحملق فيه برعب وفزع ، وفرغ من السيجارة بأنفاس عميقة سريعة ، وبدأ يتحدث عن أخيه الميت ، وهو قابض على رسغها ، دون مقدمة ، وبوحشية . كانت قصة وحشية ، دون بداية ، عنيفة بفظاعة وبلا جدوى وفى بعض أجزائها دنسة وغليظة ، رغم أن وحشيتها نفسها سلبتها القدرة على جرح المشاعر ، كما حمتها فظاظتها من بذاءتها . ومن تحت هذا كله ، كبرياؤه الكاذبة العنيدة فى صراعها المرير ، وهى جالسة وذراعها فى قبضته ويدها الأخرى ضاغطة على فمها ترقبه مخلوبة اللب مرعوبة .

« كان يطير فى خط لولبى ، وهذا ما منعنى من اصطياد الألمانى ، فى كل مرة استطعت فيها أن ألتقط الألمانى ، كان جون يدخل بيننا ، فأضطر إلى الابتعاد قبل أن يلحق بى واحد من الآخرين . ثم كف عن الطيران اللولبى ، وبمجرد أن رأيته ينحدر مائلا عرفت أن كل شىء قد انتهى .

ثم رأيت النار تتصاعد على امتداد جناحه ، وكان ينظر إلى الخلف . لم يكن يتطلع إلى الألمانى مطلقا ، كان يتطلع إلى . وهنا ، توقف الألمانى عن إطلاق النار ، وكلنا بشكل ما ، ظللنا جالسين هناك . لم أستطع أن أعرف ما الذى كان يعتزمه جون بعد ذلك ، حتى رأيته يخرج ساقيه . ثم لمس أنفه بإبهامه مشيرا إلى كما كان يفعل دائما ، ولوح بيديه للألمانى ، ورفص طائرته بعيداً وقفز ، قفز بساقيه أولا . أنت لاتستطيعين أن تقطعى مسافة كبيرة وساقاك إلى أسفل ، كما تعلمين ، وسرعان ما انبطح مستويا . كانت ثمة كتلة من السحاب تحتنا مباشرة ، واندفع إليها وبطنه إلى أسفل ، كهذا النوع من السباحة الذى اعتدنا أن نسميه مفجر البطون . إلا أننى لم أستطع قط أن أجده تحت السحاب . أنا أعرف أننى هبطت قبل أن يكون فى استطاعته الخروج من السحاب لأنى بعد أن هبطت ، جاءت طائرته منقضه على مباشرة وقد أمسكت بها النار تماما . انحرفت من طريقها بسرعة ، ولكن الطائرة الملعونة مرقت أمامى واستدارت بسرعة وانقضت على مرة أخرى ، وكان على أن أتفاداها . ولذا لم أستطع أبدا أن أجده عندما خرج من السحابة . هبطت بطائرتى بسرعة حتى تأكدت أنى تحته ، ونظرت مرة أخرى . ولم أستطع أن أجده ظننت أننى ، ربما لم أهبط إلى المستوى الكافى . فغطست بطائرتى بسرعة ورأيت طائرته وهى تصطدم بالأرض على بعد ثلاثة أميال ، إلا أننى لم أستطع أن أرى جون مرة أخرى . ثم بدءوا فى إطلاق النار على من الأرض — »

ومضى يتكلم ، وفارقت يدها فمها ، وانزلقت على ذراعها الأخرى وحاولت أن تفك قبضة أصابعه من على يدها .

همست ، « أرجوك ، أرجوك » وهنا توقف ونظر إليها ، وتحركت أصابعه ، وفى اللحظة التى تصورت فيها أن يدها تحررت ، انقبضت أصابعه ، وأصبح رسغاها معا أسيرين ناضلت ، وهى تحملق فيه برعب ، ولكنه ابتسم لها فبرزت أسنانه ، وضغط ذراعيها المعقودتين على الفراش بجواره .

قالت متضرعة ، « أرجـــوك ، أرجوك » ، وناضلت ، كان فى استطاعتها أن تحس بلحم رسغيها ، وبالعظام وهى تتحرك داخله وكأنها فى ثوب فضفاض ، وأن ترى عينيه الكئيبتين والسخرية المستقرة بين أسنانه ، وفجأة مالت فى مقعدها إلى الأمام ، وسقطت رأسها بين ذراعيها الأسيرين ، وبكت بكاء هستيريا يائسا فظيعا .

بعد قليل لم يعد فى الغرفة ثمة صوت ، وحرك رأسه ونظر إلى تاج رأسها القاتم . ورفع يده ورأى مواضع قبضته على رسغها ، وقد غاض منها الدم وتكدست . إلا أنها لم تتحرك أيضا ، فوضع يده على رسغيها ، مرة أخرى ، وهدأ ، وبعد برهة ، توقف حتى ارتجاف جسمها وارتعاده .

قال ، « أنا آسف .. لن أفعل هذا مرة أخرى » .

وكان فى استطاعته أن يرى قمة رأسها المعتمة فقط ، وقد استلقت يداها خامدتين تحت يده .

قال مرة أخرى ، « أنا آسف . لن أفعل هذا بعد الآن »

سألته ، « لن تقود هذه السيارة بسرعة بعد الآن ! » ، ولم تتحرك وكان صوتها مكظوما .

« ماذا ؟ »

لم تحر جوابا ، وبسلسلة من الآلام الصغيرة التى لانهاية لها ، وببطء ، أدار نفسه وقالبه ، رويداً . . رويدا ، حتى أصبح على جنبه . وهو يعض شفته ويسب ويلعن من بين أسنانه ووضع يده الأخرى على شعرها .

قالت دون أن ترفع رأسها « ماذا تفعل ! ستكسر أضلاعك مرة أخرى » .

قال « نعم » ومسح على شعرها بيديه باضطراب .

قالت ، « وهذه هى المشكلة . هذه هى الطريقة التى تسلك بها . أن تأتى من الأشياء ما ـ ما ـ أنت تأتى من الأفعال ما تؤذى به نفسك لمجرد

إزعاج الآخرين . أنت لا تجد ثمة متعة فى عمل ما تفعله » .

قال مؤيدا ، « نعم » واستلقى بصدره المملوء بالإبر الساخنة ؟ وهو يمسح على رأسها القائمة بيده الجافة المضطربة . وقد صعدت من فوقه القمة الساكنة بين النجوم السوداء المتوحشة ، ومن حوله وديان الهدوء والسلام . ثم مضى الوقت ، وقد استطالت الظلال فى الحجرة ، وأخذت تفقد نفسها فى ظلال أخرى ، ومن وراء النافذة كان ضوء الشمس إشعاعا منتشرا ؛ بلا منبع ، إلا أنه من الممكن رؤيته ، ومن مكان ما تنادت الأبقار على بعضها البعض ، بكآبة وحزن ، وأخيرا اعتدلت فى جلستها وتحسست وجهها وشعرها .

« أنت معقد تماما . ولن تتقدم إلا إذا أحسنت من سلوكك ، والآن ، نم على ظهرك . » وأطاع . وفعل ببطء وألم ، وشفته بين أسنانه ، وقطرات عرق على جبينه بينما كانت ترقبه بقلق عميق « هل يؤلمك هذا ؟ »

« لا » وانغلقت يده مرة أخرى على رسغيها فلم يحاولا الهروب . وقد غربت الشمس ، وجاءت لحظة الغسق ، أم الهدوء والسلام ، وملأت الغرفة الغائضة ، ثم وجد المساء نفسه ،

قالت من العتمة فى إصرار ، « وأنت لن تقود هذه السيارة بسرعة بعد الآن ! »

قال ، « لا »

— ٨ —

وقد تلقت خطابا آخر من مراسلها المجهول ، أحضره إليها هوراس عند عودته فى المساء إذ كانت مستقلية فى فراشها مع كتاب ، طرق بابها برقة وفتحه ووقف برهة مستحييا ، وهكذا ظلا لحظة يتبادلان النظر عبر سد تنافرهما المتبادل وكبريائهما العنود .

قال بجفاف « آسف لإزعاجك » وكانت مضطجعة تحت النور المظلل

وشعرها القاتم متناثر على الوسادة ، ولم يتحرك منها - وهو يعبر إليها الغرفة - إلا عيناها ثم وقف بجوارها وهى مستلقية مكانها وقد تركت كتابها ، وأخذت ترقبه فى تساؤل رصين سألها ، « ماذا تقرئين ؟ » وللإجابة أغلقت الكتاب على إصبعها وكشفت غلافة ورسوم عنوانه الملونة إلى أعلى . ولكنه لم ينظر إليه كان قميصه مفتوحاً تحت ردائه الحريرى ، وتحركت يده النحيفة بين الأشياء الموضوعة على المائدة بجوار فراشها ، والتقط كتاباً آخر ، لم أكن أعرف أنك تقرئين بهذه الكثرة .

أجابته ، « لدى الآن مزيد من الوقت للقراءة » .

« نعم » وظلت يده تتحرك فوق المائدة ، وهى تتلمس الأشياء هنا وهناك .

وظلت مستلقية مكانها تنتظر منه أن يتكلم . ولكنه لم يفعل ، وقالت ، « هوراس ، ما الأمر » ؟

ثم جاء وجلس على حافة الفراش ، وظلت عيناها معاديتين متسائلتين وكان ظل فمها عنوداً بارداً قال « نارسى » : تخفضت عينها إلى الكتاب ، فقال « أولا ، أريد أن أعتذر لأننى أتركك وحدك فى الليل كثيراً جداً » .

« نعم » .

وضع يده على ركبتها « انظرى إلىّ » ورفعت وجهها والعداء فى عينيها فقال مكرراً « أريد أن أعتذر عن تركك وحدك فى الليل » .

« وهل يعنى هذا أنك لن تفعلها بعد الآن ، أم أنك لن تأتى على الإطلاق ؟ » ظل جالساً برهة يتأمل استكانة يده المتوحشة وهى مستلقية على ركبتها المغطاة ، ثم ترك مكانه ووقف مرة أخرى بجوار المائدة ، وأخذ يلمس الأشياء التى عليها ، ثم عاد وجلس على الفراش . كانت قد استأنفت القراءة مرة أخرى وحاول أن يأخذ الكتاب من يدها ولكنها قاومت.

قالت وقد عيل صبرها « هوراس ماذا تريد ؟ » .

استغرق مرة أخرى فى تأملاته بينما ظلت ترقب وجهه ، ثم رفع وجهه وقال بسرعة « سأتزوج بيل » .

« ولم تقول لى ؟ هارى هو الشخص الذى تقول له هـذا . إلا إذا كنت ، أنت وبيل ، ستستغنيان عن شكليات الطلاق » .

قال : « نعم إنه يعرف » . ووضع يده على ركبتها مرة أخرى ومسح عليها من فوق الغطاء « أنت لم تدهشى حتى لهذا .. أليس كذلك ؟ » .

« أنت الذى تثير دهشتى ، وليست بيل ، بيل لها طبيعة الشوارع الخلفية » قال مؤيدا « نعم » ثم « من قال لك هذا ؟ أنت لم تتصورى هذا بنفسك » وظلت مستلقية مكانها ، وكتابها مرفوع قليلا ، وعيناها عليه .. أمسك يدها بغلظة ، وحاولت أن تستخلصها ، ولكن دون جدوى ثم سألها ، « من الذى قال لك هذا ؟ » .

« لم يقل أحد لى هذا . هوراس ، لا تفعل » .

ترك يدها وقال « أنا أعلم من . إنها مسز دوبرى » .

قالت مرة أخرى « لم يقـل أحد هـــذا . هوراس ، اذهب ودعنى وحدى » .

ومن وراء العداء كانت عيناها بائستين مستيئستين . « ألا ترى أن الكلام لا جدوى منه ؟ » .

قال بإعياء « نعم » إلا أنه ظل جالساً يدلك ركبتها . ثم وقف ودفع يده داخل ثوبه وإذ استدار ليخرج توقف مرة أخرى ، أخرج من جيبه غلافا « هذا خطاب لك نسيته معى أصيل اليوم . آسف » .

كانت تقرأ ، فقالت له « ضعه على المائدة » دون أن ترفع عينيها . ووضع الخطاب على المائدة وغادر الغرفة . وعند الباب نظر إلى الخلف . ولكن رأسها كانت محنية على الكتاب .

وإذ أخذ فى خلع ملابسه ، بدا له بالفعل ، وكان رائحة بيل الثقيلة الشاحبة قد تعلقت بها ، وبيديه أيضاً حتى بعد أن آوى إلى فراشه ، وإذا تعلقت به تلك الرائحة جسمت فى الظلام بجواره شهوية بيل الحيوانية الغزيرة ، وكان ولم يزل فى تلك المنطقة الدافئة التى لم تغط فى النوم بعد ، حيث تقيم أم الأحلام ، فتجاسمت بيل أشد وضوحا وجلاء ، بقدر ما انزلق جسمه مبتعداً عنه . وهارى أيضاً ، بصمته الشرس ، واستقصائه الجريح ، الذى لم يكن فى بعضه إلا غروراً حطيما وصدمة ، وفى أغلبه حيرة صبي مخلصة ، أطلقت نفسها بعنف هائل فى شكل عبارات سينمائية . وبالضبط قبل أن ينام ، استحضر عقله ، بما للعقل من قدرة غريبة على استرجاع الذكريات غير المناسبة ، استحضر بشبحية جهاز تسجيل الصوت المذهلة ، حادثا اعتبره فى حينه تافها . أخذت بيل فمها منه ، ولبرهة ظل جسدها ملاصقا له ، وأمسكت وجهه بيديها معا ، وتطلعت إليه بعينين مركزتين مستفهمتين ، « هوراس ، هل تملك مالا كثيراً ؟ » وأجابها على الفور « نعم . طبعا عندى » ثم أحاطت به مرة أخرى وكأنها عقار شديد مميت ، وكأنها بحر ساكن موحل ، راقب نفسه وهو يغرق فيه .

ظل الخطاب(١) على المائدة تلك الليلة ، منسيا ، ثم اكتشفته فى الصباح التالى وفتحته ، أنا أحاول أن أنساك . أنا لا أستطيع أن أنساك عيناك الكبيرتان شعرك الأسود كم يجملك شعرك الأسود تبدين بيضاء ، وكيف تمشين . أنا أرقبك . يفوح العطر منك كزهرة ، عيناك تلمعان بسر ، أسلوبك فى المشى يجعلنى مريضا كمحموم طول الليل أفكر كيف تمشين . أنا أستطيع أن أمسك وأنت لا تستطيعين أن تعرفى . كل يوم ولكننى لا أستطيع يجب أن أفرغ على الورق يجب أن أتكلم أنت لا تعرفين . شفتاك كقوس كيوبيد عندما يأتى اليوم عندما أضغطهما على شفتى كما حلمت فى حمى من الجنة إلى الجحيم . أنا أعرف ماذا تفعلين أنا أعرف أكثر مما تتصورين . أنا أرى رجالا يزورنك بألم مسر . كونى حذرة

---

(١) فى هذا الخطاب من الأخطاء مايدل على عدم تمكن صاحبه من اللغة (المراجع) .

إنا رجل مستيئس . لن يهمنى شىء إذا أحببت بدنس رجلا سأقتله » .

«. أنت لا تجيبين آنا أعرف أنك تستلبينها أنا رأيت واحداً فى حقيبة يدك ، الأفضل لك أن تجيبى سريعاً أنا رجل مستيئس تأكله الحمى ولا أستطيع أن أنام منها أنا لن أوذيك ولكننى مستيئس لا تنسى أنى لن أوذيك ولكننى رجل مستيئس » .

وتراكمت الأيام . لم تكن أياماً حزينة ولا موحشة ، كانت محمومة إلى الدرجة التى لا تجعلها حزينة وكانت نفسها ممزقة فى اتجاهين ، بعد أن دمرت جدران حديقتها الهادئة ، وهى نفسها كحيوان ليلى أو طائر وقع فى حزمة من النور ويحاول سدى أن يهرب .

لقد ذهب هوراس نهائيا فى طريقه ، ومضيا معاً كغريبين يعيشان رتابة أيامهما المادية ، فى قطيعة لا تنحنى ، لود طويل وكبرياء متشابهة اختفت تحت غلاف كاذب رقيق من الصغائر . وكانت تجلس مع بايارد تقريبا كل يوم ، ولكن بحذر على مسافة ياردتين منه .

فى البدء ، حاول أن يخضعها بالجعجعة ثم بالمداهنة ولكنها كانت صلبة ، فكف أخيراً واستلقى فى فراشـــه لتطلع بهدوء من النافذة ، أو لينام وهى تقرأ .

وكانت مس جينى ، تأتى من حين إلى حين ، لتطل من الباب عليهما وتذهب . أما نفورها وتوقعها للخطر ورعبها من وجودها معه فقد ذهبت كلها ، وأحيانا ، كانت تكف عن القراءة ، ويتحدثان معا بهدوء حديثا غير شخصى . وشبح ذلك الأصيل بينهما ، رغم أن احداً منهما لم يشر إليه على الإطلاق وقد استبد حب الاستطلاع قليلا بمس جينى حول ذلك اليوم ، إلا أن نارسيسا رفضت بجدية ووقار أن تقول شيئا ، ولم يتكلم بايارد أيضا ، وهكذا تكونت بينهما رابطة أخرى إلا أنها لم تكن رابطة مضنية ، وقد سمعت مس جينى أيضا شائعات حول هوراس وبيل ، ولكن نارسيسا لم يكن لديها شىء تقوله حول هذا الموضوع .

قالت مس جيني بمكر ، خذى الأمر كما تشائين أنا أستطيع أن أكون رأيي الشخصي ، وأنا أتصور بيل وهوراس وفى استطاعتهما أن يحدثا معاً الكثير من الفوضى . وأنا مسرورة بهذا . هذا الرجل كان سيجعل منك عانساً عجوزا . لم يتأخر بك الوقت كثيرا جـداً . ولو انتظر خمس سنوات أخرى ليلعب دور الأحمق ، لما تبقى لك ثمة شيء ، عدا إعطاء دروس فى الموسيقى . ولكنك تستطيعين الزواج الآن .

سألتها نارسيسا : « وهل تنصحيننى بالزواج » ؟

« لن أنصح أحداً بالزواج . لن تكونى سعيدة ، ولكن النساء لم يتحضرن بعد بما يكفى ليكن سعداء وهن غير متزوجات . ولذا يجوز لك أن تجربى الزواج . ونحن مع ذلك نستطيع أن نصمد لأى شيء . والتغيير خير للناس . هكذا يقولون على الأقل » .

ولكن نارسيسا لم تكن تصدق هذا . قالت لنفسها ، لن أتزوج قط الرجال . . ذلك هو الشيء الذى يكمن فيه الشقاء ، أن تسمحى للرجال بالدخول فى حياتك » .

« وإذا كنت قد عجزت عن الاحتفاظ بهوراس بكل ما منحته من حب . . » ونام بايارد والتقطت الكتاب وأخذت فى القراءة لنفسها ، عن ناس عجيبين فى عالم عجيب حيث كانت الأشياء تحدث كما ينبغى أن تحدث ، واستطالت الظلال نحو الشرق ومضت تقرأ ، وقد فقدت إحساسها بالموجودات .

تيقظ بايارد بعد وقت قصير ، وأحضرت له سيجارة وثقابا . قال : « لن يكون عليك بعد الآن أن تفعلى هذا . أحسبك آسفة » .

وكان يعنى بهذا أن قالبه سيخلع عنه فى الغد . وقد استلقى فى فراشه يدخن سيجارته ، ويتحدث عما سيفعله عندما يعود إلى حالته الطبيعية . سيعنى أول ما يعنى بإصلاح سيارته ، سيأخذها إلى عفيس فى المرجح .

وخطط رحلة لثلاثتهم مس جينى ونارسيسا وهو — فى الوقت الذى تكون فيه السيارة قيد الإصلاح . قال : « سيأخذ ذلك ما يقرب من أسبوع لابد أنها فى حالة سيئة جداً . أرجو ألا أكون قد أذيت أجهزتها » .

قالت له تذكره : « ولكنك لن تقودها بسرعة بعد الآن » وظل مستلقيا فى سكون وسيجارته تحترق بين أصابعه فاستطردت تقول : « أنت وعدت بهذا » .

« متى وعدت » ؟

« ألا تتذكر ؟ ذلك . . . الأصيل عندما كانوا . . . »

« عندما أفزعتك ؟ » وكانت فى مكانها ترقبه بعينيها الجادتين المهمومتين . فقال « تعالى هنا » فوقفت وذهبت إلى فراشه وأخذ يدها .

قالت بإصرار : « لن تقودها بسرعة مرة أخرى » .

قال : « لا ، أنا أعد » وظلا هكذا ساكنين لحظة ، ويدها فى يده . اهتزت الستائر فى النسيم ، وطرقت أوراق الغصن القريب من النافذة بأعينها لبعضها البعض ، واستدارت وتهامست معا . لم يعد الغروب ببعيد ، وحينئذ يتوقف النسيم . ثم تحرك .

ناداها ، « نارسيسا » فنظرت إليه ، فقال : « ميلى وجهك إلى » .

نظرت بعيداً ، ولبرهة قصيرة لم تكن ثمة حركة بينهما ولا صوت .

قالت أخيرا بهدوء « يجب أن أذهب » وتخلى عن يدها .

وقد خلع عنه قالبه ، ووقف وجال فى المكان ، وكان يتحرك — بالتأكيد — متعثراً إلى حد ما إلا أن مس جينى كانت قد بدأت بالفعل تتأمل حالته بشىء من القلق . « إذا استطعنا فقط أن ندبر الأمر بحيث

نكسر إحدى عظامه الأقل أهمية ، واحدة كل شهر أو ما يقرب من هذا بما يكفى لإبقائه فى البيت ... »

قالت لها نارسيسا . « لن يكون هذا ضروريا . سيحسن منذ الآن التصرف » سألتها مس جينى « من أين تعرفين هذا ؟ أى شىء فى العالم يدفعك إلى التفكير بهذه الطريقة ؟ »

« وعد أن يفعل » .

أجابت مس جينى على الفور « سيعد بأى شىء وهو مستلق على ظهره . كلهم سيفعلون ، وكلهم فعلوا . ولكن ما الذى يدفعك للاعتقاد بأنه سيحفظ الوعد ؟ » .

قالت نارسيسا بوقار ، « وعدنى أن يفعل »

كان العمل على إصلاح السيارة أول ما اهتم به . كانت قد جرت إلى البلدة وأصلحت بالطريقة التى تكفل لها السير بقوتها الذاتية ، إلا أنه كان من المهم أن تؤخذ إلى ممفيس لتقويم هيكلها وإصلاح جسمها ، وكان بايارد مصمما على عمل هذا بنفسه ، بأضلاعه حديثة العقد وأربطته ، ولكن مس جينى أصرت على موقفها . وبعد نصف ساعة صاخبة كانت هزيمته قد تحققت . وهكذا قاد شاب ممن يرتزقون من حول أحد جراجات البلدة السيارة إلى ممفيس .

قالت مس جينى ، « ستصحبك نارسيسا فى سيارتها إن كان من الضرورى لك أن تركب » قال بايارد ساخراً ، « فى محمصة الفول السودانى هذه ؟ لن تقطع أكثر من واحد وعشرين ميلا فى الساعة » .

أجابت مس جينى « لا وشكراً لله . وقد كتبت إلى ممفيس وطلبت منهم أن يضبطوا سيارتك حتى تجرى بنفس هذه السرعة أيضا » .

حملق بايارد فيها بكآبة ووجوم وسألها ، « هل فعلت أى شىء مثل هذا الشىء الملعون ؟ ، صاحت مس جينى « أوه ، خذيه بعيداً عنى يانارسيسا . أغربى به عن عينى . سئمت تماما النظر إليه » .

.وقد رفض فى البدء أن يركب سيارة نارسيسا . ولم يدع ثمة فرصة تفوته للتحدث عنها بسخرية واستخفاف ثقيلين ، وهو ماض فى إصراره على رفض الركوب فيها .

وقد اصطنع دكتور ألفورد ضمادة مطاطية لصدره تمكنه من ركوب حصانه ، غير أنه اكتسب رغبة عجيبة فى التسكع حول البيت عندما تكون نارسيسا فيه .

وكانت نارسيسا تأتى كثيراً . وقد تصورت مس جينى أنها تفعل هذا من أجل بايارد ، واستفسرت من ضيفتها بأسلوبها المباشر ، فحدثتها نارسيسا عن هوراس وبيل ومس جينى جالسة مكانها تستمع منتصبة الظهر لا تقهر بجوار البيانو .

قالت . « يا للطفل المسكين » ثم يا إلهى ؟ ، أليسوا أغبياء ؟ وأخيراً « حسنا ، أنت على صواب . لو كنت مكانك لما تزوجت أحدا منهم » .

قالت نارسيسا « ولا أنا . تمنيت ألا يوجد أحد من الرجال فى العالم »

وصاحت مس جينى « أوف » .

وذات أصيل ، كانا فى سيارة نارسيسا ، وكان بايارد جالسا إلى عجلة القيادة رغم احتجاجها فى البداية إلا أنه كان يتصرف بحكمة تماما ، فاطمأنت فى النهاية . مضيا بالسيارة هابطين طريق الوادى واستدار إلى التلال ، وسألته عن وجهتها . ولكن إجابته كانت غامضة . وهكذا جلست بهدوء بجواره ، وصعد الطريق فى انحناءات طويلة بين أشجار صنوبر تعتمت فى الأصيل المنحدر . ولف الطريق وهو يكشف عند كل دورة مشاهد واسعة صغيرة من الوديان التى أضاءتها الشمس ، والتلال

المقابلة وكانت تحوطهما دائما أشجار الصنوبر الكثيبة وأريجها الكليل المنعش .

وبعد وقت ما اعتلى تلا وأبطأ السيارة ومن تحتهم تهادى الطريق ، ثم أعتدل متجها إلى صف من أشجار الصفصاف ، ثم فوق جسر حجرى ، وصعد الطريق مرة أخرى واستدار واحمر لونه واختفى بين الأشجار القائمـــة .

قال « هذا هو المكان » .

قالت وهى سارخة « المكان ؟ » ثم ، وإذ انزلقت السيارة مرة أخرى إلى الأمام وهى تكتسب سرعة متزايدة ، أنهضت نفسها . وأدركت ما يعنيه وصاحت به ، « أنت وعدت ! » ولكنه دفع خناق الوقود إلى أسفل ، فتعلقت به وحاولت أن تصرخ إلا أنها لم تستطع أن تخرج صوتا ، ولا استطاعت أن تغمض عينيها عندما اندفع عليهما الجسر الضيق متراقصا . ثم توقفت أنفاسها وقلبها عندما مرقا مبرقين ، بهزيم كأصداء عاصفة ثلجية على سطح من الصفيح ، بين صف من الصفصاف ولألاء مياه متساقطة واندفعا نحو التل التالى . وتمايلت السيارة الصغيرة على المنحنى ، وانزلقت أقدامها عن الأرض ، ومضت إلى المستنقع ، وقفزت منـه ، واندفعت إلى الطريق . ثم أحكم بايارد قيادتها وصعدت إلى قمة التل بسرعة متناقصة ، وتوقفت وقد كانت جالسة بجواره وفمها الشاحب مفتوح تستعطفه بعينيها الواسعتين البائستين . ثم التقطت أنفاسها فناحت .

قال متعلثماً ، لم أقصد . . . أردت فقط أن أعرف إن كان فى استطاعتى أن أفعلها . وأحاطها بذراعيه وتعلقت به ، ويداها تتحركان بجنون حول كتفيه ، قال مرة أخرى ، « لم أقصد . . » وكانت يداها المجنونتان حينئذ على وجهه وكانت تبكى بوحشية ووجهها على شفتيه .

— ٩ —

قضى ساعات الصباح منكبا على دفاتره ، متتبعا بنوع ما من الدهشة . يده وهى تضع الأرقام الأنيقة فى الأعمدة المسطرة . وقد انتهى به الأمر إلى شكل ما من أشكال الذهول بعد ليلة لم يغمض له فيها جفن وقد

تبددت طاقة عقله إلى الدرجة التي أعجزتها حتى عن تأمل صور شهوته العارمة التي صدت إلى آخر الزمن ، إلا بدهشة غبية ، لأن الصور لم تملأ دمه بالغضب الجنوني واليأس ، ولذا فقد كان ينبغي أن تمر برهة قبل أن تنفعل أعصابه المخدرة بخطر جديد ، وتدفعه لأن يرفع رأسه . كان فيرجيل بيرد يدخل في تلك اللحظة من الباب .

انزلق بسرعة من فوق مقعده العالي وتسلل حول الركن واندفع من باب مكتب بايارد العجوز وقبع داخل الباب . وسمع الصبي وهو يسأل بأدب عنه ، وسمع الصراف يقول له إنه كان هناك منذ دقيقة ، وإنه يعتقد أنه قد خرج لشأن ما ، وسمع الصبي وهو يقول له ، إنه يرى أن ينتظره حتى يعود ، ثم ظل قابعاً داخل الباب ، وهو يمسح فمه الذي يتصبب باللعاب بمنديله .

ثم فتح الباب ، بعد برهة ، بحذر . وقد أقعى الصبي مستندا إلى الجدار بصبر وبساطة ، ووقف سنوبس مرة أخرى بيديه المقبوضتين المرتعدتين . لم يسب ، كان غضبه الجنوني اليائس أضخم من الكلمات ، ولكن أنفاسه كانت تأتي وتذهب بصوت سريع في حنجرته آه — آه — آه وبدا له وكأن كرتي عينيه قد شدتا إلى الخلف إلى داخل جمجمته ، وأنهما تبتعدان حتى توشك الحبال التي تشدهما على الانقطاع ، ثم فتح الباب .

صاح الصبي بسرور وهو يقف ، « أهلا ، مستر سنوبس » ومضى مستر سنوبس ودخل ردهة المصرف ، واقترب من الصراف .

قال بصوت هامس لا يكاد يسمع « ريس أعطني خمسة دولارات » .

« ماذا ؟ »

قال مرة أخرى بصوت مبحوح ، « أعطني خمسة دولارات » ، وقد فعل الصراف ، وكتب بسرعة مذكرة وشبكها بدبوس على إضبارة بجواره وكان الصبي قد جاء إلى النافذة ، ولكن سنوبس مضى في طريقه وتبعه الصبي عائدا إلى المكتب مرة أخرى ؛ وقدماه العاريتان تحدثان فحيحا على أرضية المكتب المصنوعة من المشمع .

قال موضحا : حاولت أن أعثر عليك ليلة الأمس ، ولكنك لم تكن فى البيت « ثم رفع عينيه فرأى وجه سنوبس ، وبعد لحظة صرخ وتخلص من ذهوله واستدار موليا . ولكن الرجل أمسك به من ثوبه فتلوى فى يده وتشنج ، وهو يستغيث فى رغب شامل . والرجل يجرجره عبر المكتب ، ثم يفتح الباب المؤدى إلى الساحة الخالية . كان سنوبس يحاول أن يقول شيئا فى صوته الجنون المرتعد ، ولكن الصبى ظل يصرخ دون توقف ، وقد استرخى جسمه فى قبضته ، والرجل يحاول أن يزج بالورقة المالية فى جيبه وفى النهاية استطاع أن يفعل ذلك ثم أطلق الصبى ، الذى تعثر مبتعدا ، ثم وجد الطريق إلى ساقيه ، ففر هاربا . وعاد إلى المكتب فسأله الصراف بدهشة « لم كنت تضرب هذا الصبى ؟ » .

قال على الفور وهو يفتح دفتره « لتطفله على شئون الآخرين » .

تطلع وهو يعبر الميدان الخالى إلى وجه الساعة المضىء . كانت الساعة الحادية عشرة وعشر دقائق . ولم تكن ثمة علامة من علامات الحياة إلا شبح حارس الليل الوحيد بجوار باب ردهة إدارة البريد .

وغادر الميدان ودخل شارعاً ومضى فى خطو منتظم تحت أضواء المصابيح الكهربية ، كان الشارع حينئذ له وحده ، ولظله واسع الخطو ، الذى يطارده بانتظام من الظلام ويتتبعه فى بحيرة النور ، ثم إلى الظلام مرة أخرى ، واستدار عند ركن ومضى أيضا فى شارع أكثر هدوءا ، ثم عرج منه إلى ممر بين سياجين كثيفين من الياسمين البرى أكثر ارتفاعاً من قامته ، وبأريج حلو فى هواء الليل . كان الممر معتما فأسرع من خطوه . وعلى الجانبين ارتفعت الطوابق العليا من البيوت فوق الياسمين البرى فظهرت نافذة مضيئة من حين إلى حين بين الأشجار المعتمة . وظل ماضيا بالقرب من الجدار وقد أسرع خطوه ، حتى أصبح بين خلفيات البيوت . وبعد برهة تشامخ بيت آخر ، وصف من أشجار الأرز المتراحمة ، تشامخت أيضاً ومن ورائها سماء أكثر شحوبا ، ثم استرق خطاه بجوار حائط حجرى وبذلك أصبح قبالة الجاراج .

توقف هنا وبحث بين الحشائش الغزيرة تحت الجدار وانحنى والتقط قائمة خشبية أسندها إلى الجدار ثم تسلق الجدار مستعينا بالقائمة واعتلى سقف الجاراج .

كان البيت معتما ، وهنا انزلق إلى الأرض واسترق خطاه عبر المرج وتوقف تحت نافذة . كان ثمة ضوء من مكان ما فى مقدمة البيت ، ولكن بلا صوت ولا حركة ، وظل واقفا ينصت برهة ، وهو يرمح بنظراته هنا وهناك ، متلصصا دون انقطاع وكأنه حيوان وقع فى مصيدة .

واستسلمت النافذة لسكينه بسهولة ورفعها وأنصت مرة أخرى وبحركة واحدة مضطربة أصبح داخل الغرفة ، وقبع . ثم لا صوت عدا وقع ضربات قلبه ، وانبعث من البيت كله الإحساس الذى لا يخطىء بخلوه المؤقت من أهله . ثم أخرج منديله ومسح فمه .

كان الضوء فى الغرفة المجاورة ، ومضى إليها ، وكان الدرج يبدأ فى آخر هذه الغرفة فرق خلالها ، وصعد الدرج مسرعا إلى عتمة الطابق العلوى وتحسس طريقه حتى لمس جداراً ثم بابا ، ودار مقبض الباب فى يده .

كانت هى الغرفة المطلوبة ، وقد عرف على الفور هذا . كان وجودها يحيط به من كل جانب ولمدة من الزمن دق قلبه فى حنجرته وضرب فيها بالمطارق الثقيلة ذوات الصوت المكتوم ، وزلزله الغضب الجنونى والشهوة واليأس . ثم تماسك ، يجب عليه أن يخرج بسرعة ، وتحسس طريقه إلى فراشها ، واستلقى منكفئا عليه ، ورأسه مدفون بين الوسائد ، وهو يتلوى معذبا ينبعث منه أنين حيوانى محبوس ولكن يجب عليه أن يخرج بسرعة ، فقام وتجول متحسسا طريقه فى الغرفة مرة أخرى . وما كان فى الغرفة من ضوء كان خلفه فى تلك اللحظة ، وبدلا من أن يجد الباب ، وقع على صف من الأدراج ، فتوقف لحظة ، وهو يتعرف على شكلها بأصابعه ثم فتح أحدها وبحثت أصابعه فيه بطريقة عشوائية . كان مملوءاً بأثواب رقيقة خفيفة العطر ، إلا أنه لم يستطع أن يميز بأصابعه قطعة منها من الأخرى .

وجد ثقابا فى جيبه وأشعله تحت ستار كفه ، وبضوئه اختار إحدى قطع الملابس الناعمة ، مكتشفا ، ولهب الثقاب يموت ، حزمة من الخطابات فى ركن الدرج . وقد تعرف عليها فى الحال ، ورمى الثقاب الميت على الأرض ، وأخذ الحزمة من الدرج ووضعها فى جيبه ، ووضع الخطاب الذى انتهى للتو من كتابته فى الدرج ، وظل واقفا لحظة ووجهه مدفون فى قطعة الثياب ضاغطاً بها عليه بعنف هائل ، وظل هكذا وقتا ، حتى دفعه صوت لأن يرفع رأسه فجأة وينصت . كانت ثمة سيارة تدخل الممر الخاص ، وإذ كان يقفز إلى النافذة اكتسحت أضواؤها المكان من تحته وسقطت بكل قوتها على الجاراج المفتوح ، فقبع فى النافذة فى رعب هائل . ثم أسرع إلى الباب وتوقف مرة أخرى ، وأقعى ، وهو يلهث ويزمجر متردداً .

جرى عائداً إلى النافذة . كان الجاراج مظلما ، وقد أخذ شخصان تحوطهما العتمة فى الاقتراب من البيت ، فقبع بجوار النافذة حتى اختفيا عن الأنظار ، ثم تسلق النافذة ، وهو قابض على قطعة الثياب فى يده ، وظل معلقا من حافتها بيديه لحظة ، ثم أغمض عينيه وهوى .

ودوى صوت تحطيم الزجاج ، فزحف وقد أفقدته الصدمة إحساسه بين أصوات تحطيم أقل ، وموجة غبار عطن جاف . لقد سقط فى حوض زهور محفور على انخفاض قليل من الأرض فتسلقه زاحفا وحاول أن يقف وسقط مرة أخرى ، وقد شمله شعور الغثيان وكأنه فى دوامات . كانت ركبته وقد استلقى متألما ، وشفتاه مشدودتان لاهثتان ، بينما نزف ساق سرواله ببطء ودفء ، وقد قبض على قطعة الثياب فى يده . وحملق فى السماء المعتمة بعينين واسعتين مجنونتين .

ثم سمع أصواتا فى البيت ، وأضاء نور وراء النافذة التى تعلوه ، واستدار وحبا بقفزات زاحفة عبر المرج وغطس فى ظلام الأرز بجوار الجاراج ، حيث استلقى هناك وهو يرقب النافذة التى انحنى منها رجل أخذ يتطلع من

حوله ، وقد تأوه قليلا بينما كان دمه يجرى بين أصابعه المضمومة . ودفع نفسه مرة أخرى إلى الأمام ، وجرجر ساقه الدامية فوق الجدار ، وهبط على المرج ورمى القضيب جانباً . وعلى بعد مائة ياردة أخرى ، توقف وأزاح سرواله الممزق جانباً وحاول أن يضمد النزيف المتدفق من ساقه . إلا أن المنديل تلطخ كله فى الحال تقريباً ، وظل الدم يجرى منسالا فوق ساقه إلى داخل حذائه .

ما كاد يصل إلى غرفة البنك الخلفية حتى رفع ساق سرواله ونزع المنديل وغسل الجرح فى المغسل — إلا أنه ظل ينزف ، وقد أشاع منظر دمه فيه الغثيان فتمايل ويده مستندة إلى الجدار ، وهو ينظر إلى دمه . ثم خلع قميصه وضمد به ساقه وشده قدر ما استطاع . وقد ظل شعور الغثيان ملازما له ، فشرب بشراهة من ماء الصنبور الفاتر . وعلى الفور أتخمه الماء وثقل عليه ، فاستند إلى جدار المغسل ، وقد تصبب عرقا ، محاولا ألا يقىء ، حتى مرت الأزمة ، وكان ضعيفا وتمنى أن يستلقى ولكن لم يجرؤ أن يفعل . .

دخل ردهة البنك ، وكعب حذائه الأيسر يترك بصمة حمراء عند كل خطوة . وقد انفتح باب القبو دون صوت ، ودون حاجة إلى ضوء وأخذ مفتاح صندوق العملة النقدية وفتحه . لم يأخذ إلا أوراقا مالية إلا أنه أخذ كل ما استطاع أن يجده . ثم أغلق القبو ، وثبته بالقفل ، وعاد إلى المغسل وبلل منشفة بالماء وأزال بصمات كعبه من الأرضية المغطاة بالمشمع . ثم خرج من الباب الخلفى ، ورمى السقاطة حتى ينغلق الباب من ورائه . ودقت الساعة فى بيت القضاء الثانية عشرة . .

جلس زنجى فى سيارة فورد حطيمة بين متجرين من متاجر السود . كان ينتظر . أعطى الزنجى ورقة مالية ، وشغل الزنجى الآلة وعاد وحملق بدهشة فى قطعة النسيج المغطاة بالدم تحت سرواله الممزق . قال الزنجى :

« ماذا حدث يا ريس ؟ » أنت لم تصب بأذى أليس كذلك ؟ »

قال باقتضاب : « تعثرت فى سلك به وقود كثير أليس كذلك ؟ »

وأجاب الزنجى بالإيجاب ومضى بالسيارة وإذ كان يعبر الميدان كان المأمور بك واقفا تحت الضوء أمام إدارة البريد ، وسبه سنوبس فى صمت وسخرية مريرة . ومضى ودخل شارعا آخر واختفى عن الأنظار ، ورويداً رويدا غاض صوت ذهابه .

الجزء الرابع

كان أصيلا بهيجاً فى أحد أيام أكتوبر ، وقد مضت نارسيسا وبايارد فى السيارة بعد الغداء بوقت قصير ، وكانت مس جينى وبايارد العجوز جالسين فى آخر الشرفة المشمسة عندما جاء الوفد بوقار من وراء ركن البيت وفى طليعته سيمون .
كان وفداً من ستة زنوج فى طراز كاثوليكى من ملابس الآحد الرسمية ؛ وكان يأتم الوفد زنجى هائل الحجم ذو رأس كرأس الثور . كان يرتدى بنيقة مؤخرتها مكان مقدمتها وسترة من طراز الأمير ألبرت . ومن حوله جو من الأبهة الجهجهة وكانت له عينان وحشيتان قاهرتان .

قال سيمون ، « هؤلاء هم » ، ودون أن يتوقف ارتقى الدرج واستدار ، فلم يترك فى ضمير أحد ثمة شك فى الجانب الذى يعتبر نفسه منتمياً إليه . وتوقف الوفد وتهامس أعضاؤه قليلا باحتشام ووقور .

قالت مس جينى « ما هذا ؟ أهذا أنت أيها العم بيرد ؟ . . »

وكشف أحد أعضاء الوفد عن فروة رأسه الصوفية المفلفلة وانحنى وقال : « نعم سيدتى مس جينى .. كيف حالك ؟ » . ونقل الآخرون أقدامهم ، ورفعوا قبعاتهم واحداً بعد الآخر : أما الزعيم فقد وضع قبعته فوق صدره ، وكأنه أحد أعضاء الكونجرس وهو يستعد لالتقاط صورة له .

سأل بايارد العجوز « سيمون اسمع ما هذا . . ؟ لأى سبب أحضرت هؤلاء الزنوج هنا ؟ . »

قال سيمون موضحاً ، « جاءوا من أجل أموالهم » .

« ماذا ؟ »

وقالت مس جينى باهتمام : « أموال ! ! سيمون . . أى أموال ؟ » .

قال سيمون هاتفاً « لقد جاءوا من أجل المال الذى وعدتهم به » .

قال بايارد « قلت لك إننى لن أدفع هذه النقود » ثم سأل الوفد ، « هل قال لكم سيمون إننى سأدفعها ؟ »

وقالت مس جينى مرة أخرى ، « أى نقود ، سيمون عم تتكلم ؟ »

أما زعيم الوفد فقد كان يعد وجهة للكلمات ، إلا أن سيمون سبقه وقال « كولونيل ، أنت قلت لى بنفسك أن أقول لهم ، هؤلاء الزنوج ، إنك ستدفع لهم » .

أجاب بايارد العجوز بعنف « لم أقل مثل هذا الشيء . قلت لك إنهم إذا كانوا يريدون أن يضعوك فى السجن ، فليمضوا ويفعلوها . هذا هو ما قلته لك » .

« كولونيل ، أنت قلت لى هذا بكل صراحة . كل ما فى الأمر أنك نسيت . أنا أستطيع أن أستشهد بمس جينى أنك قلت لى » ـ فقاطعته مس جينى قائلة « ليس بى . هذه هى المرة الأولى التى أسمع فيها عن الأمر . سيمون أموال من هى ؟ » .

وأعطاها سيمون نظرة متألمة لائمة « لقد قال لى أن أقول لهم إنه سيدفع لهم » وصرخ بايارد « أكون ملعوناً لو فعلت . قلت لك إننى لن أدفع سنتا واحداً منها . وقلت لك إنك إذا سمحت لهم بإزعاجى حول هذا الأمر فسأسلخك حياً ياسيدى »

قال سيمون مهدئاً « لن أسمح لهم أن يزعجوك ، وهذا هو ما أرتبه الآن . عليك فقط أن تدفع لهم أموالهم ، وأنا وأنت نستطيع أن نسوى الأمر فيما بعد » .

« أكون ملعوناً إلى الأبد إن فعلت . إذا سمحت لزنجى كسول لا يساوى ثمن طعامه و ـ »

قال سيمون موضحاً بصبر ، « ولكن ثمة شخص ما يجب عليه أن يدفع لهم ، مس جينى أليس هذا صحيحاً ؟ » .

وقالت مس جينى مؤيدة « هذا صحيح إلا أنى لست هذا الشخص »

« نعم ياسيدى ليس ثمة خلاف أن شخصا ما يتحتم عليه أن يدفع لهم وإذا لم يهدىء ثائرتهم أحد فسيضعوننى فى السجن وهنا ماذا ستفعلون كلكم ..؟ دون أى شخص يقوم بإطعام الخيل وتنظيفها وتنظيف البيت وبالخدمة على مائدة الطعام . بالطبع أنا لا أضيق بالذهاب إلى السجن رغم أن أرضيته لن تفيد شقائى » . ورسم صورة طويلة مؤثرة لمبادىء سامية مقدسة ولتضحية بالذات صابرة

« كم المبلغ »

انتفخ الزعيم داخل سترة الأمير ألبرت وقال « أيها الأخ مور ، أرجو أن تقرأ مجموع الريع المستحق لمشروع كنيسة المعمدين الثانية لدى الشماس ستروتر المفصول بصفته أميناً لصندوق مجلس إدارة الكنيسة » .

واصطنع الأخ مور اضطرابا خفيفا فى مؤخرة الجماعة ثم تقدم إلى الأمام بمعونة الكثير من الأيدى التى تطوعت راغبة فى تقديم المعونة ، كان زنجياً صغير الحجم متردداً فى لون الأبنوس ، وفى ملابس سوداء وقورة تفوق مقاسه كثيراً ، وقد وسع القس له المكان بحركة ملكية وقورة ، محاولا بشكل ما تركيز الاهتمام عليه . وضع قبعته على الأرض عنـــد قدميه ، وأخرج من جيب سترته الأيمن منديلا أحمر ، ثم « لبيسة » حذاء ، ثم قطعة من طباق المضغ ، ثم أمسكها جميعاً فى يده الطليقة وغطس بيده الأخرى فى جيبه وعلى وجهه شعور خفيف بقلق رجل مسئول ذى ضمير . ثم أعاد الأشياء مكانها ، ومن جيبه الأيسر أخرج مطواة وعصا قصيرة طوى عليها خيطا من القنب ، وقطعة قصيرة من حزام جلدى مربوطة بعقدة معدنية صدئة وفاسدة فيما يبدو وأخيراً مفكرة ملطخة قذرة تلوت حوافيها . زج الأشياء الأخرى فى جيبه وسقطت قطعة الجلد من يده ، فانحنى إليها وأخذها ثم عقد هو والقس حديثاً مقتصراً هامساً ، ثم فتح المذكرة واضطرب ما بين أوراقها ، وظل هكذا حتى انحنى القس فوق كتفه ووجد الصفحة الصحيحة ووضع إصبعا عليها .

سأل بايارد العجوز وقد عيل صبره « كم المبلغ أيها الموقر ؟ .. »

قال القس بنغمة هادئة : « سيقرأ الأخ مور المبلغ » . أما الأخ مور فقد نظر إلى الصفحة محملقا باستغراق ثم غمغم شيئاً بصوت لا يمكن تمييزه عملياً .

قال بايارد العجوز ، وهو يحيط أذنه بكفه « كم ؟ . . »

وقال سيمون « اجعله يتكلم . ألا يستطيع أحدكم أن يخبرنا عما يقوله ؟ » .

وقال القس بصوت أجش به أثر من الضجر ، « ارفع صوتك »

قال الأخ مور أخيراً ، « سبعة وستون دولاراً وأربعون سنتا » .

وارتمى بايارد العجوز على مؤخرة ظهر مقعده وظل يسب ويلعن دقيقة كاملة

وسيمون يرقبه بقلق مكتوم ثم وقف وعبر الشرفة بخطواته الثقيلة ودخل البيت وما زال يسب ويلعن . وهنا تنهد سيمون واسترخى وتحرك الوفد قلقا وتراجع الأخ مور إلى المؤخرة . أما القس ، فقد احتفظ بطابع الغموض والعمق .

سألت مس جينى ، وقد أخذها حب الاستطلاع ، « سيمون وماذا حدث لهذا المال ، أنت أخذته ، أليس كذلك ؟ »

أجاب سيمون ، « هذا هو ما يزعمونه » .

« وماذا فعلت به ؟ »

قال لها مطمئنا ، « لقد سوى الأمر . صرفته ، هذا كل ما فى الأمر بشكل ما » . وافقته مس جينى وقالت ببرود ، « أراهن أنك فعلت . أراهن أيضا أنها لم تبرد قط وهى معك . وهم يستحقون أن يفقدوها جزاء لهم ، فى المحل الأول ، عن إعطائها لك . من الذى أعطيتها له ؟ »

قال سيمون بسهولة ، « أوه ، أنا والكولونيل قد انتهينا من تسوية هذا الأمر منذ وقت طويل » وجاء بايارد العجوز وهو يدب فى البهو ثم خرج إلى الشرفة وفى يده شيك .

قال آمراً « خذ » ، واقترب القس من سور الشرفة وأخذه وطبقه وسواه فى جيبه ، وصاح بايارد « وأنتم أيها الناس إذا بلغت بكم الحماقة الدرجة التى تجعلكم تعطونه مزيدا من أموالكم مرة أخرى فلا تحضروا إلى من أجلها ، أتسمعوننى ؟ »

ثم سدد عينيه الغاضبتين إلى الوفد برهة ، ثم إلى سيمون ، « وأنت ، عندما تسرق مالا فى المرة القادمة ، وتأتى إلى لأدفعه عنك فسأكون السبب فى سجنك ، وسأقاضيك شخصياً . أخرج هؤلاء الزنوج من هنا » .

كان الوفد قد بدأ يتحرك بالفعل بطريقة منسقة ، إلا أن القس أوقفهم بحركة من يده ، ثم واجه سيمون مرة أخرى وقال « أيها الشماس ستروثر بصفتى راعيا لكنيسة المعمديين الأولى المحترقة ، وراعيا لكنيسة المعمدانيين الثانية المقترحة ، ورئيسا لهذه اللجنة هأنذا أعيد إليك سلطاتك السابقة كشماس فى كنيسة المعمدانيين الثانية المقترحة سالفة الذكر . آمين كولونيل سارتورس ، سيدتى ، طاب يومكم » ثم استدار وساق لجنته خارجا من المشهد — قال سيمون ، « شكراً لله ، انتهت مشغوليتنا بهذا الأمر » ثم جلس على الدرجة العليا وتأوه بسرور .

قال بايارد محذرا « وأنت تذكر ما قلته ، مرة أخرى » .

ولكن سيمون كان قد مد رأسه فى الاتجاه الذى ذهب فيه مجلس إدارة الكنيسة وقال ، « والآن ، ماذا تظنهم يريدون الآن ؟ » ذلك أن اللجنة كانت قد عادت وكانت تطلع بتردد من وراء ركن البيت . سأل بايارد « حسنا ما الأمر الآن ؟ »

كانوا يحاولون مرة أخرى دفع الأخ مور إلى المقدمة ، ولكنه انتصر عليهم هـــذه المرة وأخيرا تكلم القس « أيهـا البيض ، لقد نسيتم الأربعين سنتا » .

« ماذا ؟ »

هتف سيمون ، « يقول إنك لم تضف الأربعين سنتاً » . وانفجر بايارد العجوز ووضعت مس جينى كفيها على أذنيها ، ودارت العيون فى رءوس اللجنة بإعجاب مملوء بالخوف ، بينما حلق بايارد العجوز إلى قمم رائعة ، منقضا فى النهاية على سيمون .

صاح كالعاصفة ، « أنت أعطهم هذه السنتات الأربعين ، وأخرجهم من هنا . وإذا سمعت لهم يوما بالعودة فسأضربكم جميعاً بسوط من سياط الخيل » .

« يا إلهي ليس عندي أربعون سنتا يا كولونيل ، وأنت تعرف هذا . ألا يستطيعون الاستغناء عنها بعد أن حصلوا على المبلغ ؟ »

قالت مس جيني « لا . يا سيمون » معك « معك نصف دولار تبقى معك بعد أن اشتريت لك هذا الحذاء ليلة الأمس » ، ومرة أخرى ، نظر إليها سيمون بدهشة تفيض بالألم .

قال بايارد العجوز آمراً « أعطها لهم » وببطء مد سيمون يده إلى جيبه وأخرج قطعة نقود ذات نصف دولار وقلبها فى يده .

قال متمتما « كولونيل ، ربما أحتاج إلى هذا المبلغ . يبدو وكأنه من الجائز لهم أن يتركوا لى هذا المبلغ » .

قال بايارد العجوز بصوت كهزيم الرعد ، « أعطهم هـــذا المبلغ ! أحسبك تستطيع أن تدفع منه على الأقل أربعين سنتا » . وقف سيمون متباطئا ، واقترب القس .

قال سيمون للقس ، « أعطنى باقى النقود » ، ورفض أن يسلم قطعة نقوده حتى أصبحت قطعتان من النيكل فى يده ، ثم رحلت اللجنة .

قال بايارد العجوز « والآن أريد أن أعرف ماذا فعلت بهذه النقود » قال سيمون دون تردد « حسناً سيدى . حدث الأمر هكذا . صرفت هذه النقود » .

قالت مس جيني ، « يا إلهى ، هل ستبدءون الحكاية من جديد » وتركتهما وكان فى استطاعتها وهى فى غرفتها ، جالسة فى نافذة يغمرها ضوء الشمس ، أن تسمعهما ، غضب بايارد العجوز الجنونى ومراوغات سيمون اللطيفة المقبولة ، وهى تعلو وتهبط فوق هواء السبت الوسنان .

كانت ثمة وردة ، وردة واحدة متبقية . وقد ظلت نضيرة عبر أيام الصيف الأخيرة الحزينة الميتة ، والآن أيضاً ، رغم أن أشجار الكاكى

قد علقت منذ زمن طويل زهورها التي تشبه شموسا صغيرة بين الأغصان التي تحملت بعقود من الفراشات . وقضت أشجار الصمغ والإسفندان والجوز أسبوعين من الذهب والقرمز . والأعشاب ، أيضا ، حيث قعدت جدود الجنادب يوما متبلدة ، وكأنها شيوخ مكتئبون في الثمانين من أعمارهم ، ترك عليها الصقيع رسوماً رقيقـــة ، وقد تعطرت ساعات الظهيرة المشمسة بأريج أشجار الغاب ، والتي ظلت تحمل زهورها رغم أنها نضجت منذ زمن ، فتهدلت قليلا وإن ظلت في أماكنها ببطولة ، وكأنها نجوم ساخرة خابية . وكانت مس جيني ترتدي صداراً صوفياً ، وكانت مسحجتها تلمع أيضاً في قفازها ترابي اللون .

قالت : « إنها تشبه امرأة عرفتها يوما . كل مافي الأمر أنها لاتعرف كيف تستسلم بنبل وتصبح جدة » .

قالت نارسيسا محتجة ، وكانت ترتدي ثوبا صوفيا رمادياً ، « دعها تقض الصيف ، وكانت ثمة مسجة أخرى في يدها ، وقد ظلت تتابع برقة ووقار مس جيني التي عيل صبرها فتدفقت باللوم والتأنيب دون أن تحقق شيئاً ، بل وأسوأ من لا شيء ، وأسوأ حتى مما حققه إيزوم ، لأنها حطمت عزيمته ، فأعلن على الفور عن ولائه المكتوم للجناح الأيسر ؛ أو السلبي . قالت نارسيسا ، « من حقها أن تقضي الصيف كما ترى » قالت مس جيني « بعض الناس لا يعرفون الصيف عندما ينتهي . والصيف الهندي ليس مبرراً للشيوخ كي يرتدوا إلى المراهقة » .

« وهي ليست شيخوخة أيضاً » .

« وهو كذلك سترين يوما » .

« أوه يوما ما لست مستعدة تماما لكي أكون جدة الآن » .

ونزعت مس جيني بمسجتها بعناية وخبرة بصيلة زنبق وأزالت بمهارة من حول جذرها كتل الطين التي انعقدت حولها . قالت : « يبدو وكأننا

قد أتممنا بايارد تماما ، فى الوقت الحاضر على الأقل أحسب من الأفضل لنا أن نسميه جون هذه المرة . »

« حقـــا ! » .

قالت مس جينى مرة أخرى « نعم . سنسميه جون . أنت إيزوم ! »

وما زالت حلاجة القطن تعمل بانتظام منذ شهر ، وماذا كان أمامها إلا أن تفعل هذا ولديها قطن آل سارتورس وزراع الوادى الآخرين ، والزراع الأقل شأنا بحقولهم المنحدرة بين التلال . كانت أرض آل سارتورس تزرع بالمشاركة وقد انتهى معظم المستأجرين من جنى أقطانهم ، وحصد القمح المتأخر وفى الساعات المتأخرة من الأصيل ، وقد افترش الصيف المندى الأرض ، وتمطى حزن عتيق حاد كدخان حريق من خشب فوق هواء ساكن . كان بايارد ونارسيسا يخرجان من السيارة ويذهبان إلى مكان قريب من نبع على حافة الغابة ، حيث كان الزنوج يحضرون عيدان قصب السكر ، ويصنعون نتاجهم الشتوى المشترك من العسل الأسود . كانت المعصرة والبغل الذى يزودها بالقوة المحركة ملكا لأحد الزنوج الذى كان يشتغل بين المستأجرين مكانة الشيخ والزعيم . كان يقوم بالعصر ويشرف على طهو العصارة مقابل عشرها ، وعندما كان بايارد ونارسيسا يصلان كانا يجدان البغل وهو ماض فى دورانه البطىء الرتيب الصبور ، وأقدامه تحدث صوتا ضعيفا بين نخاع عيدان القصب الجافة بينما يقوم أحد أحفاد الشيخ بإطعام المعصرة بعيدان القصب .

وقد مضى البغل يدور ويدور وهو يضع أقدامه الرفيعة التى تشبه أقدام الغزلان بحذر ورقة بين نخاع القصب ذى الفحيح ، وعنقه تهتز إلى أعلى وإلى أسفل بليونة وكأنها قطعة من طوقه المطاطى ، وجنباه محصوران بين الأحزمة الجلدية ، وأذناه تتهدلان إلى أسفل وكأنهما ميتتان وعيناه نصف المغمضتين وسنانتان بشر كامن وراء الجفون الشاحبة ، كان يبدو نائما بفعل حركته الذاتية الرتيبة . إن واجب أحد شعراء الحقول أن ينشد ،

وكأنه هوميروس القديم ، ملحمة البغل ومكانته فى الجنوب . إنه البغل أكثر من أى مخلوق أو شىء آخر ، ذلك الذى استمسك بالأرض عندما تهاوت عزائم الجميع إزاء الظروف المدمرة الساحقة التى لا أمل فيها ، غير مبال بالأحوال التى حطمت قلوب الرجال ، ذلك لأنه كان مستغرقا بحقد وصبر فى الحاضر المباشر ، فاستخلص الجنوب المستسلم من تحت حذاء التعمير الحديدى ، ومرة أخرى علمه الكبرياء من خلال الذلة ، والشجاعة من خلال الانتصار على الشدائد ، هو ذلك الذى حقق ما كاد يكون مستحيلا رغم العقبات المليئة بالصبر المنتقم الحقود الخالص . الأب والأم إنه لا يشبههما ، الابن والبنت لن يعرفهما حقود صبور (ومن الحقائق المعروفة أنه يقبل على العمل من أجلك صابرا ، مدة عشر سنوات حتى يفوز بامتياز ركلك مرة واحدة) ، إنه وحيد ولكن دون تكبر باكتفاء ذاتى دون غرور ، وصوته هو صوت سخريته من نفسه . منبوذ وطريد بلا صديق ولا زوجــــة ولا حبيبة . أعزب ، وليس عليه شائبة ، لا يملك من الأرض دعامة أو كهفاً صحراويا ، ليس محلا لهجوم المغريات ، ولا تسوطه الأحلام بسياطها ولا تغريه عينه . الإيمان والأمل والمحبة ليست له . بغاض للبشر ، ومع ذلك يعمل ستة أيام دون جزاء من أجل المخلوق الذى يكرهه وهو مربوط بالأغلال لمخلوق آخر يحتقره ويقضى اليوم السابع وهو يركل رفاقه أو تركاه . غير مفهوم حتى لدى ذلك المخلوق . الذى يقوده ، الزنجى ، الذى تتشابه حوافزهما وعمليات عقلهما إلى أقصى حد ، وهو يؤدى أعمالا معادية فى ظروف معادية . إنه يصنع الخبز لا لجنس واحد بل لشكل شامل من أشكال السلوك ، متواضع ، وتركته تؤخذ مع روحه بعيداً لتطهى فى أحد مصانع الفراء . قبيح لايتعب ، ومشاكس لا يمكن التأثير عليه بالمنطق أو بالمداهنة ولا بالوعد أو المكافأة ، إنه يؤدى واجباته المتواضعة الرتيبة دون شكاية والضربات ثوابه . وعندما يكون حيا ، يرفع العالم كله ذكره كرمز للسخرية العامة ، غير مبكى عليه ، غير مكرم ، غير مثنى عليه ، ثم يترك عظام هيكله القبيحة المتهمة لتبلى بين علب الصفيح التى يأكلها الصدأ والأوانى الفخارية المهشمة وإطارات السيارات

البالية على سفوح التلال العزلاء ، بينما يصعد لحه محلقاً دون أن يدرى فى زرقة السماء فى حويصلات الصقور .

كانت تأوهات المعصرة وصريرها هى أول ما يصل أسماعهما من همس وهما يقتربان من المكان إلا إذا كانت الريح تهب نحوهما ، وهنا تكون الرائحة الحادة المثيرة المنتشرة من التخمير والعسل الأسود الذى يغلى . كان بايارد يميل إلى هذه الرائحة ، وكانا يمضيان بسيارتهما ثم يتوقفان برهة بينما يسترق الصبى الذى يزود المعصرة بعيدان القصب النظر إليهما ، وهما يرقبان البغل الصابر والعجوز الذى ينحنى فوق القـــدر المغلى . كان بايارد يخرج من السيارة أحيانا ويذهب إلى الرجل ويتحدث إليه تاركا نارسيسا فى السيارة مغلفة فى أريج السنة التى أوشكت على الانتهاء ، وفى أحزانها العميقة الغامضة ، ونظرتها تتأمل بايارد والزنجى العجوز أحدهما نحيف وطويل وبه شباب يحوطه الشؤم ، والآخر أحنى الزمن ظهره ، وكانت روحها تنطلق فى موجات وفورة رتيبة ، تغلفه دون أن يعى .

ثم كان يعود ويجلس بجوارها فتلمس ثيابه الخشنة ، ولكن برقة فلا يحس بها ، ثم كانا يعودان فى الطريق غير الواضح غير المستوى ، بجوار الغابات المتباهية المزدهرة ثم يعبران منحنى الخروب والبلوط ، إلى البيت الأبيض البسيط الهائل الراسخ ، وقرص قمر أيام الحصاد البرتقالى يطل من فوق التلال البعيدة ، وقد نضج كقرص من الجبن .

وأحيانا كانا يعودان مرة أخرى بعد الظلام . حينئذ تكون المعصرة صامتة وقد سكن ذراعها الطويل دون حركة وبرز فى المشهد الذى تضيئه النيران . كان البغل يجرش طعامه فى إسطبله أو يركله بقدميه ، ويتفحص مزوده بفمه ، أو نائما وهو واقف غير مشغول بالغد ، وظهرت أشباح تتحرك فى ضوء النار . لقد تجمع الزنوج : عجائز من النسوة والرجال جالسون على وسائد مطقطقة من عيدان القصب من حول النار . كان يزودها واحد منهم بالعيدان المعصورة وتمضى فى هذا حتى تدوم ثورتها المجنونة المحملة بالأريج وتعلق بألسنتها عروق الخشب فوق رءوسهم ،

فتزيد الأوراق الذهبية المتلألئة ذهباً على ذهب ، ورجال وفتيات فى سن الشباب ، وأطفال قاعدون فى سكون كالحيوانات ، وهم يحملقون فى النار ، وكانوا يغنون أحياناً . أنغاما مرتعدة بلا كلمات تندمج فيها الأصوات النائحة بالأصوات الجشة الخفيضة فى توتر حزين أقدم من التاريخ ، وقد انحنت وجوههم المعتمة الجادة على ألسنة النيران بلا حركة فى الشفاه .

إلا أن الغناء كان يتوقف عند وصول الناس البيض ، ويستلقون أو يجلسون من حول النار التى يغلى من فوقها القدر الأسود ، وهم يتحدثون فى همس متقطع منغم ، متطلع إلى المرح المشبع بالحزن ، بينما يضطجع الشبان والفتيات على فرش ظليلة بين عيدان القصب الجافة الهامسة ، كانوا يتحدثون همساً ويضحكون .

ودائما كان أحدهما ، أو كلاهما معا يعرج على المكتب ليجد بايارد العجوز ومس جينى تحت الضوء المنبعث من وهج المدفأة بجريدتها اليومية المثيرة ، وبايارد العجوز وقدماه فى خفيهما مستندان على جدار المدفأة ، ورأسه مكلل بالدخان والكلب العجوز يحلم من آن إلى آخر بجوار المقعد ، ربما كان يعيش أياما متكبرة عتيقة مرة أخرى ، ربما كان يمضى بالحلم إلى ما قبل ذلك ، إلى أيام صباه الخرقاء العجفاء ، عندما كان العالم مملوءاً بالروائح التى كانت تثير الجنون فى دمه . حينما لم تكن الكبرياء قد علمته ضبط النفس . ومعهما بايارد ونارسيسا ، ونارسيسا تحلم أيضاً فى ضوء النار ، وهى وقورة هادئة ، وبايارد الصغير يدخن سيجارته فى لحظة استرخائه المملة القاتمة .

وأخيرا يرمى بايارد العجوز سيجاره فى المدفأة ، ويهبط بقدميه على الأرض ويستيقظ الكلب ويرفع رأسه ويرمش بعينه ويتثاءب بتأن واضح إلى الدرجة التى كانت تجعل نارسيسا ، وهى ترقبه ، تتثاءب أيضا « جينى هيا » .

ثم تضع مس جينى صحيفتها جانبا وتقف ، وتقول نارسيسا « دعينى دعينى

أذهب ، إلا أن مس جيني لم تكن تسمح لها قط ، وتعود بصينية عليها ثلاثة أكواب ، فيفتح بايارد العجــــوز مكتبه ويخرج الدورق ذا الغطاء الفضي ويعد ثلاثة كئوس من الشراب بعناية ، وكأنه يؤدي طقوسا دينية .

ومرة أغراها على ارتداء ملابس الصيد الخاكية والأحذية الطويلة وأخذها في رحلة لصيد حيوان المتماوت . كان كازبي في انتظارهم عند البوابة المؤدية إلى الساحة الخالية ويحمل على كتفه فانوسا حجب نوره إلا من خطوط رفيعة وبوقا وإيزوم ومعه زكيبة من الكتان ، وفأس وأربعة كلاب صيد متحفزة بدت كالأشباح في عتمة الليل وبدءوا رحلتهم بين جرون شبحية من القمح ، كان بايارد يصيد منها كل يوم عددا من طيور السمان واتجهوا إلى الغابة .

سأل بايارد كازبي « من أين نبدأ الليلة ؟ »

« من وراء مكان العم هنري يوجد واحد هناك في تكعيبة العنب خلف مخزن القطن طارده بلو حتى هناك ليلة أمس » .

سألته نارسيسا « من أين لك العلم إنه لا يزال هناك ؟ ! »

أجاب كازبي بثقة « لا بد أن يكون هناك إنه هناك الآن بالفعل يرقب هذا المصباح بعينيه المتطلعتين وينصت ليعرف إن كانت الكلاب معنا » .

وتسلقوا سياجا وانحنى كازبي ووضع الفانوس على الأرض وتزاحمت الكلاب وتجاذبت حول قدميه . وهي تشمشم وتدمدم على بعضها البعض في أصوات حنجرية مكتومة وهو يفك قيودها « أنت ، روبي ، قف هادئا مكانك أنت يا لاعق الأواني . . الأحمق . . كف » .

إلا أنها ظلت تهمهم وتتدافع . وقد لمعت أعينها في نظرات سريعة سائلة ، ثم غاصت دون صوت وبسرعة في الظلام واختفت . قال كازبي « أعطها فسحة من الوقت . دعها تر إذا كان قد عاد إلى هناك » ثم نبح كلب ثلاث مرات بصوت حاد من الظلام . .

قال كازبى « هذا نباح الكلب الصغير ؛ إنه يستعرض نفسه فقط لم يشتم شيئا . » وقد سبحت النجوم فوق رءوسهم بغموض فى السماء الشاحبة ، لم يكن الهواء قد أصبح بارداً بعد ، كانت الأرض ولا تزال دافئة على ملمس اليد . وقد وقفوا فى واحة مستقرة من ضوء الفانوس فى عالم من بعد واحد ، مستودع غامض من الظلام مملوء بالضوء الواهن وغطاؤه مظلة بلا حافة من النجوم البالية . كان الدخان ينبعث من الفانوس ويبث رائحة حرارة خفيفة ثم رفعه كازبى وخفض شعلته ووضعه عند قدميه مرة أخرى ثم من الظلام جاء عواء وحيد رنان ومنخفض وجاد قال إيزوم « إنه هناك » .

قال كازبى مؤيدا « هذا روبى . والتقط الفانوس « لقد أمسك به » وعوى الكلب الصغير مرة أخرى بهستيرية مجنونة ، ثم تلألأت الصيحة الوحيدة المنخفضة فوضعت نارسيسا ذراعها فى ذراع بايارد ، ولكن كازبى قال « لاداعى للعجلة لم يجدوا أثره بعد » ثم رفع صوته وأرسل نداء طويلا ممدودا للكلاب . كان الكلب الصغير قد توقف عن العواء ، ولكن الآخر ظل يرسل على فترات عواءه الوحيد المميز ، ومضوا فى أثره وأرسل كازبى نداءه الطويل إلى الكلاب .

وتعثروا قليلا فى حفر الأرض الشاحبة التى خلفتها أسنان المحاريث ، وهم ماضون وراء فانوس كازبى الصاعد الهابط ثم امتلأ الظلام فجأة بصيحات قصيرة هادئة فى أربعة أصـــوات مختلفة . قال إيزوم . « وجدوه » .

قال كازبى مؤيدا « هذا صحيح فلنذهب . أمسكى به يا كلاب » وأسرعوا خطوهم ، ونارسيسا متعلقة بذراع بايارد : ثم اندفعوا خلال أعشاب عطنة ثم فوق سياج آخر ثم بين الأشجار ولمعت عيون الماحة من الظلام ثم عاصفة أخرى من النباح تخللتها همهمات متوترة قلقة وماجت الكلاب بين ظلال متعثرة نصف مضاءة . قال كازبى « إنه هناك فوق » وبلو العجوز يراه » .

قال إيزوم « هذا كلب العم هنرى أيضاً » .

زام كازبى وقال « كنت أعرف أنه سيكون هنا . لم يعد يستطيع أن يطارد متماوتا ، ولكن دع أى كلب يطارد متماوتا حيثما يستطيع أن يسمعه . . » ثم وضع الفانوس فوق رأسه ، وسدد عينيه إلى الساق المغلفة بأغصان العنب وأخرج بايارد من جيبه مصباحا كهربيا ووجه حزمة ضوئه إلى الشجرة . وقد جلس الكلاب الثلاثة : الأكبر سناً ، وحيوان العم هنرى العتيق الذى أكلت الشيخوخة فمه فى حلقة متوترة بالقرب من الشجرة ، وهى تهمهم أو تعوى فى دفعات بينها فترات قصيرة ، ولكن الكلب الصغير ظل يعوى بانتظام فى دفعات هستيرية مجنونة . صاح كازبى آمرا ، « اضرب هذا الكلب حتى يسكت . »

صاح إيزوم ، أنت ، جنجر ، اقفـــل فمك » ثم وضع فأسه وجرارته على الأرض وأمسك بالكلب ووضعه بين ركبتيه . وتحرك كازبى ، وبايارد ببطء من حول الشجرة ، وبين الكلاب القلقة وتبعتهم نارسيسا .

قال كازبى ، « هذه الأعشاب كثيفة جداً فوق هذه الشجرة . . . »

قال بايارد فجأة « هذا هو ، وجدته » ثم صوب مصباحه وتحرك كازبى من ورائه ونظر من فوق كتفه .

وسألت نارسيسا « أين ؟ هل تستطيع أن تراه ؟ »

قال كازبى مؤيداً ، « هذا صحيح هو هناك . روبى لا تكذب . عندما تقول إنه هناك يكون هناك » .

قالت نارسيسا مرة أخرى ، « بايارد . أين هو ؟ » فأوقفها أمامه وصوب مصباحه من فوق رأسها إلى الشجرة ، وهنا حملقت فيها ، من بين أغصان العنب المتكاثفة ، نقطتان حمراوان من النـار ، لا تبعدان عن بعضهما البعض عرض ثقاب ، ثم طرفتا ، ثم أضاءتا مرة أخرى .

قال كازبى ، « إنه يتحرك . متماوت صغير . إيزوم ، اصعد إليه

واطرده من مكانه . وثبت بايارد ضوء مصباحه على عين الحيوان ، ووضع كازبى فانوسه على الأرض ، وجمع الكلاب حول ساقيه . تسلق إيزوم الشجرة واختفى فى أغصان العنب المتكاثفة ، إلا أنه كان فى استطاعتهم تتبع حركته من خلال الأغصان المهتزة وكلماته اللاهثة ، وهو يهدد الحيوان بخليط من ألفاظ المداهنة والأقسام المغلظة .

وقال وهو يصر على أسنانه ، « هاه . لن أؤذيك . لن أفعل بك شيئا إلا أن ألقى بك فى إناء الطهو . انتبه ، أيها السيد ، أنا قادم إليك » ، ثم مزيد من الضوضاء ، ثم توقفت . وكان فى استطاعتهم أن يسمعوه وهو يزيح الأغصان بحذر ثم هتف فجأة ، « هذا هو . أمسك هذه الكلاب الآن . »

سأل كازبى ، « صغير أليس كذلك ؟ »

« لا أستطيع أن أعرف . لا أستطيع أن أرى إلا وجهه . راقب هذه الكلاب . » ثم انفجرت الأغصان العليا فى غضبة مجنونة ممتدة ، وعلا صياح كازبى أكثر وأكثر وهو يهز الأغصان ، ثم هتف « هو . . ى . لقد خرج » ثم تساقط شىء غير مرئى ببطء وتردد من غصن إلى غصن آخر ، وتوقف وأحدثت الكلاب صخبا مضغوطا . سقط الشىء مرة أخرى ، وتتبع ضوء مصباح بايارد شيئاً ثقيلا متكتلا سقط على الأرض فأحدث اصطدامه بها صوتاً مكتوماً ثم اختفى على الفور تحت دوامة من الكلاب .

وثب كازبى وبايارد على الفور إلى وسطها وهما يتصايحان ، ونجحا أخيراً فى جرجرتها بعيدا . ورأت نارسيسا الحيوان فى بحيرة من ضوء مصباح بايارد ، مستلقيا على جنبه ، وجسمه منحن فى قوس مبتسم ، وعيناه مغمضتان ؛ ويداه الحراوان اللتان تشبهان يدى طفل مقوستان على صدره . نظرت إلى الشىء الساكن دون حركة بعطف واشمئزاز واضح . وذلك التناقض ، الابتسامة الماكرة التى تشبه جمجمة منشقة ، وتماسكها

اليدان الدقيقتان اللتان تشبهان يدى إنسان ، وذلك الذيل الطويل ، ذيله الذى يشبه ذيل الفأر . وقفز إيزوم من فوق الشجرة ، وسلم كازبى الكلاب الثلاثة المناضلة الثائرة إلى ابن أخيه ، والتقط الفأس . وبينما كانت نارسيسا ترقبه بتطلع ووجل ، وضع الفأس فوق عنق الحيوان ، وقدمه على طرفى ذراعها ، وقبض على ذيل الحيوان . واستدارت وفرت وقد أطبقت بيدها على فمها .

إلا أن سور الظلام أوقفها ، فوقفت مكانها ترتعد ، وبها غثيان قليل ، ومضت ترقبهم وهم يتحركون من حول الفانوس ـ ثم طرد كازبى الكلاب ، وأعطى كلب العم هنرى العجوز ركلة قوية رنانة أرسلته إلى بيته ، بعويل مذهل يجمد الدم فى العروق ، وطوح إيزوم الغرارة المتكتلة فوق كتفه . واستدار بايارد وبحث عنها « نارسيسا ؟ »

قالت ، « هنا » فذهب إليها .

« هذا واحد . ينبغى أن نحصل على اثنى عشر الليلة » .

قالت وهى ترتعد ، « أوه.. لا » فنظر إليها محملقا وهو يردد متسائلا « لا » ثم أضاء مصباحه فجأة وسقط ضوءه على وجهها . فرفعت يدها ووضعتها جانبياً .

« ما الأمر ؟ أنت لم تتعبى بعد ؟ »

قالت ، « لا . فقط أنا . . . هيا بنا ، سيتركوننا وراءهم » .

قادهم كازبى إلى الغابات . وكانوا يمشون على حفيف أوراق الشجر الجافة وطقطقة شجيرات الغابة . تجاسمت الأشجار فى ضوء الفانوس ، ومن فوقهم ، ومن بين الأغصان المتضائلة كانت النجوم تسبح فى السماء الصامتة الغامضة . كانت الكلاب فى مقـــدمتهم ، ومضوا بين جذوع الأشجار المتشامخة منحدرين إلى أخاديد لمعت رمالها فى بحيرة نور الفانوس ، وتجاسمت فيها ظلال قدمى كازبى ، وكأنها مقصات هائلة تنفتح وتنغلق ، وشقوا

طريقهم خلال أدغال ذوات أشواك من الورد الوحشي صاعدين إلى الجانب الآخر .

قال كازبى مقترحا ، « الأفضل لنا أن نمضى بعيداً عن قاع النهر ، فقد يقعون على حيوان الراقون . فلا يعودون إلى البيت قبل طلوع النهار » ثم شق طريقه مبتعداً نحو الأرض المكشوفة مرة أخرى ، وخرجوا من الغابة ، وعبروا حقلا من نبات الحلفاء ، تفوح منه رائحة الشمس والغبار ونمشى فيه على ضوء المصباح قليلا . وهتف كازبى بالكلاب - دخلوا الغابات مرة أخرى . وقد بدأ التعب يأخذ طريقه إلى نارسيسا ، ولكن بايارد مضى مسرعا بتجاهل رفيع لهذه الإمكانية ، وتبعته دون شكاية . وأخيراً ، ومن مكان بعيد جاءت تلك الصيحة الرنانة الوحيدة . توقف كازبى وقال ، « فلنر فى أى اتجاه يمضى » ووقفوا فى الظلام ، فى انحدارة السنة الحزينة المقرورة قليلا نحو نهايتها . وقفوا بين الأشجار ، ينصتون ثم صاح كازبى « هو . . . ى ، امض إليه وأمسك به » .

وأجاب الكلب ، وتحركوا مرة أخرى ببطء ، متوقفين من لحظة إلى أخرى لينصتوا ، وعوى الكلب ، كان ثمة صوتان الآن وبدوا وكأنهما يتحركان فى دائرة عبر اتجاههما . ونادى كازبى ، « هو . . . ى » وصوته يفيض فى أصداء متعاقبة بين الأشجار ومضوا . ومرة أخرى تكلمت الكلاب ، وقد ابتعد نصف الدائرة عن مكان صيحتها الأولى . قال كازبى إنه يسحبهم وراءه إلى المكان الذى جاء منه . الأفضل لنا أن ننتظر حتى يوقفوه . ووضع الفانوس على الأرض ، وقعد بجواره ، ووضع إيزوم حمله على الأرض ، وقعد أيضاً وجلس بايارد مستنداً إلى جذع شجرة ، وشد نارسيسا وأجلسها بجواره . وعوت الكلاب مرة أخرى ، ولكن من مكان أقرب وتطلع كازبى فى الظلام نحو المكان الذى جاء منه الصوت .

قال إيزوم ، « أظنه راقونا أمسكوا به »

« ربما يكون راقونا جبليا »

« إنه متجه إلى تلك الشجرة ذات الجذع الأجوف ، أليس كذلك ؟ »

« يبدو كذلك . » وأنصتا ، دون حركة . قال كازبى ، « سيكون لدينا من العمل ما يشغلنا ، إذن » . ثم صاح ، « هو . . ى »
كانت ثمة برودة خفيفة فى الجو ، ذلك أن الأرض قد بدأت تفقد حرارة النهار ، واقتربت نارسيسا من بابارد . أخرج علبة سجايره من جيبه وأعطى كازبى واحدة وأشعل أخرى لنفسه . جلس إيزوم على عقبه ، وكانت عيناه تدوران وبياضهما يلمع فى ضوء الفانوس .

قال « أعطنى واحدة ، أرجوك يا سيدى »

قال كازبى ، « يا ولد ، ليس من شأنك أن تدخن » ولكن بابارد أعطاه واحدة ، ثم قعد على عجيزته النحيلة ، ممسكا اللفافة البيضاء بخجل بيده السوداء المترددة ، ثم جاء صوت حركة وراءهم بين الأوراق وهمهمة متوترة ، ثم جاء الكليب إلى ضوء الفانوس ، وانزلق إلى ساق كازبى ، وهو يحدث همهمة رفيعة ، ونظرات عينيه الفسفورية المترددة من مكان إلى مكان . قال كازبى ، وهو يهبط بيديه على رأسه « ماذا تريد ؟ شىء ما أفزعك هناك ؟ » وثنى الكلب الصغير جسمه النحيل ، وتحسس بفمه يد كازبى ، وهو يعوى بصوت خافت . قال كازبى ، « لا بد أنه قد وجد دبا هناك . ألا تساعدك تلك الكلاب الأخرى على الإمساك به ؟ » .

قالت نارسيسا ، « يا للمسكين الصغير . كازبى ، أتظنه رأى ما أفزعه فعلا ؟ بوبى ، تعال « هنا » .

قال كازبى ، « كل ما فعلته الكلاب الأخرى هى أنها ذهبت وتركته . » وعرك الكلب الصغير جسمه بخجل فى كازبى . ثم تسلقه ولعق وجهه .

صاح كازبى ، « انزل من هنا » ورمى الكلب بعيداً فوقع على الأوراق الجافة بعرض جسمه ثم قام على أقدامه ، وفى هذه اللحظة عوت

الكلاب فى الظلام مرة أخرى عواء رقيقا رنانا مميزا ودار الجرو حول نفسه كالدوامة وأسرع وهو يعوى بصوت حاد إلى مصدر الصوت . وعوت الكلاب مرة أخرى ، وأنصت إيزوم وكازبى .

قال كازبى ، « نعم يا سيدى . إنه متجه إلى هذه الشجرة التى هناك » .

قالت نارسيسا ، « كازبى ، أنت تعرف هذه المنطقة كما تعرف ساحة البيت الخلفية »

« نعم ياسيدى . ينبغى على اختراقها أكثر من مائة مرة منذ أن ولدت . مستر بايارد يعرفها ، أيضا . ما زال يصيد حيواناتها منذ زمن طويل مثلى . تقريبا . هو ومستر جونى قبل ذلك . أرسلتنى مس جينى معهما عندما حصلا على أول بندقية لها ، أنا وتلك البندقية ذات الماسورة الواحدة ، التى اعتدت أن أربطها بخيط مستر بايارد ، هل تذكر تلك البندقية العتيقة ذات الماسورة الوحيدة ؟ إلا أنها كانت تصيد . وما أكثر الثعالب التى اصطدناها فى هذه الغابات ، والأرانب أيضا » كان بايارد قد أسند ظهره إلى جذع شجرة ، كان يحملق بعيداً ، إلى قمم الأشجار والسماء الناعمة من ورائها وسيجارته تحترق ببطء بين أصابعه . نظرت إلى جانب وجهه . كان كئيبا فى وهج الفانوس ، وتحركت قليلا واقتربت منه . إلا أنه لم يستجب ، ووضعت يدها برقة فى يده . إلا أنها كانت أيضا باردة ، ومرة أخرى هجرها ليذهب إلى مرتفعات يأسه الموحشة . كان كازبى يتكلم فى صوته البطىء غير بارز الحروف والكلمات ، الذي تفيض من فوقه نغمة الحزن الرقيق . « مستر جونى ، بالتأكيد كان يستطيع إصابة الهدف . أتذكر ذلك الوقت ، حينما كنا أنا وأنت وهو . . »

وقف بايارد . رمى سيجارته وسحقها بعناية بكعب حذائه . قال : « هيا بنا الكلاب لا تتجه إلى شجرة هناك » ، وأمسك يد نارسيسا وشدها

إلى قدميها ، واستدار ، ومضى . وقف كازبى ، وأمسك بوقه من فوق كتفه ووضعه على شفتيه . وانطلق الصوت من حولهم ، جاداً وواضحاً ومتمدا ثم مات فى أصدائه وانتهى إلى الصمت مرة أخرى ، غير تارك وراءه ثمة اهتزازات فى الظلام الصامت .

كانت قرابة منتصف الليل عندما تركا كازبى وإيزوم عند كوخهما ومضيا فى المرج متجهين إلى البيت . وتشامخ الجرن فى الظلام بجوارهما ، والبيت أيضا بين أشجاره المتناقصة ومن ورائه السماء الشاحبة . فتح البوابة ومرت منها وتبعها وأغلقها واستدار ووجدها بجواره ، وتوقف . همست « بابارد ؟ » واستندت إليه . وأحاطها بذراعيه ووقف هكذا . وهو يتطلع من فوق رأسها إلى السماء . أخذت وجهه بين كفيها وجذبته برقة إلى أسفل إلا أن شفتيه كانتا باردتين . وذاقت من فوقهما طعم القدر المشئوم ، وظلت متعلقة به لحظة ، وقد انحنت رأسها على صدره .

وبعد ذلك كانت ترفض أن تصحبه إلى الصيد . ولذا كان يذهب وحده ، ليعود فى أى وقت بين منتصف الليل والفجر ليخلع ملابسه فى الظلام بهدوء وينزلق بحذر إلى الفراش إلا أنها كانت تلمسه عندما يخيم عليه السكون وتنطق وهى بجوارهِ باسمه فى الظلام ، وتستدير إليه دافئة ناعمة والنوم فى عينيها وهكذا كان يضطجعان وقد أمسك كل منهما فى الظلام بالآخر ، فى لحظات عابرة توقف فيها يأسه وانقشع ذلك المصير المشئوم الذى ينتظره فلم يكن يستطيع منها فرارا .

— ٢ —

قالت مس جينى بسرعة وبألفاظ واضحة . وأمامها إناء الحساء « لقد ذهبت فتاتك وهجرتك وتستطيع الآن أن تجد الوقت اللازم للخروج لزيارة أهلك . أليس كذلك ؟ »

ابتسم هوراس ابتسامة صغيرة وقال « إذا قلت الصدق ، فقد جئت لأحصل على بعض الطعام لآكله . لا أظن امرأة واحدة من عشر نساء لديها القدرة على إدارة شئون البيت ، إلا أن مكانى ليس بالتأكيد فى البيت »

قالت مس جيني وهي تصحح عباراته ، أنت تعني أنه لا يوجد بين الرجال واحـــد من كل عشرة لديه ما يكفي من الحكمة للاقتران بامرأة تجيـــد الطهي »

« ربما يكون لديهم من الحكمة والتقدير للآخرين ما يمنعهم من إفساد الطاهيات البـــارعات » .

قال بايارد الصغير « نعم حتى الطاهية تترك العمل عندما تتزوج » .

قال سيمون ، « هذه هي الحقيقة » وقد وقف مستنداً إلى صوان الحائط وتمطى قليلا . كان يرتدي قميصا لا لون له بلا بنيقة وسراويل يوم الأحد (كان يوم الشكر) وتفوح منه رائحة خفيفة من الويسكي بالإضافة إلى روائحه الطبيعية ، قال موافقا . « كان على أن أجد ليوفروني مكانا جديدا تعمل فيه طاهية في الشهرين الأولين من زواجنا » .

قال دكتور بيبودي ، « سيمون ، لابد وقد تزوج طاهية شخص آخر »

قالت مس جيني ، « أفضل أن يتزوج المرء بطاهية شخص آخر على أن يقترن بزوجته » .

هتفت بها نارسيسا مؤنبة « مس جيني . أرجوك » .

قالت مس جيني على الفور ، أنا آسفة . هوراس ، لم أقصدك بما قلت « إنها مجرد فكرة عبرت رأسي . لوش بيبودي كنت أتحدث إليك . أنت تظن ، لمجرد أنك أكلت معنا في أعياد يوم الشكر وأعيـــاد عيد الميلاد لمدة ستين عاما ، أنك تستطيع أن تأتي إلى بيتي وتسخر مني ، أليس كذلك ؟ » .

قالت نارسيسا مرة أخرى ، « مس جيني اسكتي » ووضع هوراس ملعقته ، ووجدت يد نارسيسا يده تحت المائدة .

قال بايارد العجوز ، « ما هذا ؟ » كانت فوطته مثبتة فوق صداره. فأعاد ملعقته وأحاط أذنه بكفه .

قال بايارد الصغير لا شيء . العمة جيني والدكتور يتماركان مرة أخرى » سيمون تيقظ » تحرك سيمون ورفع أطباق الحساء ، ولكن بتكاسل ، ذلك أن اهتمامه كان موجها إلى العراك .

واندفعت مس جيني تقول « نعم . ألمجرد أن ذلك الأحمق العجوز ويل فولز وضع شحم العجلات على بروز صغير في وجهه دون أن يقتله يتحتم عليك أن تتجول بيننا وقد انتفخت بالاختيال وكأنك كلب مسموم؟ وماذا كان شأنك بهذا الورم ؟ أنت بالتأكيد لم تعالجه » .

. . ربما تكون قد قرأت بعض التعاويذ لتبرزه على وجهه في البداية سأل دكتور بيبوى سيمون برقة ، « سيمون أليس لديك قطعة من الخبز أو من أي شيء آخر تستطيع مس جيني أن تضعها في فمها ؟ » حملقت فيه مس جيني برهة بوحشية ، ثم ارتدت في مقعدها بعنف .

« أنت ، سيمون ! هل مت ! » وجمع سيمون الأطباق وحملها خارجاً ، وجلس الضيوف وكل منهم يتحاشى أن تلتقي عيناه بعيني الآخر بينما ظلت مس جيني تنفث النيران والحمم ، وهي جالسة وراء متاريسها المكونة من الفناجين والقناني والقوارير والأشياء الأخرى .

قال بايارد العجوز مرة أخرى ، « ويل فولز ، جيني ، قولي لسيمون ، عندما يعد تلك السلة أو يأتي إلى مكتبي ، لأن لدى شيئا يجب أن يوضع فيها » تلك كانت زجاجة الويسكي التي كان يضيفها إلى سلة العجوز فولز التي يأخذها في عيد يوم الشكر وعيد الميلاد ، والتي كان العجوز يقسمها في أيام الأعياد هذه بالملعقة ، بقدر ما تكفي بين زملائه من الكهول والمشردين ودائما كان بايارد العجوز يذكرها بأن تقول لسيمون شيئا لم يغفل عنه أيهما .

قالت : « وهو كذلك » ، وعاود سيمون الظهور بقمقم قهوة فضي هائل ، ووضعه بجوار مس جيني وارتد إلى المطبخ .

سألت عامة الضيوف ، « كم عدد من يريدون قهوة منكم ؟ بايارد لن يستطيع أن يجلس ليتناول وجبة لا تصحبها القهوة أكثر من استطاعته الطيران . هوراس ، هل تريد ؟ » ورفض دون أن تنظر إلى دكتور بيبودى ، قالت له « أحسبك ستأخذ القليل منها ، أليس كذلك ؟ » .

أجاب برقة ، « إذا لم يكن فى هذا إزعاج لك » ، وطرف بعينه إلى نارسيسا ووضع على وجهه رسم الاكتئاب والخجل . أخذت مس جينى فنجانين ، وظهر سيمون بقارب هائل محول ببطولة ومغامرة فوق رأسه ووضعه أمام بايارد العجوز بحركة استعراضية عريضة .

قال بايارد الصغير ، « يا إلهى . سيمون من أين حصلت على حوت فى هذا الفصل من السنة ؟ ! » .

قال سيمون « نعم هذه هى السمكة » (وكانت سمكة طولها باردة وعريضة كدثار سرج) وكان لونها أحمر بهيجا ، وقد استلقت فى القارب فاغرة فاها ، وكأنها تقهقه جذلة فى مرح غامر .

قال بايارد العجوز « عليها اللعنة جينى لأى سبب أردت أن تعدى هذا الطبق ؟ من الذى يريد أن يزحم معدته فى نوفمبر بالسمك ، والمطبخ مملوء بالسناجب والديكة الرومية والمتاوتات ؟ » .

قالت على الفور « يوجد آخرون غيرك فى البيت ممن يأكلون . إذا كنت لا ترغب فيه لا تأكل منـــه . اعتدنا أن نطهو سمكا دائما فى بيتنا فى هذه المناسبة إلا أنك لا تستطيع أن تبعد هؤلاء الريفيين من أهل المسيسبى عن الخبز واللحم ولو فى سبيل إنقاذ حياتك . سيمون هيا » . ووضع سيمون صفا من الأطباق أمام بايارد العجوز ، ثم جاء بصينية ووضعت عليها مس جينى فنجانى قهوة ، ثم قدمهما إلى بايارد العجوز ودكتور بيبودى ، وأخذت مس جينى فنجانا ودار سيمون بالسكر والقشدة وقطع بايارد العجوز السمكة وهو يدمدم بصوت أجش .

قال دكتور بيبودى « لم أجد فى أى فصل من فصول السنة ما يدعونى للشكوى من أكل السمك » .

قالت مس جينى فى الحال ، « لن تجد » ومرة أخرى طرف بعينيه بوضوح لنارسيسا ثم قال « كل ما فى الأمر أننى أرغب فى صيد أسماكى بنفسى ، من بحيرتى الخاصة . أسماكى لها قيمة غذائية أكبر » .

سأل بايارد الصغير ، « أمازلت تحتفظ ببحيرتك الخاصة يادكتور » .

« نعم إلا أن الصيد لم يكن جيداً هذا العام . أصيب أب بالإنفلونزا فى الشتاء الماضى ، ومنذ ذلك الوقت وهو يقضى وقته نائما وعلى حسابى ويتحتم على دائما أن أجلس هناك وأنتظره حتى يستيقظ فأخرج السمك من الماء وأضع طعما جديداً ولكن أخيراً فكرت فى ربط خيط الشص بساقه وطرفها الآخر بالدكة ، وعندما تهتز عوامة الصنارة فإن كل ما على هو أن أشد الخيط ، وأيقظه . بايارد ، ينبغى عليك أن تصحب زوجتك يوما وتأتى . إنها لم تر بحيرتى أبداً » .

سأل بايارد نارسيسا ، « أنت لم تريها ؟ » وكانت لم ترها « أحاطها بدكك من جميع الجهات ومتكآت للأقدام من أمام الدكك ، وسياج مرتفع بقدر ما يسمح لك بأن تسندى قصبة الصيد عليه وزنجى لكل صياد ، ليضع الطعم فى شصه ، ويخرج له السمكة من الماء . لا أفهم لم تطعم كل هؤلاء الزنوج يا دكتور ؟ » .

« لقد ظلوا معى سنين طوالا بحيث إننى لا أعرف كيف أتخلص منهم اللهم إلا إذا أغرقتهم فى البحيرة ومع ذلك فإن إطعامهم هو المشكلة الكبرى منذ زمن طويل — هذا هو السبب فى تناولى الطعام خارج البيت كلما استطعت إلى ذلك سبيلا . إن كل وجبة مجانية أحصل عليها أشبه بنصف يوم عطلة بالنسبة لرجل عامل » .

سألته نارسيسا ، « دكتور ، كم عدد من عندك من الزنوج ؟ » .

قال : « لا أعرف بالضبط . لدى ستة أو سبعة مسجلون رسمياً ، إلا أننى لا أعرف عدد المتسكعين الذى يقيمون عندى . كل يوم تقريبا أرى طفلا وليداً جديداً » .

وكان سيمون يرقبه باهتمام شامل .

سأله : « دكتور ألا يوجد لديك ثمة مكان آخر شاغر . أنا أكدح هنا اليوم بطوله كالعبد ، لأعد لهم طعامهم وغير ذلك » .

سأله دكتور بيبودى بهدوء « هل تستطيع أن تأكل كل يوم سمكا بارداً وخضاراً ؟ » . أجاب سيمون بشك ، « حسناً ياسيدى ، لست واثقا من هذا تماما . أكلت السمك يوما حتى سئمته ، كنت حينئذ رجلا فى مقتبل العمر . ومنذ ذلك الحين لم تعد معدتى تصلح له » .

« حسنا : هذا كل ما عندنا فى البيت لتأكله » .

قالت مس جينى « سيمون ، حسنا » وكان سيمون مستنداً فى سكون إلى صوان الجدار وهو يرقب دكتور بيبودى بدهشة وعجب .

« وأنت تحتفظ ببنيتك الضخمة بأكل السمك البارد والخضر ؟ إننى ياسيدى سأصبح فى أسبوعين هيكلا من العظام على مثل هـذا النوع من الطعام . بالتأكيد سأكون » رفعت مس جينى صوتها بحدة « وسيمون » ثم قالت « لوش ، لم لا تدعه وشأنه ، حتى يستطيع أن يقوم بعمله » وخرج سيمون من لحظة تجليه فوراً ، وحمل السمكة من إعلى المائدة وتحت المائدة وضعت نارسيسا يدها فى يد هوراس مرة أخرى .

قال بايارد الصغير « أيتها العمة جينى ، كفى عن مضايقة الدكتور » ، ثم لمس ذراع جده « ألا تستطيع أن تجعلها تدع الدكتور وشأنه ؟ » .

سأل بايارد العجوز « جينى ، ماذا يفعل ؟ ألا يريد أن يأكل طعامه ؟ أجابت مس جينى « لن يحصل أحد منا على شيء ليأكله إذا ظل جالساً هنا يتحدث مع سيمون عن السمك البارد وأوراق اللفت » .

قالت نارسيسـا ، « مس جينى ، لا أحسبك إلا خسيسة إذ تعاملينه هكذا » .

أجاب دكتور بيبودى « حسنا ، إنها تزودنى بشيء يتحتم على أن أشكرها من أجله ، إنك رفضت أن تأخذينى عندما سنحت لك الفرصة » ثم قال لهم « مرة ذهبت وعرضت على جينى الزواج » .

قالت مس جينى « أنت أيها الكاذب العجوز أشيب الشعر . أنت لم تفعل قط مثل هذا الأمر أبدا » .

« أوه نعم فعلت . كل ما فى الأمر أننى فعلته من أجـل جون سارتورس قال لى إن لديه من المتاعب أكثر مما يستطيع أن يتحمل ، مع انشغاله بالنشاط السياسى ، هل تعلمون » .

« لوش بيبودى ، أنت أكبر كذاب فى العالم ! »

« ـ وكدت أن أصل إلى إقناعها . حدث هذا فى ذلك الربيع الأول عندما أزهرت تلك الأعشاب التى أحضرتها معها من كارولينا لأول مرة وكانت ليلة مقمرة وكنا فى الحديقة . وكان ثمة ببغاء يغنى ... »

صرخت مس جينى . « ما من شيء كهذا . لم يحدث قط ـ »

قال دكتور بيبودى « انظروا إلى وجهها إن كنتم تعتقـدون أننى أكذب » .

وردد بايارد الصغير بعد لحظة « انظروا إلى وجهها . لقد احمرت وجنتاها خجلا » وكانت كذلك . ولكن وجنتيها كانتا كالبيارق . ورأسها عال ، فى خضم الضحك الصاخب ، ووقفت نارسيسا وذهبت إليها وأحاطت كتفيها المعتدلتين الأنيقتين بذراعيها . وقالت . « أنتم . اسكتوا جميعا حالا . خير لكم جميعا أن تعتبروا أنفسكم من المحظوظين عندما تقبل اينا الزواج منكم على الإطلاق . بل إننا نطريكم عندما نرفض »

قال دكتور بيبودى « أنا ضحية الإطـــراء . وإلا ما كنت أرمل الآن » .

قالت مس جينى « ومن الذى لا يصبح أرمـــل إذا كان فى حجم برميل كبير . ويعيش على السمك البارد وخضر اللفت » ثم قالت لنارسيسا « اجلسى ياحبيبتى . أنا لا أخاف رجلا يمشى فى الأرض » . .

عادت نارسيسا إلى مقعدها . وعاود سيمون الظهور من جديد . ومن ورائه إيزوم . وفى الدقائق القليلة التالية . ظلا يتحركان باتنظام بين المطبخ وغرفة الطعام بديك رومى محمر وفخذ خنزير مقدد وطبق من طيور السمان . وآخر من السناجب ومتماوت مشوى على فراش من البطاطس والقرع والبنجر المخلل . وآخر من البطاطس العادية والبطاطس الأيرلندية . والأرز والقمح المندى المقشور المساوق والبسكوت الساخن والمضروب . وقضبان رقيقة طويلة من خبز القمح والكريز والكمثرى المحفوظة ومربات السفرجل والتفاح . ويخنة التوت البرى والخوخ المملح .

ثم توقفوا عن الكلام برهة وأكلوا بالفعل وهم يتطلعون من حين إلى حين عبر المائدة إلى بعضهم البعض . وهم فى وهج وردى من الوداد والروائح المتصاعدة مع الأبخرة . وكان إيزوم يدخل من لحظة إلى أخرى بالخبز الساخن بينما وقف سيمون يشرف على الميدان تماما . وبشكل ما كما وقف قيصر . ولابد لينظر من فوق المرتفعات على بلاد الغال . بعد أن أصبحت فعلا بين يديه .

قال دكتور بيبودى بعد أن تنهد قليلا . وبعد سيمون « أحسبنى أستطيع أن آخذك عندى ، وسأجد لك قطعة من اللحم حين إلى آخر .

قال سيمون « أظنك تستطيع » وظل يرقبهم وكأنه قائد جيش ذو عينين صقريتين على استعداد لقذف الاحتياطى إلى المراكز المهددة ،

ضاغطا عليهم بالمزيد من الطعام عندما تخـاذلت قواهم لكن حتى دكتور بيبودى سمح لنفسه فى النهاية بالإقرار بالهزيمة . وهنـا أحضر سيمون فطائر من ثلاثة أنواع وفطيرة صغيرة دسمة من البرقوق وكعكة دس فيها بدهاء الويسكى والنقل والفواكه ، كانت مغرية كعطور الجنة . خداعة وقاتلة كالخطيئة . وأخيراً وبطريقة الساحرات عندما يقمن بطقوسهن وبأسلوب وقور عميق أحضر زجاجة من خمر النبيذ وقد اضطجعت الشمس غير واضحة المعـالم فى الأفق الجنوبى المتوهج . وأرسلت أشعتها أفقية عبر النوافذ لتسقط على أدوات الطعام الفضية المصفوفة على صوان الحائط . كانت الشمس تحلم فى نورها الرقيق . وهى مستلقية بين حلقات مستديرة مستكينة من النور فوق الزجاج الملون العلوى فى نوافذ وأبواب الحائط الغربى .

إلا أن ذلك كله كان فى نوفبر . فصل الأيام الشبحية المسترخية . عندما تصل فورة الخريف الأولى إلى نهايتها . ويطلق الشتاء من تحت الأفق الأعجف تعاويذه السحرية الأولى — نوفبر . عندما يموت العام فى سلام . وكأنه امرأة عجوز مدثرة بشالها بين أطفالها ، تموت بسلام دون ألم ودون أن تصاب بمرض . وفى الأيام الأولى من ديسمبر سقطت الأمطار . وشابت ناصية العـام وهو فى فصل الانحلال والموت . وقد ظلت تهمس الليل طوله والنهار فوق الأسطح وعلى امتداد أفاريزه وذرفت الأشجار أوراقها الأخيرة العنودة . وشورت بأغصانها المحزونة السوداء على المشاهد التى لا تنتهى عدا شجرة جوز فى طرف الحديقة فقد احتفظت بأوراقها ، ولمعت وكأنها لهب سائل فى لازوردية السماء الخالدة . ومن وراء الوادى اختفت التلال تحت أقطة من المطر .

كل يوم تقريبا . رغم معارضته لمس جينى وأوامرها . والاحتجاج العميق فى عينى نارسيسا كان بايارد يخرج ببندقية صيد والكلبين ليعود قبل حلول الظلام بالضبط . وقد أغرق الماء ملابسه حتى جلده ، مقرورا . حينئذ تكون شفتاه ثلجيتين فوق شفتيها .

وعيناه خاويتين بهما مس من جن . كانت تتعلق به فى ضوء نار حجرتهما الأصفر ، وتستلق وهى تبكى بصمت فى الظلام بجوار جسده المتصلب وكأن شبحا يتوسطهما .

قالت مس جينى ، وقد قدمت عليها وهى جالسة مستغرقة فى تأملاتها أمام النار فى غرفة بابارد العجوز « أنت تقضين وقتا أطول مما ينبغى بهذه الطريقة . ستصبحين بلهاء شاردة العقل . كفى عن الانشغال به ، لقد قضى نصف حياته فى ملابس سقتها مياه الأمطار . ومع ذلك فلم يصب أحدهما ببرد حتى... وهذا أستطيع أن أتذكره »

أجابتها وهى شاردة . « ألم يصب ؟ » ووقفت مس جينى بجوار مقعدها وظلت ترقبها بحدة ثم وضعت يدها على رأس نارسيسا ، وبرقة أكثر مما تستطيعها واحدة من أسرة سارتورس .

« أنت مهمومة لأنه لا يحبك ، ربما بنفس الشكل الذى كان ينبغى عليه كما تتصورين ؟ »

أجابت ، « ليس هذا . إنه لا يحب أى شخص . لن يحب حتى الطفل . يبدو عليـــه وكأنه لا يحس بالسرور أو الحزن أو أى شىء آخر » .

قالت مس جينى ، « نعم » وطقطقت النار وتطايرت بين قطع الخشب الصمغية ومن وراء زجاج النافذة الشاحب ، امتد النهار بلا نهاية . قالت مس جينى فجأة « أنصتى . لا تركبى معه هذه السيارة بعد الآن أتسمعيننى ؟ »

« لا . لن يدفعه هذا لقيادتها ببطء . ما من شىء سيدفعه إلى هذا »

« طبعا لا . ما من شخص يصدق أن وجودك معه فيها سيدفعه إلى هذا ولا حتى جده . إنه يصحبه فى السيارة لنفس الأسباب التى تدفع هذا الولد ، سارتوس » .

« إنها فى الدم ، متوحشون . كل واحد منهم كذلك . وليس فيهم ثمة فائدة دنيوية لأى شخص ، وتعلقت أنظارها بألسنة النيران المتقافزة ، ومازالت يد مس جينى على رأس نارسيسا . قالت لها ، « أنا آسفة لأننى أوقعتك فى هذا » .

« أنت لم تفعليها . ما من شخص أوقعنى فيها . أنا فعلتها بنفسى »

قالت مس جينى بعد لحظة صمت ، « هل تفعلينها مرة أخرى إذا قدر لك ؟ » أما الأخرى فلم تجب ، فأعادت مس جينى سؤالها ، هل تفعلينها ؟ » .

أجابت نارسيسا ، نعم ، ألا تعرفين ذلك ؟ » ثم ران الصمت بينهما مرة أخرى ، صمت وقعا فيه دون كلام . إنه حلفهما اليائس بتلك الشجاعة السلبية الرفيعة التى تعرفها النساء . ثم وقفت نارسيسا .

« أحسبنى سأذهب وأقضى اليوم مع هوارس . إذا سمحت ؟ »

قالت مس جينى ، وهو كذلك ـ كنت سأذهب أيضا لو كنت مكانك ، يحتاج هوراس فى المرجح لبعض الرعاية هذه الأيام . كان يبدو إلى حد ما هزيلا عندما كان هنا فى الأسبوع الماضى ، وكأنه لا يتناول ما ينبغى من طعام » .

عندما دخلت من باب المطبخ ، تحولت يونيس ، الطاهية ، عن مائدة إعداد الخبز ورفعت يديها بإشارة رقيقة غامضة . قالت « حسنا مس نارسى لم نرك منذ شهر . هل قطعت كل الطريق والمطر يهطل ؟ »

« جئت فى العربة . كان الطريق مبللا إلى الدرجة التى لا تلائم السيارة دخلت الغرفة وظلت يونيس ترقبها بسرور وجدية . قالت نارسيسا « كيف حالكم جميعا ؟ » .

أجابت يونيس ، إنه يجد ما يكفى من الطعام . أنا أهتم بهذا ، إلا أنه يتحتم على أن أدفعه ليأكل . إنه يحتاج إليك لتكونى معه هنا » .

« إننى هنا اليوم كله ، على أية حال ماذا عندك للغداء ؟ ورفعا أغطية الآنية معا ، وحملقا فى الآنية التى تغلى فوق الموقد ، وفى الفرن قالت « أوه فطيرة شيكولاته ! »

قالت يونيس موضحة « على أن أغريه بها على الطعام » ثم قالت متباهية « سيأكل أى شىء إذا أعددت له فطيرة شيكولاته » .

قالت نارسيسا « أراهن أنه يفعل . لا يستطيع أحد أن يصنع مثل فطائرك »

قالت يونيس « لم تطلع هذه الفطيرة جيدة جداً » واستطردت تنقدها : « أنا لست راضية عنها تماماً »

« لماذا ؟ يونيس إنها رائعة » .

قالت يونيس بإصرار « لا ليست فى المستوى المطلوب » إلا أن وجهها تألق بالسرور ، وإن ظلت حيية جادة ، وظلا يتحدثان بود بضع دقائق ، ونارسيسا تنقب محتويات الدواليب والصناديق .

ثم عادت إلى البيت وارتقت الدرج . كانت مائدة الزينة قد أقفرت من آنيتها الفضية والبلورية العزيزة ، والأدراج خاوية ، والحجرة كلها بجوها الساكن الشاحب المقفر ، كأنها كانت توجه إليها عتابا . والبرد أيضا . لم تشعل ثمة نار فى المدفأة منذ الربيع الماضى وعلى المائدة بجوار الفراش . كانت ثمة حزمة من الزهور زرقاء ، منسية من الجميع ذابلة ميتة . وإذ لمستها تفتتت بين أصابعها ، تاركة عليها أثراً من لونها ، والماء فى الزهرية أيضا ، كانت فيه رائحة الانحلال المعطنة . فتحت النافذة وألقتها جميعا منها .

كانت الحجرة أبرد من أن تستطيع التوقف فيها طويلا ، وحزمت أمرها على أن تطلب من يونيس أن تشعل نارا فى المدفأة من أجل راحة ذلك الجزء الذى تلكأ من روحها وأقام فى الغرفة ، برزانة يغشوها شىء من الحزن ، مقروراً فى البرد ، ولائما إياها لما يحوطه من وحشة .

توقفت مرة أخرى عند صوان ملابسها ، وتذكرت تلك الخطابات ، بخوف وانزعاج مستغرقين لأئمة نفسها من جديد لإهمالها وعدم تمزيقها لها . ولكن ربما تكون قد مزقتها ، وهكذا دخلت مرة أخرى دائرتها المغلقة التي تسكن فيها الحيرة والخوف ، محاوله أن تتذكر ما فعلته بهذه الخطابات حقا . إلا أنها كانت واثقة أنها تركتها في الأدراج مع ملابسها الداخلية كانت واثقة تماما أنها تركتها هناك . إلا أنها لم تستطع أبدا أن تجدها ، ولا رأتها يونيس ولاهوراس كذلك ، كان ذلك في اليوم الذي فقدتها فيه ، اليوم السابق لليلة زفافها ، عندما حزمت أمتعتها . إنها افتقدتها في ذلك اليوم ، ووجدت مكانها خطابا آخر بخط مختلف ، لم تتذكر أنها تلقته . كان المقصود منه واضحا تماما ، رغم أنها لم تفهم بعض ما جاء فيه حرفيا . إلا أنها قرأته في ذلك اليوم وهي في استغراق هادىء . هو وكل ما استحضره إلى ذاكرتها كان قد أصبح الآن بالفعل من الماضي . ولم تكن لتدهش وقد افتقد حتى صفة الحضور ، أو تصدم لو فهمته . أخذها حب الاستطلاع ، ربما لإدراك معاني بعض الكلمات . إلا أن هذا كان كل شيء .

إلا أنها لم تستطع أن تتذكر ما فعلته بالخطابات الأخرى ، وقد تسبب عجزها هذا في إشاعة لحظات من الخوف الحقيقي في نفسها ، عندما أخذت بعين الاعتبار إمكانية معرفة بعض الناس أن البعض كان يخامره عنها مثل هذه الأفكار وأنه وضع أفكاره في كلمات . حسنا ، لقد ضاعت ، وما من شيء من المستطاع عمله بشأنها ، إلا أن تأمل أن تكون قد مزقتها ، كما فعلت بالخطاب الأخير ، أو إذا كانت لم تفعل ، أن تأمل بثقة ألا يكتشف الطريق إليها قط . إلا أن هذا كله أعاد إليها اشمئزازها السابق وشعورها بالفزع : أن يكون صفاء حياتها المتماسك ، الذي لم يعكره شيء بعد ، محلا لمغامرات الظروف ، أن يكون عليها أن تثق في الحظ ضد إمكانية التقاط غريب بمحض الصدفة لقصاصة ورق من على الأرض .

ولكنها حزمت أمرها على أن تضع هذا كله جانباً ، في وقتها الحاضر على الأقل . ينبغي أن يكون هذا يوم هوراس ، ويومها أيضاً — بمجرد

توقف لهذا الحلم الذى تجوس فيه الأشباح والذى تعلقت به وهى متيقظة ونزلت الدرج . كانت ثمة نار فى غرفة الجلوس . وقد احترق الوقود حتى أصبح جمرات ، فوضعت فوقها فحما . وقلبتها حتى تأججت . سيكون هذا أول ما يرى من أشياء عند عودته ، ربما يأخذه العجب ، ربما يعرف قبل أن يدخل فقد يدرك بوجدانه حضورها قبل أن يراها بعينيه . وفكرت فى الاتصال به تليفونيا ، وظلت تداعب الفكرة دون حسم وهى جالسة أمام النار ، ثم قررت أن تجعل من الأمر مفاجأة . ولكن إذا فرض ولم يعد للبيت لتناول الغــــداء بسبب المطر فكرت فى هذا ، ثم صورته فى خيالها ماشيا فى أحد الشوارع تحت المطر ، وعلى الفور وبإدراك غرزى سابق ، ذهبت إلى الصوان الموضوع تحت الدرج وفتحت بابه . كان الأمر كما توقعت ، معطفه ، ومعطف المطر معلقان هناك ، وأغلب الظن أيضا أنه لم تكن معه حتى مظلة ، ومرة أخرى فاضت فى أعماقها مشاعر الضيق والحب العميق وأصبح الأمر كما كان منــــذ القدم ، وكل ما قام بينهما من حجب ، انزلق مبتعدا وكأنه سحب .

وقد كان من المعتاد دائما أن يدفع البيانو على عجلاته إلى غرفة الجلوس كلما أتى فصل الشتاء . ولكنه كان هذه المرة فى ركنه الصغير . كان ثمة موقد هناك ، ولكن لم تشعل فيه نار بعد ، وكانت الغرفة باردة ، ومن تحت أناملها أطلقت المفاتيح الباردة نغما متكاسلا ، متهما ولائما أيضاً ، فعادت إلى النار ووقفت حيث تستطيع أن تتطلع من النافذة ، الممر الخاص تحت أشجار الأرز الوقورة المتهدلة ــ ودقت الساعة الصغيرة الموضوعة على الرف فوق المدفأة اثنتى عشرة دقة . كانت وراءها . ثم ذهبت إلى النافذة ووقفت بها وأنفها تلمس زجاجها البارد وأنفاسها تتكاثف فوقه . سيأتى سريعاً الآن ، لم يكن منظما أبداً فى مواعيده ، إلا أنه لم يكن يتأخر عن موعد أبداً وفى كل مرة كانت تظهر أمامها مظلة كان قلبها يقفز فى صدرها . إلا أنه لم يكن هو ، وتتبعت حامل المظلة فى خطواته حتى أزاح مظلته بالقدر الذى سمح لها أن تتعرف عليه ، وهكذا لم تر

هوراس حتى كان قد قطع منتصف الطريق عبر الممر . كانت قبعتـــه تحجب وجهه وبنيقة معطفه مرفوعة حتى أذنيـه ، وهكذا كان الأمر كما كانت تعرف . لم تـكن معه حتى مظلته .

صاحت ، « أوه ، أنت أيها العبيط » وجرت إلى البـاب ، ومن وراء الزجاج المحجوب بالستائر رأت شكله المبهم وهو يقفز الدرج مسرعا دفع الباب ودخل وهو يضرب ساقه بقبعته الملطخة بماء المطر ، ولذا فلم يرها حتى تقدمت إليه وقالت ، « أنت أيها الأحمق ، أين معطفك الواقى من المطر ؟ »

ظل يحملق فيها برهة ، وفى انتفاضـة متوحشة خجـــولة ، ثم قال « نارسى ! » وأحناء وجهه واكتسحها بين ذراعيه المبللتين .

صاحت ، « لاتفعل . أنت غارق فى المـاء » ، ولكنه طوح بها من فوق الأرض ، محتضنا إياها فى صدره الذى كان يقطر بماء المطـر وهو يكرر ، نارسى ، نارسى ! » ثم لامس طرف أنفه وجهها ، وذاقت طعم المطر .

قال ، وهو يحتضنها « نارسى » وقد كفت عن المقاومـة ، والتصقت به . ثم فك عقالها فجأة ، ورفع رأسه بحركة سريعة ، ونظر إليها وفى عينيه توتر رزين ، وقال لها ، « نارسى ، هل هذا الوغد الحقيقى – »

أجابت بحدة « لا طبعـاً لا ، أنت جننت ؟ ثم احتضنته مرة أخرى بملابسه المبللة وكأنها بهذا تتمنى ألا تتركه أبدا ، أوه ، هورى . لقد عاملتك بقسوة وحشية »

— ٣ —

كانت السيارة هذه المرة من طراز فورد ، وقد رأى بايارد انزلاقهـا المجنونة ، عندما حاول سائقها أن يعيدها إلى الطريق الخادع المغطى بالجليد

المنصهر . وفى اللحظة المبرقة ، وباستمتاع عابر ، رأى بايارد ، فيما بين بنيقة السائق الطليقة من ربطة عنق ، والجورب النسائى الملفوف حول رأسه تحت قبعتـــه والمعقود تحت فكه ، رأى تفاحة آدم فى رقبته وكأنها جرو مذعور محبوس فى غرارة . مرق المشهد أمامه ومضى من خلفه وأدار بايارد عجلة القيادة بعنف . عادت الفورد المعطـــلة المثيرة للاشمئزاز إلى مجال رؤية مرة أخرى عندما دارت العجلات على محاورها دون أن تتحرك السيارة على الطريق اللزج وكان محركها المفصول عن عجلاتهـا يزأر ، ثم سبحت الفورد بعيداً عن أنظـاره عندما أدار عجلة القيادة مرة أخرى بعنف شديد فى الاتجاه الآخر ، ووصل المحرك بعجلات السيارة ، ليزيد من اتزان حركتها وانضباطها ، ثم علا الهزيم الممتثل غير المتعجل ، عندما رفضت السيارة أن تأخذ مكانها من الطـــريق ، وسبح أمام عينيه عالم ديسمبر المملوء بالصقيع ، كان بايارد العجوز جالسا بجواره وكان فى استطاعته أن يرى من ركن عينيه الرجل العجوز وقد قبضت يده على حافة الباب العليا كانا يواجهان فى تلك اللحظة الأكمـــة التى تستقر فوقها الجبانة ، ومن فوقهم مد تمثال جون سارتوس يده فى إيماءة حجرية عريضة ، وتطلع من بين أشجار الشربين الساكنة على الوادى ، ليرى ميلين من خط السكة الحديدية الذى بناه وهى تمتد تحت نظرة عينيه المنحوتتين . أدار بايارد عجلة القيادة بعنف مرة أخرى

على الجانب الآخر من الطريق كانت هوة تهبط عموديا بين أشجار شربين قزمة وسنان صخرية مدببة تغطت هياكلها بطبقة هشة من الجليد والثلج الموحل ، حيث لم تستطع أشعة الشمس أن تصل بعد . وقد ارتكزت مؤخرة السيارة على حافة الهوة تماما قبل أن تدور مرة أخرى ، ومحركها يعمل بأقصى قوته ، ثم اندفعت حتى شور أنفها مرة أخرى إلى أسفل التل دون أن تقلل من سرعتها ومع ذلك فلم تعد إلى الأخاديد التى تركتها العجلات على الطريق ، وكانت قد تعدت منتصفه ، رغم أنهم كانوا قـــد وصلوا تقريباً إلى أسفل التل . فقد أدرك بايارد أنهم لن يستطيعوا صعوده بالسيارة ، وبالضبط قبل أن تنزلق بهم السيـارة ، أدار عجلة

القيادة بعنف واندفع بمقدمة السيارة فوق جانب الطريق ، وتوقفت السيارة برهة ، وكأنها تلتقط أنفاسها ، صاح فى جده صارخا ، « أمسك جيداً » ثم هويا .

لحظة من الزمن خلو تماما من كل صوت ، افتقد فيها كل إحساس بالحركة ثم انقضت أشجار الشربين القزمة على محرك السيارة ، وصفعتهم بحقد وهما جالسان فى انحناءة متقلصة الساقين ، ثم قفزت السيارة ودارت فى الهواء . ثم برهة أخرى كالفراغ ، ثم صدمة ضربت عجلة القيادة بصدر بايارد . ونفضت عنها قبضتيه القويتين ، وخلعت مفصلى ذراعيه ، انقذف جده إلى الأمام ، ومد بايارد ذراعه فى نفس اللحظة ليحميه من الاصطدام بالحاجز الزجاجى الأمامى . صرخ مرة أخرى « أمسك جيداً » ولم تهدىء السيارة من اندفاعها وجرجر بايارد عجلة القيادة التى لم تكف عن الانفلات من يده ، ودار بالسيارة فى قاع الوادى الضيق ، وفتح المحرك ، وبقوة الآلة وبعزم اندفاع القطة ، اندفعت السيارة صاعدة هابطة ، مصطدمة بكل شىء فى قاع مجرى الماء واستدارت وصعدت وهى تلهث إلى جانب المجرى المنخفض وارتقت الطريق مرة أخـــرى . أوقفها بايارد .

جلس برهة ساكناً دون حركة ، ثم نفث الهواء من بين أسنانه بعنف ، ثم « يا إله الجبل الجبار » . وقد جلس جده بجواره دون حركة ، وما زالت يده قابضة على الباب ، ورأسه محنية قليلا . قال بايارد : « أظننى سأدخن سيجارة بعد هذا » وأخرج واحدة من جيبه وثقابا ، وكانت يداه ترتعدان ، قال معتذراً « فكرت فى هذا الجسر الحجرى مرة أخرى ، ونحن نعبر » . أخذ نفسا عميقا وتطلع إلى جده وسأله « أنت بخير ؟ » ولم يحر بايارد العجوز جوابا ، وسكنت سيجارته فى يده وألقى على جده نظرة أخرى . كان جالسا كما كان ، وقد انحنت رأسه قليلا ، وقبضت يده على الباب . نادى بايارد جده .. جدى ؟ ولم يتحرك بايارد العجوز أيضا ، ولا حتى عندما رمى حفيده السيجارة وهزه بعنف.

— ٤ —

حمله فرسه الصغير الجسم الذى لا يصيبه تعب إلى قمة التل الأخير ، وامتدت ظلالهما الطويلة فى شمس الشتاء المنخفضة عبر حافة التل إلى الوادى من تحته حيث تصاعدت منه صيحات كلاب حادة محمولة على الهواء الجليدى الساكن . قال بايارد محدثا نفسه ، « كلاب صغيرة » وأوقف فرسه فى الدرب الضيق ، وأخذ ينصت إلى هستيريا الكلاب حادة الصوت وأصدائها التى تفيض إلى مجال سمعه ، وكان فى استطاعته أن يحس بالصقيع فى الهواء ، وهو جامد مكانه . ومن فوقه ، كانت أشجار الصنوبر رغم سكون الهواء ، تحدث صوتا وحشيا مستمراً حاداً ، وكأن صقيع الهواء قد أصبح ذا صوت وفم ومن فوقهم جميعا ، وتحت سماء الأصيل الزرقاء ، انزلقت أوزات على ارتفاع منخفض وكانت تطير على هيئة رقم ٧ ، وفكر ، وهو ينظر إليها ، « سيسقط الثلج الليلة » وتصور فى خياله المياه السوداء التى تذهب إليها لتستريح ، وأنصال الحشائش الميتة المتعفنة ، التى سينكمش حولها الماء قريبا . ليتجمد فى أمواج صغيرة رقراقة ثابتة من العتمة الهشة .

ومن ورائه انطوت الأرض مبتعدة ، قمة وراء قمة ، زرقاء جميعا كدخان الخشب المحترق . مصعدة إلى سماء وهى تشبه طبقة رقيقة من الدم المتخثر . واستدار وهو على سرجه وحلق فى الشمس دون أن يطرف له جفن ، كانت منتشرة وكأنها بيضة قرمزية تكسرت فوق أبعد الآكام . وكان ذلك دليلا على نوع الطقس ، وتشمم الهواء الساكن المدغدغ ، آملا أن يكون قد استنشق أيضاً رائحة الثلج . وزفرت الفرس ورمت رأسها مختبرة ، واكتشف استرخاء الأعنة ثم خفضت رأسها وزفرت مرة أخرى فى الأوراق الميتة وإبر الصنوبر الرقيقة الجافة تحت أقدامها . قال بايارد وهو يشد الأعنة ، « بيرى ، هيا » ورفعت بيرى رأسها وانطلقت فى خطو عال سريع ولكن بايارد ردها عن هذا ببراعة ، وأعادها إلى خطوها المنتظم الذى يشبه مشى الثعلب . ولم يكن قد ابتعد كثيراً ، حينما انفجرت

الكلاب عن يساره فى زئير شـــديد ، ثم اقتربت منه فجأة ، وعندما أوقف بيرى ، وحلق على امتداد الدرب ، رأى الثعلب القادم عليه فى وسط الطريق فى خطو رتيب وقور ، وقد رأته بيرى أيضاً فى نفس الوقت ، وردت أذنيها الدقيقتين إلى الخلف ، وأدارت عينيها الثابتين ، إلا أن الحيوان ظل ماضياً نحوهما دون أن يدرى فى خطوه المنتظم غير المتعجل ، وهو يلق من لحظة إلى أخرى ، نظرة إلى الخلف من فوق كتفيه . همس بايارد وهو يمسك بيرى بشدة بين ركبتيه تماما « ياللعجب ! » لم يكن الثعلب يبعد عنهما أربعين ياردة ، وظل يتقدم وفيما يبدو لم يكن يحس أبداً بوجود الفارس ، ثم صاح بايارد .

ألقى الحيوان عليه نظرة ، وسبحت الشمس الغاربة حمراء فى عينيه وانسالت ، ثم اختفى فى ومضة واحدة متواضعة من اللون البنى ، ونفث بايارد هواء صدره كان قلبه يدق بعنف داخل أضلاعه . صاح « هو . ى هيا يا كلاب ! » تزايد طنين الكلاب وأصبح عجيجا حاداً ، وانفجر قطيعها على الطريق فوضى من الجلود المنقطة ، والألسنة والآذان المتدلية المهتزة . ولم يكن أحـدها قد بلغ أشده ، وتجاهلت الحصان وراكبه واندفعت وهى تعوى نحو النباتات الكثيفة التى اختفى داخلها الثعلب ، وظلت تتصايح بأصوات حادة ، وإذ كان بايارد على فرسه جالسا يتطلع حينما مرت واختفت بلغت أذنيه صيحات أكثر حدة وجنونا . اندفع من الغابات كلبان أحدث سنا من الكلاب الأخرى ورمحا أمامه على سيقانها القصيرة وهما يهمهمان بصيحات تفيض بالاهتمام الجنوبى الذى يثير السخرية ، ثم غاض النباح وتحول إلى أصداء هستيرية وهكذا مضى .

ومضى ، وقد ارتفعت الأرض على جانبى الطريق وقد تعتم أحد الجانبين وكأنه جدار حصن صخرى من البرنز واستلقت على الآخر أشعة الشمس الأخيرة الحمراء . وطقطق الهواء الثلجى فى خياشيمه ودغدغهما ، ولفح رئتيه بإبر منعشة . وقد مضى الطريق عبر الوادى ، لم يعد يبين من الشمس فوق الجدار الغربى إلا نصفها ، وبين الأشجار المتقاربة سار بحصانه فى ظلال تبلغ ارتفاع ركابه ، وكأنه يخوض ماء بارداً . كان عليه

أن يبلغ البيت قبل الغروب ، فدفع تيرى إلى الإسراع قليلا . ثم تزايد ضجيج الكلاب مرة واقترب من الطريق وهنا دفع بيرى للجرى .

أقبل بعد ذلك على ممر بين الأشجار ـ حقل قديم مزروع بالقصمين ، وقد التأمت جراح المحراث فيه منذ زمن طويل ، وملأته الشمس الغاربة بالذهب الميت وفجأة أوقف حصانه حتى كاد أن يقف على خلفيتيه أمامه وفى ركن من الحقل بجوار الطريق كان الثعلب جالساً . جلس على مؤخرته كما تفعل الكلاب ، يرقب الأشجار من خلال الممر الضيق ، ودفع بايارد حصانه مرة أخرى إلى الأمام . أدار الثعلب رأسه وألقى عليه نظرة متلصصة سريعة ، ولكن دون أن يبدو عليه قلق ، وأوقف بايارد الحصان وهو فى دهشة بالغة . اقترب ضجيج الكلاب من داخل الغابة ، إلا أن الثعلب ظل مقعيا مكانه ، يرقب الرجل بنظرات متلصصة مكتومة غير مهتم بالكلاب . لم يكشف عن أى قلق على الإطلاق ، ولا حتى عندما انطلقت الكلاب الصغيرة وهى تعوى بجنون عبر الممر الضيق وظلت تكدح عند حافة الغابة برهة بينما وزع الثعلب انتباهه بينها وبين الرجل .

وأخيراً رأى أكبر الكلاب الصغيرة الصيد ، كان من الواضح أنه زعيمها وعلى الفور كفت عن ضجيجها وقدمت فى خطو غير سريع عبر الممر وقعدت فى دائرة قبالة الثعلب ، وألسنتها مدلاة . ثم ، وفى لحظة واحدة ، استدارت كلها وواجهت الغابة التى بدأ الظلام يسودها ، كان العواء الجهد الحاد المروع يقترب منها رويداً رويدا . ثم عوى أكبر الكلاب مرة واحدة ، وهنا تزايد العواء القادم من الغابة بعد أن سادته نغمة الاطمئنان وإن ظل حاداً عنيفا ، وظهر الكلبان الصغيران وزحفا خلال الحقل المزروع كدودتين صغيرتين ، حتى وصلا . ثم وقف الثعلب وألقى نظرة أخرى سريعة مختلسة على الفارس ، ثم مضى فى خطو بطىء ، تحوطه حلقة الكلاب الصغيرة الصديقة ذات السترات القطنية ، وصعد إلى الطريق واختفى . قال بايارد وهو يتطلع وراءها « ياللعجب على اللعنة ! » ثم « بيرى ، هيا » .

وأخيراً ، حلقت فى سكون فوق الأشجار البعيدة ريشة شاحبة اللون من الدخان وخرج من الغابة ، وتلألأت فى جدار البيت الممتد نافذة بدعوة دافئة للغريب ساعة الغروب . وكانت الكلاب قد أطلقت ضجيجا رنانا كدق الأجراس ، وقد استطاع بايارد أن يميز من بينها أصوات الكلاب الصغيرة ، وصوتا يأمرها بأن تكف ، وإذ كان يقف بيرى فى الفناء كان الثعلب يتردد ودون عجلة وراء البيت . ثم صافحه وجه نحيف فى العتمة بفأس فى إحدى يديه ، وملء ذراع من الخشب فى اليد الأخرى ، وقال بايارد ، « بادى ، بحقك ما هذا الشىء ؟ هذا الثعلب ؟ » .

أجاب بادى ، « هذا إلن » ووضع الخشب على الأرض بروية ، وكذلك الفأس ، وجاء وهزيد بايارد مرة واحدة باسترخاء ، بأسلوب أهل الريف ، ولكن يده كانت قوية وراسخة « كيف حالك ؟ »

أجاب بايارد ، « بخير ، جئت لأسيد ذلك الثعلب العجوز الذى حكى لى ريف عنه » .

قال بادى فى صوته البطىء قليل الاستعمال ، « بالتأكيد . كنا نتوقع حضورك . ترجل ودعنى آخذ فرسك »

« لا » سأقوم بهذا بنفسى . أنت أدخل هذا الخشب ، سأضع بيرى فى مكانه ، إلا أن بادى كان حازما ، دون إصرار أو غلظة ، وتخلى له بايارد عن حصانه .

صاح بادى فى اتجاه البيت « هنرى . هنرى » انفتح الباب على ألسنة نيران حلوة ، وقد وقف به شخص ، باعد ما بين قدميه ، قال بادى ، « بايارد هنا » ثم قال له « ادخل واستدفىء » وأخذ الحصان ومضى به. أحاطت الكلاب ببايارد ، فالتقط الأخشاب والفأس ، واتجه نحو البيت ، وقد تحلق به جيشان شبحى منقط من الكلاب ، وظل الشخص فى الباب

المضيء ، بينما صعد بايارد إلى الشرفة وأسند الفأس إلى الجدار .

قال هنري « كيف حالك » ومرة أخرى كانت المصافحة طرية ، ومرة أخرى كانت اليد قوية راسخة ورقيقة ، كانت أكثر طراوة من جسد بادي الفتى القوي ، حمل عن بايارد الأخشاب ودخلا البيت . كانت جدران الغرفة من ألواح الخشب المتشققة : وقد علق عليها تقويمان أو ثلاثة كلها قديمة ورسم ملون عن عقار طبي . كانت الأرضية عارية ، ومن ألواح الخشب المثبتة إلى بعضها البعض باليد ، وقد ضغطتها الأحذية الثقيلة ، وصقلتها أقدام الأجيال الكثيرة من الكلاب ، كان في استطاعة رجلين أن يستلقيا واحداً بجوار الآخر في المدفأة . أما الآن فقد أمسكت النار فيها بقطع من الخشب تبلغ من الطول أربع أقدام ، ومن ورائها ظهر المدفأة المصنوع من الآجر وتصاعدت ألسنتها المتوحشة في دوامات لتختفي داخل حويصلة المدخنة المظلمة . وقد جلس فيرجينس ماك كالم أمامها ، فبدا معتماً تحوط رأسه هالة فضية من فوضى شعره الكث .

قال هنري « بايارد ، هذا بايارد سارتوريس » .

استدار العجوز في مقعده في حركة وفورة متأنية كأنها حركة أسد قابع ، ومد يده للضيف دون أن يقف . كان في سنة ١٨٦١ في السادسة عشرة من عمره ، وكان قد وصل حينئذ إلى ليكسنجتون بفرجينيا ساعيا على قدميه وتطوع في الجيش ، وخدم أربع سنوات في لواء ستونوول ثم عاد ماشيا إلى مسيسيبي وبنى لنفسه بيتا وتزوج . كانت « دوطة » زوجته هي ساعة حائط وخنزير مملح ، وأعطاهما أبوه بغلا . وقد ماتت زوجته منذ سنوات طويلة وماتت أيضاً من جاءت بعدها وهو الآن جالس أمام المدفأة التي طهي عليها ذلك الخنزير ، تحت السقف الذي بناه في سنة ٦٦ ، وفوق الرف استقرت الساعة ، وهي تسخر من ذلك الزمن الذي كانت ذات يوم ، خادمته . قال ، « حسنا يا ولدي . تأخرت زيارتك كثيراً كيف حال أهلك ؟ » .

أجاب بايارد ، « على ما يرام يا سيدى » ونظر بإمعان وحدة إلى وجه العجوز وردى اللون الذى يفيض بالعافية « لا ، لم يسمعوا بعد » .

« مازلنا نتوقع حضورك منذ أن التقى ريف بك فى البلدة فى الربيع المنصرم . هنرى ، قل لماندى أن تضع طبقاً آخر على المائدة » .

وقد تبعته إلى الغرفة أربعة كلاب . ظلت ثلاثة منه ترقبه بعيون جادة متوهجة . أما رابعها ، وقد كان يرتدى سترة زرقاء ، وعلى وجهه رسم الوقار الملكى ، فقد جاء إليه ولمس بأنفه الباردة يده . قال له ، « جنرال كيف حالك ؟ » ، ثم عرك أذنيه بيده ، وهنا تقدمت الثلاثة الأخرى وتحسست بأنوفها يده وحاولت أن تدسها فيها .

قال مستر ماك كالم ، « هات مقعداً واجلس » ، واستدار بمقعده ، فعل بايارد كما أمره ، فتبعته الكلاب ، وتحلقت حول ركبتيه وهى تتدافع حوله بأدب ، واستطرد العجوز يقول « لم أكف عن دعوة جدك لقضاء بعض الوقت هنا . ولكنه لم يفعل لأنه متكبر أحمق ، أو ربما كسول ملعون » : ثم هتف بالكلب الكبير « جنرال ؟ اخرج من هنا . بايارد اطردها ، ثم صاح « هنرى ! » وظهر هنرى ، فقال له « اطرد هذه الكلاب حتى ينتهى العشاء » .

ساق هنرى الكلاب من الغرفة . التقط مستر ماك كالم من المدفأة عوداً من الصنوبر وأشعله وأشعل منه غليونه ، وأخمد الشعلة فى رماد المدفأة ووضعها بجوارها . قال العجوز ، « ريف ولى يقضيان اليوم فى المدينة . كان فى استطاعتك الحضور معهما فى العربة . إلا أننى أظنك تفضل عليها حصانك » .

قال بهدوء ، « نعم ياسيدى » . إذن سيعرفون . ظل يتطلع إلى النار برهة ، وهو يمسح بيديه ببطء على ركبتيه ، وفى لحظة قصيرة ، طافت به ، دون أن ينفعل صور الأشهر الأخيرة من حياته ، بضياعها

واندفاعها وطيشها ، طافت به فرآها كلها . وكأنها شريط سينمائى يمضى به مسرعا ، إلى خاتمة كان يخشاها ، وكان فى استطاعة أى أحمق أن يتنبأ بوقوعها ،. حسناً ، عليها اللعنة ، ماذا وقد حدث : هل يمكن أن يلام ؟ هل هو الذى أصر على أن يصحبه جده فى السيارة ؟ هل هو الذى منح العجوز قلباً هزيلا تافها ؟ ثم سمع نفسه يقول فى أعماقه ببرود : أنت خفت أن تعود إلى البيت. أنت كلفت زنجياً أن يتسلل ويحضر لك حصانك دون أن يحس به أحد . أنت ، وأنت من يفعل من الأشياء عامداً ، ما يتشكك عقلك أنت فى إمكان نجاحه ، بل وباستحالته ، أنت تجبن عن مواجهة نتائج أعمالك أنت . ثم مرة أخرى ، شيء مامر وعميق فى أعماقه لا يهدأ قط ، اشتعل فجأة ، مدافعا ومبرراً ومتهما ، ماذا ، لم يكن يعرف ، ثم يشتعل مرة أخرى ، من لم يكن يعرف . أنت فعلتها ؟ أنت تسببت فيها كلها ، أنت قتلت جونى .

كان هنرى قد صحب مقعداً إلى جوار النار ، وبعد قليل ، دق العجوز غليونه بعناية فوق كفه ليفرغه مما فيه ، ثم أخرج من صداره الصوفى ساعة فضية دائرة بيضاوية الشكل . قال « الساعة الخامسة والنصف ألم يعد هؤلاء الأولاد بعد ؟ »

قال هنرى ، « إنهما هنا . سمعتهم يتكلمون فى الخارج ، وأنا أطرد الكلاب » .

قال والده آمراً ، أحضر الدورق إذن » وقام هنرى وخرج مرة أخرى ، وهنا تعالى وقع أقدام ثقيلة فى الفناء ، واستدار بايارد وتطلع دون اهتمام إلى الباب . ثم انفتح ودخل ريف ولى .

قال ريف ، « حسنا ، حسنا » وأضاء وجهه النحيل الأسمر قليلا « وصلت أخيراً أليس كذلك ؟ » ثم صافح بايارد ، وجاء لى فى إثره . كان وجه لى ، كوجوههم جميعا ، قناعا أسمر عابساً ، لم يكن عريض البنية مثل ريف ، وكان أقلهم جميعاً حديثاً . كانت عيناه سوداوين

وقلقتين ، ومن ورائهما كن ثمة شيء وحشي وحزين . صافح يد بايارد دون أن ينطق بكلمة .

ولكن بايارد كان يرقب ريف . لم يكن ثمة شيء فى وجهه ، لابرود، ولا تساؤل . أمن الممكن أن يكون قد قضى وقتا فى البلدة ، ولم يسمع رغم هذا ؟ أم أن بيارد نفسه حلم بالأمر كله ؟ ولكنه يذكر جيداً إحساسه عندما لمس جده ، يذكر كيف انهار فجأة ، وكأن صميم أنسجته ذاتها ، التى نسجت لتظل شماء ، راسخة عمرها كله ، بقوة الكبرياء والحتمية الجتاء التى تفيض من القدر المشئوم برأس الأسرة ، كأن هذه الأنسجة إنهارت فجأة تاركة لهيكله الفرصـــة ليرتاح أخيراً . وتكلم مستر ماك كالم .

« هل ذهبت إلى مكتب البريد السريع ؟ »

أجاب ريف « نحن لم نبلغ المدينة قط ، انكسر عمود المحور بجوار فرنون . كان علينا أن نفصل المقطورة ونذهب إلى فرنون لإصلاحها هناك ، تأخر بنا الوقت لكى نصل إلى البلدة ، اشترينا حاجتنا من هناك وعدنا »

« حسناً ، لا بأس بهذا . ستذهب إليها فى الأسبوع القادم فى عيد الميلاد » وأخذ بايارد نفسا عميقا ، وأشعل سيجارة ، وفى سحابها الكثيف المعتم دخل بادى وقعد فى ركن المدخنة المعتم .

سأل بايارد ريف ، « ألا يزال هذا الثعلب الذى حدثتنى عنه مختفيا هنا ؟ »

« بالتأكيد . وسنصيده هذه المرة . ربما غداً . الطقس سيتغير » .

« ثلج ؟ »

« ربما . بابا ، كيف سيكون الجو غدا ؟ »

أجاب العجوز ، « مطر ، غداً أيضاً . لن يتحسن الجو قبل يوم

الأربعاء . هنرى ؟ » وبعد برهة هتف مرة أخرى « هنرى ! » ودخل هنرى بقدر مغطى بالسناج يقطر وراءه سحابة خفيفة من البخار ، ودورق من الحجر ، وقدح غليظ فيه ملعقة معدنية . كان فى هنرى ثمة شىء أليف أنثوى ، بجسمه العريض المترهل قليلا ، وعينيه بنيتى اللون الناعمتين ، ويديه المتباطئتين القديرتين . كان هو الذى يشرف على المطهى ، أصبح يجيد الطهو خيراً من ماندى ، والبيت ، حيث كان يوجد دائما مشغولا بلا نهاية بعمل ما ، كان يزور البلدة بنفس الندرة التى يزورها به والده ، وكان لا يهتم بالصيد إلا قليلا . وكانت تسليته الوحيدة فى تقطير الويسكى ، ويسكى جيد لاستهلاك العائلة وحدها ، فى قفر مجهول ، معروف مكانه فقط لوالده وللزنجى الذى يعاونه ، بوصفة تتابعت عبر الأجيال الضائعة من أجداده الذين نشئوا على الويسكى . وضع القدر والدورق والقدح على المدفأة وأخذ الغليون الفخارى من يد والده ووضعه على الرف ، وأحضر كوبا مشروخا به سكر ، وسبعة أقداح ، بكل منها ملعقة . انحنى العجوز قليلا نحو المدفأة وأعد الكئوس ، واحدا واحدا بتأن وقور مزعج . وبعد أن وزع الكئوس على الجميع ، بقى اثنتان . قال ، « ألم يعد الولدان الآخران بعد ؟ » ولم يجبه أحد ، ووضع السدادة على الدورق . ووضع هنرى الكأسين على الرف .

وهنا جاءت ماندى إلى الباب ، فملأته بثوبها القطنى الأنيس . قالت « تستطيعون جميعاً أن تأتوا الآن » ، وعندما استدارت لتمضى خاطبها بايارد وتوقفت ، وكان الرجال قد نهضوا ومضوا خارجين من الغرفة . كان العجوز منتصب القامة كرجل من الهنود الحمر وباستثناء قامة ماندى النحيلة المتراخية ، فقد كان أطول عوداً من جميع أبنائه بقدر رأسه انتظرت ماندى بجوار الباب ، ثم صافحت بايارد . قالت له « أنت لم تزرنا منذ مدة طويلة ، وأراهن أنك لم تنس ماندى ، أيضاً .

قال بايارد ، « بالتأكيد ، لم أنس ولكنه كان قد نسى » والنقود بالنسبة لماندى لم تكن تعوضها فقط عن قطعة من الحلى لا قيمة لها ،

كان جون لا ينسى أبداً أن يقدمها إليها عنـــد زيارته . مضى إثر الآخرين فى الظلام والصقيع . وقـد أخذت الأرض تحت قدميه فى التصلب ، وكانت السماء فوق رأسه لامعة بالنجوم . وتعثر قليلا وهو يمضى وراء الظهور المتزاحمة حتى فتح ريف بابا يؤدى إلى مبنى منفصل ووقف جانباً حتى دخلوا جميعا ، كانت الحجرة مملوءة بالدفء وبسحاب رقيق شاحب أزرق يفيض بروائح الطهو ، ومصباح كيروسين يشع ضوءاً منتظماً على مائدة طويلة ، وأمام أحد طرفى المائدة كان مقعد مفرد ، ويوازى الجوانب الثلاثة الأخرى دكك بلا مساند للظهر . كان الموقد بجوار الجدار البعيد ، وصوان هائل من ألواح الخشب المشقوق ، وصندوق خشبى . وقد جلس وراء الموقـد زنجيان وصبى لم يكتمل نضجه وقـد التمعت وجوههم بفعل الحرارة ، ودارت أعينهم فى محاجرها فبدا بياضها واضحاً وقد تحلق حول سيقانهم خمسة كلاب صغيرة ، ظلت تزمجر على بعضها البعض بوحشية مصطنعة ، أو تعضعض ببلادة فى ركب الزنوج الساكنة أو تجوس وراء الموقد وحوله . باستطلاع متخبط غير هادف .

قال بايارد « كيف حالكم يا أولاد ؟ » وناداهم بأسمائهم ، وهزوا رءوسهم له ، بابتسامة سريعة خبية وهمهمات مهذبة .

قالت ماندى آمرة ، « ريتشارد ، أبعد هذه الكلاب » ، جمع الزنوج الكلاب الصغيرة واحداً واحـداً وألقوا بها فى صندوق أصفر وراء الموقد ، حيث ظلت تتحرك وتهرش جدران الصندوق بمخالبها ، وتتصادم مع بعضها البعض ومع جدرانه ، ومن حين إلى حين صيحة احتجاج مكتومة . وفى أثناء تناول الطعام . ومن لحظة إلى أخرى ، كان يطل رأس منها ويتطلع من فوق حافة الصندوق ، وقد أخذه فضول وقور هادىء ، ثم يختفى بسقطة مفاجئة وهرج ومرج ومزيد من صيحات الاحتجاج ، وتتصاعد مرة أخرى أصـــوات المشاحنة الطفولية ، فيقول ريتشارد ، « صمتاً يا كلاب ! نامى الآن » ثم يدق على الصندوق ببرجمة أصابعه » ثم توقفت الأصوات بعد قليل .

أخذ العجوز المقعد المفرد ، ومن حوله أولاده والضيف ، بعضهم كان بلا سترات ، وكلهم بلا ربطات عنق ، وكلهم بوجوه سمراء عابسة ، كلها قد صبت بوضوح من نفس القالب. وأكلوا سجقا وأضلعاً ، وطبقاً من فطائر القمح المندى ، وآخر من البطاطا المقلوة ، وخبز القمح وقدوا من عسل الذرة الصيفية الأسود ، وصبت ماندى القهوة من إناء هائل معدنى الطلاء . وفى أثناء تناول الطعام حضر الغائبان ـــ جاكسون الأكبر رجل فى الثانية والخمسين ، كانت جبهته عريضة شماء وحاجباه كثيفين ، وعلى وجهه يبدو على الفور رسم الاحتدام والخيالية ـــ كان فيه ، بشكل ما ، من سمات نبات السينسينانس عديم الفائدة ، الكثير الخجل واللاواقعية وستيوارت ، فى الرابعة والأربعين وتوأم ريف . ورغم كونهما توأمين فلم يكن بينهما من التشابه أكثر مما بين أى اثنين من الآخرين . كان القالب كان واثقاً جداً إلى الدرجة التى صنع منها طبعات غاية فى النظافة . الأمر الذى لم تضطر منه حتى الطبيعة إلى استعجاله أو تغييره . ولم يكن لستيوارت ثمة شيء من أسلوب ريف السهل . « كان ريف هو الوحيد بينهم ، الذى يمكن أن يوصف بشيء من المبالغة بأنه كثير الكلام » ، وكان فيه الكثير من رصانة هنرى . كان فلاحا كفئا ، وتاجراً ماكراً وكان له باسمه حساب محترم فى المصرف . أما هنرى . البالغ عمره الخمسين فقد كان الابن الثانى .

مضوا يأكلون بأدب صامتين غير متعجلين ، بأقل الكلمات وأشدها ضرورة ، ولكن بود ، وكانت ماندى تمضى بينهم من المائدة إلى الموقد جيئة وذهاباً .

فاض زئير الكلاب فجأة فى الظلام كالأجراس ولم يكونوا قد انتهوا من طعامهم بعد ، وانسال عبر الجدران المحكمة إلى الحجرة . أصغى الزنجى ريتشارد وقال ، « الآن ! » وتعلق فنجان بادى فى يده .

« ديك ، أين هم الآن ؟ »

« وراء كوخ النبع » وقد أحاطوا به أيضاً ووقف بادى وانسحب من ركنه بهدوء ووقف بايارد أيضاً ، وقال « سأذهب معك » ومضى الآخرون بأكاون بانتظام وأنزل ريتشارد فانوساً من فوق الصوان وأشعله وخرج ثلاثتهم من الغرفة ، إلى الظلام الصقيعى الذى جاء عبره عواء الكلاب ، فى دفعات موسيقية رنانة كصوت يحدثه زجاج متجمد كأن برد وظلام . وتجاسم البيت ، لا يبين من جداره الممتد إلا النافذة ، المتوهجة قال بايارد « الأرض تكاد أن تكون جافة » .

أجاب بادى ، « لن يظهر الصقيع الليلة . ديك ، أليس كذلك ؟ »

« لا يا سيدى ستمطر . »

أجاب بايارد ، « أنا لا أصدق هذا » .

أجاب بادى ، « بابا قال هذا أيضاً . إنها أدفأ مما كانت ساعة الغروب » .

قال بايارد بإصرار ، « لا تبدو كذلك بالنسبة لى » ومرا بالعربة ، كانت ساكنة خامدة فى ضوء النجوم ، وإطاراتها تلمع كأشرطة من حرير أسود ، والإسطبل الطويل الممتد الذى تصاعدت منه أصوات رقيقة ، وزفرة عرضية عند عبور الفانوس . ثم تلألأ الفانوس بين جذوع الأشجار على منحدر الطريق . وتزايد ضجيج الكلاب تحتهم تماما ، وتحركت أشباحها فى الوهج الخافت ، وعلى غصن صغير وراء كوخ النبع بالضبط وجدوا المتماوت وقد انحنى على نفسه وسكن تماماً ، وأغمض عينيه بشدة ، كان بين غصنين على ارتفاع من الأرض لا يزيد على ست أقدام . حمله بادى من ذيله إلى الأرض ، دون مقاومة ، صاح بايارد ، « ياجهنم » .

نادى بادى الكلاب أن تعود ، فصعدت إلى الممر مرة أخرى . وفى سقفية غير مستعملة وراء المطهى ، تلألأت نقط حمراء متزاوجة ، بدت وكأنها على الأقل خمسون عينا ، سطعت فى اللحظة التى أدخل فيها بادى الفانوس وأسقط نوره على قفص محاط بالأسلاك ، تصاعدت منه رائحة

عطنة دافئة . كانت فيه أجسام ذات فراء خشن تتحرك متكاسلة ، أو تدير إلى النور وجوها حادة فى شكل الجاجم . فتح الباب ورمى بآخر أسراه بين رفاقه وأعطى الفانوس لريتشارد وخرجا ، كان الجو قد أصبح شاحبا قليلا ، وفقد القليل من برودته الحادة .

وقد جلس الآخرون فى شبه دائرة حول النار المتأججة وعند قدمى العجوز غفل كلب الصيد ذو السترة الزرقاء . ووسعوا لبابارد ، وقعد بادى مرة أخرى فى ركن المدفأة .

سأل مستر ماك كالم ، « اصطدتموه ؟ »

أجاب بابارد ، « نعم يا سيدى . كأنك ترفع قبعتك من فوق مسمار على الحائط »

وأخذ العجوز أنفاسا من غليونه ، « ستخرج معنا فى عملية صيد كبيرة قبل أن ترحل »

قال ريف ، « بادى . كم عندك الآن منها ؟ »

أجاب بادى ، « ليس عندى إلا أربعة عشر »

أجاب ريف ، أربعة عشر . لن تستطيع أن تأكل أبداً أربعة عشر»

أجاب بادى ، « إذن ، أطلقها ، وصدها مرة أخرى » . ومضى العجوز يدخن ببطء وكان الآخرون يدخنون أو يمضغون ، وأخرج بابارد سجائره وقدمها إلى بادى . وهز بادى رأسه معتذرا .

قال ريف ، « لم يبدأ بادى التدخين بعد » .

سأله بابارد « لم تفعل ؟ بادى ، ما الأمر ؟ »

أجاب بادى ، وهو فى العتمة ، « لا أدرى . لم يتوافر لى الوقت لأتعلم ، على ما أظن »

طقطقت النار ودومت ، ومن وقت إلى آخر كان سيتوارت ، وهو أقربهم إليها يضع قطعة خشب فيها . وكان الكلب القابع عند قدمى العجوز يحلم ، ومن لحظة إلى أخرى يتشمشم ، وكان الرماد الخفيف يدور كالدوامات حول أنفه فيعطس ، ويستيقظ ، ويرفع رأسه ويطرف بعينيه ناظراً إلى وجه العجوز ، ثم يغفو مرة أخرى ، جلسوا جميعا دون كلمات وبحركة ضئيلة جداً ، وكانت وجوههم الصارمة ذوات الأنوف المحدبة كأنما قد نحتت بألسنة النار من صخور العتمة الظلماء ، وشكلت بفكرة واحدة ، وسويت ولونت بنفس اليد .

دق العجوز غليونه برقة بكفه ونظر إلى ساعتـه الفضية . الساعة الثامنة .

قال ، « بايارد ، نحن نستيقظ فى الساعة الرابعة . ولكن أنت ، ليس عليك ، أن تنهض قبل أن يحل النهار . هنرى ، هات الدورق »

قال بايارد أيضاً ، « الساعة الرابعة » وقد أخذ هو وبادى فى خلع ملابسهما فى صقيع الغرفة ذات السقف المائل المضاءة بمصباح كيروسين ، وحيث كان ثمة سرير خشبى هائل بلحاف صوفى حائل اللون مصنوع من قطع من النسيج من ألوان متباينة خيطت معا . كان ذلك هو فراش بادى . قال بايارد ، « لا أدرى لم تهتم على الإطلاق بالذهاب إلى الفراش » وكانت أنفاسه تتكاثف فى الهواء الثلجى وهو يتكلم .

قال بادى ، « نعم » وخلع قميصه من فوق رأسه ، وركل قدميه النحيلتين اللتين تشبهان سيقان خيل السباق من سراويله الكاكية القديمة . قال ، « تنقضى ساعات الليل بسرعة فى بيتنا . أنت تؤنسنا ، أيضا » وكان فى صوته ثمة أثر ضئيل للغيرة والشوق للماضى . لن يكون النوم فى ساعات الصباح بعد أن تبلغ الخامسة والعشرين ذهبيا كما كان قبلها . كانت استعداداته للنوم بسيطة ، خلع حذاءه وسراويله وقميصه ، وذهب إلى الفراش فى ملابسه الداخلية الصوفية ، وقد استلقى لا يبين منه إلا رأسه المستدير ،

ليرقب بايارد ، الذى وقف فى صدار صوفى بلا أكمام ، وسراويل قصيرة رقيقة . قال بادى ، « لن تنام مستدفئا بهـــذه الطريقة . أتريد بعض ملابسى الثقيلة ؟ » . .

أجاب بايارد ، « أظننى ، سأنام مستدفئا » . ثم نفـــخ المصباح فأطفأه ، وتحسس طريقه إلى الفراش ، وقد تقلصت أصابعه إلى أعلى من الأرضية الثلجية ، ودخل إلى فراشه ـ كانت الحشية مملوءة بقشور الذرة ، كانت تقعقع من تحته ، موسوسة بصوت رفيع كلما تحرك هو أو بادى ، مهما كانت الحركة ضئيلة ، أو أخذ شهيقا عميقا . تحركت القشور بأصوات صغيرة ذات حفيف .

ارتفع صوت بادى فى الظلام ناصحا ، « لف ذلك اللحاف جيداً من هناك » ، وتنفس زفيراً فى صوت متفجر قصير يفيض بالشعور بالراحة . وتثاءب ، مسموعا غير مرئى . قال ، « لم أرك منذ مدة طويلة » .

« هذا صحيح . فلنر ، متى كان آخر لقاء ؟ سنتين ـ ثلاث سنوات ، أليس كذلك ؟ » أجاب بادى ، « سنة ١٩١٥ ، آخر مرة أنت وهو . . » ثم أضاف بهدوء « قرأت الاسم فى جريدة عندما وقع الحادث بشكل ما عرفت على الفور أنه هو . كانت صحيفة بريطانية » .

« حقا ؟ أين كنت حينئذ . ؟ »

أجاب بادى ، « هناك . حيث كان البريطانيون . حيث أرسلونا ، إلى بلاد منبسطة لا أدرى كيف يستطيعون تجفيفها بما يكفى لزرعها ، ويسقط عليها كل هذا المطر » .

« نعم » كانت أنف بايارد ، كقطعة من ثلج . وكان فى استطاعته أن يحس بأنفاسه وهى تبعث دفئا قليلا فى أنفه ، كان فى استطاعته حتى أن يرى الأبخرة الشاحبة التى تتصاعد مع أنفاسه ، كان فى استطاعته أن يحس بأنفاس شهيقه وهى تجمد خياشيمه مرة أخرى . بدا له وكأن

فى استطاعته أن يحس بألواح خشب السقف وهى تنحدر نحو الحائط القصير ، بجوار بادى ، كان فى استطاعته أن يحس بالجو وهو يتراكم فى ذلك الركن البعيد ، مريراً وبارداً وكثيفاً ، أكثف من أن يصلح للتنفس ، كأنه وحل غير مرئى ، وهو مستلق تحته ... وكان واعيا بحفيف القشور الحاد من تحته ، واكتشف بهذه الطريقة ، أنه يتنفس فى دفعات عميقة مضطربة ، وتمنى بشكل فظيع ألا يكون فى الفراش ، أن يجلس ، أن يتحرك ، أمام نار ونور ، أينما كان . وقد استلقى بادى بجواره فى جمود الصقيع الضاغط نصف المتجلط ، وكان يتحدث بألفاظه البطيئة المنسابة ، التى تعلمها من الحرب . كانت بشكل ما حكاية غامضة حالمة ، دون بداية ولا نهاية ، مملوءة بإشارات متعثرة إلى أماكن يخطىء فى نطقها بشكل بشع - كانت تترك فى المرء انطباعا عن أناس هم مجرد مخلوقات عاجزة عن التصرف وبلا ماض ولا مستقبل ، وقعوا إلى الأبد فى تيه الاهتمامات الفردية المتصارعة ، كأنها لعب تدور وتدور وتتقارع ، ومن ورائها كابوس وشيك الحدوث ولا يمكن فهمه .

سأله بايارد ، « بادى هل أحببت الجيش ؟ »

أجاب بادى « ليس كثيراً . ليس فيه ما يكفى من العمل . حياة طيبة لرجل كسول » . ثم استغرق فى تأملاته برهة وقال فى لحظة مصارحة خجولة وسرور وقور « منحونى تعويذة » .

قال بايارد ، « تعويذة ؟ »

« نعم . واحدة من تلك الحلى البرنزية التافهة المعلقة بشريط ملون ، نويت أن أريها لك إلا أننى نسيت . سأريك إياها غداً ، هذه الأرضية باردة إلى الدرجة التى تجعلنى لا ألمسها إلا عند الضرورة » سأترقب غدا لحظة عندما يكون أبى خارج البيت » .

« لماذا ؟ ألا يعرف أنك حصلت عليها ؟ »

أجاب بادى ، « إنه يعرف . كل ما فى الأمر أنه لا يميل إليها لأنها كما يزعم من تعاويذ اليانكى . ريف يقول إن أبى وستونوول جاكسون لم يستسلما قط » .

قال بايارد ، « نعم » وتوقف بادى عن الكلام ، ثم تثاءب مرة أخرى ، كأنه كان يقوم بتفريغ جسمه استعداداً للنوم . ولكن بايارد كان مستلقيا ومتصلبا على ظهره فى فراشه ، وعيناه مفتوحتان تماما . كنت تشعر وكأنك مخمور كلما أغمضت عينيك ، ذلك أن الغرفة تبدأ فى الدوران والدوران ، ولذا فإنك تستلقى فى فراشك متصلبا مفتوح العينين ، حتى لا تصاب بالغثيان . وقد توقف بادى عن الكلام وأصبح تنفسه أكثر امتدادا وهدوءاً وانتظاما . وتحركت القشور فى شكاية ذات حفيف حاد ، عندما استدار بايارد ليرقد على جنبه .

ومضى بادى يتنفس فى الظلام بهدوء وسلام . وكان فى استطاعة بايارد أيضا أن يسمع أنفاسه هو أيضاً ، ولكن تلك الأنفاس الأخرى كانت تحلق فوقها وتحيط بها ، وتحتويه أيضاً وكأنه كان شيئاً يتنفس بأنفاس مجهدة لاهثة ، شيئاً ما داخله ، يأخذ أنفاسه مع بادى ، مستهلكا كل الهواء حتى يتحتم على الشىء الأضأل أن يلهث فى سبيله . وكان الشىء الأعظم يتنفس بعمق وهدوء ، وكان غافلا عن كل شىء ، نائما ، نائيا . نعم ، وربما كان ميتا ، وتذكر ذلك الصباح ، وعاشه من جديد بانتباه مشدود منذ اللحظة التى رأى فيها دخان الرصاصة المضيئة الأولى حتى رأى من مكانه على التل المنحدر ، انفجار ألسنة النيران من أنف طائرة جون « الكامل » ، وكأنه خفق بريق برتقالى صغير ، ورأى تلويحة أخيه المألوفة ، وانسطاحة جسمه الغاطس المفاجئة بعد أن فقد توازنه فى الهواء . عاشها من جديد ، كما تجرى بعينيك فوق قصة مطبوعة قرأتها كثيراً من المرات ، محاولا أن يتذكر ويستشعر ، طلقة نارية آخذة طريقها إلى جسمه نفسه أو رأسه ، كان من الممكن أن تذبحه فى نفس اللحظة . وهذا قد يفسر الموضوع ، قد يشرح الكثير جداً منه . إنه هو أيضا

ميت ، وإن ما يعيش فيه هو الجحيم ، الذى يتحرك عبره وخلاله إلى الأبد بوهم من السرعة ، باحثاً عن شقيقه ، الذى كان بدوره فى مكان ما يبحث عنه ، ولن يلتقى الشقيقان أبداً . استدار مرة أخرى ورقد على ظهره ، وهمست القشور من تحته بسخرية جافة .

كان البيت مملوءاً بالأصوات ، وبالنسبة لحواسه المرهفة كان السكون آلافا من الأصوات : ئنة الخشب الجاف فى الصقيع الأسود ، طقطقة القشور وهو يتنفس ، صميم الجو نفسه وكأنه ثلج لزج موحل فى منجلة البرد ، يضغط على رئتيه . كانت قدماه باردتين ، وقد تغطت أطرافه بالعرق من فرط البرد ، ومن حول قلبه الساخن كان جسمه متصلبا يرتعد وقد رفع ذراعيه العاريتين فوق الأغطية ، وظل مستلقيا برهة وكأن البرد من حوله قالب من الصلب أطبق عليه . وفى أثناء هذا كانت أنفاس بادى الهادئة وأنفاسه المشدودة المبهورة ، كلاهما بلا منبع إلا أن كلا منهما مكتنف بالآخر متداخل معه .

تحت الأغطية مرة أخرى ، كانت ذراعاه باردتين على صدره ويداه كقطع من ثلج فوق أضلعه ، وتحرك بحذر لا نهائى بينما انزلق الصقيع من فوق كتفيه إلى أسفل ، وثرثرت من تحته القشور المختفية ، وطوح ساقيه إلى الأرض . كان يعرف الطريق إلى الباب ، وتحسس طريقه إليه على أصابع متقلصة . كان مغلقا بقضيب خشبى ، ناعم كالثلج ، وقد لمس شيئا آخر بجواره وهو يتلمس الطريق إليه ، شيئا ثلجيا وأسطوانيا ورأسيا ، وانزلقت يده عليه إلى أسفل ، ثم ظل واقفا بعد ذلك برهة فى الظلام القارى الثلجى وبندقية الصيد فى يده ، وبينما هو واقف كذلك ، وأصابعه المخدرة تعبث بالزناد ، تذكر صندوق الطلقات ، الذى يستقر عليه المصباح . لحظة أخرى ظل واقفا هكذا ، ورأسه محنى قليلا ، والبندقية بين يديه المخدرتين ، ثم أسندها مرة أخرى فى الركن ورفع القضيب الخشبى من لجوتيه بحذر ودون أن يحدث ضجة تراخى الباب ومال بعيدا عن مفصلاته ، وبعد الاحتكاك الغليظ الأول ، قبض على حافته ورفعه ورده إلى الخلف ، ووقف خارجه .

وفى السماء لم تظهر نجمة ، وكانت السماء جيفة ذاتها وقد تراخى وسطها . استلقت على الأرض وكأنها بالون فرغ من هوائه ، وقد تصاعد إليها شبح المطهى الأسود بلا عمق ، والأشجار من ورائه ، والأشكال المألوفة كأنها أشباح أرواح حزينة فى ضوء الجيفة الجليدى . كومة من الخشب ، إحدى أدوات الزراعة ، برميل بجوار الشرفة المكسورة بالقرب من باب المطهى حيث تعثر ، قبل العشاء . انساب الصقيع الرمادى إلى داخله كما ينساب الماء فى الرمال ، فى موجات قصيرة متقاطرة ، متوقفة ، ثم متعيثة طريقها من حول عقبة ، ثم ماضية فى طريقها مرة أخرى ، لتتدفق على امتداد عظامه بلا مقاومة . كان ينتفض ببطء وانتظام فى البرد ، ومن تحت يديه كان لحمه قد تصلب وفقد القدرة على الإحساس إذ أنه كان ينتفض باستمرار ، وكأن شيئا ما داخل غلافة الميت كان يناضل ليتحرر . دقت من فوق رأسه على السقف الخشبى طرقة رقيقة وحيدة ، وكأن الصمت الشاحب كان ينتظر هـذه الإشارة فقد بدأ السكون فى الحال فى الانفضاض . أغلق الباب بسكون وعاد إلى فراشه .

وقد أخذته رعشة فى فراشه أعنف من كل رعشة أخرى لحقت به فى ذلك الليل . ومن تحته كانت القشور تسخر منه ببرود ، وقد استلقى على ظهره فى سكون ، يتسمع همس أمطار الشتاء على السقف . لم يكن ثمة ضجيج كضرب الطبل ، كذلك الذى يتصاعد عندما تهطل أمطار الصيف عبر الهواء المنعش ، بل همس من صوت غير واضح النبرات ، وكأن الهواء البارد الذى اضطجع متثاقلا فوق السقف ، قد أخذ فى الذوبان والتقاطر متكاسلا رتيبا من خلال الثقوب والفجوات . تدفق دمه فى جسمه مرة أخرى وللأغطية ملمس كملمس الحديد أو الثلج ، وبينما كان مستلقيا دون حركة تحت المطر تزايد الدفء فى دمه حتى توقف جسمه أخيراً عن الارتعاد ، فذاب فى شىء وكأنه إغفاءة معذبة متشنجة ، تحيط به من كل جانب صور وأشكال متقلصة متوترة لليأس والعنود والصراع الذى لا يتوقف فى سبيل . . . ليس فى سبيل التبرير بقدر ما هو فى سبيل الفهم ، مجرد يد ، ليس يهم يد من ، لتلمسه وتخرجه من فوضاه السوداء

سيزجرها بطبيعة الحال . ولكنها ستعيد إليه كفايته الذاتية الباردة

وظل المطر يهطل ويهطل ويهطل ، وبجواره كان بادى يتنفس بوداعة وانتظام : لم يغير حتى وضعه فى الفراش . وقد غفى بايارد من لحظة إلى أخرى فى إغفاءات تشنجيـة وإذ كان يغفو ، كان فى نفس الوقت متيقظا تماما ، وعند ما كان يستيقظ ، كان يضطجع فى حالة غامضة مملوءة بأشكال النضال غير المعقولة ، ليس فيها ثمة لحظة انفراج أو راحة ، وقطرة وراء قطرة قطع المطر الليل كله ، وأبلى الزمان نفسه ، إلا أنه كان ليلا طويلا ، ليلا طويلا ملعونا إلى أقصى حد ، وقد تحرك دمه المبدد الجهد ، الذى أضناه النضال . تحرك فى جسمه فى نبضات متباطئة ، وكان كالمطر أيضا ، فقد أضنى لحمه أيضاً . إنه يأتى إلى الجميع . ، . ، التوراة . . . واعظ ما ، على أية حال . . . ربما كان يعرف النوم . النوم يأتى إلى الجميع . . .

وأخيراً سمع من وراء الجدران ثمة حركة . كانت حركة لا تميز ، إلا أنه أدرك أنها حركة إنسان ، حركة أتاها ناس كان يعرف أسماءهم ووجوههم ، عادوا مرة أخرى إلى عالم لم يتمكن حتى من فقده مؤقتا ، ناس كان بالنسبة لهم . . . وأحس بالراحة . وآستمرت الأصوات ، وقد سمع بالتأكيد حفيف باب ، وصوت إنسان ، أدرك أنه يستطيع أن يعرف اسمه بجهد ضئيل من التركيز . وأحس من كل الأشياء جميعا ، فقد عرف أن فى استطاعته أن ينهض من فراشه ويذهب إليهم حيث كانوا متجمعين حول نار مطقطقة ، هناك حيث النور والدفء . وهنا استلقى وبه شعور بالراحة ، منتويا فى كل لحظة النهوض والذهاب إليهم فى اللحظة التالية ، مؤجلا الأمر فى كل لحظة إلى اللحظة التالية ، بينما كان دمه يسرى فى جسمه فى نبضات بطيئة ، ، وقد استرد قلبه هدوءه . كان بادى يتنفس بهدوء بجواره وقد انتظمت أنفاسه أيضاً كأنفاس بادى ، بينما كانت الأصوات الإنسانية تفيض مهمهة على الغرفة الباردة فتملؤها بالثقة العميقة والأمن . إن النوم يأتى إلى الجميع ، يأتى إلى الجميع هكذا حاول قلبه أن يبث فيه شيئا من العزاء . وأخيراً راح فى سبات عميق .

استيقظ من نومه فى ساعات الصباح الأولى الشاحبة ، وكان جسمه متعبا وثقيلا وخامداً ذلك أنه لم يفز من نومه بشىء من الراحة . وكان بادى قد ذهب ، وما زال المطر يهطل إلا أنه كان قد تحول فوق السقف إلى صوت شديد الإصرار واضح المعالم ، وزاد الدفء فى الهواء ، إلا أن برودته ظلت تتحسس طريقها إلى عظامه نفسها ، ومضى فى جواربه وحذاؤه فى يده ، عبر الغرفة حيث ينام لى وريف وستيوارت . ووجد ريف وجاكسون يصطليان أمام النار بغرفة الجلوس .

قال ريف ، « تركناك تأخذ حاجتك من النوم » ثم قال « يا إلهى الطيب ، أنت تبدو كالشبح يا ولد . لم تنم ليلتك أمس ؟ »

أجاب بايارد ، « بلى . نمت على ما يرام » ثم جلس ووضع قدميه فى حذاءيه وشبك أشرطتها الجلدية تحت ركبتيه . كان جاكسون جالسا على أحد جانبى المدفأة . وفى الركن الظليل بجوار قدميه تهارش بسكون عدد من المخلوقات الحية الصغيرة . قال بايارد وهو يسوى حذاءيه فى قدميه .

« جاكسون ، ما هذا الذى عندك ؟ أى نوع من أنواع الجراء هذه ؟ »

أجاب جاكسون ، « هذه سلالة جديدة أحاول اصطناعها » واستدار ريف وفى يده نصف قدح من ويسكى هنرى ذى اللون الكهرمانى الشاحب ، قال « هذه جراء إلن . دع جاكسون يحكى لك عنها بعد أن تأكل . خذ اشرب هذا . تبدو مجهداً تماما » . ثم قال فى سخرية باردة ، « لابد أن بادى ظل يتكلم وحرمك من النوم » .

شرب بايارد الويسكى وأشعل سيجاره . قال ريف . « ما لندى تحتفظ بطعام إفطارك فوق الموقد » .

قال بايارد مرددا ، « إلن ؟ أوه ، ذلك الثعلب . أردت أن أتحدث إليك عنه ليلة أمس . أنتم تتولون تربيتها ؟ » .

« نعم . لقد نمت مع دفعة جراء العام الماضى » بادى صادها .
ويعتزم جاكسون بوساطتها أن يحدث ثورة فى صناعة الصيد . يريد أن
يصطنع سلالة من الحيوان ، برئتى كلب صيد وقوة احتماله ، وبراعة
ثعلب وسرعته » .

اقترب بايارد من الركن وتفحص المخلوقات الصغيرة باهتمام وفضول ،
وقال « لم أر قط مثل هذه الكثرة من جراء الثعالب » ثم قال أخيراً ،
« إلا أننى لم أر أى شىء يشبهها » .

أجاب ريف ، « ويبدو أن هذا ما يعتقده جنرال أيضاً » .

بصق جاكسون فى النار ، وانحنى فوق المخلوقات . كانت تعرف يديه ،
ولذا تزايد هراشها حدة ، وهنا لحظ بايارد أنها لم تحدث صوتاً على
الإطلاق ، ولا حتى همهمة الجراء الصغيرة . قال جاكسون ، « إنها تجربة ،
الأولاد يسخرون منها ، إلا أنها لم تتعد إلا مرحلة الفطام . انتظر
وسترى » .

قال ريف بغلظة ، « لا أدرى ماذا ستفعل بها . لن تكبر إلى الحد
الذى يسمح لها بالعمل . بايارد ، الأفضل لك أن تذهب وتتناول
طعام إفطارك » .

قال جاكسون مرة أخرى ، « انتظر وسترى » ثم تلمس الأجسام
الصغيرة المتدافعة وفى لمساته كانت رقة وحماية . قال لبايارد وكأنه
يستعين به « أنت لا تستطيع أن تقطع بشىء عن كلب حتى يبلغ من العمر
شهرين على الأقل ، أليس كذلك ؟ » وتطلع إلى بايارد من تحت حاجبيه
الكثيفين وكان فى نظرته احتدام وغموض .

قال ريف بإصرار « بايارد اذهب وتناول إفطارك ، بادى تركك
وفطر » وقد غسل وجهه بماء ثلجى فى وعاء من الصفيح على مدخل البيت
وأكل طعام إفطاره الذى تألف من فخذ خنزير وبيض وفطائر ساخنة

كبيرة وعسل أسود ، وكانت ماندى تتحدث إليه وهو يتناول طعامه مع أخيه . عندما عاد إلى البيت كان مستر ماك كالم العجوز هناك . كانت الجراء تتزاحم وتتعارك فى ركنها وقد جلس العجوز ، ويداه على ركبتيه ، يرقبها باستمتاع صريح هائل ، بينما جلس جاكسون على مقربة منه معنيا بها ، وكأنه دجاجة تحوم بعناية حول أفراخها .

قال العجوز عندما دخل بايارد « تعال هنا يا ولد . ريف ، اسمع ، هات قصبة صيد السمك » وخرج ريف ، ليعود بعد برهة قصيرة بقطعة من جلد فخذ خنزير مثبتة فى خيط أخذها العجوز ودفع الجراء بغلظة إلى النور ، حيث جثمت هناك بذلة وحقارة ـ وبطريقة غريبة لم ير بايارد بين الجراء لها مثيلا . لم يكن يشبه أحدها الآخر ولم تكن جميعها تشبه أيا من المخلوقات الحية الأخرى . لم تكن ثعالب ولا كلاب صيد ، أخذت بعضا من كل منها ، إلا أنها لم تكن أيهما . وبالرغم من طفولتها الرقيقة ، فقد كان ثمة شىء فيها بشع وناشز ووقح ، كان هنا فم الثعلب الحاد القاسى بين عينى كلب الصيد الحزينتين ، وأذنيه الرقيقتين ، حاولت أذانها المتراخية بجرأة أن تنتصب ، وفشلت بشكل فاضح ، وتحرك الذيل القصير الرخو بشعره الذهبى الشاحب الذى يشبه لون ثمرة القسطل من الداخل . أما من ناحية اللون ، فقد تراوحت بين اللون البنى المائل إلى الاحمرار عبر لون مخطط ومنقط وغير واضح المعالم حتى لون معتم شاحب تتخلله نقط واضحة ، وكان لأحدها ، إذا أخذت معالم وجهه كل على حدة ، وجه الجنرال العجوز ، وإن كان مصغراً مثيراً للسخرية ، حتى رسم الأسى وإدراكه لحقيقة الوجود وزوال الوهم وانعـــدام الأمل ، واحتماله لهذا بكبرياء وعزة ، قال العجوز « انتبه إليها الآن » .

ودفعها جميعاً للنظر إلى أمام ، ثم دلى قطعة اللحم وراءها وحركها . لم يدرك أحد وجودها ، دفعها إلى الخلف والأمام فوق رءوسها بالضبط . فلم تنظر أحدها إلى أعلى . ثم رجحها مباشرة أمام عينيها ، إلا أنها ظلت جائعة تحجل على سيقانها الصغيرة غير الثابتة ، وتطلعت إلى قطعة

اللحم بشغف ، ولكن دون أى اهتمام ذاتى على الإطلاق ، ثم بدأت تتهارش فيما بينها دون أى صوت على الإطلاق .

قال جاكسون ، « أنت لا تستطيع أن تعرف أى شىء عن أى كلب ـ » ولكن أباه قاطعه ، قائلا :

« والآن ، انتبه » قبض على الجراء بإحدى يديه ، ثم دفع بالأخرى قطع اللحم فى أفواهها . وعلى الفور بدأت تتدافع متعثرة مشوقة فوق يده ، إلا أنه حرك قطعة اللحم بعيداً ، ومن الحبل المربوطة به بدأ فى جر قطعة اللحم على الأرض أمامها وعلى بعد قليل جداً منها ، حتى أخذت فى المشى نحوها ، بطريقة متعثرة . ثم شد قطعة اللحم جانباً مسافة قصيرة ، ودون أن تنحرف فى اتجاهها ، ظلت ماضية متعثرة حتى وصلت إلى ركن ظليل ، حيث أوقفها الجدار ، ومن هناك بدأ هراشها الصامت الدءوب مرة أخرى . ذهب جاكسون إليها والتقطها وعاد بها إلى نار المدفأة مرة أخرى .

سأل العجوز ، « والآن ماظنك بها ، كقطيع من كلاب الصيد ؟ لا تستطيع أن تشم . لا تستطيع أن تعوى . ولتحل على اللعنة إن كنت أعتقد أنها تستطيع أن ترى . »

قال جاكسون مرة أخرى بصبر « لا تستطيع أن تعرف ثمة شيئاً عن أى كلب ـ » ولكن أباه قاطعه وقال « جنرال يستطيع . ريف ، اسمع . ناد جنرال ليحضر هنا » .

ذهب ريف إلى الباب ، ونادى ، وبعد برهة دخل جنرال ، ولمخالبه حفيف خفيف فوق أرضية الغرفة العارية ، وسترته المنقطة مزركشة بقطرات المطر ، ثم توقف وتطلع بوقار إلى وجه العجوز متسائلا . قال مستر ماك كالم : « تعال هنا » ، وتحرك الكلب مرة أخرى بكبرياء وبطء . فى هذه اللحظة رأى الجراء تحت مقعد جاكسون ، توقف فى وسط خطوه

وظل ينظر إليها برهة ، مفتوناً بها ، وفى نظرته حيرة ورعب عميقان ، ثم ألقى على سيده نظرة واحدة جريحة عاتبة ، واستدار وخرج ، وذيله بين ساقيه . وظل مستر ماك كالم جالسا مكانه وفى صدره دمدمة مكتومة .

قال جاكسون مرة أخرى ، « أنت لا تستطيع أن تعرف ثمة شيئاً عن أى كلب ـ » ثم انحنى وجمع عهدته واعتدل .

ظل مستر ماك كالم يدمدم ويهتز ، ثم قال : « أنا لا أوجه لوما لصاحبنا العجوز . إذا تحتم على يوما أن أنظر إلى حزمة من الفتيان تشبهها ، وأقول لنفسى ، حسنا ، هؤلاء ، هم أولادى ـ » ولكن جاكسون كان قد ذهب . وظل العجوز مكانه يدمدم باستمتاع عميق « نعم ياسيدى . أحسبنى سأزدريها بكبرياء كما فعل جنرال . ريف ، ناولنى غليونى . »

وقد ظلت السماء تمطر طوال ذلك اليوم ، واليوم التالى ، والآخر الذى تلاه . وظلت الكلاب تجوس فى البيت بين أقدام الرجال طوال ساعات الصباح ، أو تقوم برحلات قصيرة ، تستكشف منها حالة الجو ، لتعود وتستلقى أمام النار وسنانة ، ورائحة رديئة تفوح منها . وهى تتصبب عرقاً وتظل كذلك حتى يأتى هنرى ويسوقها خارج البيت ، ومن فتحة الباب رأى يايارد الثعلب إلى مرتين ، وهو ينسال بخجل ليختفى فى الفناء . وباستثناء هنرى وجاكسون ، الذى كان يعانى من إصابة خفيفة بالروماتزم ، فقد ظل الآخرون فى مكان ما تحت المطر أغلب ساعات اليوم . ليلتقوا فى ساعة تناول الغداء ، بعد أن يخلعوا ستراتهم المبللة بماء المطر عند مدخل البيت ، دخلوا فى خطوات ثقيـــلة ليضعوا أحذيتهم الموحلة والتى تتصاعد منها الأبخرة أمام النار بينما أحضر هنرى القدر المعدنى والدورق ثم جاء آخرهم بادى ، وقد غرق فى ماء المطر .

كانت لبادى طريقته فى شد قامته النحيفة الطويلة من مكانها الركين بجوار المدفأة فى أى ساعة من ساعات النهـار ، ليخرج دون كلمة ، وليعود فى ساعتين أو ست أو اثنى عشرة أو ثمانية وأربعين ، ليحتوى

المكان خلال هذه الفترة ، ورغم وجود جاكسون وهنرى وعادة لى ، جو غامض الحواء . وقد ظل الأمر كذلك حتى أدرك بايارد غياب كثرة الكلاب أيضاً . وعندما غاب بادى منذ ساعة الإفطار ، قالوا له « إنه ذهب للصيد » .

سأل بايارد ، « إذن لم لم يدعنى أعرف ؟ »

قال جاكسون مرجحا « ربما اعتقد أنك لن تحرص على الخروج فى هذا الجو » .

ووضح هنرى قائلا « بادى لا يهتم بحالة الجو . أى يوم بالنسبة له يشبه الآخر » .

وقال لى : « ما من شىء له أهمية عند بادى » . قالها بصوته المرير العاطفى وقد جلس أمام النار غارقاً فى تأملاته ، ويداه النسائيتان تتحركان بقلق فوق ركبتيه . « لن يضايقه أبداً أن يقضى حياته كلها فى قاع ذلك النهر ، بقطعة من خبز القمح البارد ، ليأكلها ، وعدد من الكلاب كصحبه » . ووقف فجأة وغادر الغرفة . كان لى فى أعوامه الماضية الأخيرة من الثلاثينيات . وقد كان طفلا ضعيفا . وكان له صوت رجالى جيد وكان يطلب كثيراً للاشتراك فى ترانيم الأحد — وكان من المفهوم أنه يعاشر امرأة شابة تقيم فى قرية مونت فرنون ، التى تبعد ستة أميال . وكان يقضى أكثر وقته هائماً متجولا مكتئبا فى البقاع المحيطة بهم .

بصق هنرى فى المدفأة وحول رأسه وراء أخيه الذاهب وقال « هل ذهب إلى فرنون أخيراً ؟ »

أجاب جاكسون ، « هو وريف كانا هناك منذ يومين » .

قال بايارد ، « حسناً ، لن أذوب فى ماء المطر . هل أستطيع اللحاق به الآن يا ترى ؟ »

وظلوا صامتين لحظة ، وهم يبصقون بوقار فى نار المدفأة . ثم قال جاكسون أخيراً ، « لا أنصح بهذا . من الجائز أن يكون بادى الآن على بعد عشرة أميال . عليك أن تلحق به فى المرة القادمة قبل أن يخرج » .

وبعد ذلك فعل بايارد كما قيل له ، وهو وبادى حاولا اصطياد الطيور فى الحقول العارية تحت المطر ، حيث كانت البنادق تحدث صوتا ناعما يتلكأ فى الهواء المنسال ، وكأنه بقعة من لون تنتشر ببطء ، أو تجربة حظهما فى المياه الخلفية الراكدة على امتداد مجرى النهر بحثا عن البط والأوز ، أو ، وفى صحبة ريف أحيانا ، اصطياد القطط الوحشية والراقون فى بطن الوادى ، وأحيانا ، وعلى بعد كبير منهما ، كانا يسمعان عواء الجراء الصغيرة الحاد فى تتابع جنونى . وكان بادى يعلق ، « هذه إلن ذاهبة » وقبل نهاية الأسبوع ، صفا الجو ، وذات غروب منذر بسقوط الصقيع ، وبينما كانت رائحة الأرض طيبة ، أخذ جنرال العجوز الثعلب الأحمر الذى ضلله مراراً كثيرة ، على غرة .

وقد ظلت الأصوات الصداحة الرنانة كالأجراس تتردد طول الليل ، وترتعد وتتجاسم وتتردد أصداؤها بين التلال ، وكلهم عدا هنرى تتبعوا أثر الصيد على صهوات خيولهم مقودين بصيحات الكلاب ، ولكن فى الأرجح بالبراعة العجيبة التى كان يبديها الرجل العجوز وبادى والتى تصل إلى درجة الشفافية فى إدراك اتجاه سير الطراد . كانوا يتوقفون أحياناً ، حيث يتجادل بادى وأبوه حول المكان الذى سيتجه إليه الصيد ، وكانا يتفقان عادة ، متنبئين بحركات الحيوان ، قبل أن يعرفها الحيوان نفسه ، ومرة أوقفوا خيولهم فوق قمة تل وظلوا ساكنين فى الصقيع الذى تضيئه النجوم ، حتى فاضت أصوات الكلاب من الظلام ، ناعمة بجلجلة كالأجراس ، ثم تجاسمت وازدادت قرباً ومرت بهم دون أن يروها ، على بعد يقل عن نصف ميل ، ثم غاضت متضائلة ، وبغموض متوتر كأصوات الأجراس ذابت فى الصمت مرة أخرى .

قال العجوز « الآن » وكان يبدو بلا شكل واضح فى معطفه وهو على حصانه الأبيض وقال « هذه الموسيقى ، أليست تعزف من أجل الرجال ، هيا ! »

قال جاكسون ، « أرجو أن يمسكوا به هذه المرة . تجرح خيلاء جنرال إلى أقصى حد فى كل مرة ينجح فيها فى خداعه » .

قال بادى ، « لن يوقعوا به . سيلجأ إلى هذه الصخور ويختبىء فى أحد أوجرتها بمجرد أن يصيبه الإعياء »

قال العجوز مؤيداً ، « أحسبنا سنضطر للانتظار حتى تشب جراء جاكسون ، ذلك إذا لم ترفض أن توقع بجدها . لقد رفضت حتى الآن كل شىء عدا الطعام » .

قال جاكسون مرة أخرى دون أن يسأم ، « عليك فقط أن تنتظر . عندما تبلغ هذه الجراء من العمر ما يكفى » .

« أنصتوا » .

توقف الكلام مرة أخرى عبر التلال تلألأت أصوات الكلاب ، صيحات مستطيلة رنانة تفيض وتموت فى ارتعاشة متوترة ، كأنما هى أجراس أو أوتار لمست ، وكررت وثبتت ، بأصداء كأصوات نواقيس ، واستعيدت مراراً ، لتموت بين التلال المعتمة تحت النجوم ، متلكئة رغم هذا فى الآذان صافية كالبلورة ، نائحة ومجترئة وحزينة إلى حد ما .

قال ستيوارت بهدوء . « سيء جداً الا يكون جون معنا . . . هذا الطراد كان سيمنعه » .

وقال جاكسون ، « كان فتى صيد . كان يستطيع أن ينافس حتى بادى » .

قال العجوز ، « كان جون ولداً ممتازاً » .

قال جاكسون ، « نعم ياسيدى . ولدا طيبا ذا قلب حار » . قال هنرى إنه لم يكن يأتى قط إلى هنا دون أن يحضر لبادى والأولاد شيئاما صغيراً مما يباع فى المتاجر » .

قال ستيوارت ، « لم يكن يتجهم أبدا فى أثناء الصيد ، مهما كان البرد والمطر ، حتى عندما كان فتى صغيراً . بتلك البندقية ذات الماسورة الوحيدة التى اشتراها بحرمانه ، والتى كانت تدقه بعنف كلما أطلقها . ومع ذلك كان يحملها ويخرج بها ، بدلا من تلك البندقية التى اشتراها له الكولونيل العجوز ، لمجرد أنه اشتراها بنفسه وبماله الذى اقتصده من أجلها » .

قال جاكسون ، « نعم . إذا وقع شخص فى شىء برضاه التام ، فإن عليه أن يمضى فيه بسرور . »

قال مستر ماك كالم ، « كان فتى شداء صياحا . كان يفزع الصيد على مسافة عشرة أميال . ما زلت أذكر تلك الليلة عندما نهض وذهب فى طليعة طراد عبر جسر سامسون ، ولم نعرف بعد ذلك شيئا ، حتى رأيناه هو والثعلب طافيين فوق ماء النهر على قطعة خشب شاردة ، وهو يغنى وقد رفع عقيرته إلى أقصى ما يستطيع .

قال جاكسون ، « ذلك كان جونى . كان يقتنص أقصى ما يستطيع من بهجة من كل شىء يعرض عليه . »

قال مستر ماك كالم مرة أخرى . « كان ولدا عظيما » .

« أنصتوا »

ومرة أخرى تكلمت الكلاب فى الظلام من تحتهم . وحلق الصوت وطفا فى الهواء البارد . ومات فى أصداء كررت الصوت مرة أخرى حتى افتقد بذلك مصدره وضاع ، وحتى الأرض نفسها . وربما تكون أيضا قد

تكلمت ، بوقار وحزن ، وبكل الوحشية التى تفيض من الندم » .

كان قد بقى على عيد الميلاد يومان ، وقد تحلقوا مرة أخرى حول النار بعد العشاء ، ومرة أخرى أغفى جنرال عند قدمى سيده . وغدا ستكون ليلة عيد الميلاد ، وستذهب العربة إلى البلدة ، ورغم ضيافتهم الوقورة التى لا تكل لبايارد ، (فإن كلمة ما لم تقل له عن موعد رحيله) فقد كان يعتقد أنهم مقتنعون فيما بينهم بأن أمر عودته فى الغد إلى بيته للمشاركة فى العيد كان أمراً مفروغا منه ، وحيث إنه لم يعلن هذا بنفسه ، فقد نشأ بينهم جو من حب الاستطلاع والتوقع .

كان الجو باردا ، بصقيع حاد دفع قطع الخشب المشتعلة للقعقعة والتشقق ، منطلقة منها شرارات شريرة ، وقطع جمر صغير سقطت على الأرض لتسحقها حذاء كسولة ، وقد جلس بايارد بينهم وفى عينيه سنة من النوم ، وقد استرخت عضلاته المتعبة فى فيض من موجات الحرارة المتراكمة ، وكأنه فى حمام دافىء ، واسترخى أيضا ـ ومؤقتا ـ قلبه الحرون اليقظان دائما ، غدا فيه من الوقت ما يكفى ليقرر إذا كان سيعود أم لا . ربما يمضى فى البقاء هنا ، دون أن يقدم حتى ذلك التفسير ، الذى لن يطلب منه قط . ثم أدرك أن ريف ، ولى ، أو أيا منهما سيذهب ، ويتحدث إلى الناس ، وسيعرف ذلك الشىء الذى افتقد هو الشجاعة لكى يحدثهم عنه .

وقد خرج بادى من ركنه الظليل ، وقعد على الأرض فى وسط نصف الدائرة وقد وضع ظهره قبلة النـار ، وأحاط ركبتيه بذراعيه ، وظل كذلك ، بتلك القدرة التى لا تنضب فيما يبدو ، على الجلوس على عجزه فى سكون تام دون حركة أوقاتا طويلة . كان طفل الأسرة ، إذ كانت سنه عشرين عاماً . كانت أمه هى زوجة العجوز الثانية . وكانت عيناه العسليتان وشعره الأحمر المقصوص قصيرا حول رأسه المستدير ، كانت تفترق بشكل ملحوظ عن أعين إخوته البنية اللون ـ وشعرهم الأسود . إلا أن العجوز كان قد ترك طبعته على وجه بادى ، بنفس الوضوح الذى فعله

مع أى من الأشقاء الآخرين ، ورغم شبابه فقد كان شبيهاً للآخرين ـ الأنف المحدبة وكان نحيفا وقورا ومتحفظا ، وإن كان أكثر نضرة قليلا بلون شبابه الحدث وراء بشرته .

كانت للآخرين قامات متوسطة أو دون المتوسط ، تتراوح بين قامة جاكسون الهزيلة ، التى تبدو شاحبة غير ذات فاعلية ، عبر استدارة هنرى المستكينة ، وقامة ريف ـ وكان ـ اسمه رافاييل سيمز ـ وعضلية ستيوارت القوية المتزنة ، وبنية لى النحيلة المتوترة الملتهبة ولكن بادى ، وله مثل هزال النبتة الصغيرة كان كفؤاً لذلك الأب الذى كان يحمل سنواته السبع والسبعين فوق جسده وكأنها سترة رقيقة . كان العجوز يقول ، متظاهراً بلومه ، وغد فى نحافة المغزل . جعل من نفسه شبحاً بتدلله على كل هذا الطعام الذى يأكله ، وكانوا يجلسون صامتين ، متطلعين إلى قامة بادى النحيلة وفى نفوسهم نفس الفكرة ، فكرة كان يتصور كل منهم أنها لا تجول إلا بعقله وحده ، ولم يبح بها أحدهم قط ، أن يتزوج بادى يوماً ويخلد اسم الأسرة

كان بادى يحمل أيضاً اسم أبيه ، رغم أنه من المشكوك فيه أن يكون هذا معروفاً خارج الأسرة ووزارة الحرب وقد فر وهو فى السابعة عشرة من عمره وتطوع . وفى معسكر تجميع المشاة فى اركنساس حيث أرسل قال له بجند آخر « يا بنت » ، وقاتله بادى بهدوء ودون غضب لمدة سبع دقائق ، وفى معسكر تجميع الجنديين المسافرين فى نيوجرسى فعل رجل آخر نفس الشىء ، وقاتله بادى أيضاً ، وبهدوء وشمول ودون غضب أيضاً . وفى أوربا ، وتحت إكراه طبيعته العميقة غير المعقدة ، حاول دون قصد ربما ، أن يفعل شيئاً ، أكدت الجهات الرسمية بعد ذلك ، أثره الشديد فى مضايقة العدو ، ومن أجله أيضاً منح تعويذته كما كان يسميها . ماذا كان ذلك الشىء الذى فعله ، لم يستطع أبداً أن يدفع للحديث عنه . أما قطعة المعدن المزخرفة ، فلم تفشل فقط فى تهدئة غضب أبيه لأن واحداً من أبنائه انضم إلى جيش الاتحاد ، بل بالعكس أضافت وقوداً لنار غضبه ، ولذا فقد اختفت اللعبة بين مقتنيات بادى القليلة : ولم يعد

ماضيه العسكرى يذكر قط فى أوســـاط الأسرة ، وقد جلس فيما بينهم ، وظهره قبلة النار وذراعاه حول ركبتيه ، بينما كانوا هم يجلسون حول المدفأة وفى أيديهم كئوس الشراب التى يتناولونها قبل النوم . كانوا يتحدثون عن عيد الميلاد .

كان العجوز يقول باشمئزاز مترفع شديد « ديك رومى ، ولديكم حظيرة مملوءة بالمتماوت ، وقاع واد مملوء بالسنجاب والبط ، وحجرة مملوءة بلحم الخنزير المقدد ، يتحتم عليكم أيها الأولاد الملاعين أن تقطعوا كل هذه المسافة إلى البلدة لتشتروا ديكا روميا لعشاء ليلة عيد الميلاد » .

قال جاكسون مبرراً برقة ، « عيد الميلاد لن يكون عيدا بالنسبة لأى شخص إلا إذا كان لديه ثمة شىء صغير جديد مغاير لكل يوم » .

أجاب العجوز على الفور ، « أنتم أيها الأولاد لا تتحدثون إلا عن مبرر للذهاب إلى البلدة والتسكع فيها اليوم كله ، وتبذير النقود . رأيت من أعياد الميلاد أكثر مما رأيتم . وإذا اشترى الشىء من متجر فلن يكون ذلك عيداً » .

سأل ريف « وماذا عن سكان المدن ؟ أنت لا تدع لهم فرصـــة الاستمتاع بعيد الميلاد على الإطلاق » .

قال العجوز على الفور ، « لا يستحقونها . يعيشون على قطع صغيرة من الأرض قدمين فى أربع ، فى زحام ، وكل منهم لصق باب الآخر الخلفى ، ويأكلون طعاماً محفوظا فى علب معدنية » .

قال ستيوارت ، « افترض أنهم هجروا المدينة ، وجاءوا إلى هنا وأخذوا الأرض ، حينئذ ستسمع بابا وهو يلعن أهل المدينة . لا تستطيع أن تمضى فى حياتك دون أن يكون ثمة مدن يتجمع فيها الناس . بابا ، أنت تعرف هذا » .

قال مستر ماك كالم باشمئزاز وحشى ، « يشترون ديكا روميا . يشترونه .

ما زلت أذكر الزمن حينما كان فى استطاعتى أن آخذ بندقية وأخرج من هذا الباب الذى أمامكم وأحصل على ديك فى ثلاثين دقيقة ، وفخذ غزال فى ساعة فى أغلب الأحيان . أنتم أيها الأولاد لا تعرفون شيئاً عن عيد الميلاد ، كل ما تعرفونه هو نوافذ المتاجر المملوءة بجوز الهند وبنادق الهواء وأمثالها مما يصنعه اليانكى » .

قال ريف ، « نعم يا سيدى » وطرف بعينه إلى بايارد ، « كانت أعظم غلطة اقترفها العالم على الإطلاق ، يوم أن استسلم لى . لم تستطع البلاد أن تفيق من آثارها » .

زفر العجوز ، وقال ، « أكون ملعونا إذا لم أكن قد أنجبت وربيت ألعن وأشطر مجموعة من الأولاد فى العالم . لا أستطيع أن أقول لهم شيئا ، لا أستطيع أن أعلمهم ثمة شيئا . لا أستطيع حتى أن أجلس أمام نار بيتى الملعونة ، دون أن يقولوا لى جميعا الطريقة التى يجب أن تساس بها هذه البلاد الملعونة ، كفى ، أنتم أيها الأولاد هيا إلى فراشكم » .

وفى الصباح التالى ، وعند شروق الشمس ، ذهب جاكسون وريف وستيوارت ولى إلى البلدة فى عربة . ومع ذلك ، فلم يعبر أحدهم عن أية رغبة فى معرفة ما إذا كانوا سيجدونه عند عودتهم مساء ذلك اليوم ، أم أنهم لن يروه مرة أخرى إلا بعد ثلاث سنوات وقد وقف بايارد فى المدخل المغطى بالجليد ، يدخن سيجارة . وكان الجو صقيعا يتدفق بحيوية لحظة شروق الشمس ، وتطلـــع إلى العربة وهى ذاهبة وعليها الأربعة الملتحفون ، وتساءل فى أعماقه إن كان سيراهم مرة أخرى بعد ثلاث سنوات ، أم لن يراهم قط بعد ذلك . جاءت الكلاب وتحلقت من حوله وتشممته ، وأدلى إليها بيده بين أنوفها الثلجية وألسنتها الدافئة اللاعقة متطلعا إلى الأشجار التى جاءت من ورائها غير معروفة مقعقعة العربة على هواء الصباح الصافى الصامت .

قال بادى من ورائه ، « أنت مستعد ؟ » واستدار وأخذ بندقية

كانت مسنودة إلى الجدار . وقد تزاحمت الكلاب من حولهم وتدافعت بهمهمات قلقة وأنفاس تتكاثف فى الهـــواء وقادها بادى إلى حظيرتها وجمعها داخلها ، وأوصد الباب على احتجاجاتها المتعجبة ومن حظيرة أخرى أخرج كلب الصيد الفتى دان وظلت الكلاب ترفع احتجاجاتها المكتومة الرقيقة .

ظلا يصيدان فى الحقول غير الممهدة العارية وعلى حدود الغابات حتى جاءت ساعة الظهيرة وقد تزايد الدفء فى الهواء . كان الصقيع قد ذهب ، وأصبح الهواء دافئا متراخيا بلا رياح ، وقد شهدا مرتين فى أدغال الورد الوحشى طيوراً حمراء تمرق كالسهام وكأنها لهب قرمزية . وأخيراً رفع بايارد عينه دون أن تطرف إلى الشمس .

قال « بادى ، على أن أعود . سأعود أصيل اليوم إلى البيت » .

قال بادى دون احتجاج ، وهو كذلك ، ونادى كلب الصيد ، « عليك أن تعود لزيارتنا فى الشهر القادم » .

أحضرت لهما ماندى طعاما بارداً أكلاه ، وبينما كان بادى يعد بيرى للرحيل دخل بايارد البيت حيث كان هنرى يرتق بجهد شديد حذاء ، والعجوز يقرأ ، بنظارة ذات إطار من الصلب ، جريدة مضى عليها أسبوع .

قال مستر ماك كالم موافقا ، وهو يرفع نظارته ، « أظن أهلك قد أخذوا فى البحث عنك . إلا أننا سننتظرك فى الشهر القادم لتصيد ذلك الثعلب . لن يستطيع جنرال أن يرفع رأسه أمام هذه الجراء إذا لم يصطد الثعلب فى القريب العاجل » .

أجاب بايارد ، « نعم ياسيدى . سأفعل » .

« وحاول أن تقنع جدك بالحضور معك . يستطيع أن يرقد ويستجم هنا ويأكل ما شاء من الطعام الذى لا يقل عما يجده فى البلدة » .

« نعم ياسيدى . سأفعل » .

قاد بادى الفرس خارجا بهـــا ، ومد العجوز يده له دون أن يقف وترك هنرى رتق الحذاء وتبعه إلى مدخل البيت . قال بتردد ، « تعال مرة أخرى » وهز يد بايارد مرة واحدة قوية ، ومن بين حشد الكلاب المتزاحمة المستطلعة التى لم تبلغ أشدها بعد مد بادى يده .

قال باختصار ، « سأظل فى انتظارك » واستدار بايارد ومضى ، وعندما نظر إلى الخلف رفعوا أيديهم بوقار . ثم صاح به بادى فشد لجام بيرى وعاد . كان هنرى قد اختفى ثم عاد حاملا غرارة ثقيلة معقودة بحبل .

قال ، كدت أن أنساها . قدر من خمر الحنطة من أبى إلى جدك . ثم قال بكبرياء متواضعة « لن تجد خيراً منه فى ليوفيل ، ولا فى أى مكان آخر » وشكره بايارد ، وربط بادى الغرارة بمقدمة السرج ، حيث استقرت بجوار ساقه .

« هكذا . لن يصيبها شىء . »

« نعم . لن يصيبها شىء . شكراً جزيلا »

« وداعاً » .

« وداعاً » .

ومضت الفرس بيرى ، ونظر إلى الخلف . كانوا واقفين مكانهم ، صامتين . وقورين راسخين . وبجـــوار باب المطهى . كانت إلن الثعلب جالسة ترقبه متلصصة . وبجوارها تلاعبت الجراء الصغيرة وتدحرجت فى ضوء الشمس . كانت الشمس قد صعدت فوق التلال الغربية . واستدار الطريق متجها إلى الأشجار . نظر إلى الخلف مرة أخرى . وقد استلقى البيت الطويل فى أصيل الشتاء وكان دخانه كريشة

عمودية فى الهواء الساكن . وكان الباب خاليا . ودفع بيرى إلى خطوها الثعلبى السريع الذى لا يتعب منه . وقدر الويسكى يهتز مع الحصان قليلا إزاء ركبته

— ٥ —

حيث يفترق درب ماك كالم المظلم غـــير المطروق عن الطريق الرئيسى مصعدا ، أوقف بيرى وجلس برهة فى غروب الشمس . جيفرسون ١٤ ميلا . مازالت فى الوقت فسحة قبل أن يأتى ريف والأولاد الآخرون على الطريق . والبلدة تحتفل بالعيد . وبتجمعات أهل الإقليم البطيئة البهيجة . ورغم هذا . ربما يكونون قد غادروا البلدة مبكرين . ليصلوا إلى البيت قبل حلول الظلام . ربما لايبتعدون عنه أكثر من ساعة . وقد انحدرت أشعة الشمس . فأطلقت الصقيع الذى اعتقلته فى الأرض خلال ساعات سقوطها العمودية ، وتصاعد الصقيع ببطء من حوله ، وهو يجلس بيرى فى وسط الطريق . وقد هدأ دمه مع توقف حركة بيرى . أدار رأس الحصـان بعيداً عن البلدة . ودفعـه إلى خطواته الثعلبية السريعة مرة أخرى .

سرعان ما أحاط به الظلام . ولـكنه مضى تحت الأشجار العارية من الأوراق فى الطريق الشاحب تحت ضـوء النجوم المتحاشد . كان بيرى يفـكر بالفعل فى الإسطبل والعشاء . ومضى وهو يهز رأسه بين الحين والحين مجربا ومستفهما . ولـكن بخضوع ودون أن يبطىء من سرعته . لم يكن يدرى أين سيذهبان . ولا لماذا ؟ عـــدا أنهما كانا يبتعدان عن البيت . وكان الأمر مريباً إلى حد قليل . ولـكنه لم يفقد ثقته . وقد تزايد البرد فى ظل الصمت والوحدة والرقابة . شد بايارد أعنة بيرى وأوقفه . وفك القدر وشرب ، ثم ربطه من جديد فى السرج .

تصاعدت التلال من حوله موحشة سوداء : فلم يكن ثمة أثر لأى مأوى ، ولم يلتقيا بأثر يدى إنسان ، وفى كل اتجاه ترامت التلال على التلال سواء فى ضوء النجوم ، أو عندما كان ينحسا

الطريق إلى بطون الوديان . حيث كانت الحفر قد أخذت فى التجمد والتماسك لتصبح شقوقا كقطع الصلب : تقعقع تحت سنابك بيرى ، صعدت التلال مخيفة معتمة فوق رأسيهما ، وقد حملت فوق ظهورها أشجارها العارية من الأوراق تحت السماء المزركشة وحيث تقاطر ماء أحد سيول الشتاء عبر الطريق : قعقعت أقدام بيرى فى الثلج الهش وأرخى بايارد الأعنة وتشمم الحصان الماء : وشرب من القدر مرة أخرى .

أمسك عودا من ثقاب بين أصابعه المتعثرة فاقدة الإحساس وأشعل سيجارا ، ودفع كمه من فوق معصمه . الحادية عشرة ونصف . قال « بيرى ، حسنا » وفاض صوته عاليا مفاجئا فى السكون والظلام والبرد « أحسب من الأفضل لنا أن نبحث عن مكان نلجأ إليه حتى الصباح » ورفع بيرى رأسه وزفر ، وكأنه قد أدرك معنى الكلمات ؛ وكأنه سيدخل الوحدة الموحشة التى يتحرك فيها راكبه إذا استطاع . ثم ركب ومضيا .

انتشرت الظلمة من حولهما ، إلا أنها كانت تخف من حين إلى حين ، حيث توجد الحقول تحت نور النجوم الغامض لتحطم رتابة الأشجار ، وبعد وقت قضاه راكبا وتاركا الأعنة على عنق بيرى ويداه فى جيبيه ، باحثاً عن الدفء بين الجلد والفخذين رأى بيتا فى مزرعة قطن بجوار الطريق ، وقد تغطى سقفه بطبقة من الصقيع لامعة كالفضة . قال لنفسه سنصل بعد قليل ؛ وانحنى إلى الأمام ووضع يده على عنق بيرى مستشعرا الدم الدافىء الذى لايصيبه تعب ، وقال « بيرى ، بيت قـــريب ، إذا لم تتلكأ » .

وصهل بيرى بصوت خافت مرة أخرى ، وكأنه قد أدرك ، وهنا انحدر عن الطريق ، وعندما شد بايارد أعنته ، رأى هو أيضا أثر العربة الشاحب على الطريق المؤدى إلى كتلة غير واضحة المعالم من الأشجار . قال وقد أرخى الأعنة مرة أخرى « بيرى ، أيها الولد الطيب » .

كان البيت مجرد كوخ . كان معتما ، ولكن كلما هزيلا جاء من

ورائه ونبح عليه ، وظل يحدث ضجيجه بينما كان بايارد يقيد بيرى إلى الباب ويطرقه بيده فاقدة الإحساس . وقد جاء إليه ، أخيرا من داخل البيت صوت ، وصاح بايارد ، « هالو » ثم أضاف ، « فقدت طريقى . افتح الباب » ظل الكلب ينبح عليه دون أن يصيبه إعياء . وبعد برهة انفتح الباب مقعقعا على وهج جمرات هزيل ، وانبثقت منه رائحة الزنوج العطنة ومن وراء الفتحة الدافئة أطلت رأس .

صاحت الرأس ، « أنت ، جول . اقفل فمك » وتوقف الكلب خاضعا وارتد وراء البيت ، رغم أنه ظل يزمجر بصوت خافت .

« من هناك ؟ »

قال بايارد مرة أخرى ، « فقدت طريقى . هل أستطيع أن أقضى الليلة فى جرنك ؟ »

أجاب الزنجى ، ليس عندى جرن . يوجد بيت آخر على الطريق لا يبعد إلا قليلا » .

قال بايارد ، « سأدفع لك » وبحث فى جيبه عن شىء وقال « حل الإجهاد بحصانى » وتطلعت رأس الزنجى حول الباب ، ومن ورائها شق من وهج النار . قال بايارد وقد عيل صبره « هيا أيها العم . لا تترك رجلا واقفا فى البرد » .

« من أنت أيها الأبيض ؟ »

« بايارد سارتورس ، من جيفرسون . هذه يدى » ومد يده للزنجى . ولكن الزنجى لم يحاول أن يصافحها

« من بيت المصرفى سارتورس ؟ »

« نعم . هيا . »

انتظر دقيقة وانغلق الباب ، ولكن بايارد شد الأعنة جيدا وتجول بيرى مطمئنا ودار حول البيت ومضى بين حطب القطن الذى جففه الصقيع

فطقطق بين حوافره وركبه . وعندما ترجل بايارد على أرض منحدرة متصلبة أمام باب مفتوح ، ظهر فانوس من داخل الكوخ ، وكان يتأرجح على ارتفاع منخفض بين عيدان القطن التى قرصها الصقيع ، وساق الزنجى الظليلتين الشبيهتين بطرفى المقص . وقد جاء الزنجى بلفافة غير واضحة الشكل مضمومة تحت ذراعه وأمسك بالفانوس بينما نزع بايارد السرج واللجام من على الحصان .

سأل الزنجى وقد أخذه حب الاستطلاع « كيف استطعت أيها الرجل الأبيض أن تبتعد هكذا عن بيتك فى عتمة الليل ؟ » .

أجاب بايارد باختصار ، « تهت . أين أستطيع أن أضع حصانى ؟ »

أدار الزنجى الفانوس نحو حظيرة . وتقدم بيرى بحذر فوق عتبة الباب واستدار إلى ضـــوء الفانوس ، وعيناه تدوران وفيهما وهج فوسفورى ، ومضى بايارد وراءه ودلكه بالجانب الجاف من سترة السرج الصوفية . وقد اختفى الزنجى ثم عاد بقبضة صغيرة من سنابل القمح ، ودفعها فى مزود بيرى بجوار أنفه المدسوسة فيه والباحثة بشوق عن الطعام .

سأل الزنجى ، « ستكون حذراً عند إشعال نار أيها الرجل الأبيض ، أليس كذلك ؟ »

« بالتأكيد لن أشعل ثمة ثقابا على الإطلاق هنا » .

«كل ما عندى من ماشية وأدوات وطعام موجود هنا . لا أستطيع أن أحتمل نتائج احتراق كل ما أملك . التأمين لا يصل إلى هذا المكان البعيد من البلدة . »

قال بايارد ، « بالتأكيد » وقفل حظيرة بيرى ، وبينما ظل الزنجى يرقبه ، أخذ الزنجى الغرارة من مكانها بجوار الحائط حيث تركها ، وأخرج منها القدر . « لديك كوب هنا ؟ » اختفى الزنجى مرة أخرى ،

وكان فى استطاعة بايارد أن يرى الفانوس خلال شقوق المزود المثبت فى الحائط المقابل ، ثم ظهر بعلبة معدنية صدئة ، نفخ من داخلها قبضة من التبن فتطايرت . شربا معا . ومن ورائهما كان بيرى يجرش طعامه . وقاده الزنجى إلى السلم الذى يؤدى إلى سطح الجرن .

قال بقلق ، « أنت لن تنسى النار أيها الرجل الأبيض ؟ »

قال بايارد ، « بالتأكيد . سعدت مساء » ووضع يده على السلم ، ولكن الزنجى أوقفه وأعطاه اللفافة ذات الشكل الغامض التى أحضرها معه .

« ليس لدى إلا واحدة أستطيـــع أن أستغنى عنها ولكنها ستفيد إلى حد ما . ستبيت الليلة مقروراً » . وكان غطاء صوفيا ، باليا وقذرا عند مجرد اللمس ، ومشبعا برائحة الزنوج الواضحة .

أجاب بايارد ، « شكراً . أنا مدين لك كثيراً . سعدت مساء »

« سعدت مساء أيها الرجل الأبيض »

وطرف الفانوس بعينه وهو ذاهب ، عبر حركة ساق الزنجى التى تشبه حركة شق مقص ، وصعد بايارد إلى الظلام ، ورائحة التبن الجافة النافذة . هنا ، اصطنع لنفسه عشا من الظلام زحف إليه ، منزلقاً داخل اللحاف الصوفى وقذارته ورائحته جميعاً ودفع يديه المثلجتين داخل قميصه ، لصق صدره المرتعد . وبعد وقت ، وببطء بدأت يداه تستدفئان ، والقر يدغدغهما قليلا ، إلا أن جسمه ظل يرتعد ويتقلص متشنجا من الإعياء والبرد . ومن تحته كان بيرى يجرش فى الظلام بهدوء وسلام ، ضاربا الأرض بقدمه من حين إلى حين ، ورويداً رويدا توقفت تقلصات جسد بايارد المتشنجة . وقبل أن ينام رفع اللحاف عن ذراعه ونظر إلى الميناء المضىء . الساعة الواحدة . لقد حل عيد الميلاد بالفعل .

أيقظته الشمس النافذة إليه فى حزم حمراء خلال شقوق الجدار ، وقد ظل مستلقيا فى فراشه القاسى ، والهواء الثلجى على وجهـــه كماء

مثلج ، وهو لا يدرى مكانه بالضبط ثم تذكر . وإذ تحرك وجد جسده متخشبا من البرد المتراكم ، وقد بدأ دمه فى الجرى فى أطرافه ، وكأنه كريات صغيرة مما يستخدم فى حشو طلقات صيد الطيور . جرجر قدميه من فراشه ذى الرائحة الشديدة ، ولكن قدميه كانتا ميتتين داخل حذائه وظل جالسا وهو يثنى ركبتيه ومفصلى قدميه ويفرطها حتى تيقظت ساقاه وفيهما مثل لدغ الإبر .

كانت حركاته متيبسة ثقيلة ، وهبط السلم ببطء وحذر ونزل إلى الشمس الحمراء التى تساقطت على مدخل الجرن وكأنها دوى أبواق . كانت الشمس اعتلت الأفق ولم تسكد ، هائلة الحجم حمراء ، وكان سطح البيت ، وقوائم الوشائع ، وأدوات الزراعة التى تصدأ حيث ألقيت فى ساحة الجرن ، وأعواد القطن الميتة حيث قام الزنجى بزراعة أرضه حتى باب كوخه الخلفى ، كانت مغطاة كلها بطبقة رقيقة من الصقيع ، الذى لوحته الشمس بلون وردى متلألىء ، وكأنه غلالة سكرية على كعكة حفل كبير . دفع بيرى فمه المستدير من باب الحظيرة وغمغم نحو سيده ، بتحية متكاثفة البخار ، وتحدث إليه بايارد ولمس أنفه الباردة . ثم فك الفرارة وشرب من القدر . وظهر الزنجى بدلو مملوء باللبن على الباب .

قال وقد تعلقت عينه بالقدر ، « هدية عيد الميلاد ، أيها الرجل الأبيض » وأعطاه بايارد جرعة . قال الزنجى ، « شكراً يا سيدى . عليك أن تذهب إلى البيت ، إلى النار ، سأطعم حصانك .. أعد العجوز طعام إفطارك . » والتقط بايارد الغرارة ، وتوقف عند البئر خلف الكوخ وملأ دلوا بالماء الثلجى وبلل وجهه .

وثمة نار كانت تشتعل فى المدفأة المشدوخة ، وسط رماد وأعقاب سيقان الخشب المتفحمة وأوعية الطهو المتناثرة . وأغلق بايارد الباب وراءه على الصقيع المتلألىء بأشعة الشمس ، واحتواه الدفء ورائحة العطن المتراكم العميقة ، وكأنها مخدر . ردت امرأة منحنية على المدفأة تحيته

بخجل . وسكن على الفور ثلاثة أطفال سود فى ركن من الكوخ وتطلعوا إليه يرقبونه بعيون تدور فى محاجرها . كان أحد الأطفال فتاة ، فى ملابس قذرة غير مألوفة مزينة وقد تلوت خصل شعرها الصوفى ، فى عقد متينة من أشرطة القماش الملون القذرة . أما الثانى فقد كان من الجائز أن يكون ذكراً أو أنثى أو أى شىء آخر . وأما الثالث فقد كان شيئا عاجزاً فى ثوب مصنوع من بعض الملابس الصوفية الداخلية للرجال . كان أصغر من أن يمشى ، وكان يحبو على الأرض بنوع من الإصرار غير الهادف ، ومن كل من فتحتى أنفه كان ثمة مجرى لامع يسيل حتى ذقنه ، وكأن بعض القواقع كانت تسير هناك .

وضعت المرأة مقعداً أمام النار وأشارت إليه إشارة غامضة كأنها كانت ترجو بها محو أثر الغرفة السىء عليه . وجلس بايارد عليه ومد قدميه الباردتين نحو النار . سألها ، « هل تناولت كأس عيد الميلاد ، أيتها العمة ؟ »

أجابته من مكان ما خلفه ، « لا يا سيدى . ليس عندى ثمة خمر هذا العام » . وطوح يده بالغرارة نحو المكان الذى جاء منه صوتها .

« اشربى . بها الكثير من الخمر . » وقد قعد الأطفال الثلاثة مستندين إلى الجدار ومضوا يرقبونه بهدوء ، دون أن يحدثوا صوتا أو حركة . سألهم ، « هل حل عيد الميلاد يا أطفال » ولكنهم ظلوا يتطلعون إليه بإصرار حيوانى حذر ، حتى عادت المرأة وتحدثت إليهم فى نغمة ناهرة .

قالت تحرضهم ، « اعرضوا على الرجل الأبيض سانتا كلوز الذى لديكم . » ثم قالت له ، « شكراً لك يا سيدى » ، ووضعت على ركبتيه طبقا من الصاج وفنجانا مشروخا من الصينى على جدار المدفأة عند قدميه . قالت للأطفال مرة أخرى ، « فرجوه أتريدون أن يظن الناس أن سانتا كلوز لا يعرف أين تقيمون ؟ »

وحينئذ تحرك الأطفال ، ومن العتمة وراءهم من حيث خبئوا لعبهم عند دخوله أخرجوا سيارة صغيرة من الصفيح ، وعقداً من الحبات الخشبية الملونة ، ومرآة صغيرة وقضيباً هائلا من حلوى النعناع التصقت به أشياء من القمامة وبدءوا فى لعقها على الفور بهدوء واحداً بعد الآخر . ملأت المرأة الفنجان من إناء القهوة الموضوع بين الجمرات ، ورفعت الغطاء عن مقلاة حديدية والتقطت بشوكة قطعة غليظة من اللحم المقلو ووضعتها فى طبقه ، وأخرجت شيئا رماديا من رماد المدفأة وكسرته نصفين ونفضت عنه الرماد ، ووضعته كذلك فى الطبق . أكل بايارد اللحم والفطيرة وشرب السائل الخفيف الذى لا طعم له . وقد أخذ الأطفال فى اللعب بهدوء بهدايا العيد ، إلا أنه كان يراهم من لحظة إلى أخرى وهم يسترقون إليه النظر ويرقبونه . دخل الرجل بدلو اللبن .

سأل ، « أعطتك العجوز تصبيرة ؟ »

« نعم . ما أقرب بلدة على خط السكة الحديدية ؟ ؟ » وأخبره الزنجى — على بعد ثمانية أميال . « أتستطيع أن تصحبنى إلى هناك صباح اليوم ، وتعيد حصانى إلى مزرعة مستر ماك كالم فى أى يوم من هذا الأسبوع ؟ »

أجاب الزنجى بهدوء ، « زوج شقيقتى استعار بغالى . ليس عندى إلا زوج واحد وقد استعاره » .

« سأدفع لك خمسة دولارات »

وضع الزنجى الدلو على الأرض وجاءت المرأة وأخذته . وحك رأسه ببطء . قال بايارد مرة أخرى ، « خمسة دولارات »

« أنت فى عجلة شديدة من أجل العيد ، أيها الرجل الأبيض » .

قال بايارد وقد عيل صبره ، « عشرة دولارات . ألا تستطيع أن تستعيد بغالك من زوج شقيقتك ؟ »

« أظننى أستطيع . أظنه سيعيدها قبيل الظهيرة . حينئذ تستطيع الذهاب » .

« ولم لا تستطيع أن تحضرها الآن ؟ خذ حصانى واذهب وأحضرها . أريد أن ألحق بقطار » .

« أيها الرجل الأبيض ، أنا لم أحتفل بعد بالعيد . أى رجل يعمل كل يوم طوال العام يحتاج لعيد ميلاد صغير » .

سب بايارد باقتضاب ودون حماسة ، ولكنه قال : « وهو كذلك ، إذن . بعد الغداء بالضبط . ولكن عليك أن تجعل زوج شقيقتك يعيدها فى فسحة من الوقت » .

« ستكون هنا : لا تشغل بهذا الأمر » .

« وهو كذلك . اشرب أنت والعمة من القدر » .

« شكراً ياسيدى » .

وقد خدر حواسه الهواء العطن فى الغرفة المحكمة الغلق ، كان الدفء يترقب الفرصة ليتغلغل فى عظامه المجهدة والمتيبسة بعد ليلته القارصة . كان الزنوج يتحركون فى الغرفة الوحيدة ، المرأة مشغولة أمام المدفأة بشئون طهوها والأطفال السود بلعبهم التعسة زهيدة الثمن وحلواهم القذرة . وقد ظل بايارد جالسا فى مقعده الخشن ، وهكذا قضى ساعات الصباح غافياً ـ لم يكن نائماً ، ولكن الزمن ، كان قد فقد فى إقليم لا يعرف الزمن ، هناك تسكع ، غير يقظان ، وإليه ، وقد أدرك هذا أخيراً ، كان ثمة شىء يحاول أن يقتحم أو ينفذ ، وظل يرقب محاولاته الفاشلة من عزلته التى تفيض بالسلام : صوت . « الغداء جاهز » .

تناول الزنجيان معه الشراب . بود وتحفظ محدود . مفهومان متضادان ، متماديان بحكم الجنس والدم والطبيعة ، وظروف البيئة ، يتصالحان برهة من الزمن ، وينصهران داخل بوتقة من الوهم ـ الجنس البشرى ينسى شهوته

وجبنه وجشعه ، يوماً واحداً . وغمغمت المرأة بحياء . « عيد الميلاد شكراً لك يا سيدى » .

ثم الغداء : متماوت بالبطاطا ، مزيد من كعك الفرن المغطى بالرماد ، السائل الميت بلا طعم فى إناء القهوة ، دستة من الموز وكسر جوز الهند المدببة ، والأطفال يحبون حول قدميه كالحيوانات ، عندما تشم رائحة الطعام . وقد أدرك أخيراً أنهما لا يأكلان وينتظرانه حتى ينتهى ، ولكنه تغلب على مقاومتها وطعموا جميعاً معا ، وأخيراً ، وقد وضع القدر الذى كاد ينضب بين قدميه فى العربة ، نظر مرة واحدة إلى الخلف ، إلى الكوخ ، إلى المرأة الواقفة بالباب ، وسحابة شاحبة ساكنة من الدخان فوق المدخنة ، (ذلك أن البغال كانت قد تمت معجزة إعادتها بوساطة زوج الشقيقة الذى لا وجود له) .

كان السرج يتخبط بأضلاع البغال العجفاء ، وكانت الأجراس المثبتة فيه تدق . كان الهواء دافئاً ، إلا أنه كان مقلداً بقطير من البرد الذى ستزيد منه عتمة المساء . وقد امتد الطريق عبر الأرض البهيجة . ومن وقت إلى آخر ، وعبر الحلفاء المضيئة ، أو من وراء الغابات البنية اللون العارية من الأوراق ، كانت تصل طلقات البنادق ذات الصوت الأجش ، وكانا يمران بين الحين والحين بفصائل من الفرسان ، ومن المشاة ، الذين كانوا يرفعون أيديا مسترخية للزنجى الذى كان محبوسا داخل سترة عسكرية قديمة ، ويلقون نظرات سريعة متلصصة على الرجل الأبيض الجالس بجواره على المقعد . « تحية عيد الميلاد » ! ومن وراء الحلفاء الصفراء والروابى البنية ، كانت التلال الأخيرة مستلقية فى زرقة تحت السماء العميقة المحوطة بالأسرار ، « تحية ... » .

توقفا ، وشربا ، وأعطى بايارد رفيقـــه سيجارة . أصبحت الشمس وراءهما ، بلا سحب ولا رياح . ولا طيور فى الزرقة السماوية الكوبالتيه الحافلة بالصفاء والسكون . « يوم الشتاء قصير . أربعة ميالاً

أخرى « هيا يا بغال ! » ثم قعقعة ألواح طليقة من الخشب فوق ماء في ومضات هامسة بين أشجار صفصاف ساكنة ، محتفظة بإصرار بخضرتها صعد الطريق وقد احمر لونه . ورفعت أشجار الصنوبر رءوسها إلى السماء وكأنها جدران حصون مدينة الحوافي . وتسلقوا هذا ، وانفرط من أمامهم هضبة بقطاعاتها ، من الحلفاء المصقولة ، والحقول المعتمة العارية ، وأرض الغابات بنية اللون ، وبيت من حين إلى آخر ، ثم الأفق الشاحب اللازوردي المتلألئ ، ودخان كذلك في أسفل الأفق « ميلان فقط » ومن ورائهما كانت السماء بالوناً نحاسيا علق في السماء على بعد ساعة . شربا مرة أخرى .

كانت قد لامست الأفق عندما أطلا على الوادي الأخير حيث كانت خطوط السكك الحديدية اللامعة مختفية بين سطوح المنازل والأشجار ، وعلى الهواء ، ومن بعيد ، جاءهما صوت انفجار بطيء ثقيل . قال الزنجي : « ما زالوا يحتفلون »

ومن الشمس هبطوا إلى ظلال بنفسجية . حيث كانت ثمة نوافذ تتلألأ من وراء أكاليل وضفائر من الزهر وأجراس من الورق الملون وعرصات دور تناثرت فيها بقايا مفرقعات نارية . وفي الشوارع كان الأطفال المرتدون صدارات وسترات من ألوان بهيجة يتسابقون على دراجات لامعة ، وزلاقات وعربات . ثم انفجار ثقيل آخر من العتمة البعيدة أمامهما ، ثم خرجا إلى الميدان الذي ساده هدوء السبت ، وقد تناثرت فيه أيضا مزق من الورق . كان الأمر كذلك بالضبط في بلدته ، كان يعرف هذا ، إذ كان الرجال والشباب الذين عرفهم منذ أيام صباه يقضون عيد الميلاد هكذا ، يشربون قليلا ، ويطلقون الألعاب النارية ، ويمنحون قطع النقد المعدنية الصغيرة لصبية الزنوج الذين يصيحون بهم وهم يمرون « هدية العيد ، هدية العيد » وهناك في البيت ، الشجرة في البهو ، وإناء شراب البيرة والبيض أمام نار المدفأة ، وسيمون يدخل غرفتهما معا هو وجوني ، على أطراف أصابعه المتوترة المتعثرة ويحبس أنفاسه وهو واقف

فوق فراشهما ، وهما يتظاهران بالنوم حتى يفيض توتره ، ثم يصرخان فيه معا بصوت كالزئير « هدية العيد » ، الأمر الذى كان يثير فيه الاشمئزاز والألم « حسنا . أنا أعلن إن استطاعوا أن يمسكوا بى مرة أخرى ، ولكن فى ساعات الصباح الأولى يكون فى حالة انتعاش ، وعند ساعة الغداء يكون فى حالة من الثرثرة الأليفة التى لا نجنى منها ثمة فائدة . ومع حلول الليل يكون غير صالح للمعركة » ، والعمة جينى تعصف بالبيت صارخة لاعنة ، أن البيت لن يصبح أبدا بعد ذلك حانة للتافهين من الزنوج ، ما دامت حافظة قوتها . وليعنها الإله جوبيتر على ذلك . وبعد ذلك وبعد الغروب وفى مكان ما رقص ، بأغصان من شجرة عيد الميلاد وشجرة الدابوق ، وعقود الورق الملون ، والبنات اللائى كان يعرفهن دائما بأساورهن الجديدة وساعتهن ومراوحهن وسط الأنوار والموسيقى والضحك المتلألىء .

كانت ثمة جماعة صغيرة تقف عند أحد الأركان ، وإذ مرت العربة يسبقها حفيف مفاجىء . التهب ضوء أصفر فى لحظة الغروب ، وترددت أصداء الانفجار فى موجات متكاسلة بين الجدران الصامتة ، وأسرعت البغال وشدت أطواقها ، وقعقعت العربة على أرض الشارع . وفى عتمة الغروب ، ومن الأبواب المضاءة حيث علقت الأجراس والعقود . نادت الأصوات بإصرار ورقة ، وأجابت أصوات الأطفال معترضة آسفة مترددة ثم المحطة ، حيث كانت تنتظر حافلة وأربع أو خمس سيارات ، ونزل بايارد وأنزل الزنجى الغرارة .

قال بايارد « أشكرك كثيرا .. وداعا » .

« وداعا ، أيها الرجل الأبيض » .

وفى غرفة الانتظار كان موقد يتوهج باحمرار ، وفى أرجائها وقفت جماعات مرحة فى فراء ملساء ومعاطف ؛ ولكنه لم يدخل . أسند الغرارة إلى الجدار ، ومضى يتمشى على الطوارجيئة وذهابا ، محاولا بذلك أن يبعث الدفء فى دمه مرة أخرى .

وعلى امتداد خط السكة الحديدية ، وفى الاتجاهين ، أضاءت الأنوار الخضراء فى العتمة . وفوق الأشجار الغربية وعلى مسافة قبضة كف كانت نجمة المساء كمصباح كهربى فى جدار زجاجى . وتمشى جيئة وذهاباً ، ملقيا نظرات سريعة إلى النوافذ الحمـــراء ، إلى غرفة الانتظار ، حيث كانت الجماعات المرحة فى أرديتها الفرائية ومعاطفها ، تتحدث بحيوية مهرجانية صامتة ، وإلى غرفة الانتظار الملونة ، حيث كان شاغلوهـا جالسين حول الموقد يغمغمون بأناة وصبر تحت ضوء المصباح الضعيف . وعندما استدار هنا تحدث إليه صوت مستحيا من الظلال « هدية العيد يا (ريس) » أخرج قطعة نقود من جيبه دون أن يتوقف . ومرة أخرى انفجرت إحدى الألعاب النارية بشدة من الميدان ، ومن فوق الأشجار ، اندفع صاروخ فى خط منحن ، ثم سكن برهة ثم انفتح كقبضة اليد ناثراً فى صمت أصابعه الذهبية الغائضة على السماء الزرقاء .

ثم وصل القطار وأوقف بهزة عرباته ذات النوافذ المضاءة ، والتقط غرارته مرة أخرى ، ووسط حشد فرح يتصايح بألفاظ الوداع وتهانى العيد ، والرسائل الموجة إلى الغائبين ، ركب القطار ، غير حليق ، وفى حذائه الممزق ، وسراويله الكاكية القذرة ، وسترته القديمة ، المتهدلة ذات اللون الدخانى ، وقبعته اللبادية البشعة . وجـد مكانا خالياً ووضع القدر بين قدميه وجلس .

الجزء الخامس

. . . وحيث إن جوهر الربيع هو الوحشة وشيء من الحزن وإحساس رقيق بالخيبة والضياع ، فإنى أحسب أن روحك تتطهر بدرجة أكثر حدة إذا أضفت إلى هذا توفية للكيل ، شيئا من الحنين إلى الماضى. وعندما أكون فى الوطن أجد نفسى دائما متجولا فى ذكرى أشجار تفاح أو مروج خضراء أو لون البحر فى أماكن أخرى ، ويفيض بى الحزن الكبير لأننى لا أستطيع أن أكون فى كل مكان فى نفس الوقت ، أو لأن كل صنوف الربيع لا تستطيع أن تكون ربيعا واحداً ، كشفاه سيدات بيرون . أما الآن ، فإنه يبدو لى وكأننى قد توحدت وأصبحت مستهدفا لغرض وحيد غاية فى التحدد ، وهذا بالنسبة لى على الأقل شىء جدير بالذكر » . وتوقف قلم هوراس وحلق فى الورقة التى نبج عليها بخطه الذى يتعذر فى الواقع تمييزه ، بينما ترددت أصداء الكلمات التى انتهى من كتابتها ولم يكد ، ترددت وفى أصدائها جرأة محدودة وحزن غريب ، وللحظة قصيرة انفصل عن المكتب والغرفة والحجرة والبلدة وعن كل ما هو حديث غليظ فج دفعته إليه أقداره ، ثم مرة أخرى مضى ذلك الضياع الوحشى الموغل فى الخيال الذى يتميز به - مضى يهوم - دون مقاومة عبر فياف موحشة ، جمع فيها فى آخر الأمر قواه المتصارعة . وقريبا ستزهر الأغصان الغليظة الملتوية كالأسلاك على الشرفة وتتغطى بنقط دقيقة بنفسجية اللون فى حجم رءوس عيدان الثقاب ، ودون أى جهد على الإطلاق ، كان فى استطاعته من مكانه أن يرى المرج المخضوضر تحت أشجار الشربين وقد تناثرت فيه عشوائية تجمعات النرجس مختلطة بالنسرين ونبات المصارع ذو الأوراق المشرعة كالسيوف والرماح . كانت جميعا تنتظر دورها لكى تزهر .

إلا أن جسده ظل خامدا ، وقد اضطجعت يده بالقلم المشلول على الورقة المنبجة . وقد استلقت الورقة على ظهر مكتبه الجديد الأصفر المصقول . كان المقعد الذى جلس عليه جديدا أيضا ، وكذلك كانت

الحجرة بجدرانها البيض الميتة وأثاثها الملون لكى يبدو فى شكل البلوط . كانت الشمس تدخلها النهار بطوله ، غير مخففة بأى أثر من ظل . وفى أيام الربيع المبكرة كانت ممتعة ، إذ كانت تسقط كما تفعل الآن خـــلال النافذة الغربية عبر المكتب حيث تفتحت زهرة ياقوت زعفرانى بيضاء فى زهرية من الفخار القرمزى الغامق المصقول .

ولكنه إذ كان فى مقعده غارقا فى تأملاته ، متطلعا من النافـذة ، حيث كان يرى ، من وراء سقف مغطى بالقار ، يشرب الحرارة وكأنه قطعة من الإسفنج ويشعها أيضا أمام جدار من الآجر ، كان فى استطاعته أن يرى حشدا صغيرا من أشجار السماء الرثة وقد حملت زهورها المتهدلة الخجولة ، فزع لقدوم أيام الصيف الحارة الطويلة ، التى تسقط فيها الشمس على السقف المغطى بالقار الذى يعلو حجرته ، وتذكر مكتبه المعتم الزخم فى بيته ، حيث كان فيما يبدو ثمة نسيم يتحرك دائما ، بصفوفه المرتبة من الكتب ، تلك الكتب التى كانت مغبرة ولم يمسها أحد ، وكانت تبث ـ فيما يبدو ، جوا من الرطوبة والهدوء حتى فى أشد الأيام حرارة ، وعندما جالت أفكاره هناك ، افتقد مرة أخرى من الجلدة القاسية التى جلس فيها جسمه . وتحرك القلم مرة أخرى .

« ربما تكون الصلابة أو القدرة على الاحتمال تقليداً تعسا لشيء له فى نهاية الأمر قيمته ، بالنسبة لهذه الكثرة الكبيرة ممن يقضون حياتهم فى الظلام ، حافرين فى الأرض أو جرة كحيونات الخلد ، أو كالبوم ممن يتخمهم ضوء شمعة ويمرضهم . ولكن ليس بالنسبة لهؤلاء الذين يحملون السلام فى طريقهم ، كما يحمل لهب الشمعة النور . لقد كنت دائما عبدا للكلمة . ولكن يبدو وكأننى أستطيع حتى أن أستعيد لجبنى الذاتى الثقة بالاحتيال عليه قليلا ـ وأنا أجرؤ أن أقول ، إنك لن تستطيعى أن تقرئى هذا ، كالعادة ، أو أنك إذا قرأته ، فلن يعنى ثمة شيء بالنسبة لك . ولكنك ستكونين قد أديت الغرض على أى حال من وجودك ، أنت ياهروس الصمت التى لم يمسها أحـــد حتى الآن ـ ، كنت أكثر

سعادة وأنت فى قفصك . أكثر سعادة ؟ ، وتجولت الأفكار فى رأس هوراس ، وهو يقرأ الكلمات التى كتبها ، والتى غسل فيها كالعادة ، الملابس الداخلية لامرأة في بيت أخرى . وهب على الغرفة فجأة نسيم رقيق ، كان فيه أريج أشجار الخروب شاحب الحلاوة وقد اضطربت الورقة تحت النسيم فى مكانها من المكتب . فنبهته وفجأة ، كرجل يصحو من نومه ، نظر إلى ساعته وأعادها إلى مكانها وكتب بسرعة .

« إننا سعداء بوجود بيل الصغيرة معنا . إنها تحب الحياة هنا ، وتوجد أسرة كاملة من البنات الصغيرات فى البيت المجاور ، درجات سلم مملوءة بالضفائر المزدوجة ، التى تبدو بيل الصغيرة ـ والحق يقال ـ أكثر لمعاناً منهن قليلا ، إنها تشعر بتفوقها عليهن بعض الشىء وهذا حقها بحكم السن الأطفال يجعلون جو البيت مختلفاً كل الاختلاف . من السيء تماما أن السماسرة لم يصل بهم الذكاء إلى الدرجة التى يقدمون بها بيوتا مزودة بالأطفال للإيجار خاصة بطفل يشبه بيل الصغيرة ، إلى أقصى حد وقورة وضاءة وبشكل ما غير معقول محتدمة النضوج ، أنت تعرفين هذا . ولكنك لا تعرفينها جيداً . أليس كذلك ؟ كلانا مسرور بوجودها معنا . أنا أعتقد أن هارى ، ـ وتوقف القلم ، وإن ظل مشرعا ، وبحث عن الكلمات التى قلما راغت منه ، فأدرك وهو يفعل هذا ، أن الإنسان وإن كان فى استطاعته أن يكذب عن الآخرين ببداهة جاهزة ارتجالية ، فإنه لا يستطيع أن يفعل تجاه نفسه إلا بعد روية وباختيار حذر للكلمات ، ثم ألقى نظرة أخرى على ساعته ، وكشط هذه العبارة عن هارى وكتب « أيتها الصفاء . بيل ترسل إليك قبلاتها » وجففها وطواها بسرعة ووضعها فى غلاف وعنونه ولصق عليه طابعا ، ونهض وأخذ قبعته . إذا جرى فسيكون فى استطاعته أن يرسل الخطاب بقطار الرابعة .

— ٢ —

فى يناير تلقت عمة بايارد بطاقة بريدية منه أرسلها من تامبكو ،

وبعد شهر تلقت منه من مدينة مكسيكو برقية يطلب فيها نقوداً . وكانت هذه هى آخر رسالة كتبها ، وقدر معها بقاءه فى مكان محدد مدة تكفى لوصول رسالة إليه رغم أنه كان يشير - بين الحين والحين - فى بطاقات مزركشة إلى المكان الذى كان فيه ، بالأسلوب الموحش الشرس الذى يتميز به . فى أبريل جاءت البطاقة من ريو ، وجاءت إثرها فترة بدا فيها وكأنه قد اختفى من العالم تماما ، وقضتها مس جينى ونارسيسا فى هدوء فى البيت ، وقد تركزت أيامهما برقة حول الطفل المنتظر الذى أسمته مس جينى جون .

أحست مس جينى أن بايارد العجوز قد سخر منهم جميعا ، وارتكب خيانة عظمى فى حق أجداده وفى حق جلال مصير الأسرة بموته ، على حد قولها ، عمليا « بالمقلوب » ، ولذا فلم تكن راضية عنه ، وحيث إن بايارد الصغير كان فى حالة انعدام إلى حد ما ، فقد زاد حديثها رويداً ، رويداً عن جون . وإثر وفاة بايارد العجوز المفاجئة . انكبت فى اندفاع مفاجىء على عملية تنقيب وتعسس وصفتها بأنها عملية التنظيف الشتوية ، ووجدت بين آثار أمه صورة صغيرة لجون رسمها أحد فنانى نيو أورليانز عندما كان جون وبايارد فى الثامنة من عمرهما تقريبا . وتذكرت مس جينى أنه كان هناك صورة لكل منهما وبدا لها وكأنها تتذكر جيداً احتفاظها بهما معا عندما ماتت أمهما . إلا أنها لم تستطع أن تجد الأخرى . ولذا فقد تركت سيمون ليجمع الأشياء المتناثرة التى تركتها وأخذت الصورة الصغيرة إلى الطابق الأسفل حيث كانت نارسيسا جالسة فى المكتب ، ثم أخذتا معا فى فحصها .

. كان الشعر ، حتى فى تلك الفترة المبكرة ذا لون نحاسى غنى ، ومائلا إلى الطول . قالت مس جينى ، « إننى أذكر أول يوم عاد فيه إلى البيت من المدرسة . كانا ملطخين بالدم كخنازير متوحشة ، كلاهما ، من مقاتلة الأولاد !

الآخرين الذين قالوا لهما إنهما يشبهان البنات . نظفتهما أمهما وربتت عليهما ، إلا أنهما كانا مشغولين بالتفاخر أمام سيمون وبايارد بالمذبحة التي أحدثاها ، إلى الدرجة التي لم يهتما معها كثيراً بما تفعله أمهما . ظل جوني يقول « كان عليك أن ترى الآخرين » ، وانفجر بايارد بطبيعة الحال ، وقال « إنه لعار ملعون أن يترك ولد ليخرج إلى الشارع بجدائل الشعر المسترسل على ظهره » ، وأخيراً أكره المرأة المسكينة على الموافقة على الإذن لسيمون بقص شعرهما . » ولكن هل تعرفين ماذا حدث بعد ذلك ؟ لم يسمح أحدهما أن يمس شعره . وبدا وكأنهما لم يضربا بعد عدداً من الصبية ، وكانا قد اعتزما أن يكرها المدرسة بمن فيها على أن تسلم لهما بأن في استطاعتهما أن يدعا شعرهما ينمو حتى كعوب أقدامهما إذا كان ذلك هو ما يريدانه . أنا أحسبهما فعلا هذا ، لأنهما بعد يومين أو ثلاثة عادا إلى البيت دون جراح جديدة ، ثم سمحا لسيمون أن يقصه ، بينما كانت أمهما جالسة في البهو وراء البيانو تبكي . وكانت تلك هي نهاية الأمر طوال مدة بقائهما في المدرسة هنا . أنا لا أدري السبب الذي كان يدفعهما للعراك مع الناس باستمرار بعد أن التحقا بالمدرسة خارج البلدة ، إلا أنهما كانا يجدان دائما مبرراً . ذلك كان السبب الذي اضطررنا من أجله للتفريق بينهما عندما كانا في فيرجينيا وإرسال جوني إلى برينستون . ألقيا الزهر أو شيئا ما من هذا القبيل ليقرروا من منهما يطرد من الجامعة ، هذا ما أتصوره ، وعندما خسر جوني الرهان ، اعتادا أن يلتقيا كل شهر تقريبا في نيويورك . وقد وجدت بعض الخطابات في مكتب بايارد ، وعلمت منهما أن رئيس البوليس في نيويورك قد كتب إلى الأساتذة في برينستون وفرجينيا يطلب منهم ألا يدعوا بايارد وجوني يعودان إلى المدينة مرة أخرى ، وهي خطابات أرسلها الأساتذة إلينا . ومرة اضطر بايارد لدفع ألف وخمسمائة دولار تعويضا عن شيء ارتكباه ضد شرطي أو خادم في مقهى أو شخص ما من هذا القبيل .

ومضت مس جيني تتكلم ، إلا أن نارسيسا لم تكن تنصت . كانت تتفحص الوجه المرسوم فى اللوحة الصغيرة . كان وجه طفل يتطلع إليها ، وكان وجه بايارد أيضا ، ورغم هذا فقد كان فيه بالفعل شيء آخر ليس هو تلك العجرفة المكتئبة التي قدر لها أن تراها فى وجه بايارد ، ولكن شكلا ما من أشكال التلقائية ، الودودة والفورية والسخية ، وقد ظلت نارسيسا قابضة على الصورة البيضاوية الصغيرة فى يدها والعينان الزرقاوان الراسختان تنظران إليها بالمثل بهدوء ، وقد انبث من الوجه كله المحاط بجدائله النحاسية ببشرته الناعمة ، وفمه الطفولى ، انبث منه وأضاء كأنه شعاع دافئ شيء ما حلو ومرح ووحشي ، وأدركت كما لم تفعل قط فى حياتها ، المأساة العمياء التي تفيض من حياة الإنسان . وقد ظلت جالسة فى سكون تام والحلية فى يدها ، وظنتها مس جيني تتطلع إليها ، إلا أنها كانت ترعى الطفل النائم تحت قلبها بكل ما استطاعت تحشيده من طبيعتها المخلصة : كان الأمر وكأنه قد أصبح فى استطاعتها أن تكشف الحجاب عن شكل ذلك المصير المظلم الذى جلبته على نفسها ، كان واقفا بجوار مقعدها ، منتظرا فى سكون حتى تحين ساعته . هتفت هامسة ، « لا ، لا » وكان فى احتجاجها عاطفة جياشة وقد طوقت طفلها بموجة تلو الموجة من تلك القوة التي كانت تفيض من داخلها بغزارة زادت مع تراكم الأيام ، محصنة جدرانها بحامية لا تراها العين . لقد سرت لأن مس جيني أرتها الشيء . لقد تم بذلك تحذيرها كما تحقق أيضا تحصينها .

وقد مضت مس جيني تتحدث عن الطفل وتشير إليه باسم جونى ، وتروى طرفاً من طفولة ذلك الجون الآخر ، حتى أدركت نارسيسا أخيراً أن الاثنين قد اختلطا واشتبكا فى حـــديث مس جيني ، فاكتشفت — بما يشبه الصدفة — أن السن قد تقدمت بمس جيني أيضاً ، وأن قلبها العجوز الذى لايقهر ، قد حل به أيضاً ، آخر الأمر ، التعب . كانت صدمة ، لأنها لم تربط قط بين الشيخوخة ومس جيني ، التي كانت إلى أقصى حد رفيعة ، مشدودة القامة ، محتدمة ، صلبة الرأى لاتهادن ،

ورحيمة ، وكانت ترعى البيت الذى لم يكن بيتها والذى استأنفت حياتها فيه ، بعد أن اجتثت بعنف جذورها من ذلك المكان البعيد ، حيث كانت العادات والأساليب ، وحتى الطقس نفسه شيئا مخالفا وقد أدارته بكفاءة لاتجهد ، وبمعونة زنجى عجوز متلكئ لا يتحمل من المسئولية أكثر مما يفعل طفل .

وقد ثابرت على إدارة شئون البيت وكأن بايارد العجوز وبايارد الصغير كانا فيه . ولكن عندما كان الليل يحل ، وتجلسان للتدفئة بالنار فى المكتب ، وكان العام قد أخذ ينصرم ، والهواء ينساب مرة أخرى مثقلا بأريج الخروب وشدو الببغاوات ، وبكل شقاوات الربيع مجددة . وأخيراً سلمت حتى مس جينى بأنهما لم تعودا فى حاجة للنار ـ عندما كانت تتكلم فى تلك الأوقات ، لاحظت نارسيسا أنها لم تعد تتحدث عن أيام صبوتها البعيدة ولا عن حب ستيوارت بوشاحه القرمـــزى وحصانه المتوج بأكاليل الغار وماندولينه ، ولكن عن زمن لا يمضى أبعد من طفولة بايارد وجون .

كأن حياتها كانت فى طريقها إلى النهاية . لا باتجاهها إلى المستقبل ، ولكن إلى أعماق الماضى وكأنها لفة خيط يعاد طيها .

وقد كانت نارسيسا تجلس فى صفائها وراء أسوار حذرها الحصينة ، منصتة ، ومعجبة أكثر مما فعلت فى أى لحظة أخرى بتلك الروح التى لاتقهر ، والتى ولدت فى صحبة جسد امرأة وألقيت إلى سلالة من الرجال المتهورين الطائشين وفيما يبدو من أجل تحقيق غرض أوحد هو رعاية هؤلاء الناس حتى يصلوا إلى مصارعهم المبكرة المروعة ، فى مرحلة من مراحل التاريخ شهدت الأشقاء والزوج وهم يذبحون بنفس عشوائية الصدفة العمياء عديمة الجدوى التى تقرر مصائر الناس ، وقد رأت وكأنها تحت كابوس لا تلتئم جراحه باليقظة أو النوم ، جذور حياتها وقد انتزعت من التربة حيث كان أجدادها القدامى يضطجعون واثقين فى خير الإنسان

وعدالته - مرحلة كان الرجال فيها أنفسهم رغم اندفاعهم المتهور المترفع فى ازدراء ، يصيبهم الخور لو أن الأدوار التى كان عليهم أن يؤدوها كانت أدواراً سلبية وكانت مصائرهم فى انتظارهم . جال بخاطرها مدى تفوق تلك الشهامة فى النبل والتضحية - وهى الشهامة التى لم ترم بحد مسنون عدواً ماكان السيف يستطيع أن يجد طريقاً له ، ذلك الإصرار غير الشاكى لهؤلاء النسوة اللاتى لم ترتل فى مديحهن الأناشيد (نعم ، ولم تذرف عليهن الدموع) - على ضجيج الرجال الساحر وبريقهم الذى لاجدوى منه - هذا الضجيج وذلك البريق اللذان استطاعا أن يخفيا شهامة هؤلاء النسوة » والآن ، إنها تحاول أن تجعل منى واحدة منهن ، أن تجعل من طفلى صاروخا آخر يتوهج برهة ، فى السماء ثم يموت » .

ولكنها عادت إلى صفاتها مرة أخرى وتركزت أيامها رويداً رويداً مع اقتراب موعد الوضع وأصبح صوت مس جينى مجرد صوت ، معز ومسل ولكن دون معنى ، وكانت تتلقى فى كل أسبوع من هوراس رسالة هوائية المزاج تصطنع المرح ببسالة ، وهذه أيضاً كانت تقرؤها بهدوء ودون عاطفة - أى كانت تقرأ ما تستطيع أن تفك رموزه . كانت تجد دائما صعوبة فى قراءة خط هوراس ، وما كانت الأجزاء التى لا تستطيع أن تحل رموزها تعنى شيئا بالنسبة لها إلا أنها كانت تعرف أنه كان يتوقع منها هذا .

ثم أصبحت الأيام ربيعا فعلا . بدأت مشاحنات مس جينى وإيزوم الموسمية التى تحتدم كل ربيع ومضت فى سبيلها عنيفة غير ضارة فى الحديقة تحت نافذتها . أخرجا أبصال الزنبق من القبو وغرساها فى الأرض ، بمعاونة نارسيسا ، وسويا الأحواض الأخرى ، وقلبا أشجار الورد ، وشتل الياسمين . وكانت نارسيسا تذهب راكبة إلى البلدة ورأت طلائع زهور النسرين التى تفتحت على المرج المهجور ، وكأنها هى وهوراس مازالا يقيمان هنــــاك ، وأرسلت إلى هوراس صندوقا منها ، ثم بعد ذلك ، من زهور النرجس . ولكن عندما ازهرت الجلاديولا

كانت قد انقطعت عن الخروج عدا فى ساعات الأصيل المتأخرة أو المساء المبكرة ، عندما كانت تتمشى مع مس جينى فى الحديقة بين البراعم المتفتحة والببغاوات الصادحة ، وطيور السمان المتكاسلة فى طرقات عتمة فى ساعات الغسق الطويلة المترددة ، وما زالت مس جينى تتحدث عن جونى خالطة بين ذلك الذى لم يولد بعد وذلك الذى مات .

تلقوا فى أيام يونية المبكرة طلبا بالمال من بايارد حيث كان فى سان‌فرنسيسكو ، وحيث تمكن فى النهاية من النجاح فى إعطاء الفرصة لمن يسرق أمتعته . أرسلت مس جينى إليه النقود ، وأبرقت إليه . عليك أن تعود إلى البيت ، دون أن تقول لنارسيسا ، ثم قالت لها ، « سيعود الآن ، سترين أنه سيفعل إن لم يكن لأى غرض فليقض مضاجعنا فترة .

ولكن مضى أسبوع ولم يعد ، وأبرقت مس جينى إليه مرة أخرى ، برسالة ليلية ولكنه كان فى شيكاغو لحظة إرسال البرقية ، وعندما وصلت سان فرنسيسكو كان جالسا فى ملهى على أنغام السكسفون بين فتيات مدهونات بالطلاء وأزواج فى أواسط العمر ، إلى مائدة تناثرت عليها الأكواب الملوثة ، وتلطخت برماد السجاير والخمر المنسكب ، كان فى صحبته رجلان وفتاة . كان أحد الرجال مرتديا ثوبا عسكريا ، وعلى صدره شارة الطيران الحربى ، أما الآخر فقد كان رجلا ربعا فى ثوب فضفاض من الصوف الخشن ، شائب الفودين ، بعينين خاليتين تبحثان عن رؤى وهمية . كانت الفتاة شيئا نحيلا طويلا ، أغلبها فيما يبدو سيقان ، بفم جرىء محمر وعينين باردتين وكانت ترتدى ثوب رقص شديد الأناقة ، وعندما عبر الرجلان الغرفة وتحدثا إلى بايارد ، كانت تحاول إغراءه على الشراب بإصرار لم تستطع كتمه إلا بصعوبة . وقد أخذت بعد ذلك فى الرقص مع الطيار ، وكانت تنظر من فينة إلى أخرى إلى بايارد الذى أخذ فى تناول الشراب بروية وهدوء ، بينما كان الرجل رث الملابس يتحدث إليه . كانت تقول ، « أنا خائفة منه » .

كان الرجل رث الملابس يتحدث بانفعال ملجم ، متخذا من منشفتى

يد مطبقتين على امتداد طولها على هيئة شريطين رفيعين أراد أن يمثل بهما شيئا . كان صوته أجش مبحوحاً ، وسط ضجيج الأبواق والطبول الذى لا معنى له . وقد أنصت بايارد قليلا ، وهو يتفرس فى الرجل بعينين باردتين ، ثم أخذ بعد ذلك فى التطلع عبر الغرفة إلى شىء أو شخص ما ، تاركاً الرجل يتكلم دون أى اهتمام . كان يشرب من الويسكى والصودا بانتظام ، والزجاجة بجواره . وكانت يداه راسختين إلى حد ما ، ولكن وجهه كان فى شحوب الموتى ، وكان مخموراً تماما ، وكانت الفتاة تقول لرفيقها وهى تنظر إلى بايارد من لحظة إلى أخرى .

« اسمع ، أنا خائفة منه . يا إلهى ، لم أكن أعرف ما أصنع ، عندما جئت إلى أنت وصديقك . عدنى ألا تذهب وتدعنا وحدنا » .

قال الطيار فى لهجة ساخرة ، « أنت خائفة ؟ » ، ولكنه أدار رأسه ، أيضا وتطلع إلى وجه بايارد الشاحب الأبى ، وقال « أراهن ، لن تحتاجى حتى إلى حصان » .

قالت الفتاة « أنت لا تعرفه » وقبضت على يده ، وضغطت بجسدها المرتعد جسده ، ورغم أن ذراعه قد احتضنها بشدة ، وانزلقت يده على ظهرها إلى أسفل قليلا فقد قال لها عندما اختفيا داخل حشد الراقصين المتماوج الذى احتبسا داخله ، قال لها باحتراس محدود ، وبسرعة :

« هونى عليك يا أختى ، إنه ينظر فى هذه الاتجاه . رأيته يحطم سنتين من فم ضابط أسترالى حاول فقط أن يتحدث إلى فتاة كانت فى صحبته فى حانة فى لندن منذ عامين ، وتحركا معا حتى أصبحت الفرقة العازفة على الناحية الأخرى منهما .

« ما الذى يدعوك للفزع ؟ إنه ليس هنديا أحمر ، لن يؤذيك طالما أنك تقدرين أين تضعين قدمك . إنه على ما يرام . وقد عرفته منذ مدة طويلة ، وفى أماكن يتحتم على الرجل فيها أن يكون مهذبا ، صدقينى » .

قالت مرة أخرى ، أنت لا تعرف ، أنا ـ ،

صعد ضجيج الموسيقى ثم انهار وصمت ، وفى السكون المفاجىء صعد صوت الرجل رث الثياب من المائدة المجاورة ، « ـ استطعت فقط أن أقنع أحد هؤلاء الطيارين الجبناء اللاعين على ـ ،

ثم غرق صوته مرة أخرى فى مد الضوضاء ، أصوات سـكرى ، وضحك نسوى رفيع ، وأصوات جر المقاعد ، وعندما اقتربا من المائدة كان الرجل رث الملابس ماضيا فى حديثه بإشارات لحوحة ملحمة ، بينما ظل بايارد يتطلع عبر الغرفة ، إلى ذلك الشىء ، أيا كان ، الذى يرقبه وهو يرفع الكأس بثبات إلى شفتيه وشدت الفتاة على ذراع رفيقها .

قالت وهى تتوسل إليه فى ألفاظ سريعة ، « عليك أن تساعدنى على أن أتخلى عنه . أنا قلت لك ، أنا خائفة من الخروج معه وحده » .

« تتخلين عن سارتوس ؟ أليس الرجل حيوانا كثيف الشعر ، ولا المرأة أيضا عودى إلى روضة الأطفال يا أختى . » ثم أخذ بصدق الفتاة العميق فسألها « قولى ، ماذا فعل بك على أى حال ؟ » .

« لا أدرى . سيفعل أى شىء . رمى شرطى المرور ونحن قادمان إلى هنا بزجاجة فارغة . عليك أن » .

قال آمرا ، « كفى » وتوقف الرجل ذو الثياب الرثة عن الكلام ورفع ناظريه وقد عيل صبره . وكان بايارد يتطلع بثبات عبر الغرفة .

قال وهو يتكلم ببطء وعناية ، « صهرى جالس هناك . لا أحدث أحداً من الأسرة . مغيظ منا إلى درجة الجنون ، أخذوا منه زوجته »

سأل الطيار ، « أين ؟ » وأشار إلى جرسون ، « جاك ، تعال » .

قال بايارد ، « الرجل ذو الماسة المثبتة فى ربطة عنقه . رجل شجاع

لا أستطيع أن أتحدث إليه مع ذلك . ربما يضربني . معه صديقه على كل حال ،

نظر الطيار مرة أخرى وقال ، « يبدو أن معه جـــدته . ونادى الجرسون مرة أخرى ، ثم قال للفتاة ، كوكتيل آخر ؟ ثم أخذ الزجاجة وملأ كأسه . وكأس بايارد ، واتجه إلى الرجل رث الثياب ، أين كاسك ؟

أزاحها الرجل جانبا وقد عيل صبره ، وقال : وهو يلتقط مناشف اليد مرة أخرى ، « اسمع ، تتزايد مساحة سطح الأجنحة بنسبة تزايد ضغط الهواء ، يرفع السرعة إلى نقطة معينة ، فاهم ؟ . والآن ، كل ما أريد أن أعرفه هو » .

قال الطيار مقاطعا ، « اسمع يا زميلي ، ارو لنا قصة أخرى أكثر جدية . سمعت منذ عامين أن لديهم طائرة .. جرسون ، تعالى هنا ، كان بايارد يرقب الرجل ذا الملابس الرثة ببرود .

قالت الفتاة ، « أنت كففت عن الشراب » . ولمست الطيار من تحت المـــائدة .

قال بايارد ، « نعم . موناجان لم لا تطير نعشه له ؟ » .

وضع الطيار كأسه على المائدة وقال ، « أنا ؟ بحق جهنم ، أجازتي تحل في الشهر القادم » ورفع كأسه وقال « وهذه ختامنا . ولنشربهـا حتى الثمالة » .

قال بايارد موافقا ، « نعم » ولم يلمس كأسه . كان وجهه شاحبا متيبسا ، فقد أصبح قناعا معدنيا مرة أخرى .

قال الرجل رث الملابس بحماسة ، « اسمعني ، لا يوجد ثمة خطر على الإطلاق ، طالما احتفظت بالسرعة تحت نقطة معينة سأحددها لك . لقد اختبرت الأجنحة بتعليق أثقال عليها ، وتحققت من قوة الدفع من أسفل إلى أعلى ، وراجعت كل الأرقام ، كل ما عليك أن تفعله ... » .

قالت الفتاة بإصرار ، « ألا تشترك معنا فى الشراب ؟ » .

قال الطيار ، « بالتأكيد سيفعل . قل لى ، هل تتذكر تلك الليلة فى أميينز ، عندما حطم ذلك الشيطان الأيرلندى الضخم كومين الناقوس الزجاجى بإطلاق صفارته بجوار الباب ؟ جلس الرجل الأشعث وهو يسوى المنشفة المطبقة على المائدة ، ثم انفجر مرة أخرى ، وكان صوته مبحوحا أجش مجنونا ، بما يعانيه من خيبة شديدة .

« لقد كددت وكدحت ، واستدنت وتسولت ، والآن عندما انتهيت من صنع الآلة وجاء مفتش الحكومة ، لا أستطيع أن أقوم بتجربة ، لأنكم ، أنتم أيها الطيارون الجبناء ترفضون التحليق بها . السلاح مملوء بأمثالكم ، تأخذون رواتب الطيارين من أجل الجلوس على أسطح الفنادق تشربون الخمر . أنتم ياطيارو وراء البحار تتحـــدثون عن بطولاتكم . لا عجب إن كان الألمان ... »

قال له بايارد دون حماسة وبصوته البارد الحذر . « أسكت » .

قالت الفتاة مرة أخرى ، « أنت لا تشرب ، هيا » وأخذت الكأس ولمست به شفتيها ، ثم قدمتها إليه . وأخذها ، وأمسك بيدها أيضا ، وظل قابضا عليها كذلك ، إلا أنه كان يتطلع بعيدا عبر الغرفة .

قال ، ليس « شقيق الزوجة ، إنه الزوج الرسمى . لا ، الزوج الرسمى لشقيق الزوجة . الزوجة كانت حبيبة شقيق الزوجة . تزوجا الآن امرأة سمينة إنه رجل محفوظ » .

سأله الطيار ، « عم تتكلم هيا ، فلنأخذ كأسا » .

ومالت الفتاة مبتعدة عنه بقدر ما سمحت لها ذراعها . وبيدها الأخرى رفعت كأسها وابتسمت له بدلال مقتضب يفيض بالفزع ، وقد قبض على رسغها بأصابعه القاسية ، وبينما كانت تحملق فيه بعينيها الواسعتين أخـذ

فى جذبها ببطء نحوه قالت هامسة ، « دعنى . لا تفعل » ووضعت كأسها على المائدة ، وحاولت بيدها الأخرى تخليص رسغها من قبضته .

كان الرجل غارقا فى تأملاته حـــول منشفاته المطيعة ، وكان الطيار مشغولا بعناية بكأسه همست مرة أخرى ، « لا تفعـــل .» وقد تلوى جسدها فى مقعدها ، واستندت بسرعة على يدها الأخرى حتى لا يجرجرها من مكانها ، وظلا يحملقان فى بعضهما البعض لحظة ـ هى وفى عينيها رعب صامت هائل ، وهو بكآبة ، من وراء قناعه الثلجى . ثم أطلقها ودفع مقعده للخلف .

قال للرجل الأشعث ، « أنت هيا » وأخرج حزمة من الأوراق المالية من جيبه . ووضع أحدها أمامها على المائدة ، وقال هـــذه أجر عودتك إلى بيتك . ولكنها كانت جالسة تعالج الرسغ الذى كان قابضا عليه ، وترقبه بسكون . أما الطيار فقد كان مشغولا بمكر بقاع كأسه قال بايارد للرجل الأشعث ، « هيا » ووقف الآخر ، ومضى فى أثره .

وفى ركن صغير ، كان هارى متشل جالسا ، وعلى مائدته أيضاً زجاجات وكئوس ، وقد جلس مسترخيا فى مقعده ، وعيناه مغمضتان ، ورأسه الصلعاء وردية بما عليها من عرق ، فى وهج مصباح كهربى . كانت بجواره امرأة استدارت وتطلعت إلى بايارد وفى عينيها يأس مشتعل وقد وقف من حولهما نادل له رأس تشبه رأس قس . وقد لحظ بايارد وهو مار بهم اختفاء ماسة ربطة عنق هارى ، وسمع أصواتهم المريرة المكتومة ، إذ كانت أيديهم تتعارك على المائدة حول شىء مختف وراء ستار جسميهما . وعندما وصل هو وصاحبه إلى باب الخروج ارتفع صوت المرأة بفيض من الألفاظ القذرة ، واستغاثة هستيرية حادة كتمت فجأة بسرعة ، وكأن شخصا أطبق بيده على فمها .

وفى الغد ، ذهبت مس جينى فى عربتها إلى البلدة ، وأبرقت إليه مرة أخرى . ولكن بايارد كان فى لحظة إرسال البرقية ـ جالسا فى مقعد

طائرة على ممر الطيران فى مطار الحكومة فى دايتون ، بينما كان الرجل الأشعث يتحلق ويندفع كالمحموم هنا وهناك .

وكان عدد من طيارى الجيش واقفين بالقرب منه ، صامتين ولا يعنيهم الأمر . كانت الطائرة تبدو شبيهة بأى طائرة أخرى ذات جناحين ، عدا اختفاء جميع القضبان الموصلة بين الجناحين ، اللذين كانا مثبتين من الداخل بشبكة من الأسلاك تستند إلى مجموعة من الزنبركات ولذا فإن فعالية سطوح الأجنحة كانت ذات قيمة سلبية وهى ساكنة على الأرض كانت النظرية هى التخلص عند الطيران الأفقى من أثر سطوح الجناحين المعطل فى سبيل زيادة السرعة ، وعند الميل بالطائرة على أحد جنبيها ، فإن الضغط الجانبى يرفع فعالية الجناحين بطريقة آلية ، فيزيد من قدرة الطائرة على المناورة ، وكانت غرفة القيادة قريبة من الدفة .

قال الرجل الذى أعاره الخوذة وعوينات القيادة ، ببرود ، وهكذا فأنت تستطيع أن ترى الجناحين عندما يتقوسان . إنهما زوج قديم من الأجنحة . ، وألقى بايارد عليه نظرة باردة مكتئبة . قال الآخر ، « سارتوريس اسمع دع هذا القفص وشأنه . هذه العجائب من الرجال تأتى هنا كل أسبوع ، بشىء يحدث ثورة فى عالم الطيران ، بنوع جديد من مصايد الرجال يطير بشكل رائع - على الورق . إذا كانت السلطات الرسمية ترفض أن تقوم له طيارا وأنت تعرف أننا نجرب هنا كل شىء يحمل محركا فإن فى استطاعتك أن تراهن على أنها قامة ،

ولكن بايارد أخذ الخوذة والعوينات ومضى نحو حظيرة الطائرات . ومضت الجماعة فى إثره ووقفوا متحلقين حوله بسكون ، بوجوههم الشاحبة التى لفحتها الرياح ، بينما بدأ المحرك فى الدوران لترتفع درجة حرارته . وإذ صعد بايارد إلى مكانه فى الطائرة وثبت عويناته ، تقدم منه الرجل الذى أعارها له ، ووضع شيئا فى حجره ، وقال بحدة ، « اسمع خذ هذا معك » . كان الشىء رباط جورب امرأة ، والتقطه بايارد وأعاده إليه »

قال ، « لن أحتاج إليه . شكرا على كل حال

« حسنا . أنت أدرى بشئونك . ولكن إذا سمحت لها أن توجه أنفها إلى أسفل فستفقد كل شيء عدا العجلات » .

قال بايارد « أعرف هذا . سأحتفظ بها معتدلة الاتجاه » واندفع الرجل الأشعث مرة أخرى ، وهو ماض فى الكلام ، قال بايارد وقد عيل صبره ، « نعم ، نعم . قلت لى هذا كله من قبل . أطلقها » . أدار ميكانيكى المروحة ، وإذ تحركت الآلة صوب وسط المطار ، ظل الرجل الأشعث متعلقاً بغرفة القيادة وهو يصيح براكبها ، وسرعان ما اضطر لأن يجرى حتى يلحق بها وظل يصيح أيضا . رفع بايارد يده وفتح خناق الوقود . عندما وصل إلى نهاية المطار واستدار ليواجه الريح ، كان الرجل يجرى متجها إليه وهو يلوح بيديه . وهنا فتح بايارد الخناق إلى نهايته ، واندفعت الطائرة إلى الأمام ، وعندما عبر الرجل الواقف وسط المطار ، كان الذيل مرتفعا عن الأرض ، والطائرة مندفعة إلى الأمام فى قفزات طويلة ، ولمح يدى الرجل الملوحتين بجنون وفمه الفاغر عندما توقفت الطائرة عن قفزاتها .

تمايل كل جناح وتلوى من نقطة ارتكازه على جسم الطائرة حتى طرفه ، وقاد الشيء بمهارة ليرتفع به عن الأرض . أدرك أنه يوجد ثمة حد إذا تعداه أفقدته سرعته قوة السطوح الرافعة . كان على ارتفاع ألفى قدم تقريبا ، واستدار ، وإذ فعل وجد أن ضغط الجناحين قد قضى تماما على قوة رفع قلب الطائرة ، وضاعف قوة الرفع الخارجية ، ووجد نفسه فى أبشع انزلاقة رآها منذ أيامه مع الألمان . لم تنزلق الطائرة فقط منحدرة ، بل قذفت ذيلها إلى أعلى وكأنها حوت غاطس ، وقفز عداد السرعة ثلاثين ميلا فوق الحد الذى حدده المخترع كان يتجه بانحدار خفيف نحو المطار ، وشد عصا القيادة إلى الخلف .

انثنى طرفا الجناحين بحدة فدفع العصا إلى الأمام فى اللحظة التى كاد فيها الجناحان أن ينفصلا عن الطائرة ، وأيقن فى تلك اللحظة أن الشيء

الوحيد الذي حماه من السقوط كمظلة مقلوبة هو سرعة انقضاض الطائرة . وكانت السرعة تتزايد وسرعان ما مرق بالمطار ، وهو على ارتفاع ألف قدم . جذب العصا إلى الخلف مرة أخرى ؛ ومرة أخرى التوى طرفا الجناحين ، ثم دفعها إلى الأمام ، واندفع مرة أخرى فى انزلاقة وحشية ليخفض من سرعة الطائرة ، ومرة أخرى طوحت الطائرة ذيلها إلى أعلى فى منحنى مصعد ؛ ولكن الجناحين انفصلا عن الطائرة هذه المرة ، وخفض رأسه بطريقة آلية عندما اندفع أحدهما نحوه بوحشية ليصطدم بعد ذلك بالذيل ، ويفصله أيضا .

— ٣ —

فى ذلك اليوم ولد طفل نارسيسا ، وفى اليوم التالى أخذ سيمون مس جيني فى العربة إلى البلدة وأوصلها إلى مكتب الإبراق . وقفت الخيل ، وهى تعض ألجمتها وترمى برءوسها إلى أعلى ، متوثبة بجرأة ، بعد أن شد أعنتها قليلا وبشكل غير محسوس . بينما حاول سيمون بشكل ما أن يأخذ جلسة متعجرفة وهو يرتدى معطفه الفضفاض وقبعته العالية ، وهكذا وجده دكتور بيبودى إذ كان قادما فى الشارع تحت أشعة الشمس فى سترته التيلية المتهدلة . وكان يحمل صحيفة فى يده .

قال ، « سيمون ، أنت تبدو كضفدعة . أين مس جيني ؟ » .

قال سيمون مؤيدا ، « نعم سيدى ، نعم سيدى . إنه وقت الفرح والسرور . لقد وصل السيد الصغير . نعم سيدى وصل السيد الصغير وستعود الأيام الماضية » .

قال دكتور بيبودى ، وقد فقد صبره ، « أين مس جيني ؟ »

« إنها فى الداخل هناك ، ترسل برقية إلى ذلك الولد ليعود إلى حيث ينتمى » استدار دكتور بيبودى وابتعد فظل سيمون يرقبه ، وقد أزعجه قليلا عدم انفعاله بالأحداث التى رواها له . قال سيمون ، بصوت عال ،

وهو يفكر « تلقاها وكأنها هراء » وفى ألفاظه شعور بالاستخفاف والضيق « سنحي الأيام العتيقة كلها . نعم سيدى ، الأيام العتيقة تعود مرة أخرى ، بالتأكيد . كما كان فى أيام السيد جون ، عندما كان الكولونيل هو السيد الشاب ، والزنوج من أكواخهم ، يتجمعون على المرج الأمامى ، وهم يلهجون بالدعاء للسيدة والسيد الصغير » وراقب دكتور بيبودى وهو يدخل من الباب ، ورآه من صفحته الزجاجية وهو يقترب من مس جينى ، إذ كانت واقفة أمام النضد برسالتها .

قالت الرسالة التى تحمل خطها الحازم الواضح ، « عد أيها الأحمق إلى البيت لترى أسرتك ، وإلا فسآمر بالقبض عليك » ، قالت للعامل ، إنها أكثر من عشرة كلمات . ولكن لا أهمية لهذا هذه المرة . سيعود الآن وسترى . وإلا فسأرسل المأمور ليتعقبه ، بالتأكيد سأفعل هذا ، بقدر يقينى أن اسمه سارتورس . »

قال العامل ، « نعم ياسيدتى » كان فيما يبدو يلقى صعوبة فى قراءتها ورفع رأسه بعد برهة وأوشك على الكلام ، عندما لاحظت مس جينى شروده وأعادت نص برقيتها بحدة .

وقالت ، « واجعلها أشد عنفا من هذا إذا أردت » .

قال مرة أخرى ، « نعم ياسيدتى » . وأخفى رأسه وراء النضد ، وهنا وبقلق محدود ولكنه متزايد وصبر نافد مالت مس جينى عبر النضد بدولار فضى فى يدها . وأخذت ترقبه وهو يعد الكلمات ، ثلاث مرات وهو فى حيرة مؤلمة .

سألته ، « أيها الفتى ، ماذا هناك ؟ الحكومة لاتحرم ذكر اسم طفل عمره يوم فى برقية أليس كذلك ؟ » .

رفع العامل رأسه وقال أخيرا ، « نعم ياسيدتى ، ليس فى ذلك شىء » ، وأعطته الدولار ، وإذ ظل جالسا والدلار فى يده ، ومس جينى

ترقبه بمزيد من الضيق ، جاء دكتور بيبودى ولمس ذراعها .

قال ، « جينى ـ هيا بنا » .

قالت وهى تستدير عندما سمعت صوته « صباح الخير . وقت مناسب تقوم فيه بواجبك . هذا أول سارتورس تتأخر يوما كاملا عن رؤيته فى كل هذه السنوات الطويلة ، أليس كذلك ؟ وبمجرد أن أعيد هذا الولد الأحمق إلى البيت ، سيكون الأمر كما كان فى الأيام الماضية ، كما يقول سيمون » .

« نعم » سيمون قال لى هيا بنا .

قالت وهى تستدير إلى النضد ، « دعنى آخذ باقى نقودى » وكان العامل واقفا مكانه بالرسالة فى يد وقطعة النقود فى اليد الأخرى ، قالت له ، « حسنا أيها الشاب ألا يكفى دولار واحد ؟ » .

قال مكرراً « نعم يا سيدتى » وحول عينيه الملجمتين الشاردتين إلى دكتور بيبودى . وتقدم دكتور بيبودى بجسمه الثقيل وأخذ منه الرسالة وقطعة النقود .

قال مرة أخرى ، « جينى هيا بنا » ، ظلت واقفة مكانها برهة فى جمود تام وهى فى ثوبها الحريرى الأسود وقبعتها السوداء فوق رأسها معتدلة ، وظلت تحملق فيه بعينيها النفاذتين العجوزتين ، اللتين رأتا الكثير جدا ، وأدركتا معانيه . ثم مشت بثبات إلى الباب وخطت إلى الشارع وانتظرته حتى لحق بها ، وكانت يدها راسخة أيضا عندما أخذت الصحيفة التى قدمها إليها كان مكتوبا فيها بحروف واضحة « طيار من المسيسبى » وأعادتها اليه على الفور ، وأخرجت من خصرها منديلا صغيرا رقيقا مسحت به أصابعها برقة

قالت ، « ليس على أن أقرأها ، لا تصل أسماءهم إلى الصحف إلا بطريقة واحدة ، وأنا كنت أعرف أنه فى مكان ما ، لا شأن

له بالذهاب إليه ، حيث يفعل شيئا لم يكن من شأنه أيضا » .

قال دكتور بيبودى ، « نعم » وصحبها إلى العربة ووضع يده المتعثرة عليها ، وهى تصعد إليها .

صاحت فيه ، « لوش ، لا تضع مخالبك على ، أنا لست كسيحة » ولكنه سند مرفقها ، بيده الهائلة الرقيقة ، حتى أخذت مكانها فى العربة ، ثم وقف وقبعته فى يده بينما سوى سيمون الغطاء الصوفى فوق ركبتيها .

قال « خذى » ومد إليها يده بالدولار الفضى . أعادته إلى حقيبتها ، وقفلتها ، ومسحت أصابعها مرة أخرى بالمنديل .

قالت « حسنا . » ثم الحمد لله على أنه آخرهم . لفترة ما على كل حال . سيمون إلى البيت » .

جلس سيمون بجلال ، وقوس ظهره قليلا تحت تأثير المناسبة ، قال « دكتور ، متى ستحضر لرؤية السيد الصغير ؟ » .

أجاب ، « قريبا يا سيمون » وهتف سيمون بالخيل ، ودار بالعربة بحركة استعراضية وقد مالت قبعته ، ومال السوط برشاقة إلى الخلف بين أصابعه . ظل دكتور بيبودى واقفا فى الشارع ، برميلا ضخما بلا شكل واضح فى صورة إنسان يرتدى سترة مترهلة من التيل ، وفى إحدى يديه قبعته ، والصحيفة مطبقة ، وفى اليد الأخرى رسالة صفراء لم ترسل ؛ وظل هكذا حتى غاب عن ناظريه ظهر مس جينى النحيل المعتدل ، وزاوية قبعتها الراسخة التى لا تقهر .

ولكنه لم يكن آخرهم ، ذات صباح بعد أسبوع وجد سيمون فى كوخ أحد الزنوج فى البلدة وقد هشمت رأسه ذات الشعر المفلفل بأداة ثقيلة ، أجاد استعمالها مجهول .

سألت مس جينى فى التليفون ، « فى بيت من ؟ » قال لها الصوت .

فى بيت امرأة تسمى ميلونى هاريس . ميلونى ... ميل .. ومرق أمامها وجه بيل ميتشل ، وتذكرت : الفتاة الخلاسية ذات القبعة الأنيقة والمئزر ، والساقين الأنيقتين اللامعتين ، التى كانت تضفى على حفلات بيل جواً خاصا ، والتى تركت خدمة بيل لتفتتح صالونا للتجميل للسيدات . شكرت مس جينى الصوت ، وأنهت المحادثة .

« العجوز الأشيب الفاسد ، وذهبت إلى مكتب بايارد العجوز وجلست ، « إذن فهذا هو المكان الذى ذهبت إليه أموال الكنيسة ، التى ضاعت هكذا ... » كم تساءلت ... وجلست متصلبة فى مقعدها منتصبة الظهر لا تفل الأحداث من إرادتها ويداها ساكنتان فى حجرها . وفكرت ، حسنا ، هذا هو آخر واحد منهم » ولكن لا ، لم يكن واحدا من آل سارتورس ، كان عنده على الأقل أثر من تعقل ، بينما الآخرون ... » قالت مس جينى ، وهى التى لم تقض يوما فى الفراش منذ كانت فى الأربعين « أظننى سأمرض بعض الوقت » .

وقد فعلت بالضبط ما قالت . ذهبت إلى الفراش ، حيث اضطجعت مستندة إلى الوسائد فى غلالة خفيفة من الدانتلا ، ولم تسمح لأى طبيب أن يعودها ، عدا دكتور بيبودى ، الذى جاء يوما لزيارتها بطريقة غير رسمية ، وجلس فى خجل واستحياء مدة ثلاثين دقيقة ، وهى تصب على رأسه كل الضغينة والغضب المتجدد من فضيحة الدهان .

كانت تعقد فى غرفتها اجتماعات يومية مع إيزوم والنورا ، وفى أكثر الأوقات بعدا عن التوقع كانت تهب من نافذتها كالعاصفة ، بعنف غير مألوم على إيزوم وكازبى وهما فى الفناء تحتها .

كان الطفل والجبل المعمم الوديع الذى يشرف عليه ، يقضيان فى هذه الغرفة معظم ساعات اليوم ، ثم جاءت معهما نارسيسا بعد ذلك ، وكان الثلاثة يقضين الساعات وهن جالسات مستغرقات يتهامسن ، وقد تطهرن جميعا من كل شعور بالأنانية ، بينما كان ذلك الذى يتهامسن عنه ينام

ويهضم ويستيقظ ويدعم نفسه من جديد وينام مرة أخرى .

قالت مس جيني ، « إنه سارتوريس ، مافى ذلك شك . إلا أنه طراز أحسن . ليست فيه نظرة أعينهم الشاذة المتوحشة . الاسم كان هو السبب فيما أعتقد . بايارد . لقد أحسنا عندما سميناه جوني .

قالت نارسيسا ، وهى تلحظ ابنها النائم بصفاء عميق هادىء ؟ « نعم » .

وهناك ظلت مس جيني حتى حان حينها . ثلاثة أسابيع . كانت قد حددت الموعد قبل أن تذهب إلى الفراش . واستمسكت به بعناد ، رافضة حتى النهوض وحضور تعميد الطفل . وقد تم هذا يوم أحد . كان ذلك فى أواخر يونيو ، وقد انسال أريج الياسمين إلى البيت فى موجات منتظمة . وقد أحضرت إليها نارسيسا والمربية ، وهى تضع على رأسها عمامة أشد تزويقا وزخرفة ، الطفل ، بعد أن اغتسل ، وزين وعطر فى حلله الطقوسية ، ثم سمعتهم بعد ذلك وهم يمضون فى العربة ، ثم استعاد البيت سكونه مرة أخرى . اهتزت الستائر بسلام فى النوافذ ، وجاءت إليها كل روائح الصيف حاملة السلام فوق النسائم المشمسة ، والأصوات ... طيور ، ومن مكان ما ناقوس يوم الأحد ، وصوت النورا ، وقد تطهر قليلا بمصابها الأخير ، وإن ظل مع ذلك رخيما ورقيقا . كانت تعد طعام الغداء . كانت تغنى باسى شيئا بلا نهاية ولا كلمات ، وهى تتجول فى المطهى ولكنها توقفت دون أن تتم أغنيتها عندما تطلعت حولها ورأت مس جيني فى ثوب خروجها واقفة بالباب . كانت أكثر نحافة قليلا ، إلا أنها كانت منتصبة القامة كالعادة .

« مس جيني ! ماذا فى العالم ! عليك أن تعودى إلى فراشك . هيا ، دعيني أعاونك على الذهاب إلى غرفتك ، إلا أن مس جيني تقدمت منها بثبات .

سألتها ، « أين إيزوم ؟ » .

« إنه فى الجرن . عليك أن تعودى إلى فراشك . سأخبر مس نارسيسا بما فعلته » .

قالت مس جينى ، « ابتعدى عنى . سئمت البقاء فى البيت . أنا ذاهبة إلى البلدة نادى إيزوم » وظلت النورا تحتج ، ولكن مس جينى ظلت دون انفعال على إصرارها ، وذهبت النورا إلى الباب ونادت إيزوم وعادت ، وهى تردد تحذيراتها المتشائمة المنذرة بالسوء ، وبعد برهة دخل إيزوم .

قالت مس جينى وهى تعطيه المفاتيح ، « خذ .. أخرج السيارة » وانطلق إيزوم ومن ورائه مس جينى متباطئة . وقد أرادت النورا أن تتبعها ، وبها قلق مظلم ، ولكن مس جينى ردتها إلى مطهاها ، وعبرت الفناء وجلست فى السيارة بجوار إيزوم . قالت له ، « وأنت أيها الولد عليك أن تقود هذا الشىء بعناية ، وإلا فسأجلس مكانك وأتولى الأمر بنفسى » .

عند ما وصلا إلى البلدة كانت الأجراس تدق متكاسلة ، من فوق أبراجها النحيلة المصعدة بين الأشجار ، إلى غمائم الصيف الفضفاضة . وعند طرف البلدة أمرت مس جينى إيزوم أن يعرج إلى برج مخصوص ، فمضيا فيه ، وتوقفا بعد برهة أمام بوابات الجبانة الحديدية .

قالت موضحة الغرض من زيارتها ، « أريد أن أرى إن كانوا قد ثووا سيمون كما ينبغى . لن أذهب إلى الكنيسة اليوم . لقد أغلق على ما يكفى من الوقت بين الجدران » وقد فاضت بها انتعاشة رقيقة من مجرد رؤيتها للمشاهد الطبيعية ، وكأنها صبى صغير يلعب خارج أسوار المدرسة .

كانت مدافن الزوج تمتد وراء أرض الجبانة الرئيسية ، وقادها إيزوم إلى قبر سيمون . لقد أخذت جمعية دفن الموتى على عاتقها أمر الاهتمام

بسيمون الذى كان عضوا فيها وبعد مضي ثلاثة أسابيع من دفنه ، كانت التبة تزدحم بباقات الزهور التى تساقطت منها ظهورها تاركة وراءها كتلة عطنة جافة من السيقان ، وهياكل الأسلاك التى أخذت فى الصدأ بسلام : النورا ، أو ثمة شخص آخر . كأن قد سبقها إليه وأحاط القبر بصفوف غير مستقيمة من قطع الفخار المزوق وكسر الزجاج الملون . قالت مس جيني بصوت مرتفع ، « أحسبه يستحق شاهدا من حجر أيضا » ، واستدارت ورأت إيزوم وهو يتسلق جذع شجرة ، كان يدور فيهـــا ويتقافز فى حلقات حادة طائران من السمان ، أنت ، إيزوم » .

« سيدتى » وقفز إيزوم من فوق الشجرة فى الحال ، وهاجمته الطيور بدفعة أخيرة من الصيحات الوقحة الهستيرية . دخلا قسم الموتى البيض ، ومرا بين صفوف من الأشكال الرخامية التى تحمل أسماء كانت تعرفها جيدا ، وتواريخها فى بساطة تامة هادئة فوق الحجر الأصم . ومن حين إلى حين كانت تجتذب انتباههما قوارير رمزية وحمائم ، وتحيط بهما حشائش مشذبة معنى بها ونظيفة تنعكس خضرتها على الرخام الناصـــع البياض والسماء الزرقاء المرقطة وأشجار الشربين السوداء حيث كانت تغنى الحمائم بين أحضانها ، وتستعيد ألحانها بلا نهاية . هنا وهناك كانت تستلقى الزهور اللامعة فى ألوان غير غائضة فى تجمعات عشوائية متناثرة بين الأبيض والأخضر ، ثم شد جون سارتوس ظهره وإشارة يده المتبجحة الفظة من بين حشد من أشجار الشربين التى انحدر بعدها التل بشـــدة نحو الوادى .

وكان قبر بايارد أيضاً كتلة بلا شكل محدد من الأزاهير الذابلة ، وأمرت مس جيني إيزوم أن يجمعها ويحملها بعيدا . كان البناءون يستعدون لإقامة الطوار من حوله وقد استلقى الشاهد الحجرى نفسه بالقرب من القبر تحت غطاء من النسيج الغليظ .

رفعت الغطاء وقرأت الحروف النظيفة الجديدة . بايارد سارتوريس .

١٦ مارس ١٨٩٣ - ١١ يونيو ١٩٢٠ . ذلك كان أفضل . بسيط . لم يكن ثمة رجل من آل سارتورس ليخترع ألفاظاً عجاجة يضمها لوالة ، لا يستطيعون حتى أن يستلقوا أمواتا فى الأرض دون زهو وتبجح . وبجوار القبر كان ثمة شاهد حجرى آخر ، يشبه الأخير فيما عدا ماحفر عليه من كلمات . ولكن اللمسة السارتورية كانت عليه ، رغم أنه لم يكن ثمة قبر يصحبها ، وكأن الشيء كله كصوت متبجح فى كنيسة خاوية . ومع ذلك فقد كان هناك شيء آخر ، وكأن روحه الفطرية المرحة ذلك الذى ضحك ملء شدقيه وسخر من أكثر ترائه من الزهو الأجوف الكئيب المتبجح ، كأن روحه قد استطاعت بشكل ما حتى بعد أن قضى ، ورغم أن عظامه تستلقى فى قبر مجهول وراء البحار ، أن تخفف من غلواء التلويحة المتجهة التى أشاروا بها عليه إشارة الوداع .

ملازم جون سارتورس ، سلاح الطيران الملكى

قتل فى العمليات ، ٥ يوليو ١٩١٨

« أنا حملته على أجنحة نسر وجئت به إلى »

وهمس نسيم ناعم بين أشجار الشربين وكأنه آهة مستطيلة ، تحركت فيه الأغصان بوقار ، وفى الهدوء المخيم بين الأشكال الرخامية المتباعدة شدت الحمائم حنينها المشتعل الذى لا ينتهى . وعاد إيزوم من أجل حمل آخر من الزهور الذابلة وحمله بعيداً .

وكان شاهد بايارد العجوز بسيطا أيضاً ، فقد ولد كما حدث ، فى وقت متأخر جدا ليشترك فى حرب ، وفى وقت مبكر جداً ليشترك فى التالية ، وتذكرت دعابة الأقدار به فقد حرمته من فرص الزهو والمفاخرة ثم أنكرت عليه امتياز الدفن على أيدى رجال ، كانوا سيبتكرون له ألفاظ الزهو العجاجة الباطلة . لقد كادت أشجار الشربين أن تحجب لحدى ابنه جون وزوجته ، كانت أشعة الشمس تصلهما فى ومضات ، فتزركش الحجر

الذى لوحه الطقس بنمنمة متشنجة ، لم يكن من الميسور تمييز الكتابة المدونة إلا بصعوبة . ولكنها كانت تعرف ما عليها ، ماذا وذلك السم الناقع ، الوحى ، المثل الأعلى الذى يفيض من ذلك الذى تسلط عليهم جميعاً والذى بث فى المكان بأجمعه ، حيث ينبغى أن يجد المتعبون من الناس الراحة ، وقارا متحجرفا ، لا شأن له بعالم الأموات ، أكثر مما لأغلفة الكتب من شأن بما فيها من كتابة وقد استقرت تحته أيضا شواهد الزوجات اللاتى جرجروهن إلى مداراتهم المتبجحة . كانت رغم أسماء الأسر الطنانة ، متواضعة وخجولة كشدو طيور السمان تحت تصايح النسور .

كان واقفا على منصة من حجر ، فى سترته الرسمية عارى الرأس ، وقد تقدمت إحدى قدميه قليلا عن الأخرى ، واستقرت يده بخفة على عمود حجرى بجواره . كانت رأسه مرفوعة قليلا بإيماءة الكبرياء المتعالية التى كررت نفسها جيلا بعد جيل ، بإخلاص مشئوم ، كان قد أدار ظهره للعالم ، وتطلع بعينيه المنحوتتين عبر الوادى حيث كان خط السكة الحديدية الذى بناه والتلال الزرقاء التى لا تتغير والمستلقية وراءه ، ومن وراء ذلك ، استحكامات اللانهاية نفسها .

كانت المنصة والتمثال مرقطين بمواسم من المطر والشمس ، وبما يتساقط من فوق أغصان الشربين ، وقد عشيت الحروف المنحوته بقوة بما عليها من عطن ، إلا أنه كان من الممكن تبينها :

كولونيل جون سارتورس ، الولايات الفدرالية الأمريكية

١٨٢٣ ١٨٧٦

جندى سياسى ، مواطن عالمى

من أجل تنوير الإنسان عاش

وبجحود الإنسان مات

تأن هنا يا بن الآلام وتذكر الموت

وقد سببت هذه العبارات المنحوته هياج أسرة القاتل ، ثم تلاه احتجاج

رسمي . وامتثالا للرأى العام ، حقق بايارد العجوز انتقامه : لقد أمر برفع العبارة « بجحود الإنسان مات » ، فأزيلت بطريقة غير كاملة بوساطة الأزميل ، وأضاف تحتها : « سقط على يد رد لو ٤ سبتمبر ، ١٨٧٦ .

وقد ظلت مس جيني واقفة فى تأمل عميق ، جسدا رقيقا منتصبا فى حرير أسود وقبعة صغيرة لا تهادن ولا تنحنى . تخللت الرياح أشجار الشربين فى آهات طويلة وفى رتابة النبض فاضت على الهواء اللامع ترديدات الحمائم المحزونة اليائسة . وعاد إيزوم ليأخذ آخر حمل من الزهور الميتة ، وإذ نظرت عبر مشهد الرخام العريض الممتد ، حيث كانت تنساب ظلال الظهيرة وتتحرك رأت عددا من الأطفال يلعبون بهدوء ووقار محدود وهم فى أناقة يوم الأحد اللامعة بين الموتى الهادئين . حسنا ، كان ذلك هو الأخير منهم ، أخيراً جاء إلى مجمعهم المهيب ، فى ظل الانعكاسات الخابية ، التى تفيض من شهواتهم المتبجحة ، حيث تعود أجسادهم بهدوء إلى تراب ، تحت الرموز الوثنية التى تعبر عن أمجادهم التافهة ، وتلويحاتهم المنحوتة التى حفرت على الحجر الخالد . وتذكرت شيئاً قالته لها نارسيسا مرة ، عن عالم بلا رجال ، وتساءلت ، إن كان فى مثل هذا العالم طرق هادئة ، ومنازل يغطى سقفها السلام ، ولم تكن تعرف .

عاد إيزوم ، وعندما مضيا ، ناداها دكتور بيبودى . كان مرتديا كالعادة سراويله المهلهلة الواسعة ، وسترته اللامعة المصنوعة من التيل ، وقبعته المتهدلة ، وكان ابنه يصحبه .

قالت مس جيني وهى تصافح لوش الصغير ، « حسنا ، ياولد » . كانت عظام وجهه عريضة ومشكلة دون دقة . كانت له قبضة من الشعر الأسود المستقيم الجاف ، وكانت عيناه ثابتتين وبليدتين ، وفمه كبيراً ، وفى مجموعه كان فى وجهه القبيح الرقة والمرح وكل ما يغرى على الثقة به . كان نحيف البنية ، ولم يكن يحفل بملابسه وكانت يداه كبيرتين ونحيلتين كان يجرى بهما عمليات جراحية دقيقة ، بمهارة صياد ، يجتذ سنجاناً ،

وخفة مشعوذ ساحر . كان يعيش فى نيويورك ، حيث كان يعمل مع جراح اسمه معروف فى كل بيت . ومرة كل عام ، وأحياناً مرتين ، كان يركب القطار — ستة وثلاثين ساعة ويقضى عشرين ساعة مع أبيه (كأنا يقضيانها فى التجول بالبلدة ، أو راكبين فى الريف فى عربته المتهالكة اليوم كله ، أو جالسين على الشرفة ، أو أمام النار يتحدثان معاً) ثم يأخذ القطار مرة أخرى ليكون فى عيادته بعد أن قضى اثنتين وتسعين ساعة بعيداً عنها — كان فى الثلاثين من عمره ، الابن الوحيد الذى أنجبته المرأة التى ظل دكتور بيبودى يخطب ودها أربعة عشر عاما قبل أن يستطيع أن يتزوجها . كان غرامه أيام تجواله فى عربة فى الإقليم بأسره ليداوى المرضى ويبتر الأطراف التالفة وكان غالبا يقطع أربعين ميلا ليراها بعد غيبة تصل إلى عام كامل ، ليقطع عليه طريقه ، ويحول إلى فراش امرأة تلد أو ساق مصابة ، فيكتفى بأن يبعث لها برسالة مكتوبة على عجل ، تلطف لها عبء الانتظار عاما آخر .

قالت مس جينى « هأنت قد عدت إلى بلدك مرة أخرى » .

« نعم يا سيدتى . وأجدك رشيقة جذابة كما لعهد بك دائما » .

قال دكتور بيبودى . « جينى سيئة المزاج إلى الدرجة التى لا تمكنها من عمل أى شىء إلا أن تجف تماما وتتبدد وتذروها الرياح » .

أجابت على الفور قائلة ، « ستتذكر أننى لا أسمح لك بأن تقوم برعايتى عندما لا أكون بخير » ثم سألت لوش الصغير ، « أحسبك ستعود فى القطار التالى ، أليس كذلك ؟ » .

« نعم سيدتى ، أخشى أن يكون الأمر كذلك . لم يحن موعد أجازتى بعد » .

« حسنا بهذه الطريقة التى تعيش بها ، » ستقضينها يوما فى بيت العجائز الرجال فى مكان ما . لم لا تأتون جميعا لتناول الغداء ، وليتمكن هو من رؤية الولد أيضا ؟ »

أجاب لوش الصغير . « أتمنى أن أفعل هذا . إلا أنى لا أملك الوقت الذى يمكننى من عمل كل ما أريده ، ولذا فقد قررت ألا أفعل شيئا منها . وبالإضافة ، فإن على أن أقضى أصيل اليوم فى صيد السمك »

وأضاف أبوه ، « نعم ، وتقطيع السمك الجيد بمطواة لرؤية تركيبه الداخلى ، دعينى أحك لك ما فعله صباح اليوم . قبض على ذلك الكلب الذى أطلق إيب عليه الرصاص فى الشتاء الماضى وشق ساقه وفك العروق المتشابكة بسرعة لم تعجز إيب وحده عن إدراك ما ينوى عمله ، بل الكلب أيضا ، الذى لم يدرك الأمر إلا فى وقت متأخر جداً لينبح . كل ما نسيته هو أن تغوص داخله إلى عمق أكبر بحثا عن روحه » .

قال لوش الصغير دون تأثر ، « أنت لا تعلم أنه ليست لديه روح ، قام دكتور ستراود ببعض التجارب فى الكهربية ، وهو يقول إنه يعتقد أن الروح ... » .

قالت مس جينى مقاطعة ، « هراء ، لوش ، الأفضل لك أن تحضر زجاجة من دهان ويل فولز ليحملها إلى طبيبه . حسنا — » ثم ألقت نظرة على الشمس وقالت « الأفضل لى أن أذهب . إن لم يكن فى عزمكما الحضور لتناول الغداء — »

أجاب لوش الصغير « شكراً لك ياسيدتى » .

وقال أبوه ، « أحضرته هنا لأعرض عليه بحوثك . لم نكن نعرف أن السؤال يلح علينا إلى هذا الحد » .

أجابت مس جينى : « حسنا . افعلا » ومضت ، وظلا مكانهما يرقبان ظهرها الأنيق حتى غابت عن أنظارهما وراء أشجار الشربين .

قال لوش الصغير متأملا . والآن قد وجد آخر منهم . ليكبر ويخلق لأهله المتاعب حتى ينجح فى النهاية فى عمل ما يتوقعونه منه أن يعمله . حسنا ، وربما يخفف من غلوائه ويجد من جوحه دم بينبو . إنهم قوم

سالون ، تلك الفتاة ، وهوراس وكأنه . . . ونساء فقط يقمن على تربيته . . . . .

وصر أبوه على أسنانه وقال ، « ولكن به دم سارتوريس أيضا » .

وصلت مس جيني إلى البيت ، وقد بدت مجهدة قليلا ، وعنفتها نارسيسا قليلا ثم أقنعتها آخر الأمر أن تستلقى فى فراشها بعد الغداء . وغفلت عينها بينما مضت ساعات الأصيل . الوسنانة ، وسحبت على الظلال المستطيلة ، وصوت مفاتيح بيانو تلمس برقة فى الطابق السفلى . قالت تحدث نفسها ، وبدهشة تقرب من الفزع ، « نمت ساعات الأصيل كلها » ، إلا أنها ظلت راقدة فى سكون ، والستائر تتماوج برقة على نوافذها ، وعزف البيانو يصعد إليها مختلطا بأريج الياسمين القادم من الحديقة ، ويشدو العصافير وثرثرتها ساعة الأصيل فوق شجرة التوت فى الفناء الخلفى . ثم نهضت وعبرت البهو ودخلت حجرة نارسيسا ، حيث كان الطفل نائما فى مهده ، وقد غفت المربية بجواره فى اطمئنان ، وخرجت مس جينى على أطراف أصابعها ونزلت الدرج ودخلت الردهة وسحبت مقعدها من وراء البيانو . وتوقفت نارسيسا عن العزف .

سألتها ، « هل ارتحت بالنوم ؟ ما كان ينبغى عليك أن تفعلى ما فعلت صباح اليوم . »

قالت مس جينى ، « هراء إنه يعود على بالفائدة دائما ، أن أرى كل هؤلاء الحمقى من الرجال وهم مضطجعون هناك ، بشماراتهم الرخامية وأشيائهم الأخرى . شكراً لله ، لن يستطيع أحدهم أن يمسنى بسوء » . أنا أحسب الله يعرف جيداً ما يصنع ، إلا أننى أعلن ، أحيانا . . . اعزفى شيئا » . . .

أطاعتها نارسيسا ، ولمست المفاتيح برقة ، وظلت مس جينى مكانها برهة وهى تنصت ، وتتلصص المساء إلى المكان ببطء ، ورويداً رويداً أصبحت الظلال فى الغرفة أكثر وضوحا وفى الخارج كانت العصافير تثرثر وهى تطير فى

سحابات حادة وأتتهم رائحة الياسمين من الحديقة بانتظام التنفس ونشطت مس جيني وبدأت فى الحديث عن الطفل . ومضت نارسيسا تعزف بهدوء وقد أضاء ثوبها الأبيض وطوقه الأسود فى العتمة بشحوب ، فى لمعان الشمع المكتوم . وانسال الياسمين وانسال ، وقد صمتت العصافير وظلت مس جيني تتكلم فى ساعة الغسق عن جونى الصغير بينما ظلت نارسيسا أيضا تعزف شاردة مستغرقة ، وكأنها لم تكن تنصت . ثم . ودون أن تتوقف أو تدير رأسها ، قالت .

« ليس اسمه جون « إنه بينبو سارتورس » .

« ماذا ؟ »

قالت مرة أخرى ، « اسمه بينبو سارتورس » .

وظلت مس جيني صامته برهة . كانت النورا تتجول فى الغرفة الملاصقة إذ كانت تعد المائدة للعشاء ، سألتها مس جيني ، « وهل تتوقعين من هذا ثمة خير ؟ هل تظنين أن فى استطاعتك أن تغيرى واحــــدا منهم بتغيير الاسم ؟ » .

وفاضت الموسيقى بنعومة فى العتمة ، وكانت العتمة مأهولة بأشباح أشياء قديمة مجيدة وفاجعة وفاتنة . وعندما تكون أبهتها جبارة بما فيه الكفاية فمن الأكيد أن يكون فيها أحد آل سارتورس وحينئذ لا يكون هناك مناص من الفاجعة . قطع على رقعة شطرنج . ولكن اللاعب ، واللعبة التى يلعبها . . . . يجب عليه أن يطلق ثمة أسماء على قطعه التى يلعب بها .

ولكن سارتورس ، ربما يكون هو نفسه اللعبة — لعبة راح زمنها ، وتلعب بقطع من حجر شكلت فى وقت متأخر جداً وحسب طراز عفى عليه الزمن ومات . طراز سئمه إلى حد ما اللاعب نفسه . لأن الموت يكمن فى صوت الاسم نفسه . وفيه شؤم أيضاً محتوم ذو أبهة كبيارق من فطنة تندفع مبتعدة فى ساعة الغروب ، أو كأصوات أبواق تفيض على امتداد الطريق إلى رونسيفو .

قالت مس جيني مرة أخرى ، « هل تعتقدين ، لأن اسمه بينبو ، أنه سيكون أقل خسة وحماقة وسارتورسية من أى واحد منهم ؟ »

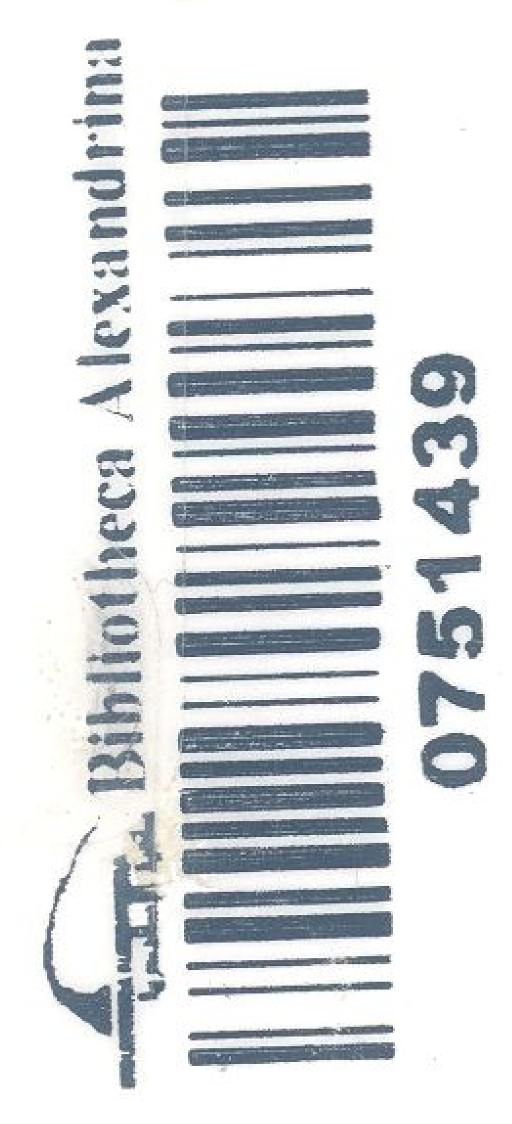
وظلت نارسيسا تعزف ، وكأنها لم تكن تنصت ، ثم أدارت رأسها ، ودون أن تتوقف عن العزف ، ابتسمت كالحالمة برقة لمس جيني وفى ابتسامتها صفاء واستغراق وهيام ، ومن وراء رأس مس جيني الأنيقة التى فقدت دقة معالمها فى العتمة ، استقرت الستائر الأرجوانية الداكنة فى أماكنها فى سكون ، من وراء النافذة كان المساء حلما بنفسجيا بلا رياح ، أما تحتضن بين ذراعيها الهدوء والسلام .

الإشراف اللغوى : حسام عبد العزيز
الإشراف الفنـــى : حســن كامـــل





سارتورس هى أولى سلسلة من الروايات يصف فيها فوكنر اضمحلال أسرتى كومبسون وسارتورس ممثلى الجنوب القديم، وعلو نجم أسرة سنوبس الفجة التى لا تلقى كبير بال لمتطلبات الضمير. والمهاد الأساسى لهذه الروايات هو "جفرسن" صورة مركبة لعدة بلدان فى إقليم المسيسبى فى مقاطعة يوكنا باتاوفا التى ابتدعها خيال المؤلف. وتدهور أسرة كمبسون يتمثل فى إدمان الخمر ورفض العمل والحياة، والتعلق بماض أسطورى، والانغماس فى خطابة جوفاء.


Bibliotheca Alexandrina
0751439

تصميم الغلاف: أسامة العبد